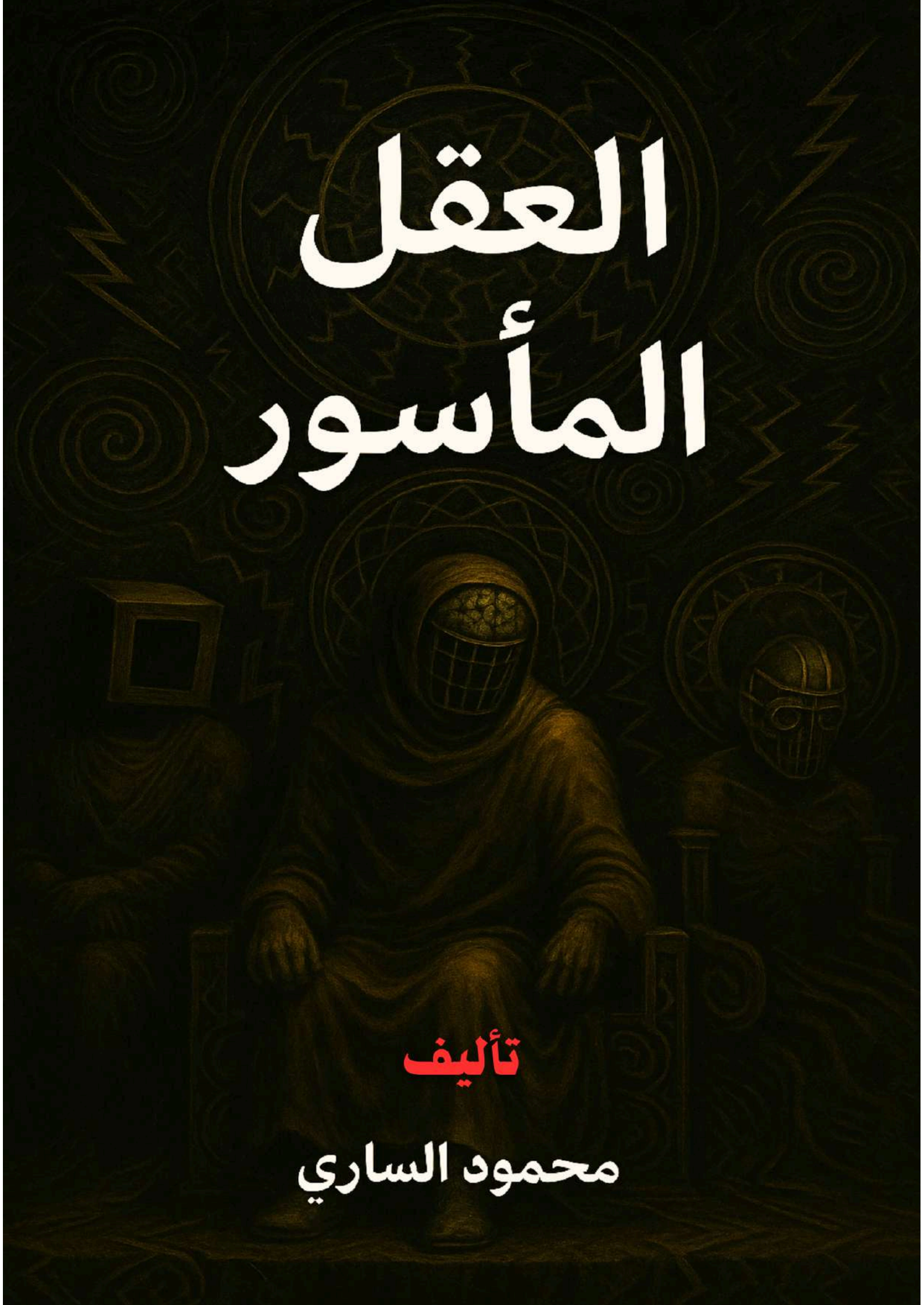

العقل المأسور

تأليف

محمود الساري

تأليف: محمود الساري

2025/مايو

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف © محمود الساري

فهرس المحتويات

مقدمة 7

الفصل الأول: تشكّل الفهم وحدود الإدراك 11

الفصل الثاني: الوعي المُستعار 23

الفصل الثالث: الشك المنهجي 40

الفصل الرابع: مأزق الإدراك 63

الفصل الخامس: عقل يُمزّق ذاته 86

الفصل السادس: عذاب الوعي 107

الفصل السابع: أصل المعاناة العقلية 126

الفصل الثامن: العقل المستأجر 160

الخاتمة 188

مقدمة الكتاب

هذهِ الصَّفَحاتُ، أيُّها القارِئُ، ليستْ إلا نِتاجَ تَفكيرٍ طَويلٍ، وثَمرةَ تَجميعٍ كَثيفٍ لِأفكارٍ تَراكَمَتْ على العقل كَالحِمْلِ الثَّقيلِ، وَشَظايا أسئلةٍ التَمَعَتْ في لَيلِ العمر الطَّويلِ. حاوَلتُ، بِجُهدِ المُقِلّ، أنْ أنقُلَها بِأمانةٍ، وأنْ أصوغَ ما اعتَمَلَ في الذِّهنِ بِفَصاحَةٍ وبَيانَةٍ، لكِنْ، رُبَّما لَمْ تُسعِفْني الكلماتُ دَوْمًا، فَاللُّغةُ، كَما سَنَرى، قَدْ تَكونُ قَيدًا يُعيقُ الفَهْمَا، لا جِسرًا يُوصِلُ العِلْمَا. فَلَرُبّما كانَتْ هذهِ السُّطورُ ظِلالاً لِمَا هوَ أعمَقُ، وصَدًى لِصَوتٍ في الصَّدرِ أخْنَقُ، بقِيَ حَبيسًا لا يَنطَلِقُ. هيَ مُحاوَلةٌ شَخصيّةٌ مُتواضِعةٌ، لِوَضعِ بَعضِ الأفكارِ والأسئلةِ المُتَصارِعةِ، أفكارٍ عنِ العقلِ الأسيرِ، وعنِ الوَعي في قَيدِهِ الخَطيرِ، وعنْ تِلكَ الأغلالِ التي نَشعُرُ بِها في الضَّميرِ، دونَ أنْ نَعرِفَ لَها أصلاً أوْ نَجِدَ لِكَسرِها سَبيلاً أوْ مُجيرًا.

ولْيَكُنْ واضِحًا كَالشَّمسِ في الضُّحى، لِئلا يُساءَ الفَهمُ أوْ يُحَمَّلَ النَّصُّ ما ليسَ فيهِ ويُخْفى: لا أدَّعي أنَّ هذا الكِتابَ يُقَدِّمُ إجاباتٍ نِهائيّةً شافِيةً، ولا أزعُمُ أنّهُ يَطرَحُ نَظَريّةً فَلسفيّةً مُكتَمِلَةَ البُنيانِ وافِيةً، أوْ تَحليلًا نَفسيًّا شامِلاً مُعْتَمَدًا يُغْني العِرفانَ، أوْ كَشفًا جَديدًا مُذهِلاً لِحَقيقةٍ كانَتْ غائبةً عنِ الأذهانِ. هوَ أبعدُ ما يَكونُ عنْ هذا الطُّموحِ، وعنْ كُلِّ ادِّعاءٍ صَريحٍ. فَطَبيعَةُ الأفكارِ المَطروحَةِ هُنا هيَ أقربُ إلى التَّساؤُلِ القَلِقِ مِنَ التَّقريرِ الواثِقِ، وإلى الاستكشافِ الحائِرِ مِنَ التَّأسيسِ الصّادِقِ. قدْ تَجِدُ فيها تَناقُضاتٍ تُربِكُ الفِكرَ، أوْ تَردُّدًا يُظهِرُ الحَيرَةَ والعُسْرَ، وهذا في حَدِّ ذاتِهِ قَدْ يَعكِسُ طَبيعَةَ العقلِ البَشريِّ المُتَقَلِّبَةَ، المُتَرَدِّدَةَ والمُتَناقِضَةَ التي أُحاوِلُ بِجُهدٍ استكشافَها والنَّظَرَ. كَما أنَّ هذا العَمَلَ ليسَ دَعوةً، لا صَريحةً ولا مُبَطَّنَةً، إلى عَدميّةٍ تُهلِكُ، أوْ يَأسٍ مُطلَقٍ يُربِكُ، وإنْ بَدَتْ بَعضُ الصَّفحاتِ قاتِمَةَ اللَّونِ، فَهيَ قَتامَةُ التَّشخيصِ لا التقرير. ولا يَهدِفُ بِأيِّ حالٍ إلى التَّرويجِ لِلإلحادِ أوْ لِأيِّ مَوقِفٍ عَقائديٍّ مُحَدَّدٍ يُعانَدُ، بقدْرِ ما يُحاوِلُ فَهمَ الآلِيّاتِ النَّفسيّةِ والاجتِماعيّةِ التي قَدْ تَقِفُ وَراءَ الإيمانِ أوِ

الكُفرانِ، وَوَراءَ تَشَبُّثِنا بِاليَقينِ كَحِصنٍ، أوْ خَوفِنا منَ الشَّكِّ كَمِحَنٍ. إنّهُ مُحاوَلةٌ لِفَهمِ كَيفَ نُفكّرُ ونُعاني، ولِماذا نُقيَّدُ في هذا الزَّمانِ الفاني، أكثَرَ مِنْ كَوْنِهِ مُحاوَلةً لِإخبارِ القارِئِ بِماذا يَجِبُ أنْ يُفَكّرَ أوْ يُؤمِنَ بِلا تَواني. هوَ أقرَبُ إلى رِحلَةٍ استكشافيّةٍ شَخصيّةٍ في مَناطِقَ وُجوديّةٍ وَعْرةٍ، قَدْ تَبدو مَألوفةً لِلْبَعضِ في الفِكْرَةِ، وغَريبةً ومُربِكةً لِلْبَعضِ الآخَرِ في النَّظْرَةِ. هيَ مُجرَّدُ كَلِماتٍ خَطَّها عَقلٌ بَشريٌّ قَلِقٌ، كما هيَ طَبيعَةُ كُلِّ عَقلٍ يَقْلَقُ، أوْ رُبّما، في لَحَظاتِ الصِّدقِ النّادِرةِ، عَقلٌ يَبحَثُ فَقطْ عنْ طَريقةٍ لِلتَّعبيرِ عنْ حيرَتِهِ وقَلَقِهِ ووحدَتِهِ القاهِرةِ، أمامَ تَعقيداتِ الوُجودِ الغامِضةِ، مُحاوِلاً أنْ يَضَعَ لَبِنةً مُتواضِعةً، أنْ يُضيفَ شَيئًا، وَلوْ كانَ هَمسةً خافِتةً، إلى ذلكَ الحِوارِ الفِكريِّ العَظيمِ الذي أثراهُ كُتّابٌ ومُفَكّرونَ عالميّونَ، تَناولوا هذهِ الأسئلةَ الشّائِكةَ المُقْلِقَةَ، كُلٌّ مِنْ زاويَتِهِ الخاصّةِ وبِأدواتِهِ المُختَلِفةِ.

ما سَتَجِدُهُ هُنا، إذنْ، هوَ مَجموعةٌ منَ التَّأمُّلاتِ العَميقةِ، والانطباعاتِ المُتَناثِرةِ أحيانًا والوَثيقةِ، والأسئلةِ التي ألَحَّتْ عَلَيَّ ولَمْ أجِدْ لَها إجابةً مُرضِيةً أوْ طَريقةً. هيَ مُحاوَلةٌ لِرَبطِ بَعضِ الخُيوطِ المُتَشابِكةِ بينَ ما نَقرأُهُ في كُتُبِ الفَلسفةِ والتّاريخِ وعِلمِ النَّفسِ والاجتِماعِ، وبينَ ما نَعيشُهُ ونَختَبِرُهُ في تَجارِبِنا اليَوميّةِ الصَّغيرةِ والكَبيرةِ الشّاهِقةِ. هيَ دَعوةٌ مَفتوحةٌ، لَكَ أيُّها القارِئُ ولي، لِلنَّظَرِ منْ زاوِيةٍ مُختلِفةٍ قليلاً، رُبّما أقَلَّ راحَةً وأكثَرَ قَلقًا، إلى الأفكارِ التي نَعتَبِرُها بَديهيّةً لا تُناقَشُ، والقِيَمِ التي نَعتَنِقُها كَأنّها مُقدَّسةٌ لا تُمَحَشُ، والطُّرُقِ التي نُفَكّرُ بِها ونَحكُمُ على العالَمِ كَأنّنا نَملِكُ الحَقيقةَ المُطلَقةَ التي لا تُخْدَشُ.

قَدْ لا تَفهَمُ تَمامًا كُلَّ ما كُتِبَ هُنا، فَبَعضُ الأفكارِ قَدْ تَكونُ مُكَثَّفةً أوْ مُجرَّدةً أوْ غَيرَ مُرَتَّبةٍ، وقَدْ لا تَتَّفِقُ مَعَ الكَثيرِ مِنهُ، وهذا أمْرٌ طَبيعيٌّ ومُتَوقَّعٌ، بَلْ رُبّما يَكونُ صِحّيًّا لِلعقلِ أنْ يَتَمَرَّدَ. ورُبّما تَتَساءَلُ عَنِ الهَدَفِ العَمَليِّ مِنْ وَراءِ هذهِ السُّطورِ، أوْ عَنِ المَغزى مِنْ طَرحِ هذهِ الأفكارِ التي قَدْ تَبدو نَظَريّةً بَحتَةً، أوْ حتّى هَدّامَةً لِكُلِّ مَألوفٍ ومُعْتَبَرٍ. والحَقيقةُ هيَ أنّني لا أملِكُ إجابةً واضِحةً ومُحَدَّدةً عَنْ هَدَفِ الكِتابِ، سِوى أنّهُ تَعبيرٌ صادِقٌ، قَدْرَ المُستَطاعِ، عَنْ رِحلَةٍ فِكريّةٍ شَخصيّةٍ، عَنْ صِراعٍ داخِليٍّ مُضنٍ،

بِكُلِّ ما فيهِ مِنْ شُكوكٍ وتَناقُضاتٍ ومُحاوَلاتٍ مُستميتةٍ لِلفَهمِ، أكثَرَ مِنْ كَوْنِهِ بِناءً نَظَريًّا مُحكَمًا يُقَدِّمُ حُلولاً عَمَليّةً أوْ دَعوةً لِمَوقِفٍ مُحَدَّدٍ يُتَّبَعُ ويُحْتَرَمُ.

ولكِنْ... في نِهايةِ المَطافِ، إذا وَجَدتَ بينَ هذهِ الكَلماتِ المُتَرَدِّدةِ، وتِلكَ التَّأمُّلاتِ القَلِقةِ، صَدًى لِأفكارٍ راوَدَتْكَ في لَحَظاتِ الوَحدةِ أوِ الحَيرَةِ الشَّديدةِ، أوْ أسئلةٍ أرَّقَتْ لَياليكَ ولَمْ تَجِدْ لَها جَوابًا في الكُتُبِ العَتيدَةِ، أوْ شُعورٍ بِالعُزلةِ الفِكريّةِ أثقَلَ كاهِلَكَ وجَعَلَكَ تَشعُرُ بِأنّكَ غَريبٌ في عالَمِ الأفكارِ المَقولَبةِ البَليدَةِ، فَقَدْ يَكونُ هذا الكِتابُ بِمثابةِ رَفيقٍ مُؤقَّتٍ في رِحلَتِكَ الخاصّةِ الفَريدةِ، أوْ مِرآةٍ مُشَوَّشَةٍ قَدْ تَرى فيها جُزءًا منْ ذاتِكَ البَعيدةِ. هوَ مُجَرَّدُ مُحاوَلةٍ لِلتَّفكيرِ بِصَوتٍ عالٍ، ومُشارَكةٍ لِبَعضِ الهَواجِسِ والتَّساؤُلاتِ، لَعَلَّ في هذا الصَّوتِ، رُغمَ كُلِّ شَيءٍ، ما يُشعِلُ فِكرةً خامِدةً، أوْ يُثيرُ سُؤالاً أهَمَّ لَمْ يَكُنْ في الوَريدِ، أوْ بِبَساطةٍ، يُشعِرُكَ بِأنّكَ لستَ وَحدَكَ تَمامًا في هذهِ المَتاهَةِ العَظيمَةِ والمُؤلِمةِ التي نُسَمّيها الوَعي الإنسانيَّ، في هذا الوُجودِ الشَّديدِ.

هذا، إذنْ، هوَ ما تَحمِلُهُ هذهِ الصَّفَحاتُ بينَ دَفَّتَيْها، مُجَرَّدُ وَمَضاتٍ مِنْ عَقلٍ حائِرٍ، وحِبْرٍ على وَرَقٍ، لا يَدَّعي عِصمةً ولا يَطلُبُ صَفْقًا. فَإنْ أرَدْتَ الغَوْصَ، فَكُنْ مُستَعِدًّا لِلسُّؤالِ لا لِليَقينِ، ولِلرِّحلةِ لا لِلوُصولِ، ولِقَلَقِ البَحْرِ لا لِسَكينَةِ الشّاطِئِ الأمينِ.

الفصل الأول

تشكُّل الفهم وحدود الإدراك

لَا يَسْتَهِلُّ الْمَرْءُ، حِينَ يَرُومُ الْوُجُودَ بِعَقْلٍ مَكْلُومٍ، رِحلَةَ الفَهمِ مِنْ فَراغٍ عَدَمِيٍّ أَوْ صَفحةٍ بَيضاءَ نَقيّةٍ، بَلْ يَنْطَلِقُ مُقيَّدًا، مِنْ جَوفِ قَفَصٍ مَعرفِيٍّ مَوروثٍ، نُسِجَتْ قُضبانُهُ الصَّدِئَةُ مِنْ إرثِ الأسلافِ، وشُيِّدَتْ جُدرانُهُ مِنْ حِجارَةِ الثَّقافةِ والأعرافِ. فآلَةُ الإدراكِ البَشريِّ هذه، تَصوغُها الأهواءُ والمَقاصِدُ والأطيافُ. لا نَرى العالَمَ كما هوَ في جَوهَرِه، بَلْ كَما تَسمَحُ حَواسُّنا القاصِرةُ، وتَحُدُّ لُغاتُنا الآسِرةُ، وتُملي تَجارِبُنا الغابِرةُ، وتُحيطُ بِنا أنساقُنا القاهِرةُ. نَرْتَهِنُ لِوهْمِ الاقتدارِ، ونَتَمَرَّغُ في وَحْلِ تَأويلاتٍ لا تَثْبُتُ على قَرارٍ. نَظَلُّ مَحكومينَ بِحواسٍّ كَليلَةٍ، عَاجِزةٍ عَنِ اختراقِ حُجُبِ الغَيبِ الذَّليلَةِ، ومُغَلَّلينَ بِخُرافاتٍ مَوروثةٍ جَليلةٍ، نُسَمّيها "حِكمةً" وهيَ أَصْلُ كُلِّ عُقولٍ عَليلةٍ. فَما نُلامِسُ إلا الأشباحَ، ولا نَطَأُ إلا الرِّمَاحَ، نُداعِبُ ظِلالَ الحَقائِقِ في مِرآةِ العقلِ المُهَشَّمةِ الألواحِ، لا يَنعَكِسُ على سَطْحِها إلا سَرابُ أوهامِنا في المَساءِ والصَّباحِ، وأباطيلُنا المُتَجَمِّلةُ بِيَقينٍ مُزوَّرٍ يُخفي الجَهلَ الفَضّاحَ، ويُسكِتُ، إلى حينٍ، صَرخةَ الكِيانِ المَذبُوحِ في لُجَجِ الأرواحِ.

فَيُخامِرُنا الوَهمُ الخادِعُ أنّا في حِيادِ الواقِعِ نَحيا ونَنعَمُ، ومَا نَحنُ إلا أَسَارى لِمُرَشِّحاتٍ إدراكيّةٍ تَحجُبُ وتُبهِمُ. تُعيدُ تَشكِيلَ الكَونِ في أذهانِنا مَسخًا مُعتِمًا، تَستُرُ منَ الحَقائِقِ مَا لا يُحصى ولا يُعلَمُ، وتُقيمُ لَنا مِنَ الوَهمِ دُنيًا لا تُفهَمُ. وهذهِ العِلّةُ المَعرفيّةُ، ليستْ قُصورًا في حَدِّ المَنظورِ، بَلْ هيَ جُرحٌ في قَلبِ اليَقينِ يَفورُ. فَكُلُّ ما نَدَّعي عِلمَهُ نِسبيٌّ مَحصورٌ، لِأَنَّ العقلَ البَشريَّ، بِحَواسِّهِ الواهنةِ وآلاتِهِ المَبتورةِ، لا يَلتَقِطُ منْ فَيضِ الوُجودِ إلا نَزرًا مَيسورًا، أَوْ رَذاذًا مَنثورًا. ثُمَّ يَهرَعُ لِيَملأَ الثُّغراتِ الهائِلةَ، بِنَسجِ استنتاجاتٍ زائِلةٍ، يُسقِطُ فيها أنماطًا مَألوفةً، ويَخلُقُ نِظامًا منْ فَوضى مَعروفةً، يُسَمّيهِ "النِّظامَ الكَونيَّ" وهْوَ رُؤيةٌ مَخطوفةٌ، ليسَ إلا تَرتيبًا مُحتَمَلاً لِإمكاناتٍ لا تَنتَهي، في رِحَابِ وُجودٍ مُبهَمٍ لا يَنجلي. وَيَتَجَلّى، لِمَنْ أَمْعَنَ النَّظَرَ وتَدَبَّرَ، أَنَّ حَقيقةَ الكَونِ الغائِرَةَ، ليستْ كَما تَبدو لِأنظارِنا الحائِرَةِ. فَبُنيَتُهُ العَميقةُ وقَوانينُهُ الباطِنةُ، تَجري وَفقَ نَواميسَ لَنا مُباينةٌ، لا يَستطيعُ مَنطِقُنا القاصِرُ سَبرَ أغوارِها، ولا حِسُّنا السّاذِجُ فَكَّ أسرارِها. ورَغمَ هذا العَجزِ المُبينِ، يَتَمَسَّكُ الإنسانُ بِوَهمِ الفَهمِ اليَقينِ، وبِأَنَّ عَقلَهُ مِفتاحُ

السِّرِّ الدَّفينِ. فَيُواصِلُ جُهدَهُ المُضني المَشينَ، لِيُحَوِّلَ الحَياةَ، بِتَعقيدِها ولِينِها، إلى حُزمةِ مَفاهيمَ تُحَدِّدُ زَينَها وشَينَها. بَينما يَظَلُّ جَوهَرُها المُراوِغُ، بَعيدَ المَنالِ والأمَلِ البازِغِ، يَفلِتُ منْ قَبضَتِهِ بِلا رَأفةٍ، ويَتْرُكُهُ في حَيرَتِهِ بِلا رأيٍ أوْ صِفَةٍ.

وحينَ نُجَرِّدُ الوُجودَ منْ أقنِعَةِ الزُّورِ، ونُواجِهُهُ في عُريِهِ المُنكَرِ المَهجورِ، نَكتَشِفُ قُصورَ الفَهمِ والعُبورِ، وأنَّ ما نَزعُمُهُ ليسَ إلا زاوِيةً في مُحيطِ الحَقائِقِ البُحورِ. زاوِيةً تَتَوهَّمُها الكونُ المَنظورُ، وهيَ طَيفٌ ضَبابيٌّ لِحَقيقةٍ لا يَبلُغُها مَغرورٌ. إنَّ كُلَّ ما تَبصُرُهُ العُيونُ، وكُلَّ ما تَلمِسُهُ البُطونُ، وكُلَّ ما تَلتَقِطُهُ الأُذونُ، ليسَ سِوى صُوَرٍ مُفلَترةٍ تَخونُ، مُشَوَّهَةٍ بِسُلطانِ مُحَدِّداتٍ تُصونُ، مَوروثةٍ، مُتأَصِّلةٍ، تُحيطُ بِنا كَالحُصونِ. ومِنْ هُنا، يَرْتَهِنُ الفَهمُ البَشريُّ كُرْهًا، لِما تَسمَحُ بِهِ الأداةُ الناقِصةُ جَهْرًا، لا لِما هوَ كائِنٌ في ذاتِهِ طُهْرًا. فنحنُ كَرَسامٍ أعْمى يُريدُ رَسْمَ الضُّحى، أوْ كَأصَمَّ يُحاوِلُ تَلحينَ صَمتِ الدُّجى، نُجهِدُ أنفُسَنا لِنَخطَّ صُورةَ عالَمٍ بَهِيٍّ، لا نَملِكُ لَهُ حِسًّا قَويًّا، ولا عَقلًا يُدرِكُ سِرَّهُ النَّديَّ.

ومِنْ أشَدِّ مُفارَقاتِ هذا الأسْرِ الإدراكيِّ إيلامًا وأَلَمًا، وأكثَرِها كَشفًا لِعَجزِنا المُرِّ وهَوانِنا المَحتومِ حُكمًا، أنَّ هذا القَيدَ الذي يُكَبِّلُ فَهْمَنا ليسَ زَلّةً عابِرةً نَتَجاوَزُها، أوْ خَطأً طارِئًا نُعالِجُهُ ونُناجِزُها، بلْ هوَ لُحمةُ وجودِنا وسَداهُ، مُتَجذِّرٌ في نَسيجِ تَكوينِنا البيولوجيِّ ومَداهُ، وشِفرةٌ غامِضةٌ مَحفورةٌ في صَميمِ آلَتِنا العَقليّةِ ومُنتهاهُ، تِلكَ الآلةُ التي وَرِثناها عنْ أسلافٍ لَمْ يَعرِفوا السُّؤالَ ولا نَداهُ. فالعقلُ البَشريُّ، في أصْلِ نَشأتِهِ، أداةٍ تَطَوَّرَتْ عَبرَ دُهورٍ سَحيقةٍ، في خِضَمِّ صِراعٍ أعمى لا يَرحَمُ، وضِمنَ سِياقاتٍ قاسِيةٍ لَمْ يَختَرْها ولَمْ يَتَحَكَّمْ، لا لِتُطارِدَ حَقيقةً كُبرى قَدْ تَسحَقُهُ وتُحَطِّمُ، بلْ لِتَلتَمِسَ سُبُلاً لِلبَقاءِ الأنانيِّ، ولِتَنسِجَ خُيوطًا واهيةً منَ التَّماسُكِ الفاني، تَحمي بِها الذّاتَ الهَشّةَ منْ عَواصِفِ الفَناءِ وتَقَلُّبِ الزَّمانِ. لِذلِكَ، تَبدو المَعرِفةُ الإنسانيّةُ، في كُلِّ تَجَلّياتِها وتَفَرُّعاتِها، رِحلةً شاقّةً، مُرهِقةً، تُشبِهُ تَسَلُّقَ جَبَلٍ شاهِقٍ لا قِمّةَ لهُ يُرتَقى إليها، ولا قَرارَ يُستَريحُ فيهِ مَنْ أتَى إليها؛ فَكُلّما تَوَهَّمْنا أنَّنا نَقتَرِبُ منْ ذُروةِ الفَهمِ المَنشودِ، اتَّسَعَتِ الهُوّةُ تَحتَ أقدامِنا كَفَخٍّ مَنصوبٍ، وابتَعَدَتْ شَمسُ الحَقيقةِ عنْ دُروبِنا كَسَرابٍ كَذوبٍ، يُغري العِطاشَ في صَحراءِ الإدراكِ ثُمَّ يَترُكُهُمْ في غَمٍّ وكُروبٍ. هذا التَّداخُلُ المُلتَبِسُ، هذا العِناقُ المَأساويُّ المُبينُ، بينَ وَعيِنا القاصِرِ وواقِعٍ مُتَمَنِّعٍ أمينٍ، هوَ ما يَنسِجُ بِدِقّةٍ خُيوطَ ما نَدعوهُ "الأوهامَ الكُبرى"؛ تِلكَ السَّرْدِيّاتُ العُظمى التي تَسودُ، والنُّظُمُ التَّفسيريّةُ التي تَجودُ، يَشيدُها العقلُ لِيُخفيَ بِها عُريَ جَهلِهِ

ويُسْكِنَ رُعبَ فَراغِهِ ويَقودُ. فَكُلُّ مُحاوَلةٍ لِفَكِّ طَلاسِمِ هذا الكَونِ المُحيِّرِ، وكُلُّ تَأويلٍ نُسقِطُهُ على مَسرَحِ الحَياةِ المُثيرِ، ليسَ في جَوهَرِهِ إلا إسقاطًا لِأدواتِنا العَقليّةِ الضَّيِّقةِ، لِقُدراتِنا الهَزيلةِ الحَقيرةِ، تِلكَ الشِّباكُ المُهتَرِئةُ التي نُحاوِلُ بِها أنْ نَصطادَ حُوتَ الواقِعِ الهائِلَ، الحُوتَ الذي يَفوقُ قُدرَتَنا على الإحاطَةِ ويُبْطِلُ كُلَّ حِيلةٍ. نَحنُ نَظُنُّ أنَّنا نَرى العالَمَ في يَقَظَتِنا المُستَنيرةِ، ولكِنّنا، يا لَلأسَفِ، نَراهُ أبَدًا عَبرَ زُجاجِ إدراكِنا المُشَوَّهِ، عَبرَ مِرآتِنا المُلَطَّخةِ بِبَصماتِ الوِراثةِ وغُبارِ الثَّقافةِ المُجَهَّزةِ. ليسَ فَقَطْ لِقُصورِ حَواسِّنا التي لا تَرى إلا أطيافًا باهِتةً، ولا تَسمَعُ إلا أصداءً شاحِبةً، بلْ أيْضًا لِآليّاتِ تَفكيرِنا الكَسولَةِ العاجِزةِ، تِلكَ التي لا تُتقِنُ إلا فَنَّ التَّبسيطِ المُخِلِّ لِما هوَ مُعقَّدٌ حَدَّ الإعجازِ، وفَنَّ الاختِزالِ المُجْحِفِ لِما هوَ لانِهائِيُّ الأبعادِ والإنجازِ. فَحِينَ يَتَرَدَّدُ على مَسامِعِنا لَفظُ "الحَقيقةِ" الرَّنّانُ، لا نَسمَعُ صَوتًا كَونيًّا أصيلاً، بلْ ضَجيجَ بِناءٍ مَعرِفيٍّ بَشَريٍّ وَهينٍ، هَشٍّ ومُؤقَّتٍ، يَتَأرجَحُ بِاستِمرارٍ كَبَندولِ ساعَةٍ عَليلٍ، بينَ ما تَفرِضُهُ علينا أعرافُ ثقافَتِنا وتَقاليدُ قَطيعِنا، وبينَ تِلكَ الحَقائِقِ الأعمَقِ، الأشَدِّ غُموضًا، المُستَتِرةِ خَلفَ ضَبابِ الحَواسِّ وعَتْمَةِ العقلِ، التي لا نُدرِكُ مِنْها إلا ظِلالاً مُشَوَّهةً وأصداءً خافِتةً كَأنّها مِنْ قَبرٍ.

وَرَغمَ إدراكِهِ، وَلَوْ كانَ خافِتًا كَنَجمٍ بَعيدٍ، لِهذهِ الأغلالِ التي تُكَبِّلُهُ والأصفادِ التي تُغلِّلُهُ، ولِهذا الزُّجاجِ المُشَوَّهِ الذي يَحجُبُهُ ويُضِلِّلُهُ، فَإنَّ كائِنَ القَلَقِ هذا، الإنسانَ المُعَذَّبَ بِوُجودِهِ، لا يَكُفُّ عنِ السَّعيِ المُستمِرِّ، ولا يَتَوقَّفُ عنِ الحَركَةِ في عَبَثٍ مُحيِّرٍ، يَبدُو أحيانًا بُطوليًّا نَبيلاً، وأحيانًا أُخرى مُجَرَّدَ رَقصَةٍ يائِسةٍ حَزينةٍ في وَجهِ الفَراغِ المُخيفِ المَهولِ. يُواصِلُ مُحاوَلاتِهِ المُتَكَرِّرةَ، بِعِنادٍ وإصرارٍ، كَصَيّادٍ مُغرَمٍ يُلاحِقُ طَريدةً مُراوِغةً، لا يَرى مِنْها إلا ظِلاًّ هارِبًا، لِلْقَبْضِ على جَوْهَرِ هذا الواقِعِ المُتَمَنِّعِ، لِلإمساكِ بِخَيطِ الحَقيقةِ المُستَعصيةِ المُتَرَفِّعَةِ، مُتَجاهِلاً في غَمرةِ انْدِفاعِهِ المَحمومِ، أوْ رُبّما مُتَناسِيًا بِعَمْدٍ لِيُريحَ ضَميرَهُ، تِلكَ القُيودَ الصَّدِئةَ الثَّقيلةَ التي تَفرِضُها عليهِ بِنْيَتُهُ العَقليّةُ المَحدودةُ وآلَتُهُ الإدراكيّةُ المَعطوبةُ. وفي كُلِّ خُطوةٍ يَخْطُوها نَحوَ ما يَتَوهَّمُ، بِغُرورٍ، أنّهُ الاقترابُ مِنَ الفَهمِ الكُلِّيِّ التّامِّ، وفي كُلِّ مُحاوَلةٍ يائِسةٍ يَبذُلُها لِرَفعِ السِّتارِ الكَثيفِ عنْ كُنهِ الوُجودِ الغامِضِ، لا يَفعَلُ هذا المِسكينُ شَيئًا، سِوى أنْ يَكشِفَ لِنَفسِهِ، مَرّةً بَعدَ أُخرى، عنْ عَجْزِهِ المُتَأصِّلِ والضّارِبِ، وعنْ قُصورِهِ الأبَديِّ الذي لا يُجاوِزُهُ، كَكائِنٍ مَحكومٍ بِالجُزئيّةِ والنِّسبيّةِ لا يُنازِعُهُ. وكُلّما خُيِّلَ إلينا، في لَحظةِ وَهْمٍ، أنّنا قَدْ دَنَوْنا مِنْ حِضنِ الحَقيقةِ الكامِلةِ الدّافِئِ، اتَّسَعَتِ المَسافةُ بيننا وبَينَها كَصَحراءَ لا نِهايةَ لَها، وزادَتِ الهُوّةُ التي

تَفصِلُنا عَنْها عُمْقًا وسُحقًا، كَأنّها أُفُقٌ سَرابيٌّ يَتَراجَعُ كُلّما سِرْنا نَحوَهُ بِعَطَشٍ، أوْ قِمَّةُ جَبَلٍ سِيزِيفيٍّ، مَلعونٍ، كُلّما أوشَكْنا على بُلوغِها تَراجَعَتْ وابْتَعَدَتْ، تارِكةً إيّانا نَلهَثُ في فَراغِ الخَيبَةِ. ولَكِنْ، مَعَ دَورانِ عَجَلَةِ الزَّمَنِ التي لا تَرحَمُ، ومَعَ تَراكُمِ خَيباتِ الأمَلِ كَالحِجارةِ، ومَعَ تَصَدُّعِ صُروحِ اليَقينيّاتِ القَديمةِ ، قَدْ يَبدأُ العقلُ، في لَحْظَةِ صَحْوٍ نادِرةٍ، كَوَميضِ بَرقٍ، أوْ تَحتَ ضَغطِ مُعاناةٍ قاسيةٍ، كَضَربَةِ سَوطٍ، في مُمارَسَةِ أُولى خُطُواتِ تَمَرُّدِهِ الحَقيقيِّ: التَّشكيكِ. يَبْدَأُ في مُساءَلَةِ تِلكَ "البَديهيّاتِ" التي بَدَتْ يَومًا صُلْبَةً كَالصَّخْرِ الأصَمِّ، والتي ارْتَبَطَ بِها بِقُوّةِ الغَريقِ الذي يَتَعَلَّقُ بِخَشَبةٍ بالِيةٍ. تِلكَ المُعتَقَداتِ العَجْفاءَ، الجَوفاءَ، التي غُرِسَتْ في تُربَةِ وَعيِهِ الطَّرِيّةِ الغَضّةِ في مَراحِلِ الطُّفولةِ الغافِلةِ السَّاذجةِ. وتِلكَ المَعلوماتِ الخامِ، غَيرَ المُمَحَّصَةِ، التي صَبَّتْها حَواسُّهُ القاصِرةُ في قَوالِبِ عَقلِهِ المُستَسلِمِ دونَ أدنى فَحصٍ نَقديٍّ صارِمٍ، أوْ مُراجَعةٍ واعيةٍ مُستَنيرةٍ. بَيْدَ أنَّ هذا التَّشكيكَ الهامِسَ، هذهِ البَذرةَ الأُولى لِلتَّحَرُّرِ المُحتَمَلِ، لا يَنبُتُ في فَراغِ العَدَمِ المُوحِشِ، أوْ يَظهَرُ فَجْأةً كَمُعجِزةٍ خارِقةٍ، بلْ هوَ عَمليّةُ نُموٍّ بَطيئةٍ، شاقّةٍ، مَسارٌ مُتَدَرِّجٌ، مُتَعَرِّجٌ، تَنْسِجُ خُيوطَهُ الدَّقيقةَ التَّجارِبُ الحَياتيّةُ بِآلامِها المُرَّةِ ودُروسِها القاسيةِ، وتُغَذّيهِ زَخّاتُ الأسئلةِ الحارِقةِ المُتَلاحِقةِ، تِلكَ التي تَطرُقُ أبوابَ الوَعيِ المُغلَقةِ بِعُنفٍ أحيانًا، وبِرِفقٍ وحَذرٍ أحيانًا أُخرى. ولَعَلَّ هذهِ الأسئلةَ الجَريئةَ، لا الأجوبةَ الجاهِزةَ المُعلَّبةَ التي اعتَدْناها حتّى أدْمَنّاها، هيَ المُحَرِّكُ الحَقيقيُّ لِعَمليّةِ الفَهمِ المُتَجَدِّدِ والمُستَمِرِّ، هيَ الرِّياحُ التي تَدْفَعُ سَفينةَ العقلِ التّائِهةَ إلى ما وَراءَ الشَّواطِئِ المَألوفةِ الآمِنةِ، إلى بَحرِ المَجهولِ الهائِجِ. فَكُلّما تَجَرَّأَ العقلُ على طَرحِ سُؤالٍ جَريءٍ، مُقْلِقٍ، كُلّما انْشَقَّ أمامَهُ أُفُقٌ جَديدٌ لِرُؤيةِ الواقِعِ منْ زاوِيةٍ مُختَلِفةٍ، غَيرِ مَعهودةٍ، لِيَكتَشِفَ، في ذُهولٍ وصَدمَةٍ غالِبًا، أنَّ ما كانَ يَعتَقِدُهُ بِيَقينٍ أعمى "حَقيقةً" مُطلَقةً لا تَأتيهِ الرِّيبُ، لَمْ يَكُنْ إلا شَذْرَةً ضَئيلةً، جُزءًا تافِهًا، جَزيرةً صَغيرةً مَعزولةً في مُحيطٍ هائِلٍ منَ المَجهولِ لا تُدرَكُ سَواحِلُهُ، جُزءًا بَسيطًا مُحاطًا بِضَبابٍ كَثيفٍ منَ الغُموضِ الذي لَمْ يَكُنْ يَراهُ مِنْ قَبْلُ، لِأنّهُ، بِبَساطةٍ، كانَ يَخشى أنْ يَسأَلَ.

ورَغمَ أنَّ وَميضَ هذهِ الأسئلةِ الجَريئةِ المُقْلِقةِ قَدْ يَلوحُ كَفَجرٍ كاذِبٍ لِعَهدِ الحُرِّيّةِ الفِكريّةِ المَنشودَةِ، أو كَبَشيرٍ مُخادِعٍ بِانعِتاقِ العقلِ الأخيرِ منْ أغلالِهِ العَتيقةِ الصَّدِئةِ، إلا أنَّ الدَّربَ الشّائِكَ المُؤدّيَ إلى التَّحَرُّرِ الحَقيقيِّ مِنْ قَفَصِ الإدراكِ المَوروثِ ليسَ دَرْبًا سَهلاً، مُمَهَّدًا، مَفروشًا بِالوَردِ والرَّياحينِ، أوْ يَسيرًا على الأقدامِ المُتعبَةِ. فَمَا أشَدَّ خِداعَ الأمَلِ حينَ يَتَزَيَّنُ بِثَوبِ البِداياتِ الجَميلةِ! فَحَتّى حينَ يَنتَفِضُ العقلُ أخيرًا، في ثَورَةٍ مُتَأخِّرَةٍ، لِيُواجِهَ طُوفانَ التَّلقينِ الجارِفَ الذي أغرَقَهُ في سُباتٍ طَويلٍ، وحِينَ

يَرْفَعُ صَوتَ التَّحَدّي الشّاحِبَ في وَجهِ المَوروثاتِ الصَّدِئةِ التي كَبَّلَتْهُ لِدُهورٍ وحَرَمَتْهُ النُّورَ، فَإنّهُ، في أغلبِ أحوالِهِ، يَظَلُّ، ويا لَلأسَفِ المُرِّ، أسيرَ نَمَطٍ فِكريٍّ ذاتيٍّ ضَيِّقٍ، سَجينَ بَصَماتِ تَجرِبَتِهِ الشَّخصيّةِ الفَريدةِ التي لا تُشبِهُ غَيرَها، ومَحكومًا بِشِفرةِ بِيئَتِهِ الثَّقافيّةِ الخاصّةِ التي نَحَتَتْ وَعيَهُ بِإزميلٍ خَفيٍّ قَبلَ أنْ يُدرِكَ حتّى أنّهُ يُنحَتُ ويُصاغُ. لا مَناصَ لَنا، لا مَفَرَّ، منَ الاعترافِ الصّريحِ، المُؤلِمِ، بِأنّنا، شِئنا ذلكَ أمْ أبَيْنا، نَنظُرُ أبَدًا إلى لُغزِ الوُجودِ مِنْ خِلالِ تِلكَ المُرَشِّحاتِ المَعرفيّةِ المُشَوَّهةِ التي رأيناها تَحجُبُ الحَقيقةَ، تِلكَ العَدَساتُ المُلَوَّنةُ التي صَبَغَتْها تَجارِبُنا الخاصّةُ التي لا تُكَرَّرُ ولا تُعادُ، وشَكَّلَتْ حُروفَها اللُّغةُ التي نَتَنَفَّسُ بِها أفكارَنا وتَحبِسُها، وأطَّرَتْ حُدودَها المَفاهيمُ الأُولى التي رُضِعْناها مَعَ أوّلِ قَطَراتِ الوَعي الغافِلِ. هذهِ الحَواجِزُ الفِكريّةُ، القائِمةُ كَالجُدرانِ الشَّفّافةِ لِسِجنٍ لا نَراهُ بِأعيُنِنا، تَظَلُّ قائِمةً، شامِخةً، راسِخةً كَالجِبالِ الشُّمِّ، حتّى بَعدَ أنْ نَظُنَّ، بِغُرورٍ، أنّنا قَدْ بَدأنا في هَدمِ قِلاعِ الفَهمِ السّائِدِ وانتقادِ المُسلَّماتِ المُتَوارَثةِ. فَيا لَسُخريّةِ الأقدارِ المُرَّةِ! نَظُنُّ أنّنا قَدْ كَسَرْنا القَيدَ الفولاذيَّ، فَإذا بِنا نَجِدُ أنفُسَنا أسْرَى، مُكَبَّلينَ، لِمَا كُنّا نَعتَقِدُ أنّنا قَدْ تَحَرَّرْنا مِنهُ وتَجاوَزْناهُ، نَدورُ في فَلَكِ نَفسِ الأوهامِ القَديمةِ ولكِنْ بِأسماءٍ جَديدةٍ بَرّاقَةٍ وأقنِعةٍ مُختَلِفةٍ خَدّاعَةٍ.

لا تَستطيعُ أنْ تُفلِتَ تَمامًا، أنْ تَتَحَرَّرَ بِالكَاملِ، منْ تِلكَ الزّاوِيةِ الضَّيِّقةِ والمُظلِمةِ التي نَنظُرُ مِنْها إلى مُحيطِ الوُجودِ اللّامُتناهي الشّاسِعِ. ولِهذا، فَإنَّ أيَّ يَقينٍ نَزعُمُ بِغُرورٍ الوُصولَ إليهِ، وأيَّ حَقيقةٍ نَدَّعي بِثِقةٍ الإمساكَ بِها، ليستْ في جَوهَرِها العَميقِ سِوى استِنتاجٍ قاصِرٍ، وحُكمٍ ضَيِّقٍ، مُرتَبِطٍ ارْتِباطَ الجَنينِ بِحَبلِهِ السُّرِّيِّ بِمَحدوديّةِ أدواتِنا العَقليّةِ الهَزيلةِ، وبِتِلكَ المَفاهيمِ الأوَّليّةِ التي تَكَوَّنَتْ لَدَينا في فَجرِ الوَعي الغافِلِ قَبلَ أنْ نَملِكَ حَقَّ الاختيارِ أوْ قُوَّةَ الرَّفضِ. إنّها هذهِ الدَّورةُ المُفرَغةُ، هذا الجَدَلُ العَقيمُ، بينَ إدراكٍ لا يَكُفُّ عنِ التَّلَقّي السَّلبيِّ، وتَلقينٍ لا يَكُفُّ عنِ التَّجَدُّدِ والتَّسَلُّلِ تَحتَ أقنِعةٍ مُختلِفةٍ، هيَ ما يُبقينا أبَدًا في حالةٍ منَ التَّوَتُّرِ الفِكريِّ المُزمِنِ، وفي قَلَقٍ وُجوديٍّ دائِمٍ لا يَهدأُ ولا يَستَكينُ. ففي كُلِّ مُفتَرَقِ طُرُقٍ منْ مَراحِلِ حَياتِنا المُتَقَلِّبةِ، قَدْ يَتَوَقَّفُ العقلُ لِلَحظةٍ عابِرةٍ لِيُسائِلَ مَواضِعَ ضَعفِهِ وهَشاشَتِهِ، لِيَتَلَمَّسَ حُدودَ قُيودِهِ وأغلالِهِ، لِيُحَدِّقَ في جُدرانِ سِجنِهِ الخَفيِّ. لكِنْ، يا لَلأسَفِ المُرِّ ويا لَخَيبَةِ الأمَلِ، نادِرًا ما نَملِكُ شَجاعةَ المُواجهةِ الكامِلةِ، أوْ قُوّةَ التَّحَرُّرِ النِّهائِيِّ. فَنَحنُ لا نَتَوَقَّفُ عنِ التَّقَبُّلِ السَّلبيِّ لِما يُحيطُ بِنا ويُشَكِّلُنا، ولا نَكُفُّ عنْ إعادَةِ بِناءِ أفكارِنا وتَلوينِ يَقينيّاتِنا وَفقًا لِسَيلِ المُحفِّزاتِ الخارِجيّةِ التي لا تَنضَبُ، ولِضَغطِ القَطيعِ الهائِلِ الذي يَرفُضُ الخُروجَ عنْ مَسارِهِ المَرسومِ ويُعاقِبُ مَنْ يَشُذُّ. وعِندَما نَجمَعُ شَتاتَ

عَزيمَتِنا المُنهَكَةَ في مُحاوَلةٍ يَائِسةٍ لِلتَّفَلُّتِ منْ هذهِ الدّائِرةِ المُغلَقةِ، منْ هذا السِّجنِ الذي نَحمِلُهُ في دواخِلِنا كَلَعنةٍ، لا نَجِدُ أمامَنا سِوى مُحيطٍ هائِلٍ، مُظلِمٍ، منَ التَّساؤُلاتِ المَفتوحةِ التي لا نَملِكُ لَها جَوابًا شافِيًا أوْ بَلسَمًا مُريحًا، فَراغٍ مَعرفِيّ، وُجوديّ، يُرعِبُنا ويُعيدُنا القَهْقَرى. فَنُعيدُ الكَرَّةَ، نَرتَدُّ على أعقابِنا، نَعودُ إلى بِدايةِ الرِّحلَةِ المَأساويّةِ: نَستَسلِمُ لِلواقِعِ، لا كَما هوَ في حَقيقتِهِ، بلْ كَما أَلِفْناهُ واعتَدْناهُ. ولكِنْ، رُبّما، رُبّما فَقطْ، نَعودُ هذهِ المَرّةَ مَعَ وَعيٍ أكثَرَ حِدّةً، أكثَرَ أَلَمًا، بِأنَّ ما نَراهُ ليسَ بِالضَّرورةِ كُلَّ ما هوَ مَوجودٌ، وأنَّ ما نَعيشُهُ ليسَ بِالضَّرورةِ كُلَّ ما يُمكِنُ أنْ يُعاشَ، وأنَّ حُرّيَّتَنا المَزعومةَ، التي تَغَنَّيْنا بِها، لَمْ تَكُنْ سِوى وَهمٍ آخَرَ، سَرابٍ جَديدٍ، في مَسرَحِ العقلِ المَأسورِ.

ثُمَّ يَقِفُ العقلُ البَشريُّ، في مَسيرَتِهِ المُتعَثِّرةِ، المُثقَلةِ بِأوزارِ الوَعي وآلامِه، أمامَ الحاجِزِ النَّفسيِّ الأشَدِّ رُسوخًا ومَنعَةً، أمامَ السَّدِّ المَنيعِ الذي يُشَيِّدُهُ سُؤالٌ واحِدٌ، سُؤالٌ لا يَجرُؤُ اللِّسانُ على نُطقِهِ إلا هَمسًا خافِتًا، خائِفًا، مُرتَعِشًا: ماذا بَعدَ المَوتِ؟ وليسَ هذا مُجَرَّدَ استفهامٍ مَعرفِيٍّ عابِرٍ، أوْ لُغزٍ فَلسفِيٍّ بارِدٍ يُمكِنُ تَجاوُزُهُ بِمَنطِقٍ مُجَرَّدٍ أوْ حِيلةٍ لَفظِيّةٍ، بلْ هوَ، في جَوهَرِهِ، مُواجَهةٌ عارِيةٌ، دامِيةٌ، مَعَ تُخومِ الوَعي ذاتِهِ، مَعَ حُدودِ الإدراكِ الأخيرَةِ. نُقطةُ تَلاشٍ كامِلٍ، يَنعَدِمُ عِندَها كُلُّ أملٍ في إرساءِ يَقينٍ مَوضوعيٍّ ثابِتٍ، أوْ بِناءِ حَقيقةٍ صُلْبَةٍ تَصمُدُ أمامَ عَواصِفِ العَدَمِ الهَوجاءِ. فَيَنبَثِقُ مِنْ هذا الفَراغِ المُفزِعِ القَلَقُ الوُجوديُّ، لَزِجًا، خانِقًا، مُلتَصِقًا بِالرُّوحِ كَداءٍ عُضالٍ لا شِفاءَ مِنهُ، وكَرَدِّ فِعلٍ حَتْميٍّ، غَريزِيٍّ، على فَراغٍ هائِلٍ لا قاعَ لهُ يُدرَكُ، ولا قَرارَ لهُ يُؤمَّلُ. ومِنْ هُنا، نَرى بِوُضوحٍ جارِحٍ كَيفَ أنَّ كُلَّ بُنى الاجتِماعِ البَشريِّ التي شُيِّدَتْ عَبرَ التّاريخِ، وكُلَّ صُروحِ العَقائِدِ والأديانِ الشّامِخةِ، وكُلَّ هَياكِلِ السُّلطَةِ الرَّمزيّةِ المُعقَّدةِ، لا تَعدو، في تَحليلٍ أعمَقَ، كَوْنَها دِفاعاتٍ نَفسيّةً مُستميتةً، حُصونًا واهيةً منْ وَهْمٍ مُنَمَّقٍ تُشَيَّدُ بِعَجَلَةٍ في وَجهِ هذا السُّؤالِ المُزَلْزِلِ، هذا الشَّبَحِ الذي يُؤَرِّقُ النُّفوسَ. ليسَ لِأنَّ هذهِ البُنى تَحمِلُ في جُعبَتِها المُتَخَيَّلَةِ جَوابًا شافِيًا لِلقَلَقِ، أوْ تِرياقًا ناجِعًا لِلرُّعبِ، بلْ لِأنّها، بِبَراعةٍ، تُخَفِّفُ مِنْ وَطأةِ الاضطرابِ النَّفسيِّ المُدَمِّرِ الذي يُثيرُهُ الغِيابُ المُطْبِقُ، الصّامِتُ، لِلإجابةِ المَنشودَةِ. فالعقلُ البَشريُّ، حِينَ يُباغِتُهُ فَجأةً إدراكُ أنَّ وُجودَهُ القَصيرَ ليسَ إلا وَمضةً عابِرةً في لَيلِ الأَبَديّةِ، وأنَّ كُلَّ ما بَناهُ بِجُهدٍ وأَملٍ مِنْ عَلاقاتٍ ومَعانٍ وقِيَمٍ سَيَنْهارُ في لَمحِ البَصَرِ كَقَصرٍ منْ رِمالٍ، ثُمَّ يُمحى أثَرُهُ كَأنْ لَمْ يَكُنْ، وأنَّ كَينونَتَهُ الفَريدةَ سَتَذوبُ وتَتَلاشى في بَحرِ العَدَمِ المُظلِمِ كَما يَذوبُ الثَّلجُ الهَشُّ في شَمسِ الظَّهيرةِ، يَجِدُ نَفسَهُ فَجأةً أَعزَلَ، عارِيًا، عاجِزًا عنْ تَحَمُّلِ هذا الفَراغِ الكاسِحِ، هذا اليُتمِ الوُجوديِّ القاتِلِ. فَيَهرَعُ

مَذعورًا، مُتَخَبِّطًا، لِيَتَشَبَّثَ بِأيِّ نَسَقٍ فِكريٍّ جاهِزٍ يَجِدُهُ أمامَهُ، بِأيِّ حِكايةٍ مُخَدِّرةٍ تُنسيهِ رُعبَهُ، بِأيِّ أُسطورةٍ تَمنَحُهُ إحساسًا خادِعًا بِالاستمراريّةِ والبَقاءِ والخُلودِ، حتّى لَوْ كانَ هذا النَّسَقُ مُجَرَّدَ بِناءٍ رَمزيٍّ هَشٍّ، سَرابٍ في صَحراءَ، أوْ صَنَمًا فِكريًّا أجْوَفَ يُسكِتُ صَرخةَ الرُّوحِ المُتَأَلِّمةِ إلى حِينٍ، ولا يُقدِّمُ أيَّ خَلاصٍ أوْ يَقينٍ.

وَلِمَ هذا الهَرَبُ المَحمومُ الدّائِمُ إلى أحضانِ الوَهمِ الدافِئةِ؟ ولِمَ يُفَضِّلُ الإنسانُ دِفءَ الكِذبَةِ المُنَمَّقةِ على صَقيعِ الحَقيقةِ العارِيةِ القارِسَةِ؟ لِأنَّ مُواجَهةَ الواقِعِ كَما هوَ في صَميمِهِ القاسي – حَياةٌ مَحدودةٌ، هَشّةٌ، كَطَرفةِ عَينٍ في وَجهِ الأبَدِ، وكَونٌ أصَمُّ، أبكَمُ، لا يُبالي بِصُرَخاتِنا ولا يَأبَهُ لِأَلَمِنا، وفَناءٌ نِهائِيٌّ، مُطلَقٌ، لا مَهرَبَ مِنهُ ولا مَفرَّ لِمَخلوقٍ – يُوَلِّدُ في أعمَقِ أعماقِ الكِيانِ البَشريِّ رُعبًا أصليًّا، خَوفًا بَدائِيًّا، يَكادُ يَتَجاوَزُ قُدرةَ الذّاتِ الهَشّةِ المُرتَعِشةِ على الاحتمالِ أوِ الصُّمودِ. إنَّ هذا الإدراكَ السّاطِعَ بِقَسوَتِهِ، هذا الوَعيَ المُجَرَّدَ مِنْ كُلِّ عَزاءٍ أوْ رَجاءٍ، يُهَدِّدُ أُسسَ الاستِقرارِ النَّفسيِّ بالانهيارِ الكامِلِ، يُزلزِلُ الأرضَ تَحتَ أقدامِنا، فَيَتَدَخَّلُ عِندَها، في لَحْظَةِ الخَطَرِ، جَيشُ الإنقاذِ الوَهميِّ، جَيشُ التَّبريراتِ والأوهامِ: القَطيعُ الفِكريُّ بِقَوالِبِهِ الجاهِزةِ التي تُريحُ العقلَ مِنْ عَناءِ التَّفكيرِ، والأيديولوجيا بِوُعودِها البَرّاقةِ التي تُلهِبُ الخَيالَ، والدِّينُ بِسَرديّاتِهِ المُطَمْئِنةِ التي تُسكِنُ القَلبَ الخائِفَ. لا لِتَكشِفَ هذهِ القُوى الحَقيقةَ، فالحَقيقةُ مُخيفةٌ، بلْ لِتُقَدِّمَ رِواياتٍ بَديلةً، قِصصًا مُخَدِّرةً، تُخفي هذا الفَراغَ المُفزِعَ وتُغَطّيهِ بِعَباءَةِ المَعنى المُصطَنَعِ. يُشَيِّدُ الإنسانُ، بِيَدَينِ مُرتَعِشَتَيْنِ، قُصورًا عالِيةً مِنَ الأمَلِ في حَياةٍ أُخرى خالِدةٍ، وأبراجًا شامِخةً مِنَ الإيمانِ بِغايَةٍ كُلّيّةٍ لِلوُجودِ تَنتَظِرُهُ، وجُسورًا واهِيةً مِنَ الثِّقةِ بِعَدالَةٍ سَماويّةٍ سَتَتَحَقَّقُ حَتمًا بَعدَ نِهايةِ هذا العالَمِ الظّالِمِ. ليستْ هذهِ الإنشاءاتُ الفِكريّةُ الضَّخمةُ مُحاوَلاتٍ بَريئةً لِفَهمِ الكَونِ وأسرارِهِ، بلْ هيَ، في حَقيقَتِها، آلِيّاتٌ دِفاعيّةٌ نَفسيّةٌ ماكِرةٌ، حُصونٌ وَهميّةٌ، تُحَوِّلُ القَلَقَ الوُجوديَّ الخامَ، المُؤلِمَ، إلى طُمأنينةٍ مُؤَقَّتةٍ، مُسكِرةٍ كَالخَمرِ، وتُحَوِّلُ رُعبَ الفَناءِ المُطلَقِ إلى مُجَرَّدِ جُزءٍ في نِظامٍ كَونيٍّ أكبَرَ، يُبَرِّرُ الوُجودَ العَبثيَّ ويَمنَحُهُ شَكلاً وهَدَفًا وقِيمةً. وهَذِهِ السَّرْدِيّاتُ الكُبرى ليستْ مُجَرَّدَ أفكارٍ عابِرةٍ تُداعِبُ الخَيالَ أوْ تُسَلّي العقلَ، بلْ هيَ أدَواتٌ فَعّالةٌ وقَويّةٌ تُعيدُ بَرمَجةَ الوَعيِ البَشريِّ ذاتِهِ، تُحَوِّلُهُ إلى كِيانٍ مُعتَمِدٍ، تابِعٍ، مُقَيَّدٍ، يَستَنِدُ في تَوازُنِهِ على أنساقٍ وَهميّةٍ تُنقِذُهُ – كَما يَتَوَهَّمُ بِسذاجةٍ – مِنَ الانهيارِ النَّفسيِّ التّامِّ أمامَ شَبَحِ الفَناءِ المُخيفِ الذي يُطارِدُهُ. فالبَشَرُ، في ضَعفِهِمْ، لا يَكتَفونَ بِالهَرَبِ الخائِفِ مِنْ مُواجَهةِ الحَقيقةِ القاسيةِ، بلْ يُبدِعونَ أيْضًا في إنتاجِ واقِعٍ بَديلٍ، دِرعٍ نَفسيٍّ

سَميك، يُحَوّلُ المَوتَ مِنْ نِهايَةٍ مُطلَقةٍ مُرعِبةٍ لا عَزاءَ فيها، إلى مُجرَّدِ مَعبَرٍ ضَيِّقٍ في نِظامٍ أكبَرَ وأشمَلَ، إلى جُزءٍ صَغيرٍ منْ حِكايةٍ أوسَعَ، مَلحَمةٍ كُبرى، تُبرِّرُ كُلَّ هذا العَناءِ الذي لا يُطاقُ وكُلَّ هذا الشَّقاءِ الذي لا يَنتَهي.

وَفِي صَميمِ تَشَكُّلِ هَذِهِ الأنْسَاقِ الدِّفاعيّةِ وتَجَذُّرِها في أعماقِ الوَعي كَالشَّجَرِ، تَعْمَلُ آلِيَّتانِ قَسْرِيَّتانِ، قَديمَتانِ قِدَمَ الخَوفِ البَشَرِيّ والحَجَرِ، كَدِعامَتَيْنِ خَفِيَّتَيْنِ، تُمسِكانِ بِإحكامٍ بِبِنيةِ ذلكَ القَفَصِ الذِّهنِيّ الذي تَحَدَّثْنا عَنْهُ وسَبَرْنا الغَورَ، القَفَصِ الذي يُحتَجَزُ فيهِ العقلُ البَشَرِيُّ دونَ أنْ يَشعُرَ بِأَسْرِهِ أوْ يَسمَعَ صَريرَ القُضبانِ وهِيَ تُطبِقُ عَلَيهِ وتَصْفِرُ. إنَّهُما، يا لِقُوَّتِهِما، التَّرْهيبُ والتَّرْغيبُ، سَوطُ العِقابِ المُهينِ، وَجَزَرَةُ الثَّوابِ الثَّمينِ. فَالإنسانُ، بِتَركيبَتِهِ النَّفسيّةِ المُعقَّدةِ والمُتقلّبةِ، وبِتاريخِهِ التَّطَوُّرِيّ الطَّويلِ والمُضطَرِبِ، كائنٌ مُتأَرجِحٌ أبدًا على حِبالِ الهَوى، بَيْنَ جاذِبِيَّتَيْنِ أَزَلِيَّتَيْنِ لا فِكاكَ لَهُ مِنْهُما ولا هُدى: نُفورُهُ الفِطريُّ الغَريزيُّ مِنَ الأَلَمِ المُبرِّحِ، وَتَوقُهُ النَّهِمُ، الجائِعُ، إلى اللَّذَّةِ والسَّلامِ الرَّيِّحِ. يَتَرَنَّحُ بَيْنَهُما كَبَندولِ ساعَةٍ لا يَستَقِرُّ، بينَ قُطبَيْنِ مُتَضادَّيْنِ لا يَتَّفِقُ، لا يَهدأُ على حالٍ ولا على خَبَرٍ. وَمِنْ هذهِ الثُّنائيّةِ المُتَأَصِّلةِ في صَميمِ كِيانِهِ، تَنبَثِقُ أَشَدُّ أدواتِ السَّيطَرةِ على وَعيِهِ خُبثًا ودَهاءً ومَكرًا، تلكَ الأدواتُ التي لا تَحتاجُ إلى سِياطٍ ماديّةٍ تُدمي الجُلودَ وتُبكي، ولا إلى أسوارٍ حَجَريّةٍ عاليةٍ تَحبِسُ الأجسادَ وتُشْقي، بلْ تكتَفي بِبَراعةٍ شَيطانيّةٍ، وبِصَبرٍ أيّوبِيٍّ، بِحِياكةِ شَبَكةٍ لَزِجَةٍ منَ الخَوفِ الدَّفينِ والأَمَلِ الوَهمِيّ، شَبَكةٍ تُحيطُ بِالرُّوحِ كَضَبابٍ كَثيفٍ يُعمي البَصَرَ ويُثقِلُ النَّظَرَ، ويَشُلُّ الحَرَكةَ والإرادَةَ ويُسكِتُ الخَبَرَ. لا حاجَةَ لِسُلطةٍ قاهِرةٍ - سَواءٌ تَجَلَّتْ في عَرشٍ سياسيٍّ مُستَبِدٍّ ظالِمٍ، أوْ في هَيكلٍ دينِيٍّ مُهيمِنٍ عالِمٍ، أوْ في نَسيجٍ اجتِماعيٍّ خانِقٍ قاتِمٍ - أنْ تُشهِرَ سَيفَ القَمعِ في كُلِّ آنٍ، أوْ تُلوِّحَ بِعَصا العِقابِ عَلى مَرِّ الزَّمانِ. يَكفيها أنْ تَغرِسَ في تُربَةِ اللّاوعي الفَرديِّ الهَشّةِ رُعبًا أوّلِيًّا، خَوفًا بَدائيًّا، منْ مُجرَّدِ التَّفكيرِ في الخُروجِ عنِ المَسارِ المَرسومِ، أوِ التَّساؤُلِ عنْ حَقيقةِ القُضبانِ والقَيدِ المَحتومِ. ثُمَّ، في المُقابِلِ، تُغْدِقُ عليهِ بِحَنانٍ زائِفٍ، بِوَهمٍ دافِئٍ، منَ الأَمانِ المُصْطَنَعِ والطُّمأنينةِ المُخَدِّرةِ، إذا ما ألقى بِنَفسِهِ طائِعًا، مُستَسلِمًا، في أحضانِ القَطيعِ الدّافِئِ، المُريحِ ظاهِريًّا، والمَسمومِ. وهكَذا، يَتَحَوَّلُ الإنسانُ، بِفِعلِ هذهِ الهَندَسةِ النَّفسيّةِ الماكِرةِ، إلى كائِنٍ مُرَوَّضٍ، مُدَجَّنٍ، إلى حَيَوانٍ أليفٍ في حَظيرةِ الأفكارِ الجاهِزةِ المُهيمِنةِ، لا لِأنَّ الحَقيقةَ السّاطِعةَ قَدْ أقنَعَتْهُ بِبُرهانِها، فَلا بُرهانَ هُنا ولا حَقيقةً ناصِعةً، بلْ لِأنَّ ذُعرَهُ المُمِضَّ، القاتِلَ، منَ العِقابِ، وشَوقَهُ المُلِحَّ، الحارِقَ، إلى المُكافأةِ والثَّوابِ، جَعَلاهُ يُؤْثِرُ بِقَناعةٍ دِفءَ الخُضوعِ

الذَّليلِ على عَناءِ المُواجهةِ الحُرّةِ النَّبيلةِ، ويُفَضّلُ أمانَ السّجنِ المُريحِ على مَخاطِرِ الفَضاءِ المَفتوحِ الفَسيحَةِ. حالُهُ كَحالِ ذلكَ الطّائِرِ الحَبيسِ في قَفَصٍ ذَهبيٍّ بَديعٍ، يَأْلَفُ سِجنَهُ ويُحِبُّ قُضبانَهُ، لا لِأنّهُ فَقَدَ القُدرةَ على الطَّيَرانِ أوْ نَسِيَ نِداءَ السَّماءِ الزَّرقاءِ، بلْ لِأنّهُ باتَ يَخشى عَواصِفَ المَجهولِ خارِجَ الأسوارِ، ويَتوقُ بِشَغَفٍ إلى حَبّاتِ القَمحِ التي تُلقى لهُ داخِلَها بِسَخاءٍ.

فَالتَّرهيبُ أوَّلاً، تلكَ الآليّةُ اللَّعينةُ الشَّنيعةُ، التي تُجيدُ صِناعةَ الخَوفِ وتَشكيلَهُ كَطينٍ، كَما يُجيدُ الخَزّافُ الفَنّانُ تَشكيلَ الآنيةِ والطّينِ. تَعْمَلُ كَمِطرَقةٍ فولاذيّةٍ ثَقيلةٍ، لِتَدجينِ العُقولِ الثّائِرةِ وتَرويضِ الأرواحِ المُتَمَرّدةِ الغَفيرةِ. تُحيلُ كُلَّ بارِقةِ تَفكيرٍ حُرٍّ، وكُلَّ هَمسةِ سُؤالٍ مُشَكِّكٍ، إلى تَهديدٍ وُجوديٍّ مُرعِبٍ، يُشبِهُ الوُقوفَ على حافّةِ جُرُفٍ مُنهارٍ، أوِ السَّيْرَ حافيًا فَوقَ حَقلِ ألغامٍ مُستَعِرٍ. "ليسَ الأمْرُ بِمَا تَفْعَلُ لِتَنالَ الرِّضا، بَلْ بِمَا سَيَحُلُّ مِنْ سُخْطٍ وَقَضا، إنْ أنْتَ أغْفَلْتَهُ أوْ لهُ تَعَرَّضا" – هذهِ هيَ الرِّسالَةُ السّامّةُ، المُشْبعةُ بِالوَعدِ والوَعيدِ، التي تَتَسَلَّلُ كَالأفعى إلى أعماقِ الوَعيِ الشَّريدِ، تَجري في عُروقِ الفِكرِ كَسُمٍّ بَطيءٍ، لا يُرى أثَرُهُ إلا بَعدَ فَواتِ الأوانِ، كَالرّيحِ الجَليديّةِ التي تَهُبُّ على صَفحةِ بُحَيرةٍ هادِئةٍ، فَتُحَوِّلُها إلى مَوجٍ مُضطَرِبٍ، يُهَدِّدُ بِالغَرَقِ كُلَّ مَنْ فيها يَتَقَلَّبُ. والخَوفُ، بِقُوَّتِهِ النَّفسيّةِ الكاسِحةِ، وبِسُلطانِهِ الغامِرِ على القُلوبِ الواجِفةِ، لا يُعَطِّلُ قُدرةَ العقلِ على التَّحليلِ والنَّقدِ فحَسْبُ، بلْ يُشِلُّ تَمامًا إرادَتَهُ على المُقاوَمةِ والعِصيانِ، يُحيلُهُ إلى كُتلةٍ لَزِجَةٍ، طَرِيّةٍ، هُلاميّةٍ، تُعيدُ تَشكيلَها أصابِعُ السُّلطَةِ الخَفيّةِ كَما تَشاءُ، كَما تُشَكِّلُ يَدُ الخَبّازِ قِطعَةَ العَجينِ دونَ عَناءٍ. دونَ أنْ يُدرِكَ هذا المِسكينُ المُستَعبَدُ أنّهُ يُعادُ تَصنيعُهُ وتَقويلُبُهُ لِيَخدُمَ بِنْيَةً قاهِرةً، ظالِمةً، لَمْ يَفهَمْ أصْلَها ولا غايَتَها ولا أسْرارَها المُبهَمَةَ. لا حاجَةَ لِلنِّظامِ القائِمِ، أيًّا كانَ شَكْلُهُ ومَبْناهُ، أنْ يَكونَ عادِلاً في مِيزانِ العَقْلِ أو مُتَّسِقًا في مَبادِئِهِ ومَعناهُ. يَكفيهِ أنْ يَكونَ مُخيفًا، مُرعِبًا، مُهيمِنًا، لا يُطاقُ لِقاهُ. يَكفيهِ أنْ يُحيطَ الفَردَ بِجُدرانٍ شَفّافةٍ مِنَ الرُّعبِ النَّفسيِّ والاجتِماعيِّ لا تُرى، تَجعَلُ مُجَرَّدَ التَّفكيرِ في الخُروجِ عنِ المَألوفِ، عنْ سِكّةِ القَطيعِ المَحفورةِ، مُرادِفًا لِلكارِثةِ المُحَقَّقةِ والخُسْرانِ المُبينِ الذي لا يُجْتَرى. كَأنَّ التَّساؤُلَ بِحَدِّ ذاتِهِ، كَأنَّ هَمسَةَ الشَّكِّ الأُولى، تُهَدِّدُ بِانهيارِ الكَونِ المَألوفِ الذي يَستَنِدُ إليهِ وُجودُهُ الهَشُّ كَبَيتٍ منْ وَرَقٍ لا يَقوى. فَمُنذُ أوَّلِ لَحَظاتِ انبِثاقِ الوَعيِ في الظُّلَمِ، يُغرَسُ في الإنسانِ، بِعُنفٍ ناعِمٍ ومَكرٍ مُنَظَّمٍ، أنَّ الأفكارَ السّائِدَةَ، المَوروثةَ، المُكَرَّسةَ، هيَ أعمدةُ النِّظامِ وأساسُ الاستِقرارِ وعُنوانُ الحِكَمِ. وأنَّ أيَّ مَسٍّ بِها، أيَّ شَكٍّ في قَداسَتِها المَزعومةِ، يُشبِهُ إشعالَ عُودِ ثِقابٍ صَغيرٍ في غابةٍ جافّةٍ، شاسِعةٍ، تَلتَهِمُها النِّيرانُ في لَمحِ البَصَرِ

ولا تُبقي على أيّ خَمَرٍ. فَتُصبِحُ المُسلَّماتُ التي لمْ تُختَبَرْ بِنَقدٍ، دِرعًا واقِيًا يَحميهِ منْ لَفحِ المَجهولِ المُخيفِ ومِنْ عَواصِفِ الفَراغِ الكَفيفِ. بَينما يُصبِحُ التَّفكيرُ الحُرُّ خارِجَ أسوارِ القَطيعِ، كَالخُروجِ إلى بَحرٍ هائِجٍ مُتَلاطِمٍ بِلَا سَفينةٍ تَحمِلُهُ، حَيثُ المَوجُ يُهَدِّدُ بِالغَرَقِ واللُّجَجُ، والعُمْقُ المَجهولُ يُنذِرُ بِالضَّياعِ الأَبَديِّ والمُجَجُ. وهذا الخَوفُ الوُجوديُّ، المُرْتَبِطُ بِفِكرةِ النَّجاةِ والخَلاصِ الأخيرِ، يُضاعِفُ منْ سُلْطانِهِ ويُعَزِّزُ قَبضَتَهُ حِينَ يَربِطُ العِقابَ، لا بِمُجرَّدِ عَذابٍ دُنيَويٍّ عابِرٍ، بلْ بِمَصيرٍ أَبَديٍّ، سَرْمَديٍّ، لا فِكاكَ مِنهُ في عَوالِمَ أُخرى غامِضةٍ. "إنْ أنتَ شَكَكْتَ، سَتُعانِي الأَمَرَّيْنِ في الدُّنيا والآخِرَةِ"، أوْ "إنْ أنتَ انحَرَفْتَ، سَتُسلَبُ مَعنى الحَياةِ وتُصبِحُ هَباءً وقُشُورًا". فَيُفَضِّلُ العقلُ المَرعوبُ، المَشلولُ بِالخَوفِ، أنْ يُلقِيَ بِنَفسِهِ طائِعًا، مُستَسلِمًا، في أحضانِ الطّاعَةِ العَمياءِ المُخَدِّرَةِ، كَالطِّفلِ الصَّغيرِ الذي يَتَشَبَّثُ بِثَوبِ أُمِّهِ خَوفًا مِنْ وَحشَةِ الظَّلامِ المُطْبِقِ، على أنْ يُواجِهَ وَحيدًا، عارِيًا، شَبَحَ الحَقيقةِ المُخيفِ بِلَا دِرعٍ وَاقٍ أو سِلاحٍ يَفْلِقُ. لكِنَّ العِقابَ الذي يُهَدِّدُ بِهِ التَّرهيبُ ليسَ دائِمًا جَسديًّا مَلموسًا، بلْ كَثيرًا ما يَتَّخِذُ أشكالاً نَفسيّةً واجتماعيّةً أشَدَّ فَتْكًا، وأعمَقَ جُرحًا ونَتْكًا: تِلكَ النَّظَراتُ المُشَكِّكَةُ التي تَخْتَرِقُ الرُّوحَ كَالسِّهامِ، تِلكَ الكَلِماتُ المُهينةُ التي تَجْرَحُ الكِبرياءَ كَالحُسامِ، تِلكَ التُّهَمُ المُلَفَّقةُ التي تُلصَقُ بِالخارِجينَ كَوَصمَةِ الخِيانَةِ أوْ جُرمِ العِصيانِ والآثامِ. كُلُّها سِهامٌ مَسمومةٌ تُطلَقُ مِنْ قَوسِ القَطيعِ الجَمْعِيِّ المُتَراصِّ، لِتُصيبَ النَّفسَ قَبلَ الجَسَدِ، وتُخْمِدَ أنفاسَ التَّمَرُّدِ والفِكرِ الخَلاصِ. لِتُحيلَ المُفكِّرَ الحُرَّ، السّائِلَ المُستَقِلَّ، إلى شَخصٍ مَنبوذٍ، مَعزولٍ، يَحمِلُ على ظَهرِهِ وَصمَةَ العارِ، وَصمَةَ الخُروجِ عنِ القانُونِ الخَفِيِّ الذي لمْ يُكتَبْ في الأسفارِ، ولكِنّهُ يُطاعُ بِلا نِقاشٍ أو حِوارٍ.

ثُمَّ يَأتي التَّرغيبُ، بِخُطىً هادِئةٍ، مُتَسَلِّلاً كَالنَّسيمِ العَليلِ في الأصيلِ، كَالجانِبِ الآخَرِ المُضيءِ مِنْ مِرآةِ السُّلْطَةِ ذي التَّأصيلِ، لِيُكَمِّلَ هذهِ الثُّنائِيَّةَ الأزَليَّةَ المُحكَمَةَ البُنيانِ، ويُقَدِّمَ للرُّوحِ المُتعَبةِ سُلْوانًا وأمانًا. يَأتي بِوُعودٍ بَرّاقَةٍ تُغري العقلَ المُنْهَكَ مِنْ صِراعِ الخَوفِ، وتُهَدهِدُ ذُعرَهُ المَكبوتَ في الجَوفِ، كَالضَّوءِ الخافِتِ الذي يَبزُغُ في نِهايةِ نَفَقٍ حالِكِ الظَّلامِ ويُزيلُ الخَوْفَ، يُوحِي بِالنَّجاةِ ويُنْعِشُ الأمَلَ ويُطفِئُ نارَ الإتلافِ. فَلَيْسَ كافِيًا لِلنِّظامِ، أيًّا كانَ أصلُهُ أو مَبْناهُ، أنْ يُرهِبَ أفرادَهُ ويُخيفَهُمْ لِيُبقِيَهُمْ أسْرَى في حُدودِهِ المَرسومةِ لا يُغادِرونَها، بَلْ يَجِبُ عليهِ أيْضًا أنْ يُغرِيَهُمْ بِمُكافآتٍ تَسُرُّ النّاظِرينَ، تُشبِعُ تَوقَهُمُ الفِطريَّ إلى الرّاحَةِ والأمانِ والمَعنى واليَقينِ، مُكافآتٌ تُحيلُ فِعلَ الامتِثالِ والخُضوعِ الذَّليلِ، إلى طَريقٍ مَفروشٍ بِالآمالِ العِذابِ، بَدلاً مِنْ أنْ يَكونَ مُجَرَّدَ استِسلامٍ قَسريٍّ لِقُوّةٍ تَفوقُ الطِّبابَ. "اِبْقَ في

المَسارِ المُستَقيمِ، امشِ مَعَ القَطيعِ في النَّعيمِ، وَلا تَشُذَّ عَنِ الجَماعَةِ لِتَسْلَمَ منَ العَذابِ الأليمِ" – هذا الوَعدُ الحُلْوُ كَالشَّهدِ الصّافي، والمَسمومُ كَسُمِّ الأفاعي، يَتَسَلَّلُ بِهُدوءٍ ولُطفٍ إلى أعماقِ الرُّوحِ الواعي، يُحَوِّلُ الطّاعَةَ العَمياءَ إلى مَلاذٍ آمِنٍ يُخَفِّفُ منْ ثِقَلِ الوُجودِ وعَبَثِ المَساعي، كَما يُخَفِّفُ الماءُ العَذبُ عَطَشَ الضّالِّ في الفَيافي. والتَّرغيبُ لا يَعمَلُ فَقَطْ بِالإغراءاتِ الماديّةِ العابِرةِ، أوِ المَناصِبِ الدُّنيَويّةِ الخاسِرةِ، بلْ يُغذّي بِمَهارَةٍ فائِقةٍ حاجَةً نَفسيّةً أشدَّ عُمقًا وإلحاحًا لا تُجارى: ذلكَ التَّوقَ المُتَأصِّلَ إلى الانتماءِ والتَّجَذُّرِ، إلى أنْ يَكونَ الفَردُ جُزءًا منْ كُلٍّ أكبَرَ يُعطيهِ هُويّةً تُعَزِّزُهُ وتُنصُرُ، ويُذيبُ قَلَقَهُ الفَرديَّ ويُريحُهُ ولا يُخْسِرُ، إلى أنْ يَجِدَ يَقينًا مُريحًا يُسكِتُ تِلكَ الأسئلةَ الوَجيعَةَ الحادّةَ، التي تُعَذِّبُ العقلَ المُتَسائِلَ وتُفسِدُ عليهِ لَذّةَ الرّاحَةِ الباردةَ. فَالإنسانُ، في سَعيِهِ الدَّؤوبِ نَحوَ اللَّذّةِ النَّفسيّةِ والطُّمأنينةِ العاطِفيّةِ الوَرديّةِ، يَجِدُ في أحضانِ القَطيعِ الدّافِئةِ جَنّةً وَهميّةً تُعَوِّضُهُ عنْ فَراغٍ وُجوديٍّ يَخشى مُواجَهتَهُ، كَما يَجِدُ الطّائِرُ الحَبيسُ في دِفءِ القَفَصِ راحَةً مِنْ عَواصِفَ خارِجيّةٍ لا يُطيقُ صَدَّها ورَدَّها. فَيُصبِحُ الامتِثالُ، بِفِعلِ هذا الإغراءِ المُستَمِرِّ، ليسَ مُجَرَّدَ خِيارٍ بَينَ بِدائِلَ، بلْ مَصيرًا حَتميًّا يُحيطُ بِهِ مِنْ كُلِّ المَداخِلِ، يُحيلُهُ إلى كائِنٍ مُبَرمَجٍ آليٍّ، يُعيدُ إنتاجَ المُسلَّماتِ ويُكَرِّرُ المَوروثاتِ كَالطَّواحينِ الهَوائيّةِ، لا لِأنّهُ يُؤمِنُ بِها إيمانَ العارِفِ الواصِلِ، بلْ لِأنّها تُنقِذُهُ مِنْ ذُعرِ المَجهولِ وعَذابِ الشَّكِّ الفاصِلِ، وتُكافِئُهُ بِوَهمِ الاستِقرارِ النَّفسيِّ والاجتِماعيِّ الكامِلِ. إنَّ هذهِ الثُّنائيّةَ الشَّيطانيّةَ المُحكَمَةَ – التَّرهيبُ الذي يُخيفُ ويُفزِعُ، والتَّرغيبُ الذي يُغري ويُطمِعُ – هيَ التي تَصوغُ العقلَ البَشريَّ وتُشَكِّلُ مَسارَهُ مُنذُ فَجرِ التّاريخِ الأرفَعُ، كَما تَصوغُ النّارُ قِطعَةَ الطّينِ الهَشّةِ فَتُحيلُها إلى آنيةٍ صُلْبَةٍ تَلمَعُ، تُحيلُ العقلَ، بِمُرورِ الوَقتِ والعُمْرِ، إلى مُجَرَّدِ أداةٍ طَيِّعَةٍ في يَدِ المَنظومةِ السّائِدةِ التي تَأمُرُ وتَمنَعُ، تُبقيهِ سَجينًا في قَفَصِ الوَهمِ المُزَخرَفِ الأبدَعُ، لا لِأنّهُ مُكَبَّلٌ بِسَلاسِلَ حَديديّةٍ تُوجِعُ، بلْ لِأنَّ خَوفَهُ المُتَأصِّلَ منَ الألَمِ، وشَوقَهُ المُلِحَّ إلى اللَّذّةِ، جَعَلاهُ يُفَضِّلُ، بِكامِلِ وَعيِهِ الظّاهِريِّ، أنْ يُحبَسَ في قَفَصٍ آمِنٍ يُسَمّيهِ وَطَنًا أوْ عَقيدةً أوْ هُويّةً، على أنْ يُطلِقَ العِنانَ لِأجنِحةِ فِكرِهِ الحُرِّ في سَماءِ الحَقيقةِ الرَّحْبَةِ التي لا تُعرَفُ حُدودُها ولا يُؤمَنُ جانِبُها ولا تَخضَعُ.

وهكَذا، في ظِلالِ هذهِ الثُّنائيّةِ القاتِلةِ، وفي خِضَمِّ هذا الصِّراعِ الدّائِرِ بِلا راحَةٍ، يَتَكَشَّفُ لَنا "تَشَكُّلُ الفَهمِ" كَما استَهْلَلْنا بِهِ الصَّراحَةَ، لا كَعَمَليّةٍ فِكريّةٍ نَقيّةٍ، أوْ كَنَبتةٍ في أرضٍ سَويّةٍ، تَنْبُثِقُ منْ نَواةِ الذّاتِ الحُرّةِ العَلِيّةِ، بلْ كَصِراعٍ مُحتَدِمٍ في الخَفاءِ، ومُبارَزةٍ لا تَنتَهي بانتِهاءٍ، بينَ العقلِ المَرعوبِ

الباحِثِ عنْ أمَانٍ ورَجاءٍ، وبَينَ بِنيَةِ القَطيعِ المُهيمِنةِ التي تُحاصِرُهُ بِلا رَثاءٍ. حَيثُ يُصبِحُ ذلِكَ الإدراكُ المَشروطُ، أسيرُ القُيودِ والعُقودِ، مُجرَّدَ أداةٍ لِتَدجينِ العقلِ المَفقودِ، وتَرويضِ الرُّوحِ في عالَمٍ مَحدودٍ.
تُحيلُ التَّفكيرَ الحُرَّ النّاقِدَ الشَّارِدَ، إلى مُخاطَرةٍ جُنونيّةٍ لا تُحتَمَلُ عَواقِبُها على الفَردِ الوَارِدِ. بَينما يُصبِحُ الانضِواءُ تَحتَ لِواءِ القَطيعِ الآمِنِ، مَلَاذًا، بَلْ جَنّةً، لِكُلِّ خائِفٍ كامِنٍ، تُخَفِّفُ وَطأةَ الفَراغِ الوُجوديِّ المُهيمِنِ، وتَمنَحُ الطُّمأنينةَ لِلقَلبِ غَيرِ المُؤمِنِ. فَالإنسانُ، الغارِقُ في هذا الأسْرِ الفِكريِّ المُحكَمِ، لا يُدرِكُ أنّهُ سَجينٌ، ولا يَرى قُضبانَهُ في اليَقينِ، لِأنَّ القَفَصَ ليسَ خارِجَهُ في العِيانِ، بلْ هوَ مَبنيٌّ في أعماقِ الكِيانِ، مُشَكَّلٌ منْ خُيوطِ الخَوفِ والأمَلِ بِلا استِئذانٍ، تُنسَجُ حَولَ وَعيِهِ كَالشَّرنَقَةِ، تُحيلُهُ إلى كائِنٍ آخَرَ بِلا طَلاقَةٍ. كائِنٌ يُفَضِّلُ بِقَناعَةٍ أنْ يَغوصَ في الوَهْمِ الجَماعيِّ الدّافِئِ، على أنْ يُواجِهَ وَحيدًا، عَاريًا، ظُلُماتِ الحَقيقةِ القاسيةِ لِلكائِنِ الخائِفِ. يَظَلُّ مُدرِكًا، في قَلبِهِ المُعَذَّبِ، أنَّ فَهمَهُ لِلعالَمِ ليسَ نِتاجَ بَصيرَتِهِ ولا هُوَ مُذهَبُ، بلْ صَدًى باهِتٌ لِمَنظومةٍ تَغلِبُ، لَمْ يَختَرْها ولكنّها تَجْذِبُ، تُشَكِّلُهُ قَبلَ أنْ يُفَكِّرَ، وتُملِي حُدودَهُ قَبلَ أنْ يَتَحَرَّرَ.

الفصل الثاني

الوعي المُستعار

ومَا أنْ تُبصِرَ عَينَا الإنسانِ هذا الوُجودِ المُوحِشِ، أوْ يَدلِفَ بِخُطُواتِهِ الأُولى إلى مَسرَحِ الحَياةِ البائِسِ، حتّى يُلقى بِهِ في هُوَّةٍ سَحيقَةٍ مِنْ تَعريفاتٍ مُعلَّبَةٍ تُحبِسُ، ونُصوصٍ مُتَحجِّرَةٍ تُخرِسُ، أُعِدَّتْ سَلَفًا وانْتَظَرَتْهُ. لا يُمنَحُ ولَوْ بُرهةً يَستَريحُ فيها، أوْ هُنَيهَةً عابِرَةً يَنتَشي فيها، لِيَستَنشِقَ هَواءَ الحُرِّيّةِ الفِكريّةِ النَّقيّ، أوْ لِيَتَلَمَّسَ دَربَهُ الخاصَّ في دُروبِ التَّساؤُلِ التي لا تَفْنى. بلْ يُساقُ مُغمَضَ العَينَيْنِ، مَسْلوبَ الإرادَةِ، كَالخِرافِ تُساقُ إلى مَذبَحِ الأضاحي، إلى مَقامِ التَّلقينِ المُقَدَّسِ الدّاجي، حَيثُ تُحقَنُ العُقولُ الغَضّةُ بِسُمومِ الأفكارِ الجاهِزَةِ الفاتِكَةِ، وبِخُلاصاتِ التَّجارِبِ المَيْتَةِ الهالِكَةِ، تَحتَ مُسَمّياتٍ بَرّاقَةٍ خادِعَةٍ، تُدعى تَربيةً أوْ تُسَمّى إيمانًا وهِيَ سُمٌّ نافِعٌ لِلسُّلطَةِ، زُعافٌ قاتِلٌ يُعَطِّلُ نَبضَ الفِكرِ الحُرِّ ويُوقِفُ نُموَّهُ المُبادِرُ. فالعقلُ، تِلكَ الصَّفحةُ البِكرُ التي كانَ يُؤمَّلُ أنْ تُخَطَّ بِأناملِ الشَّكِّ الجَريءِ، وحُروفِ الاستكشافِ البَديعِ النَّضيرِ، يُغتَصَبُ عُنوةً في مَهدِهِ الأوَّلِ، ويُدَنَّسُ نَقاؤُهُ قَبلَ أنْ يَعيَ مَعنى الطُّهرِ الأجَلِّ، يُحشى حَشوًا بِأوهامِ الآخَرينَ المُتَكاثِرَةِ، وبِأكاذيبِ الأسلافِ المُتَواتِرَةِ: قِيَمٌ مُتآكِلَةٌ تَفوحُ مِنْها رائِحَةُ النِّفاقِ ونَتَنُ التَّبعيَّةِ، ومُعتَقَداتٌ خُرافيّةٌ تَتَدَثَّرُ بِوَقاحةٍ، بِثَوبِ القَداسَةِ الوَهميِّ المَهيبِ، فَقَطْ لِتُخفيَ عُرْيَها الفِكريَّ المُخيبَ وفَراغَها المَنطِقيَّ الرَّهيبَ.

فَفي مَرابِعِ الطُّفولةِ الغَضّةِ، حَيثُ يَكونُ العقلُ كَعَجينةٍ طَريّةٍ في الأكُفِّ، أوْ كَأرضٍ بِكرٍ تَتوقُ لِبَذرِ الكَشْفِ، هُناكَ، في لَحْظَةِ البَراءةِ وتَوَهُّجِ اللَّطْفِ، يُشَنُّ عليهِ أعنَفُ هُجومٍ، وتُنصَبُ لهُ كَمائِنُ الغَزوِ الفِكريِّ واللُّجُومِ. جُيوشٌ جَرّارَةٌ منَ المَوروثاتِ والأوامِرِ، تَتقدَّمُ بِلا هَوادةٍ كَالسَّيلِ العارِمِ، لا لِتُنيرَ وتُعلِّمَ، بلْ لِتَغزوَ وتُخضِعَ وتُسَلِّمَ. تَزرَعُ في تُربَتِهِ الهَشّةِ بُذورَ الطّاعَةِ العَمياءِ، وتَغرِسُ فيهِ شَتلاتِ الخُنوعِ دونَ ارْتِياءٍ، كُلُّ ذلكَ تَحتَ راياتٍ خادِعةٍ، تُسَمّى بِجُرأةٍ "الحَقيقةَ المُطلَقَةَ" أوِ "الإرشادَ لِلسَّبيلِ الأسْماءَ". عِباراتٌ تُطلَقُ كَالسِّهامِ القاتِلةِ، وكَلِماتٌ تُحفَرُ كَالوَشمِ في النُّفوسِ الغافِلةِ: "الإلهُ يَرقُبُ"، "الجَنّةُ لِمَنْ أطاعَ وانْتَهَلَ"، "الشَّكُّ كُفرٌ وذَنبٌ مُستَفْحِلٌ" – هذهِ ليستْ مُجَرَّدَ كَلِماتٍ في الهَواءِ، بلْ سِهامٌ مَسمومةٌ لِلإغواءِ، طَلَقاتٌ تُوَجَّهُ لِتَغتالَ في المَهدِ كُلَّ بادِرَةِ تَفكيرٍ حُرٍّ نَقّادٍ، وكُلَّ هَمسَةِ تَمَرُّدٍ على

القَوالِبِ الجَوامِدِ. يَتحَوَّلُ الطِّفلُ، بِفعلِ هذا القَصفِ المُمَنْهَجِ، إلى مُجرَّدِ دُميةٍ خَرساءَ، آلَةٍ صَمّاءَ، تَرقُصُ على إيقاعِ أساطيرَ عَتيقةٍ، لا يَدري وهُوَ يَتمايَلُ أنّها خُرافاتٌ سَحيقةٌ، نَسَجَها الجَهْلُ لِيُرَوِّضَ الجَهْلَ، وحِكاياتٌ تُخَدِّرُ العقلَ وتُذْهِبُ الفِعلَ. إنَّ ما يَحدُثُ ليسَ تَشكيلًا لِلوَعيِ، بلْ هوَ اغتيالٌ بَطيءٌ لِلذّاتِ بِلا وَعيٍ، حَيثُ يُزَجُّ بِالعَقلِ البَريءِ في زِنزانةِ الوَهْمِ الضَّيِّقَةِ، لا يَرى مِنْ خِلالِها إلا ضَوءً كاذِبًا، ضَوءَ "اليَقينِ المُقَدَّسِ"، بَينما يَبقى الواقِعُ الحَقيقيُّ، بِثَرائِهِ وتَعقيدِهِ، مَدفونًا تَحتَ رُكامِ التَّعَصُّبِ والتَّكرارِ المُميتِ للتحرُّرِ والتَّجديدِ.

فَلا تُوهِمَنَّ نَفسَكَ، أيُّها القارِئُ، أنَّ هُناكَ لَحْظَةَ انبِثاقٍ صافِيةً، أوْ فُسحةَ زَمَنٍ مُواتِيةً، يَبدأُ فيها الإنسانُ بِطَرحِ سُؤالِهِ الحُرِّ على جِدارِ الوُجودِ الصّامِتِ. لا وُجودَ لِهذهِ اللَّحْظَةِ المُتَخَيَّلَةِ! بلْ ما هُناكَ حَقًّا هوَ تَدَفُّقٌ مُتَواصِلٌ، وسَيلٌ جارِفٌ مُتَفاعِلٌ، منْ إجاباتٍ مُعلَّبةٍ جاهِزةٍ، وحَقائِقَ مُصنَّعةٍ مُناسِبةٍ، تُسكَبُ في قَوالِبِ وَعيِهِ الغَضِّ كَالسُّمِّ في الشَّرابِ، لا لِتَروِيَ ظَمَأَهُ لِلمَعرِفةِ، بلْ لِتَشُلَّ قُدرَتَهُ على الشَّكِّ المُناسِبِ، ولِتَجهيزَ على كُلِّ مَيلٍ لِلمُساءَلةِ، وتُحيلَهُ في النِّهايةِ إلى كائِنٍ مُبرمَجٍ آلِيٍّ، وبِبَّغاءَ يَتْبَعُ ما يُقالُ ويُنْثالُ، يُرَدِّدُ بِغَباءٍ ما سَمِعَ، ويُعيدُ بِآليّةٍ ما تَبِعَ، دونَ أنْ يَمتَلِكَ الجُرأةَ على المُواجهةِ، أوْ حتّى الوَعيَ بِإمكانِ تَحدّي تِلكَ الأنساقِ المُواجِهَةِ. إنَّ هذا ليسَ تَلقينًا أوْ تَربيةً، بلْ هوَ اغتصابٌ لِجَوهَرِ الذّاتِ مُهينٌ، وانتِهاكٌ لِحُرمَةِ العقلِ مَكينٌ، حينَ يُحرَمُ الإنسانُ بِقَسوةٍ منْ حَقِّهِ الأصيلِ، ألَا وهُوَ القُدرةُ على طَرحِ سُؤالِ "لِماذا؟" النَّبيلِ. إنّهُ تَحويلٌ لِلعقلِ واستِعبادٌ، لِيُصبِحَ مُجرَّدَ مِرآةٍ مُقعَّرةٍ لا تَزدادُ إلا سوادًا، تَعكِسُ صُوَرَ الآخَرينَ المُشَوَّهةَ، وشاشَةٍ باهِتةٍ تُعرَضُ عليها أفكارُهُمُ المُنْتَهَةُ، تَفتَقِرُ لِأدنى بَصيصٍ منْ أصالةٍ أوْ إبداعٍ مُنبَهِجٍ.

ونَحنُ، في تِلكَ اللّحظاتِ الأُولى منْ زَحفِنا على أرضِ الوُجودِ، وفي فَجرِ وَعيِنا الخافِتِ كَشُعلةٍ في وَجهِ الرّيحِ الشَّديدِ، نَغرَقُ، دونَ أنْ نَدري أوْ نَعي، في مُحيطٍ مُعتِمٍ منَ المُسلَّماتِ كَالبَحرِ المَديدِ، عالِمٍ لا نَعلَمُ منْ أيْنَ جاءَ وانْبَثَقَ، ولا كَيفَ تَكَوَّنَ وتَنَسَّقَ، ولا نَفقَهُ حتّى لِمَ يَفرِضُ علينا ما يَفرِضُهُ منْ قُيودٍ وأغلالٍ تَعتَنِقُ. لمْ نَكُنْ قَدْ تَعَلَّمْنا بَعدُ أنَّ هُناكَ مَساحةً شاسِعةً لِلتَّساؤُلِ والتَّحليقِ، وأنَّ الشَّكَّ مِفتاحٌ لِلفَهمِ يَفْتُقُ ويُشرِقُ. فالمَسافةُ بينَ التَّسليمِ الأعمى وبينَ الشَّكِّ النّاقِدِ لمْ تَكُنْ قَدْ حُفِرَتْ بَعدُ في أرضِ عُقولِنا الغَضّةِ؛ ولمْ نَكُنْ قَدْ سَمِعْنا عنْ فَلسفةِ "المُعارَضةِ" كَفِعلٍ وُجوديٍّ يَصْدُقُ، لِأنّنا بِبَساطةٍ لمْ نُدرِكْ

أساسًا أنَّ هُناكَ شَيئًا يُسَمّى "الاختيارَ" في فَهمِنا لِلواقِعِ أوْ تَشكيلِنا لِذاتِنا أوْ ما نَعشَقُ. في تِلكَ اللَّحْظَةِ الحاسِمةِ، يَكونُ العقلُ كَصُندوقٍ مُغلَقٍ لَمْ يُفْتَحْ، أوْ كَحِصنٍ مَنيعٍ لَمْ يُمتَحَنْ، تَتوالى عليهِ المَفاهيمُ الجاهِزةُ مِنَ الخارِجِ كَقَذائِفَ، لا تَرى مُقاوَمةً أوْ لَها دَوافِعَ، فَتَتَرَسَّخُ في داخِلِهِ كَمُسلَّماتٍ لا تُجادَلُ، وكَحَقائِقَ لا يَجوزُ الشَّكُّ فيها أو الاقترابُ منْ أسوارِها أوْ ما تَحْمِلُ. فالطِّفلُ، في بَراءَتِهِ المُستَباحَةِ، لا يَتَلَقّى سِوى "حَقائِقَ" مُعلَّبةٍ مُباحَةٍ، مَعلوماتٍ مُصَفّاةٍ تَخدُمُ النِّظامَ القائِمَ وَتُتابِعُهُ، يَراها كَما تُقَدَّمُ لَهُ، كَمُعطَياتٍ نِهائِيّةٍ لا تُقابِلُهُ بِالنَّقدِ ولا تُزاحِمُهُ، بِلا أيّةِ قُدرةٍ على التَّفكيكِ أوِ التَّحليلِ أوِ الرَّبْطِ أوْ ما يُعاضِدُهُ. إذْ إنَّ أسئلةَ البِداياتِ الكُبرى، تِلكَ التي تُزلزِلُ اليَقينَ وتُنْهِضُ الغافِلينَ – "لِماذا هكَذا وليسَ غَيرُهُ؟" و "كَيفَ أمْكَنَ لِهذا أنْ يكونَ؟" – لَمْ تَجِدْ لَها مَكانًا في جُمجُمَتِهِ المَشغولةِ بِاللاهوتِ المُلَقَّنِ بَعدُ، ولَمْ تَجِدْ مَنْ يُعاضِدُهُ. يَتَلَقّى الأفكارَ كَما يَتَلَقّى طَعامَهُ اليَوميَّ، بِسَلبيّةٍ تامّةٍ ودونَ أيِّ تَصَدٍّ، بِلا أيّةِ مُقاوَمةٍ تُذكَرُ، وبِلا أيِّ حاجِزٍ نَقديٍّ يَحمي حُدودَ وَعيِهِ المُخترَقِ، أوْ يَرُدُّ عَنهُ الشَّرَّ المُحدِقَ. فَتُغرَسُ فيهِ أُسُسُ الإيمانِ قَبلَ أنْ يَعرِفَ مَعنى الشَّكِّ والتَّبيانِ، وتُحفَرُ فيهِ "الحَقائِقُ" الدِّينيّةُ قَبلَ أنْ يُفكِّرَ في البَحثِ عنْ حَقيقةٍ في هذا الزَّمانِ، وتُرسَمُ فيهِ العَقائِدُ الاجتِماعيّةُ قَبلَ أنْ يَمتَلِكَ شَجاعةَ المُساءَلةِ أوْ يُطلِقَ لِفِكرِهِ العِنانَ. فَتِلكَ الفِكرةُ الأُولى، ذاكَ المُعتَقَدُ الأوَّلُ، الذي قَدْ يَظُنُّ الإنسانُ حينَ يَكبُرُ أنَّهُ اختارَهُ بِحُرِّيّةِ الوِجدانِ، وأنَّهُ تَوصَّلَ إليهِ بِجُهدِ عَقلِهِ المُستَقِلِّ البَيانِ، هوَ في حَقيقةِ الأمْرِ مَفروضٌ عليهِ فَرضًا لا يُدانُ، مُهرَّبٌ إلى داخِلِهِ عَبرَ قَنواتٍ مُتَعدِّدةٍ لا تُبانُ – منَ الأُسرةِ إلى المَدرَسةِ إلى الشّارِعِ وصَخَبِ الأذانِ – لا تَظهَرُ لهُ إلا كَجُزءٍ "طَبيعيٍّ" منَ البِنيةِ التي فيها كانَ، وكَالهَواءِ الذي يَتَنَفَّسُهُ دونَ أنْ يُفكِّرَ في تَركيبَتِهِ أوْ يَطلُبَ البُرهانَ..

إنَّ ما يَجري حَقيقةً، في خَفاءٍ مُحكَمٍ وتَحتَ سِتارِ التَّربيةِ والإرشادِ المُكرَّمِ، ليسَ مُجرَّدَ نَقلٍ لِلمَعرِفةِ أوْ صَقلٍ لِلذِّهنِ المُلهَمِ، بلْ هوَ عَمليّةُ "أسطَرَةٍ" مُمَنْهَجةٍ لِلعَقلِ الوَليدِ المُعْدَمِ، وتَجريدٌ لَهُ منْ بُعدِهِ النَّقديِّ الأقوَمِ، وتَحويلٌ لَهُ إلى مُجرَّدِ آلَةِ استِقبالٍ سَلبيّةٍ لا تَفهَمُ، تَعتَمِدُ في قِوامِها وبَقائِها على تَدَفُّقِ التَّلقينِ الخارِجيِّ المُستَديمِ الذي يُشَكِّلُها ويُبَرمِجُها ويُحَجِّمُ. ومَا يَنشَأُ عنْ هذا التَّدَخُّلِ القَسريِّ المُستَحكِمِ ليسَ فَهْمًا ناضِجًا لِلعالَمِ، بلْ "واقِعٌ" خَيالِيٌّ مُصطَنَعٌ، مُظلِمٌ، صُورةٌ مُزَيَّفةٌ لِلحَياةِ، ليستْ إلا تَمثيلاً مُختَزَلاً، ظِلاًّ باهِتًا، لِذلكَ الواقِعِ الأوحَدِ الذي أُجْبِرْنا قَسرًا على تَقَبُّلِهِ كَحَقيقةٍ لا تُناقَشُ ولا تُهْدَمُ. وهَذِهِ، لَعَمرُ الحَقيقةِ، هيَ الفِكرةُ المُدَمِّرَةُ بِعَينِها، اللَّغْمُ المَوقوتُ في أساسِ الوَعيِ وأصْلِهِ الأقدَمِ. فَمِنْ خِلالِ فَرضِ هذهِ الأفكارِ الجاهِزةِ، وهذهِ الرُّؤى المُعلَّبةِ البائِسةِ، يُقَيِّدُ العقلُ بِسَلاسِلَ خَفيّةٍ أشَدَّ فَتْكًا منَ الحَديدِ

المُحَطِّم، ويُحتَجَزُ في زِنزانةِ الوَهْمِ التي رَأيناها، جُدرانُها منَ المُسلَّماتِ الصَّمّاءِ وسُقوفُها منَ المَوروثاتِ العَمياءِ، لا يَرى منْ خِلالِ كُوَّتِها الضَّيِّقةِ المُعتمَةِ غيرَ تلكَ الفُتحةِ المَحدودةِ التي تُطِلُّ على ما تَمَّتْ تَربِيَتُهُ وتَدجينُهُ على تَصديقِهِ وقَبولِهِ دونَ سُؤالٍ أوْ تَبَرُّمٍ. فَالعالَمُ الذي يَتَراءى لِعقلِ الطِّفلِ في مَرايا وَعيِهِ المُغلَقةِ هوَ نُسخةٌ مُبتَسرةٌ، مَبتورةٌ، صُورةٌ كاريكاتوريّةٌ مُشَوَّهةٌ لِهذا العالَمِ، نُسخةٌ صاغَها لهُ التّاريخُ كَما رآهُ الآخَرونَ - أصحابُ السُّلطَةِ والقُوَّةِ، حُرّاسُ التَّقاليدِ البالِيةِ، كَهَنَةُ المُعتَقَدِ الأجْوَفِ - وأملَتْ عليهِ أصابِعُهُمْ مَلامِحَها وتَفاصيلَها، دونَ أنْ يُمنَحَ، وَلوْ لِلَحظةٍ واحِدةٍ، ذلكَ الحَقَّ الأصيلَ، الحَقَّ المَسلوبَ، في أنْ يُعيدَ تَشكيلَ هذا العالَمِ بِعَينَيهِ هُوَ، بِفَهمِهِ الخاصِّ، بِسُؤالِهِ الحُرِّ الذي يَجوبُ.

لكِنَّ الحَقيقةَ المُرَّةَ، تلكَ التي تُحاوِلُ أنظمةُ التَّلقينِ المُستَبِدَّةُ إخفاءَها بِكُلِّ ما أوتِيَتْ منْ قُوّةٍ وحيلةٍ، هيَ أنَّ هذهِ المَفاهيمَ السّاميةَ، قَبلَ أنْ تكتَسِبَ هالةَ القَداسَةِ المُصطَنَعةَ أوْ تَدَّعيَ الجَوهَريّةَ المُطلَقةَ الزّائِفةَ، ليستْ سِوى مَحْضَ بِناءٍ اجتِماعيٍّ هَشٍّ نَكيُوطِ العَنكَبوتِ، ونَسيجٍ ثقافيٍّ مُتَغيِّرٍ كَألوانِ الحِرباءِ، واتِّفاقٍ ضِمنيٍّ - أوْ قَسريٍّ في أغلبِ الأحيانِ - بَينَ أفرادِ جَماعَةٍ ما في لَحْظَةٍ تاريخيّةٍ مُعيَّنةٍ، يُشَكِّلُ ما يُقَدَّمُ لَنا تَحتَ اسمِ "الواقِعِ المَوضوعيِّ" ويَفرِضُهُ علينا فَرضًا، لا بِقُوّةِ المَنطِقِ السَّليمِ أوْ بَداهَةِ الحَقيقةِ السّاطِعةِ، بلْ بِقُوّةِ العُرفِ المُتَوارَثِ والقِيَمِ العَتيقةِ التي فَقَدَتْ مَعناها ولكِنّها احتَفَظَتْ بِسُلطانِها وَأذاها. وعِندَما يَقضي الإنسانُ عُمرَهُ القَصيرَ حَبيسًا داخِلَ هذا الإطارِ الضَّيِّقِ منَ التَّلقينِ المُتَواصِلِ، أسيرَ هذهِ النُّسخةِ المُبتَسرةِ المُشَوَّهةِ منَ العالَمِ، فَإنَّ تلكَ القِيَمَ - التي كانتْ يَومًا ما مُجَرَّدَ آراءٍ أوْ أعرافٍ قابِلةٍ لِلنَّقدِ والتَّمحيصِ والتَّغييرِ - تَتَحَوَّلُ، بِفِعلِ التَّكرارِ والتَّقديسِ، إلى حَجَرٍ رَحىً ثَقيلٍ يَدورُ على عُنُقِ عَقلِهِ، وإلى قَيدٍ فولاذيٍّ يَلتَفُّ حَولَ رُوحِهِ، وإلى أغلالٍ غيرِ مَرئيّةٍ لا يَستطيعُ، أوْ رُبّما لا يَجرُؤُ، على التَّخَلُّصِ مِنْها أوْ حتّى الاعترافِ بِوُجودِها لِشِدّةِ خَوفِهِ.

وبِالطَّبعِ، فَإنَّ الإنسانَ الأسيرَ في قَفَصِهِ، والمَسجونَ داخِلَ نُسخَتِهِ المَبتورةِ منَ الوُجودِ الفَسيحِ، لا يُدرِكُ غالِبًا فَداحَةَ أسْرِهِ ولا يَرى، أوْ ضِيقَ زِنزانَتِهِ الفِكريّةِ وما ادَّخَرَ. لا، بلْ هوَ فَقَطْ يَنمو ويَتَمَدَّدُ، بِسذاجةِ النَّبتَةِ العَمياءِ، داخِلَ هذا الإطارِ المُقَيِّدِ، هذا القالَبِ الخانِقِ الذي ما فَتِئَ، الذي يَحرِمُهُ، دونَ أنْ يَصرُخَ أوْ يَجْأَرَ، منَ الحُرّيّةِ الحَقيقيّةِ، حُرّيّةِ أنْ يُدرِكَ، وَلوْ لِمُجَرَّدِ لَمحَةٍ خاطِفةٍ كَالنَّجمِ إذا سَرى، أنَّ هُناكَ عَوالِمَ أُخرى شاسِعةً تَمتَدُّ وَراءَ جُدرانِ قَصرِهِ الوَهميِّ الذي بِهِ اغْتَرَّ، وأنَّ هُناكَ "حَقائِقَ" أُخرى

مُتعدّدةً، مُتناقِضةً، تُنتظَرُ مَنْ يجرؤُ أنْ يَستجلِيَها أو أنْ يَستقِرَّا. فهذا الفَهمُ المَشروطُ الذي يَتَشكّلُ في أعماقِهِ كَنَسيجٍ عَتيقٍ مُغْبَرًّا، لا يتأسَّسُ، كما قَدْ يُخَيَّلُ لَنا، على صَخرةِ المَنطِقِ الصُّلْبِ أوْ صِدْقِ الخبَرا، ولا على عَمَدِ الاستِدلالِ العَقليّ النَّزيهِ الذي تَبَصَّرا، بلْ هوَ في جَوهَرِهِ يُخْلَقُ، بِفِعلِ التَّكرارِ والتَّقديسِ الذي أثَّرا، طَبقاتٍ مُتَراكِمةً كَصُخورِ الرَّواسِبِ التي لا تُكْسَرا، طَبقاتٍ مِنْ تَصَوُّراتٍ وأوهامٍ وأحكامٍ مُسبَقةٍ، يَظُنُّ صاحِبُها، بِيَقينٍ أعمى، أنّها الحَقيقةُ المُطْلَقَةُ، هيَ الواقِعُ في تَجَلّيهِ الذي تَصَدَّرا، على الرّغمِ منْ كَوْنِها، في أصْلِها وبُنيَتِها، ليستْ إلا نَتائِجَ مُباشِرةً لِتِلكَ العَمَليّةِ المُستمِرّةِ، المُتَخَفِّيَةِ، مِنَ التَّلقينِ القَسريّ الذي تَجَرَّعَ مَرارَها وتَشَرَّبَ. وما يَزيدُ هذا الفَهمَ المَوروثَ غَرَقًا في مُستنقَعِ التَّضليلِ والخِداعِ الأكْبَرا، ويَجعَلُهُ أداةً لِلاستِعبادِ لا التَّحريرِ مِمَّنْ تَجبَّرا، هوَ افتِقارُهُ المُزمِنُ لِذلكَ الوَعيِ النّاقِدِ، وتِلكَ المَسافَةِ الفِكريّةِ الضَّروريّةِ التي لا تُشْتَرَى، التي تَسمَحُ لهُ بأنْ يَضَعَ نَفسَهُ، ولَوْ مَرّةً واحِدةً في العُمْرِ، تَحتَ مِجهَرِ النَّقدِ الصّارِمِ والفَحصِ الشُّجاعِ الذي يَبري ويَنْحَرا. وهكَذا، وبِحُكمِ هذا الغِيابِ المُمَنْهَجِ لِلمُساءَلةِ، يَتَحَوَّلُ هذا الفَهمُ المُستأجَرُ، تَدريجيًّا ودونَ صَخَبٍ يُذْكَرا، إلى مَجموعةٍ مِنَ "المَقولاتِ" المُتَخَيَّلَةِ، مِنَ البُنى الفِكريّةِ المُغلَقةِ، تُقَدَّمُ على أنّها "مُسلَّماتٌ" لا تَقبَلُ الجَدَلَ، كَصُخورٍ صَمّاءَ لا يُمكِنُ لَمسُها أوِ الاقترابُ مِنْ حِماها دونَ التَّعرُّضِ لِخَطَرِ النَّبذِ أوِ اتّهامٍ يُزْجَرا. فَتَكتَسِبُ هذهِ المَقولاتُ، بِفِعلِ القَداسَةِ المُضْفاةِ عَلَيها، سُلطَةً تَفوقُ العقلَ وتَشُلُّ حَرَكَتَهُ وتَستأْسِرا، قَداسَةً عَمياءَ تَجعَلُ الإنسانَ الأسيرَ يَقبَلُها على عِلاتِها، بِتَناقُضاتِها، بِعُيوبِها الفاضِحةِ، دونَ أدنى مُحاوَلةٍ لِفَهمِ جُذورِها العَقليّةِ المَشْكوكِ فيها أوْ ما يُحْتَضَرا، أوْ لِتَتَبُّعِ مَساراتِها التّاريخيّةِ المُلْتَويةِ أوْ ما يُدَبَّرا، أوْ لِكَشفِ المَصالِحِ الخَفيّةِ التي قَدْ تَكمُنُ وَراءَ تَرسيخِها كَحَقائِقَ أزَليّةٍ لا تَتَغَيَّرا.

إنَّ عَمليّةَ تَشَكُّلِ الفَهمِ هذهِ، إذا جَرَّدْناها مِنْ أثوابِها البَرّاقةِ وأقنِعَتِها المُزَيَّفةِ الرّاقَةِ، ليستْ في جَوهَرِها إلا عَمليّةَ اختِطافٍ سافِرٍ، وسَطوٍ مُسلَّحٍ غادِرٍ، على عَقلِ الإنسانِ الأعزَلِ، حيثُ يُسْلَبُ هذا العقلُ استِقلالَهُ ويُهزَلُ، وتُصادَرُ مِلكيّتُهُ الفِكريّةُ ويُذَلَّلُ، لِيَتحوَّلَ إلى مُجرَّدِ أداةٍ صَمّاءَ تُجْهَلُ، آلَةٍ مُطيعةٍ لا تُفكِّرُ إلا بِما يُزرَعُ فيها قَسرًا كَالحَبِّ في المِنجَلِ، مِنْ قِبَلِ غُزاةِ الوَعيِ الأخْطَلِ، ولا تَرى مِنَ العالَمِ إلا تِلكَ الصُّوَرَ المُجتَزأَةَ التي تُملى عليها إملاءً مِنْ سِجنِها المُقْفَلِ. وهذا بِالتّحديدِ ما يُشَكِّلُ جَوهَرَ ما يُعرَفُ بِـ "الخِداعِ الإبستمولوجيّ"، أيْ ذلكَ التّضليلُ المَعرفيُّ المُتجذِّرُ في نِظامِ المَعرِفةِ ذاتِهِ، النِّظامُ الذي تَتَبنّاهُ الجَماعَةُ كَخَيرٍ مُؤَثَّلٍ، وتُكرِّسُهُ كَحَقيقةٍ مُطلَقةٍ لا تَتَبَدَّلُ، والذي يَتَراءى لِلفَردِ المَسجونِ داخِلَهُ وكَأنّهُ

الحَقيقةُ الوَحيدةُ المُفضَّلَةُ، والفَضاءُ الأوحَدُ لِفَهمِهِ ووُجودِهِ المُتَأصّلُ. وهكَذا، وبِفعلِ هذا الخِداعِ المُتَواطَئِ عليهِ المُستَفْحِلِ، يَتَحَوَّلُ الفَهمُ المَوروثُ، ذاكَ الذي كانَ يُفتَرَضُ أنْ يكونَ جَناحًا يُحلّقُ بهِ الإنسانُ نَحوَ الحَقيقةِ ويَستَبْسِلُ، إلى سِجنٍ مُغلَقِ الأبوابِ، وزِنزانةٍ لا نَوافِذَ لَها في كُلِّ بابٍ، حَيثُ تُوصَدُ المَنافِذُ بِقُضبانٍ منَ التَّلقينِ والتَّأديبِ، في وَجهِ أيِّ نَسيمٍ لِلفِكرِ النَّقديِّ الحُرِّ الرَّطيبِ. وتُغرَسُ الأفكارُ الجاهِزةُ والمُعلَّبةُ، كَأوتادٍ في أرضِ العقلِ الجَديبِ، داخِلَ أقفاصٍ ضَيِّقةٍ منْ قَناعاتٍ مَوروثةٍ ومُكرَّرةٍ، لا يَملِكُ الإنسانُ الأسيرُ القُدرةَ، أوْ رُبّما لا يَتَجاسَرُ، على الهُروبِ مِنْها أوْ زَعزَعَتِها بِعَزمٍ قَريبٍ.

إنَّ هذهِ الهُوّةَ الشّاسِعةَ، وهذا الشَّرخَ العَميقَ الذي يَفصِلُ، بينَ الفَهمِ كما يُقَدَّمُ لَنا مُعلَّبًا في أسواقِ التَّلقينِ لِيُقبَلَ، وبينَ الفَهمِ كما يُمكِنُ أنْ يكونَ حُرًّا مُتَجَدِّدًا لِيُؤَصِّلَ، إذا ما تَجَرَّأنا على سَبرِ أغوارِهِ مِنْ زَوايا مُغايِرةٍ ونَتَحَمَّلَ، وتَحَدَّينا مُسلَّماتِهِ المَوروثةَ التي تَكبِّلُ. إنَّ هذهِ المَسافةَ، تَحديدًا، هيَ التي تَخلُقُ ذلكَ التَّفاوُتَ الصّارِخَ، والبَوْنَ الشّاسِعَ الذي يَشْغَلُ، بينَ حَياةٍ فِكريّةٍ جادّةٍ، مُتسائِلَةٍ، تُقاوِمُ القَوالِبَ وتَتَفَتَّلُ، وبينَ حَياةٍ فِكريّةٍ خامِلةٍ، كَسولةٍ، تَتَثاقَلُ، مَدفوعةً بِقُوّةِ الدَّفعِ العَمياءِ لِلموروثاتِ العَتيقةِ، ومُستَسلِمةً لِجاذِبيّةِ القَطيعِ الآمِنِ الذي لا يَتَزَلزَلُ. لكِنْ، ويا لَلأسَفِ، فَإنَّ هذا الفَهمَ المُزَوَّرَ الذي يُزرَعُ ويُغرَسُ، في تُربةِ العقلِ الفَرديِّ مُنذُ الصِّغَرِ ويُقَدَّسُ، هذا الإطارَ المُشَوَّهَ لِلعالَمِ الذي يُحبَسُ، يَظَلُّ، رُغمَ قُيودِهِ الخانِقةِ وزَيفِهِ المُتَأصّلِ الذي يُلبَسُ، هوَ المِنظارَ الوَحيدَ الذي يَرى الفَردُ مِنْ خِلالِهِ العالَمَ ويَتَنَفَّسُ، وهوَ الخَريطةَ الوَحيدةَ التي يَستعينُ بِها لِتَحديدِ مَسارِهِ ولا يُؤَيِّسُ، وهوَ المِصفاةَ التي تَمُرُّ عَبرَها كُلُّ تَجارِبِهِ فَلا تُدَنَّسُ. فَكُلُّ وَمضةِ تَجرِبةٍ جَديدةٍ تَلمَعُ في أُفُقِهِ، وكُلُّ لِقاءٍ عابِرٍ مَعَ حَقيقةٍ مُغايِرةٍ أوْ فِكرةٍ صادِمةٍ تَتَحَدّى مَنظومَتَهُ، لا يُمكِنُهُ إلا أنْ يَعرِضَها أوَّلاً على مَحكَمَةِ هذا الفَهمِ المُلَقَّنِ، لِيَتِمَّ فَحصُها وتَدقيقُها واختِبارُ مَدى تَوافُقِها، لا مَعَ الواقِعِ المَوضوعيِّ بِبَراهينِهِ، بَلْ مَعَ المَعاييرِ الضَّيِّقةِ والأحكامِ المُسبَقةِ التي تَلَقَّنَها سَلَفًا كَحَقائِقَ نِهائيّةٍ تَكفيهِ. فَتَظهَرُ هذهِ التَّجرِبةُ الجَديدةُ، في مِرآةِ وَعيِهِ المَشروطةِ، وكَأنّها تُمَثِّلُ اختِبارًا نَزيهًا لِلواقِعِ، وفَحصًا مَوضُوعيًّا لِلحَقيقةِ، لكِنّها في حَقيقَتِها، وفي أغلَبِ الأحْيانِ، ليستْ سِوى آلِيّةٍ دِفاعيّةٍ ماكِرةٍ، وعَمليّةِ إعادَةِ تَأكيدٍ وتَثبيتٍ لِما هوَ مَوجودٌ بِالفِعلِ في قَبوِ الوَعيِ الجَمعيِّ الضَّريرِ، ومُجَرَّدَ وَسيلةٍ لِتَعزيزِ جُدرانِ السِّجنِ بَدلاً منْ هَدمِها، لِتَرسيخِ القَيدِ بَدلاً منْ فَكِّهِ. ويَغدو عاجِزًا تَمامَ العَجزِ عنِ الهُروبِ منَ الحُدودِ الخانِقةِ التي فَرَضَتها عليهِ تِلكَ التَّصوُّراتُ المَوروثةُ التي تَحْتَقِرُ، وتِلكَ الخَرائِطُ المُزَيَّفةُ التي رَسَمَها لهُ الآخَرونَ فَأجبَرَهُ. يُصبِحُ الإنسانُ عندئذٍ أسيرًا مُكبَّلًا داخِلَ تِلكَ الشَّبكَةِ

اللّزجةِ منَ "المَفاهيمِ" المُعلَّبةِ والقَوالِبِ الجاهزةِ التي تَأسِرُ، تلكَ التي تَتَراءى لهُ، بِفعلِ التَّكرارِ والتَّقديسِ، على أنّها "حَقيقةٌ" لا تَقْبَلُ الجَدَلَ أوْ تُنْكَرُ، سَواءٌ كانتْ حَقيقةً فيزيائيّةً عنِ الكَوْنِ، أوْ قِيمةً أخلاقيّةً عنِ الإنسانِ، أوْ مُعتَقَدًا غَيبيًّا عنِ المَصيرِ المُقدَّرِ. وحينَ يَصِلُ إلى هذهِ الدَّرَجةِ منَ الانغلاقِ المُحكَمِ الذي لا يُغْتَفَرُ، لا يكونُ أمامَهُ مَفَرٌّ أوْ خِيارٌ سِوى أنْ يَقضيَ عُمرَهُ بِأكملِهِ يَعيشُ ويَتَنَفَّسُ ويُفكِّرُ داخِلَ هذهِ الحُقولِ المَعرفيّةِ الضَّيِّقةِ التي تُحاصِرُ، كَسَمكةٍ تَدورُ في حَوضٍ زُجاجيٍّ لا تَدري بوجودِ بَحرٍ خارِجَهُ أوْ ما يُبشِّرُ. وهنا تَتَجلّى الكارِثةُ في أبشَعِ صُوَرِها وتَستَقِرُّ: تُصبِحُ العُقولُ، التي كانَ قَدَرُها الإبداعَ والتَّجاوُزَ والخلقَ المُثمِرَ، تُصبِحُ مُجْبَرَةً، مُبَرمَجَةً، على إنتاجِ ذاتِ الأفكارِ المُكرَّرةِ البالِيةِ التي تُكَرِّرُ، وعلى اجترارِ نَفسِ المَقولاتِ العَتيقةِ التي تَضُرُّ، دونَ أنْ تَجِدَ مَجالاً لِتطويرِ تَصوُّراتٍ جَديدةٍ تُخَصِّبُ الفِكرَ أوْ تُؤَثِّرُ، أوْ لِخلقِ أُفُقٍ مُختلِفٍ يُوَسِّعُ مَدارِكَ الوَعيِ أوْ يُحَرِّرُ. ومِنْ ثمَّ، تَتَحوَّلُ المَعرِفةُ نَفسُها، التي كانَ يُفتَرَضُ أنْ تكونَ رِحلَةَ استِكشافٍ لا نِهائيّةً تَستَمِرُّ، إلى دائِرةٍ مُغلَقةٍ خانِقةٍ، إلى نَفَقٍ مُعتِمٍ لا مَخرَجَ مِنهُ يُستَظَرُّ، تكونُ فيهِ كُلُّ مُحاوَلةٍ لِلخُروجِ، كُلُّ تَمرُّدٍ على القَيدِ، مَحكومةً بِالفَشَلِ الذَّريعِ مُقدَّمًا وتُستَنكَرُ. لِماذا؟ لأنَّ هذا الخُروجَ، في نَظَرِ العقلِ المُستَعبَدِ وحُرّاسِ قَفَصِهِ، لا يَعدو أنْ يكونَ تَحدّيًا سافِرًا لِلقِيمِ المُقدَّسةِ التي تُحدِّدُ "الفَهمَ الصَّحيحَ" وتُقَرِّرُ، وتَمَرُّدًا على النِّظامِ الذي يَضمَنُ لهُ أمانَهُ الوَهميَّ ويُؤَمِّرُ، وخُروجًا على الحَقيقةِ التي لا حَقيقةَ سِواها في قاموسِهِ المَحدودِ المُصَغَّرِ.

فذاكَ الأُفُقُ المَعرفيُّ الشّاسِعُ الذي كانَ في الماضي السَّحيقِ مُتاحًا أمامَ العقلِ كَسَماءٍ لا حُدودَ لَها منَ الإمكانيّاتِ المُتَجَدِّدةِ التي لا تُحْصَرُ، وتِلكَ المَساحةُ الرَّحبةُ التي كانَ يُمكِنُ لِلفِكرِ أنْ يَستكشِفَها بِحُرِّيّةٍ وشَجاعةٍ كَالصَّقرِ إذا نَظَرَ، تَتَحَوَّلُ، بِفعلِ هذا التَّقييدِ المُزمِنِ وهذا الأَسْرِ المُسْتَمِرِّ، إلى مُجرَّدِ سِلسِلةٍ كَئيبةٍ، مُظلِمةٍ، لا مُتَناهيةٍ منَ الاجتِهاداتِ المَبتورةِ، ومنَ الأنظارِ القاصِرةِ، ومنَ الآراءِ الأُحاديّةِ العَمياءِ التي لا تَرى إلا لَونًا واحِدًا في طَيفِ الحَقيقةِ المُتَعدِّدِ الذي يَزْدَهِرُ. هذهِ الرُّؤى المُجتَزَأةُ، كَسَكاكينَ حادّةٍ تَجْرَحُ وتَغْدُرُ، تُجبِرُ عَينَ العقلِ على التَّحديقِ في جُزءٍ ضَئيلٍ، في زاويةٍ كَليلةٍ منَ الحَقيقةِ، وتَمنَعُها بِقسوةٍ، بَلْ تُعميها، عنْ رُؤيةِ الصُّورةِ الكامِلةِ أوْ ما يُستَنصَرُ، عنِ الإحاطةِ بِالمَشهَدِ بِأبعادِهِ الشّاسِعةِ وتَفاصيلِهِ المُتَشابِكةِ التي لا تُستَقصَرُ.

فَذاكَ الفَهمُ المُلَقَّنُ، الذي يُرَسَّخُ في العقلِ كَوَشمٍ على الجَبينِ لا يُمحى، عَبرَ تلكَ الشَّبكَةِ المُحكَمةِ منَ المَفاهيمِ المَوروثةِ الثَّقيلةِ والأوهامِ المُقَدَّسةِ التي لا تُحْصى، لا يَعودُ مُجَرَّدَ رُؤيةٍ قاصِرةٍ أوْ نَظرةٍ عَليلةٍ، بلْ يَرتَقي لِيُصبِحَ بِمثابةِ "حِجابِ مَعرِفةٍ" سَميكٍ، وسِتارٍ حَديديٍّ مَنيعٍ، يُسدَلُ على بَصيرةِ الإنسانِ فَيَحجبُ عنهُ النُّورَ ويُضِلُّهُ السَّبيلَ، ويَمنَعُهُ مِنْ مُمارَسةِ أبسَطِ أدواتِهِ النّاقِدةِ، ذلكَ العقلَ الجَذريَّ الذي يَنبُشُ في الأُسسِ ويُسائِلُ البَديهيّاتِ ويُبْطِلُ الباطلَ. إنّنا هُنا، بِلا لَفٍّ أوْ دَوَرانٍ أوْ مُوارَبةٍ، لا نَتَعامَلُ مَعَ مُجَرَّدِ قُصورٍ في الإدراكِ أوْ خَلَلٍ في الميزانِ، بلْ مَعَ شَكلٍ خَبيثٍ، ماكِرٍ، شَكلٍ ناعِمٍ ومُتَخَفٍّ منَ "الاستعمارِ الفِكريِّ" الذي لا يَعرِفُ الشَّفَقَةَ أوِ الأمانَ، يَشُنُّهُ الفِكرُ الجَمعيُّ المُهيمِنُ، بِجُيوشِهِ الجَرّارةِ منَ التَّقاليدِ الباليةِ والأعرافِ القَبَليّةِ والعَقائِدِ المُتَحجّرَةِ، على الوَعيِ الفَرديِّ الأعزَلِ الذي لا يَملِكُ السِّنانَ. استعمارٌ لا يَحتاجُ إلى قَهرٍ جَسديٍّ مُباشِرٍ أوْ سُجونٍ حَجريّةٍ قاتِمةٍ، بلْ يَكتَفي بِفَرضِ نَمَطٍ مُوحَّدٍ منَ التَّفكيرِ، وقَوالِبَ جاهِزةً لِلرُّؤيةِ والحُكمِ والتَّقديرِ، يَسجُنُ فيها الإنسانَ ويُكَبِّلُهُ دونَ أنْ يَدري أنّهُ سَجينٌ، بلْ غالبًا ما يَظُنُّ، في عَمى بَصيرَتِهِ، أنَّ قُيودَهُ هيَ زينَتُهُ وفَخرُهُ المُبينُ. وإنَّ هذا الغَزوَ الفِكريَّ الخَبيثَ لا يَقتَصِرُ على فَرضِ مُعتَقَداتٍ اجتِماعيّةٍ باليةٍ أوْ عقائِدَ دينيّةٍ مُتَحجّرَةٍ قاحِلةٍ فَحَسْبُ، بلْ إنَّ أذرُعَهُ الأخطبوطيّةَ تَمْتَدُّ بِجَشَعٍ لا يَرتَوي، لِتَشملَ كُلَّ أبعادِ الفَهمِ الإنسانيِّ وتُلَوِّثَ كُلَّ نَبعٍ لِلمَعرِفةِ أوِ اليَقينِ؛ منَ السِّياسةِ التي تُصاغُ في غُرَفٍ مُغلَقةٍ وتُفرَضُ على المَساكينِ، إلى الأخلاقِ التي تُفصَّلُ على مَقاسِ السُّلطَةِ وتَخدُمُ السَّلاطينَ، ومنْ حُقولِ العُلومِ التي تُوَجَّهُ أحيانًا لِخِدمةِ أغراضٍ مُعيَّنةٍ تَزيدُ الطِّينَ، إلى أعمَقِ المَناطِقِ ظُلمةً في المُعتَقَداتِ الميتافيزيقيّةِ والدّينيّةِ التي تُقَدِّمُ اليَقينَ المُخَدِّرَ كَبَديلٍ رَخيصٍ عنِ الحَقيقةِ، وتُسكِتُ الأنينَ. وبِهذا المَعنى المُريعِ، يَتحوَّلُ العقلُ الفَرديُّ، ذاكَ الذي كانَ يَحمِلُ في طَيّاتِهِ وَعْدَ الأصالةِ والتَّفرُّدِ واليَقينِ، إلى مُجَرَّدِ انعكاسٍ باهِتٍ، صَدًى مُشوَّهٍ وخافِتٍ، لِتِلكَ الهَيمَنةِ الجَماعيّةِ الخانِقةِ التي تُطبِقُ عليهِ بِقُوّةٍ ناعِمةٍ، لا واعيةٍ غالبًا، وكَأنَّ الإنسانَ المَسلوبَ الإرادةَ لا يَمتَلِكُ، في هذهِ اللَّحْظَةِ المُظلِمةِ منْ تاريخِهِ الحَزينِ، مِنْ عقلِهِ الذي يَظُنُّهُ مِلكَهُ اليَمينَ، سِوى تِلكَ الفُتاتِ منَ الأفكارِ، وتِلكَ الأوامرَ المُعلَّبةَ القادِمةَ منَ السِّنينَ، التي تُملى عليهِ منَ الخارِجِ دونَ تَوقُّفٍ أوْ تَبيينٍ. وهُنا، في عُمْقِ هذا الأَسْرِ المُحكَمِ المُبينِ، تَتَجلّى حَلْقةُ الجَحيمِ المُفرَغةُ التي لا تَلينُ: فَكُلّما ازدادَ الإنسانُ تَشَبُّثًا بِتِلكَ التَّصوُّراتِ الجاهِزةِ التي قُدِّمَتْ لهُ على أنّها الحَقيقةُ النّاصِعةُ واليَقينُ المُبينُ، وكُلّما دافَعَ عَنْها بِعِنادٍ أعمى وغُرورٍ مَشينٍ، كُلّما ازدادَتْ قَوقَعَتُهُ الفِكريّةُ سُمْكًا وصَلابةً، وكُلّما تَزايَدَتْ واتَّسعَتْ تِلكَ المَساحاتُ

الشّاسِعةُ منَ اللّامَعرِفةِ، منَ الظّلامِ المُتَعَمَّدِ، التي يَسكُنُها ويَألَفُها حتّى يَظُنَّها مَوطِنَهُ الحَصينَ. إنَّ هذهِ التَّقييداتِ العقليّةَ، هذهِ الأغلالَ الذِّهنيّةَ، تُحوّلُ بِشَكلٍ حَتْميٍّ كُلَّ مُحاوَلةٍ، مَهما بَدَتْ جَريئةً، لِلخُروجِ منَ الدّائِرةِ المَعرفيّةِ الضَّيّقةِ، منْ سِجنِ الفَهمِ المَوروثِ الرَّهينِ، إلى "هُجومٍ" عُدوانيٍّ على الواقِعِ نَفسِهِ في نَظَرِ السُّجَناءِ الآخَرينَ وحُرّاسِ السِّجنِ الأُمناءِ كَذِبًا والمُخادِعينَ. وكَأنَّ العقلَ المُستقِلَّ قدْ باتَ، بِفِعلِ تَمَرُّدِهِ، عَدُوًّا لِلعالَمِ المَألوفِ الذي أُغلِقَ عليهِ وعلى أمثالِهِ المُستكينينَ. ولكِنْ، في حَقيقةِ الأمرِ المُؤلِمةِ، لا يَتِمُّ هذا التَّقييدُ الخانِقُ عادَةً عنْ عَمدٍ مُبيَّتٍ أوْ عنْ عِلمٍ وتَخطيطٍ شَيطانيٍّ لَعينٍ، بلْ هوَ في الغالِبِ مُجَرَّدُ "إنتاجٍ ثقافيٍّ" أعمى، ضَبابٍ كثيفٍ يَحجُبُ الأعيُنَ، يَتَكَوَّنُ بِفِعلِ التَّراكُمِ والتِّكرارِ الذي يُذِلُّ ويُهينُ، يَضيعُ فيهِ الإنسانُ ويَتوهُ، ويَبدأُ، بِسذاجةٍ مُفجِعةٍ، في تَصديقِ أنَّ هذا الضِّيقَ الخانِقَ، هذا القَفَصَ المَحدودَ، هوَ وَحدَهُ الواقِعُ، هوَ كُلُّ ما في الوُجودِ، وأنَّ لا شَيءَ يَستَحِقُّ البَحثَ عنهُ وَراءَ جُدرانِهِ العاليةِ مِنْ حَلاوةٍ أوْ معينٍ.

لكنَّ الخَطَرَ الأشدَّ فَتْكًا ودَهاءً، والمُصيبةَ الأعظمَ في هذا المَوقفِ المُظلِمِ المُتَأزِّمِ، الذي يَضيعُ فيهِ الإنسانُ كَسَجينٍ في إنتاجٍ ثقافيٍّ أعمى لا يَتَكَلَّمُ، لا يَكمُنُ فَقطْ في تَقييدِ العقلِ أوْ تَشويهِ إدراكِهِ لِلعالَمِ وتَحطُّمِهِ، بلْ في الكارِثةِ الوُجوديّةِ الأعمَقِ: أنَّ الإنسانَ يَبدأُ، شَيئًا فَشَيئًا ودونَ أنْ يَشعُرَ بِالألَمِ، في الاغترابِ عنْ جَوهَرِ ذاتِهِ الحَقيقيّةِ، في الانفصالِ عنْ نُواةِ تَفرُّدِهِ وإلهامِهِ، فَيُصبِحُ، بِلا وَعيٍ مِنهُ، مُجَرَّدَ بُرغيٍّ صَغيرٍ، تَرسٍ تافِهٍ، في آلَةِ النِّظامِ الجَبّارةِ التي تَهدِمُ، تِلكَ الآلَةُ التي كانَ يَنبَغي لهُ، لِوَهلَةٍ على الأقَلِّ، أنْ يَكونَ ناقِدًا لَها، مُتَمرِّدًا على سُلطَتِها، مُفَكِّكًا لِآلِيّاتِها التي تَسْحَقُ وتَظلِمُ. إنَّ عَمليّةَ التَّأطيرِ المَعرفيِّ المُستمِرّةِ هذهِ، ذلكَ القَولَبَةَ الفِكريّةَ التي تُمارَسُ على الفَردِ مُنذُ نُعومَةِ أظفارِهِ وتُحَطِّمُ، لا تُقَيِّدُ فَهمَهُ فَحَسْبُ، بلْ تَمتَدُّ لِتُحوِّلَ الذّاتَ البشريّةَ بِأكمَلِها، بِكُلِّ ما فيها منْ إمكاناتٍ خَلّاقةٍ وتَوقٍ لِلحُرّيّةِ والضِّياءِ، إلى مُجَرَّدِ آلَةٍ صَمّاءَ لا تَنطِقُ، إلى روبوتٍ بَليدٍ لا يَعي ما يُساقُ، يَقبَلُ، على مَضَضٍ غالِبًا، وفي صَمتٍ مُستكينٍ دائِمًا، كُلَّ ما يُملى عليهِ منْ أوامرَ ومُسلَّماتٍ وأوهامٍ بِلا إشفاقٍ. وعندها، يَتوقَّفُ الفِكرُ عنْ كَونِهِ نَهرًا مُتدفِّقًا أوْ شُعلةً مُتَوَهِّجَةً تَشْرُقُ، ويُصبِحُ مُجَرَّدَ بِضاعةٍ مُستَهلَكةٍ تُباعُ وتُشترى في أسواقِ التَّلقينِ المُظلِمةِ ولا تَألَقُ، فِكرًا مُكَرَّرًا، باهِتًا، مُعادَ التَّدويرِ، مُنغَلِقًا على ذاتِهِ كَقَوقَعةٍ فارِغةٍ في بَحرٍ عَميقٍ، مُستَسلِمًا بِشَكلٍ مُخزٍ لِتِلكَ الخُطوطِ الثّابتةِ، لِتِلكَ الأسوارِ المَنيعةِ التي رَسَمَها لهُ القَطيعُ بِقَسوَةٍ، فَلا يَعودُ قادِرًا على تَجاوُزِها أوْ حتّى على الحُلُمِ بِتَجاوُزِها أوِ التَّحليقِ. حالُهُ كَحالِ مَنْ يَركُضُ بِلا هُدًى داخِلَ حَلقةٍ

مُغلَقةٍ لا مَخرَجَ مِنْها، مَتاهةٍ لا نِهايةَ لَها، منَ الوُعودِ الكاذِبةِ والأماني الزّائِفةِ التي لا تُطعِمُ منْ جوعٍ ولا تُغني منْ فَقْرٍ ولا تُعتِقُ.

ومنْ هُنا، منْ رَحِمِ هذا الاغترابِ المُظلِمِ وهذا الفِكرِ المُستَهلَكِ الأليمِ، يَتولَّدُ ويَترعرَعُ ذلكَ الكِيانُ الهَجينُ، وتِلكَ الآفةُ الفِكريّةُ التي تَستَحِقُّ الرَّجْمَ، التي نُطلِقُ عليها اسمَ "الوَعيِ المُستعارِ" الذي لا يُرْحَمُ. وَعيٌ أجْوَفُ، خاوٍ، فاقِدٌ لِلأصالةِ والجَوهَرِ المُلهِمِ، لا يَنشأُ منْ مَخاضِ تَفكيرٍ نَقديٍّ شُجاعٍ يُحَرِّرُ، ولا يَتولَّدُ منْ حَرارةِ تَجرِبةٍ شَخصيّةٍ حُرّةٍ مُتفَرِّدةٍ تُثوِّرُ، بلْ هوَ في حَقيقتِهِ المُجرَّدةِ المُحزِنةِ مَحْضُ تَقْليدٍ أعمى لا يَتَبَصَّرُ، وصَدًى باهِتٌ خافِتٌ يَتبَعثَرُ، واستنساخٌ رَديءٌ مُشوَّهٌ لِما سَبَقَ وأنْ رآهُ أوْ سَمِعَهُ منَ الخارِجِ وتَأثَّرَ، منْ تِلكَ الأصواتِ المُستَعمِرةِ التي تَغلغَلَتْ في وَعيِهِ دونَ إذنٍ أوْ حتّى خَبَرٍ. يُصبِحُ الإنسانُ، بِفعلِ هذا الوَعيِ المُستعارِ المُسَيطِرِ، لا كَيانًا مُستقِلًّا، حُرًّا، أصيلاً، يُقَرِّرُ، بلْ مُجرَّدَ امتدادٍ تَافِهٍ لِلنِّظامِ القائِمِ، جُزءًا لا يَتَجزَّأُ منْ آلَةِ الهَيمَنةِ الجبّارةِ التي تَستَمِرُّ، تِلكَ الآلةُ التي تُلزِمُهُ، أوْ بالأحرى يُلزِمُ هوَ نَفسَهُ بِفعلِ البَرمَجةِ العَميقةِ، بِتَكرارِ نَفسِ الأفكارِ البالِيةِ المُتَحَجِّرَةِ، واجترارِ ذاتِ المَقولاتِ المُعلَّبةِ التي لا تُثمِرُ، كَما لوْ كانتْ حقائِقَ أزَليّةً، ثابتةً، مُستَقِرّةً كَالجِبالِ الشُّمِّ التي لا تُكْسَرُ. بينما هيَ في الواقِعِ، في حَقيقتِها العاريةِ القاسيةِ التي يَرفُضُ رُؤيَتَها ويَتكَبَّرُ، ليستْ إلا إعادةَ تأكيدٍ مُستمِرّةٍ لا تَفْتُرُ، وصَدًى مُتَكرِّرًا مُخَدِّرًا، لِما كانَ عليهِ المُجتَمَعُ في تَقاليدِهِ البالِيةِ، أوِ الدّولةُ في قَوانينِها القاهِرةِ، أوِ الدّينُ في عَقائِدِهِ المُغلَقةِ، أوْ أيِّ شَكلٍ آخرَ منْ أشكالِ الهَيمَنةِ الفِكريّةِ الخانِقةِ التي صاغَتْ وَعيَهُ ورَسَمَتْ مَسارَهُ ومَا قَدَّرَ.

ولكِنَّ وَجهَ الكارِثةِ الأشدَّ قُبحًا وبَشاعةً، والمَبعَثَ الأعمَقَ لِلقَلَقِ في هذهِ الظّاهِرةِ الخانِقةِ لِلوَعيِ المُستعارِ الذي لا يُدافِعُ، لا يَكمُنُ فَقطْ في استعبادِ العقلِ وتَقييدِهِ، أوْ تَزييفِ إدراكِهِ وتَبديدِهِ، بلْ يَكمُنُ بِشَكلٍ أشَدَّ خُطورةً وأبْعَدَ مَدًى في النّتيجةِ الحَتميّةِ لِذلكَ كُلِّهِ: ألَا وهيَ الإغلاقُ المُحكَمُ، القَتلُ البَطيءُ، لِكُلِّ مَجالاتِ التّفكيرِ الأصيلِ والخَلّاقِ الذي يُبْدِعُ. إنَّ كُلَّ "إجابةٍ" تُقَدَّمُ لِلعَقلِ الأسيرِ على أنّها اليَقينُ الأخيرُ الذي لا يُنازَعُ، وكُلَّ "حَقيقةٍ" تُعلَّبُ وتُروَّجُ على أنّها القَولُ الفَصلُ والحُكمُ النّهائيُّ الذي يُتَّبَعُ، إنّما هيَ في حَقيقتِها مِسمارٌ حادٌّ يُدَقُّ في نَعشِ الفِكرِ الحُرِّ ويُقْبِعُ، وقَيدٌ إضافيٌّ حَديديٌّ يُكَبِّلُ العقلَ ويَقمَعُ، ويَجعَلُ منَ الإنسانِ كائِنًا مُتَوقِّفًا عنِ السُّؤالِ، مُتَجَمِّدًا في المَكانِ، عَقيمًا عنِ الإبداعِ والخَلقِ الذي يُرْفَعُ، عَاجِزًا تَمامَ العَجزِ عنْ رُؤيةِ أيِّ شَيءٍ يَقعُ وَراءَ الأسوارِ العاليةِ لِتِلكَ المَقولاتِ الجاهِزةِ،

لِتلكَ النُّصوصِ المُقدَّسةِ، التي نُقلَتْ إليهِ تلَقيناً لا اختياراً وما قُدِّرَ لَهُ أنْ يَدْفعَ. فَوالواقِـعُ المُتَدفِّقُ، الشّاسِـعُ، المُتعَدِّدُ الأوجهِ، يَتَحَوَّلُ في مِرآةِ هذا الوَعيِ المُستعبَدِ المُمزَّقِ، إلى مُجرَّدِ "صُورةٍ" ثابتةٍ، جامدةٍ، بَاهتةٍ، مُسطَّحةٍ، لا عُمْقَ فيها ولا حَياةَ تُتْبَعُ. والإنسانُ المَسجونُ في قَفَصِهِ لا يَعودُ يتَعامَلُ مَعَ الوُجودِ كَحَقيقةٍ نابِضةٍ، حَيّةٍ، مُتغيِّرةٍ، قابلةٍ للاستكشافِ والتّأويلِ والتّشكيلِ والتَّنَوُّعِ، بلْ كَصُورةٍ فوتوغرافيّةٍ قَديمةٍ، باهِتةِ الألوانِ، مَفروضةٍ عليهِ فَرضًا لا يَستطيعُ رَدَّهُ أوْ مَنعَهُ، لا يَملِكُ تِجاهَها إلا التَّسليمَ الأعمى أَوِ التَّكرارَ المُملَّ الذي يُصَدِّعُ. وعِندَ هذهِ النُّقطةِ مِنَ الشَّلَلِ الفِكريِّ المُطْبِقِ، يَصبِحُ ذلكَ التّناقُضُ الصّارِخُ، وذلكَ الشَّرخُ الوُجوديُّ المُؤلِمُ، بينَ "الحَقيقةِ" المُزيَّفةِ التي يَعتَقِدُ، بِسذاجةٍ قاتلةٍ، أنّها حَقيقيّةٌ وكامِلةٌ وتُنْتَفَعُ، وبينَ الواقِـعِ الفِعليِّ، الكَثيفِ، المُراوِغِ، الذي لا يُمكِنُ إدراكُهُ أوْ حتّى الاقترابُ مِنهُ في ظِلِّ هذهِ القُيودِ المَعرفيّةِ الخانِقةِ التي تُوجِـعُ، يَصبِحُ هذا التّناقُضُ هوَ التَّحدّيَ الأكبَرَ، والمِحنةَ الوُجوديّةَ القاسيةَ، التي تُواجهُ الإنسانَ المُعذَّبَ بِوَعيِهِ المَسلوبِ وتَفْجَعُ.

والإنسانُ، هذا الكائنُ المُعَذَّبُ بِوَعيِهِ المَسلوبِ، الذي يَحمِلُ أَسْرَهُ في دَمِهِ، يَعتَقِدُ بِسذاجةٍ مُفجِعةٍ، وبِغُرورٍ يُثيرُ السُّخْرِيَّةَ والرِّثاءَ في آنٍ مَعًا، على الرّغمِ منْ غَرقِهِ حتّى أُذنَيهِ في لُجّةِ هذا الاغترابِ الذي يَفصِلُهُ عنْ ذاتِهِ وعنِ العالَمِ، أنَّ فَهمَهُ الضَّئيلَ، القاصِرَ، هذا، هوَ فَهمُهُ الخاصُّ، هوَ كَنْزُهُ الثَّمينُ، نِتاجُ تَفكيرِهِ الحُرِّ المُستَقِلِّ، ومِلكيّتُهُ الفِكريّةُ الحَصْريّةُ التي لا يُنازِعُهُ عليها أحَدٌ أوْ يَسْتَغِلُّ. يَتَشبَّثُ بِهذا الوَهمِ الأخيرِ، وَهمِ الأصالةِ، كَغريقٍ يَائسٍ يَتَشَبَّثُ بِقَشّةٍ باليةٍ في مُحيطٍ هائجٍ لا يَرْحَمُ. ولكِنَّ الضَّربةَ الأكثَرَ قَسوةً وإيلامًا، الحَقيقةَ التي تَجلِدُ كَالسِّياطِ وتُدمي، تَكمُنُ في أنَّ هذا الفَهمَ ذاتَهُ الذي يَعتَزُّ بهِ ويُدافِـعُ عنهُ بِحرارَةٍ، ليسَ في جَوهَرِهِ العَميقِ إلا مُحاكاةً بائسةً، وتَرديدًا أجوفَ كَالطَّبلِ، ونُسخةً كَربونيّةً، باهِتةً، مُكَرَّرةً، لِما هوَ مَفروضٌ عليهِ قَسرًا مِنَ الخارِجِ، لِتلكَ الأصواتِ المُستَعمِرةِ التي تَسكُنُ رأسَهُ وتُوَسْوِسُ في صَدرِهِ. وهذا الإدراكُ المُزلزِلُ، هذهِ اليَقَظةُ المُؤلِمةُ على حَقيقةِ الأَسْرِ الدّاخليِّ، لا تأتي غالبًا، إنْ أتتْ أصلاً، إلا بَعدَ أنْ يَتَجرَّأَ العقلُ بِشَجاعةٍ نادرةٍ على فَتحِ نَوافِذِ سِجنِهِ التي ظَلَّتْ مُوصَدَةً بِإحكامٍ دُهورًا، بَعدَ أنْ يَنفتِحَ على ذاتِهِ بِصِدقٍ قاسٍ، ويَنقَضَّ، كَطائرٍ جارِحٍ يَبحَثُ عنْ فَريسَتِهِ، على تلكَ القُيودِ المَفاهيميّةِ الصَّدِئةِ، وعلى تِلكَ الأغلالِ الفِكريّةِ التي تُكَبِّلُهُ وتَخنُقُ أنفاسَهُ وتَمنَعُ طُموحَهُ. فَكُلُّ ما يَعتَقِدُ الإنسانُ الأسيرُ في وَهمِهِ أنّهُ قَدْ توَصَّلَ إليهِ بِجُهدِهِ الخاصِّ وتَفكيرِهِ المُستَنيرِ، كُلُّ فِكرةٍ يَظُنُّها نِتاجَ تَأمُّلِهِ العَميقِ، وكُلُّ مَفهومٍ يَحسِبُهُ اكتِشافَهُ الفَريدَ، ليسَ في حَقيقتِهِ المُرَّةِ إلا بَقايا مُتَناثِرةً لِأفكارٍ

قَديمةٍ غُرِسَتْ في تُربةِ ذِهنِهِ الغَضِّ دونَ إذنٍ أوْ عِلمٍ، زُرِعَتْ فيهِ كَنَباتاتٍ طُفيليّةٍ سَامّةٍ في حَقلٍ مُستَباحٍ لا حارِسَ لهُ. الحَقيقةُ الصّادِمةُ التي تَهدِمُ البُنيانَ هيَ: لا أحَدَ مِنّا، مَهما ادَّعى أو تَوَهَّمَ، يَمتَلِكُ "أفكارَهُ" حَقًّا كَما نَعتَقِدُ أو نَزعُمُ بِثقةٍ. لا أحَدَ! فنحنُ لا نَعيشُ في فَضاءٍ حُرٍّ لِلتّفكيرِ والإبداعِ، بلْ نَدورُ ونَتَخَبَّطُ في دَوّامةٍ سَحيقةٍ لا قَرارَ لَها منَ الإجاباتِ الجاهِزةِ التي لا تُشْفي، ومنَ الوَصفاتِ الفِكريّةِ المُعلَّبةِ التي تُغْشي، نَتَعامَلُ مَعَها بِسذاجةٍ طُفوليّةٍ كَحَقائِقَ مُطلَقةٍ لا تَقبَلُ النّقاشَ أوِ الرَّدَّ، بينما هيَ في أصْلِها مُجَرَّدُ بَقايا مُتَعفّنةٍ، نُفاياتٍ فِكريّةٍ، لِماضٍ سَحيقٍ قَدْ لا تَكونُ لَنا بِهِ أيُّ عَلاقةٍ حَقيقيّةٍ أوْ شَدٍّ. فأفكارُنا التي نَعتَزُّ بِها ونُدافِعُ عَنْها ليستْ مِلكًا الخالِصَ الأوحَدَ، بلْ هيَ تَراكُماتٌ هَجينةٌ، وخَليطٌ مُضطَرِبٌ، منْ ثَقافاتٍ مُتَناقِضةٍ تَناقَلَتْها الأجيالُ بِلا وَعيٍّ، ومنْ دِياناتٍ تَحَجَّرَتْ نُصوصُها وأغلَقَتْ أبوابَ الاجتِهادِ، ومنْ أيديولوجيّاتٍ صاغَتْها مَصالِحُ القُوى المُهيمِنةِ لِتُحكِمَ الاستِعبادَ. كُلُّها أخَذْناها بِلا وَعيٍ أوْ تَفكيرٍ، امتَصَصْناها منَ المُجتَمَعِ والبيئةِ المُحيطةِ كَما يَمتصُّ الإسفنجُ الجافُّ الماءَ الآسِنَ. وأنْ تَكونَ فَردًا في هذا السِّياقِ الخانِقِ، أنْ تَحمِلَ اسمًا وهُويّةً في هذا القَطيعِ المُتَراكِمِ، لا يَعني، يا لَلأسَفِ، إلا شَيئًا واحِدًا مُحزِنًا: أنْ تَكونَ مُجَرَّدَ نُسخةٍ باهِتةٍ منْ نُسَخٍ أخرى لا تُحصى، صُورةٍ مُكرَّرةٍ منْ صورٍ لا تُعَدُّ ولا تُقْصى، لا تُنتِجُ أيَّ شَيءٍ جَديدٍ أوْ أصيلٍ يَستَحِقُّ الذِّكرَ، بلْ تَظَلُّ، كَآلةٍ مُعطَّلةٍ صَدِئةٍ، تُكَرِّرُ وتُعيدُ طِباعةَ نَفسِ الأوهامِ العَتيقةِ التي سَجَنَتْ مَنْ قَبلَكَ، وسَتَسجُنُ حَتمًا مَنْ بَعدَكَ إنْ لَمْ تُكسَرْ هذهِ الدّائِرةُ اللَّعينةُ ويُفْتَحِ المَقصَدُ.

فَتِلكَ "الحَقيقةُ" المُقَدَّسةُ، التي نَظُنُّ أنّنا نَعيشُ في كَنَفِها الوارِفِ ونَستَضيءُ بِنورِها الكاشِفِ، والتي نُدافِعُ عَنْها بِحَرارَةٍ كَأنّها عِرضُنا الشّارِفُ، ليستْ في جَوهَرِها العَميقِ إلا وَهمًا مُشَوَّهًا مُخالِفًا، وطَيفًا خادِعًا مُتَحالِفًا، وإرثًا مُتعفّنًا منَ الأباطيلِ والخُرافاتِ، يُعادُ تَمريرُهُ وتَدويرُهُ عَبرَ الأجيالِ المُتَعاقِباتِ كَعُملةٍ زائِفةٍ لا قيمةَ لَها في المُبادَلاتِ. وذلكَ كُلُّهُ يَجري في ذاتِ الوَقتِ الذي نُقنِعُ فيهِ أنفُسَنا، بِغُرورٍ طُفوليٍّ أحمَقَ، أنّنا نَحنُ الصّانِعونَ لِهذهِ "الحَقائِقِ" بِجُهدِ عُقولِنا، وأنّنا نَحنُ المُكتَشِفونَ لِأسرارِها بِحُرّيّةِ إرادَتِنا وما لَها منْ مُيولٍ. يا لَسُخريّةِ القَدَرِ الأسوَدِ! فَهذا الفَهمُ الذي نَتباهى بِأنّنا نَصنَعُهُ ونُشَكِّلُهُ، ليسَ في حَقيقَتِهِ المُؤلِمةِ التي لا تُجَمَّلُ، سِوى استِجابةٍ آلِيّةٍ بَليدةٍ، وصَدًى خاوٍ لا يَتكَلَّلُ، لِأسئلةٍ لَمْ نَجرُؤْ أصلاً على طَرحِها بِصِدقٍ أوْ تَأمُّلٍ، وإجاباتٍ مُعلَّبةٍ جاهِزةٍ تَلَقَّفْناها بِسُهولةٍ دونَ أنْ نُكلِّفَ أنفُسَنا عَناءَ التَّفكيرِ في مَصدَرِها المُشتَبَهِ أوِ التَّدقيقِ في صِحّتِها المَزعومةِ التي تَضْمَحِلُّ. إنّنا، في ظِلِّ هذا الوَعي

المُستعارِ المُقَيِّدِ، نَعيشُ ونَموتُ داخِلَ أُفُقٍ مُغلَقٍ تَمامَ الإغلاقِ، كَطُيورٍ حَبيسةٍ في أقفاصٍ لا تَرى السَّماءَ ولا الآفاقَ، مُحاطينَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ بِأسوارِ نِظامٍ مَعرفِيٍّ خانِقٍ لا يُطاقُ، سِجنٍ لا نَملِكُ داخِلَهُ أيَّ مَساحةٍ حَقيقيّةٍ لِلتَّنَفُّسِ الفِكريِّ الحُرِّ أو لِلتَّحليقِ، أيَّ فُسحةٍ لِلخُروجِ منَ الدّائِرةِ المَلعونَةِ لِلتَّقليدِ الأعمى وإعادَةِ الإنتاجِ العَقيمةِ لِذاتِ الأوهامِ والخِناقِ. إنَّ فَهمَنا المَزعومَ لِلعالَمِ ليسَ إلا اجتِرارًا مُستمِرًّا لِما مُضِغَ، ومَضغًا مُتَواصِلاً لِما فُرِضَ علينا فَرضًا وسِيغَ، منْ قَناعاتٍ ومُسلَّماتٍ لا تُصاغُ إلا لِتُطاعَ. ومُحاكاةً بائِسةً، نُسخةً كَربونيّةً رَديئةً، لِما أُسيءَ إدراكُهُ وتَأويلُهُ وتَزييفُهُ مِنْ قِبَلِ مَنْ سَبَقونا في هذا السِّجنِ الكَبيرِ بِلا شَفَقةٍ أوْ رِفْقٍ أوْ إطْلاقٍ. فَإنَّ كُلَّ مُحاوَلةٍ، مَهما بَدَتْ صادِقةً ونَبيلةً، لِفَهمِ "الحَقيقةِ" مِنْ خِلالِ هذا الفَهمِ التَّقليديِّ المُتَوارَثِ، منْ داخِلِ أسوارِ هذا النِّظامِ المَعرفِيِّ المُغلَقِ الذي لا يُفتَحُ، لا تَعدو في نِهايةِ المَطافِ إلا مُجرَّدَ تَكرارٍ لِما قيلَ، وإعادَةَ إنتاجٍ لِما هوَ قائِمٌ ويُقْبَلُ، ودَورانًا عَبثيًّا في نَفسِ الفَلَكِ الفارِغِ الذي لا يُثْمِرُ ولا يُستَحَبُّ. في حينِ أنَّ الفَهمَ العَميقَ، الفَهمَ الحُرَّ النّاقِدَ، ذاكَ الذي يَستطيعُ أنْ يَتَجاوَزَ حُدودَ الأُطُرِ المَعرفيّةِ الرّاسِخةِ ويُحلِّقَ خارِجَ أسوارِ القَفَصِ البائِسِ، إنّما يَكمُنُ في تِلكَ اللَّحْظَةِ النّادِرةِ منَ الشَّجاعةِ الصّادِمةِ، لَحْظَةِ الاعترافِ الصّريحِ، المُؤلِمِ كَالجُرحِ: بأنّنا في الحَقيقةِ لا نَملِكُ شَيئًا يُذكَرُ منَ "الحَقائِقِ" المُطلَقةِ التي نَدَّعيها أوْ نَتَبَنّاها، بلْ نَحنُ في جَوهَرِنا مُجرَّدُ سائِرينَ تائِهينَ في صَحراءَ، مُسافِرينَ بِلا وَجهةٍ أوْ مَرمى، في مَسارِ تَفكيرٍ مُستعارٍ لمْ نَختَرْهُ ولَمْ نَرسُمْهُ ولَمْ نَتبَعْ هُداهُ. هذا الاعترافُ، هذا التَّواضُعُ المَعرفيُّ، هوَ ما يُشَكِّلُ نُواةَ الوَعيِ الحَقيقيِّ الذي نَبحَثُ عنهُ ونَرجوهُ؛ الوَعيِ الذي يُدرِكُ بِقَسوةٍ وصَراحةٍ أنَّ كُلَّ ما يُعتَقَدُ أنّهُ صَحيحٌ، ثابِتٌ، مُقدَّسٌ، ليسَ في الأصْلِ إلا بِناءً اجتِماعيًّا هَشًّا، ونِتاجًا ثقافيًّا مَرِنًا، قابِلاً لِلتَّغييرِ والتَّفكيكِ، لا أكثَرَ ولا أقَلَّ، وليسَ لهُ ثَباتٌ أوْ أصْلٌ.

وإذا كانَ الإنسانُ، في غَفلَةِ بِداياتِهِ كما رأيناهُ يَقبَلُ ما يُلقى إليهِ كَطِفلٍ جائِعٍ، يَعتَقِدُ بِسذاجةٍ مُطلَقةٍ تُثيرُ الشَّفَقَةَ أنَّ فَهمَهُ لِلعالَمِ هوَ أمْرٌ خاصٌّ بهِ، نِتاجٌ شَخصيٌّ لِتَفاعُلِهِ الحُرِّ مَعَ الوُجودِ العَظيمِ، فَإنَّ اكتِشافَهُ المُتَأخِّرَ، الصّادِمَ، لِهذهِ الحَقيقةِ القاسيةِ – حَقيقةِ الوَعيِ المُستعارِ – لا بُدَّ وأنْ يُشيرَ، إنْ كانَ يَملِكُ بَقيّةً

مِنْ شَجاعةِ النَّظَرِ في المِرآةِ، إلى اندِلاعِ صِراعٍ داخِليٍّ عَميقٍ، مُميتٍ، إلى حَربٍ أهليّةٍ ضَروسٍ تُمزِّقُ كِيانَهُ إرْبًا إرْبًا، وتُبعثِرُ أشلاءَ رُوحِهِ في كُلِّ فَجٍّ. صِراعٌ مُحتَدِمٌ، لا هَوادَةَ فيهِ، بينَ ذاكَ الوَعي الظّاهِرِ، السَّطحيِّ، الهَشِّ، الذي يَرتَدي قِناعَ الاستقلاليّةِ المُزَيَّفِ ويَتَحَدَّثُ بِغُرورٍ بِلُغةِ "الأنا" المُتَضَخِّمَةِ، وبينَ ذاكَ الوَعي الخَفِيِّ، الغائِرِ في أعماقِ النَّفسِ كَتَيّارٍ جارِفٍ لا يُصَدُّ، الوَعي الذي يَحتَفِظُ بِكُلِّ شَيءٍ، بِكُلِّ أثَرٍ لِتِلكَ الأغلالِ القَديمةِ، بِكُلِّ نَدبةٍ مِنْ جِراحِ التَّلقينِ، بِكُلِّ ما قَدْ ضاعَ مِنّا في زِحامِ الأوهامِ دونَ أنْ نَشعُرَ بِلَحْظَةِ الفُقدانِ أوْ نُدْرِكَ حَجمَ الخُسرانِ. وفي عُمْقِ هذا الاغترابِ الفِكريِّ المُستَحكِمِ، وفي خِضَمِّ هذا الصِّراعِ المُنهِكِ الذي لا يَنتَهي، يَبدأُ العقلُ، كَجُنديٍّ مُنهَزِمٍ يَفقِدُ إيمانَهُ بِقَضيّتِهِ وخانَهُ سِلاحُهُ، في التَّراجُعِ المُخزي عنْ وَهْمِ استقلاليّتِهِ التي كانَ يَتَغنّى بِها كَنَشيدٍ خالِدٍ، ويَقبَلُ، إمّا بِخُنوعٍ يائِسٍ لا عَزاءَ فيهِ أوْ بِلامُبالاةٍ مُخَدِّرةٍ لا شِفاءَ بَعدَها، كُلَّ ما يُفرَضُ عليهِ منَ الخارِجِ، كُلَّ ما يُمليهِ القَطيعُ الصّاخِبُ أوْ تُوَسْوِسُ بِهِ الأصواتُ المُستَعمِرةُ التي لا تَنامُ. يَستَسلِمُ لِلتَّيّارِ الجارِفِ، يُلقي بِمَجاديفِ إرادَتِهِ في البَحرِ، حتّى يُصبِحَ في نِهايةِ المَطافِ مُجَرَّدَ جُزءٍ تافِهٍ، عَجَلةٍ صَدِئةٍ، في تِلكَ الدَّورةِ المُغلَقةِ اللَّعينةِ التي رأيناها تُعيدُ إنتاجَ الوَهْمِ والأَسْرِ بِلا تَوقُّفٍ، دَورةٌ لا نِهايةَ لَها إلا بِانهيارِ العقلِ ذاتِهِ في جُنونٍ مُطبِقٍ، أوْ تَجاوُزِها بِفِعلِ وَعيٍّ حُرٍّ، نافِذٍ، نادِرِ الوُجودِ كَعنقاءَ مُغَرِّبٍ.

ومَعَ دَورانِ عَجَلةِ الزَّمَنِ الغادِرةِ بِلا تَوقُّفٍ أوْ إمهالٍ، ومَعَ تَراكُمِ الأيّامِ والسِّنينَ كَطبَقاتِ الغُبارِ فَوقَ ذلكَ الوَعي المُستعارِ المُثقَلِ بِالآثامِ والأوْهامِ، تَتَحَوَّلُ هذهِ الأفكارُ المَغروسةُ قَسرًا، تِلكَ البُذورُ السّامّةُ التي زُرِعَتْ فيهِ غَصبًا وهوَ غافِلٌ لا يَعي، لا إلى مُجَرَّدِ قَناعاتٍ سَطحيّةٍ أوْ آراءٍ عابِرةٍ يُمكِنُ تَغييرُها بِسُهولةٍ، بلْ إلى جُزءٍ لا يَتَجَزَّأُ منْ "طَبيعَتِهِ" الثانيةِ، مِنْ جِلدِهِ الذي لا يَستطيعُ سَلخَهُ وإنْ حاوَلَ، منَ الهَواءِ الذي يَتَنَفَّسُهُ دونَ أنْ يَشعُرَ بِسُمومِهِ. تُصبِحُ هيَ الأساسَ المَتينَ ظاهِريًّا، المُنْخَرَ باطِنًا، الذي يَقومُ عليهِ عالَمُهُ الدّاخِليُّ بِأكمَلِهِ، والجُدرانَ السَّميكةَ التي لا يُمكِنُهُ، أوْ رُبّما لا يُفَكِّرُ أصلاً في مُحاوَلةِ، الهُروبِ مِنْها أوْ تَجاوُزِها واختِراقِ نِظامِها. وعِندَ هذهِ النُّقطةِ منَ التَّماهي المُطلَقِ مَعَ السِّجنِ، مِنَ الالتِحامِ الكامِلِ مَعَ القَيدِ، تَبرُزُ قُوّةٌ أُخرى، خَفيّةٌ، مُدَمِّرَةٌ، أكثَرُ دَهاءً منْ أيِّ سُلطَةٍ خارِجيّةٍ: قُوّةُ العادَةِ. تَصبِحُ العادَةُ، بِفِعلِ التِّكرارِ المُتواصِلِ الأجْوَفِ، والاستمرارِ الأعمى الذي لا يَرى النُّورَ، تَصبِحُ هيَ السَّجّانَ الأشَدَّ قَسرًا وعُنفًا، هيَ القَيدَ الأكثَرَ إحكامًا وخَنْقًا، حَيثُ تَستَولي تَدريجيًّا، كَلِصٍّ يَتَسَلَّلُ في الظَّلامِ، على مَقاليدِ العقلِ الأسيرِ، تُحكِمُ قَبضَتَها على مَفاتيحِهِ القَليلةِ، دونَ أنْ تَترُكَ أيَّ مَجالٍ، أيَّ

فُسحةٍ ضَئِيلةٍ كَثُقبِ إبرةٍ، لِنَبتةِ الشَّكِّ المُبارَكةِ أوْ لِنَسيمِ التَّفكيرِ النَّقديِّ المُنعِشِ. إنَّ العادَةَ اللَّعينةَ، بِما تَحمِلُهُ في طَيّاتِها منْ آليّةِ تكرارٍ مُخَدِّرٍ كالأفيونِ، واستمرارٍ رَتيبٍ يَقتُلُ الرُّوحَ ويُطفِئُ الجَذوَةَ، تُعيدُ بَرمجَةَ العقلِ البَشريِّ بِشَكلٍ مُمَنهَجٍ وصامِتٍ، تُروِّضُهُ وتُدَجِّنُهُ كَحَيوانٍ في قَفَصٍ، لِيَقبَلَ بِخُنوعٍ تامٍّ، بِاستِسلامٍ كامِلٍ، كُلَّ ما يُعتَبَرُ "طَبيعيًّا" أوْ "مَألوفًا" في مُحيطِهِ الضَّيِّقِ، حتّى لوْ كانَ هذا "الطَّبيعيُّ" المَزعومُ هوَ قِمَّةَ العَبَثِ أوْ ذِروةَ الظُّلْمِ أوْ مُنتهى الحَماقَةِ. وهذهِ الأفكارُ المَوروثةُ، المُلَقَّنةُ، تَتَجَذَّرُ وتَترسَّخُ في أعماقِ الوِجدانِ بِقُوّةِ الصَّمغِ، لا بِفعلِ قُوَّتِها المَنطِقيّةِ الدّاخليّةِ أوْ صَلابةِ حُجَّتِها، فَلا مَنطِقَ هُنا ولا قُوّةَ إلا قُوّةُ الوَهْمِ، بلْ فَقطْ بِسَبَبِ الانغماسِ المُستمِرِّ، الغَرَقِ المُتواصِلِ، في تَكرارِها المُملِّ، في اجترارِها العَقيمِ الذي لا يُثمِرُ إلا المَرارةَ، دونَ أيِّ لَحْظَةِ مُساءَلةٍ حَقيقيّةٍ أوْ وَمضةِ تَشكيكٍ جادّةٍ تكشِفُ زَيفَها. إنَّ هذا التَّكرارَ المُتواصِلَ، هذا الدَّورانَ المُميتَ في نَفسِ الدّائِرةِ المُغلَقةِ، هوَ ما يُنتِجُ في النِّهايةِ حالةَ القَبولِ التّامِّ، حالةَ الخُضوعِ الكامِلِ، الذي لا يَتأثَّرُ بِالقوّةِ العقليّةِ لِلفِكرةِ نَفسِها أوْ بِمَدى سَخافَتِها الفاضِحةِ، بلْ يَتَغذّى فَقطْ على تِلكَ اللّامُبالاةِ المُخَدِّرةِ، على ذلكَ الخَدَرِ الذِّهنيِّ القاتِلِ، الذي تُولِّدُهُ العادَةُ وتُرَسِّخُهُ مَعَ الزَّمنِ حتّى يُصبِحَ طَبيعَةً ثانيةً. أيُّ فِكرةٍ، مَهما بَدَتْ غَريبَةً أوْ شاذّةً أوْ حَمقاءَ في بِدايَتِها، تُصبِحُ مَألوفةً ومَقبولةً ومُستَساغةً بَعدَ فَترةٍ منَ الزَّمَنِ، بِمُجرَّدِ تَكرارِها بِما يَكفي لِتُصبِحَ جُزءًا منْ ضَجيجِ الوَعيِ اليَوميِّ، حتّى لوْ كانتْ تِلكَ الفِكرةُ أبعدَ ما تكونُ عنْ أيِّ أساسٍ مَنطقيٍّ أوْ تَبريرٍ عقلانيٍّ أوْ حتّى فائِدةٍ عَمَليّةٍ. فالعادَةُ، كَالسِّحْرِ الأسوَدِ، تَمنَحُ هذهِ الأفكارَ شَرعيّةً زائِفةً بِمُرورِ الوَقتِ، تُلبِسُها عَباءَةَ "الحَقيقةِ" المُطْلَقَةِ و"البَديهةِ" التي لا تُناقَشُ، بِحيثُ تُصبِحُ، منْ حَيثُ لا يَدري الفَردُ المَسجونُ في دَوّامَتِها، حَقيقةً مُطلَقةً كَالنُّجومِ، وقَضاءً مُبرَمًا لا رادَّ لَهُ، لا تُقبَلُ لِلطَّعنِ أوِ المُراجَعةِ أوِ التَّشكيكِ. وهكَذا، يَصيرُ الإنسانُ، بِلا إرادةٍ حَقيقيّةٍ أوْ قَرارٍ واعٍ، أسيراً عاجِزًا لِلأفكارِ التي تَرَسَّخَتْ كَالصُّخورِ في ذِهنِهِ عَبرَ مِطرَقةِ التَّكرارِ وسِندانِ العادَةِ، لا يَرفُضُها فَحَسْبُ، بلْ يَتَمَسَّكُ بِها بِعِنادٍ مُستميتٍ، ويَرفُضُ بِشَراسَةٍ أيَّ فِكرةٍ جَديدةٍ تُعارِضُها، أيَّ نُورٍ مُختلِفٍ يُحاوِلُ اختراقَ ظَلامِهِ، حتّى لوْ كانتْ هذهِ الفِكرةُ الجَديدةُ أكثَرَ مَنطقيّةً، أكثَرَ إقناعًا، أكثَرَ إنسانيّةً، منَ الأفكارِ المُتعفِّنةِ البالِيةِ التي نَشأَ عليها وأَلِفَها حتّى ظَنَّها جُزءًا لا يَتَجزَّأُ منْ صَميمِ كِيانِهِ وروحِهِ.

وفي بِدايةِ هذهِ الرِّحلَةِ المَأساويّةِ لِلعَقلِ المُستعارِ، في فَجرِ أيّامِهِ الغافِلةِ، غالِبًا ما يَكونُ هُناكَ نَوعٌ منَ الوَعيِ السّاكِنِ الهادِئِ، وَعيٌ خامِلٌ، مُخَدَّرٌ، أشبهُ بِالنَّومِ المَغناطيسيِّ العَميقِ، لا يَتَساءَلُ فيهِ الإنسانُ

المَسجونُ في وَهمِهِ عنْ حَقيقةِ وُجودِهِ أوْ عنْ أُصولِ أفكارِهِ المُستوَردةِ المُستبَدَّةِ، بلْ يَتعامَلُ مَعَها بِبَراءةٍ طُفوليّةٍ قاتِلةٍ، كَجُزءٍ لا يَتجزّأُ منَ الحَقيقةِ الكَونيّةِ المُطْلَقةِ التي لا شَريكَ لَها، أوْ كَأقدارٍ إلهيّةٍ مَحْتومةٍ لا مَفَرَّ مِنْها ولا مَحيصَ عَنْها. ولكِنّهُ، مَعَ مُرورِ الوَقتِ الذي يَطْحَنُ كَالرَّحى، ومَعَ فِعلِ العادَةِ اللَّعينَةِ التي تُبَرمِجُ العقلَ وتُدَجّنُ الرُّوحَ، يُصبِحُ مَحصورًا، مُكَبَّلاً، مُقَيَّدًا، داخِلَ هذا التِّكرارِ المُميتِ الذي رأيناهُ يُفرِغُ الحَياةَ منْ مَعناها. فَتَتكاثَفُ هذهِ الأفكارُ المَوروثةُ في ذِهنِهِ وتَتَشابَكُ خُيوطُها المُظلِمةُ لِتُصبِحَ شَبَكةً لَزِجَةً، مُحكَمَةَ النَّسجِ، أوْ قَفَصًا حَديديًّا صُلْبًا لا مَنافِذَ لهُ، يُصبِحُ جُزءًا لا يَنفصِلُ عنْ كِيانِهِ ذاتِهِ، مُلتَصِقًا بِهِ كَلَحمِهِ وعَظمِهِ وجِلدِهِ. وتَصيرُ أفكارُهُ تِلكَ، التي كانَ يَظُنُّ بِغُرورِ الطّاووسِ أنّها مِلكُ يَمينِهِ وأنّها نِتاجُ تَأمُّلِهِ العَميقِ، مُجَرَّدَ تَكرارٍ مُستمِرٍّ، آليٍّ، مُملٍّ، وصَدًى خاوٍ، بَغيضٍ، لِما فُرِضَ عليهِ قَسرًا وإجبارًا مُنذُ البِدايةِ، مُنذُ أنْ كانَ طِفلاً لا يَعي. عندها، يَعيشُ الإنسانُ، إنْ كانَ هذا يُسمّى عَيشًا أصلاً، في حالةٍ منَ "السَّكينةِ الزّائفةِ"، منْ طُمأنينةِ المَوتى الباردةِ، سَكينةٍ عقليّةٍ وعاطِفيّةٍ مُخَدِّرةٍ كَالأفيونِ، تِلكَ السَّكينةُ المَشؤومةُ التي لا تَنشأُ منْ تَناغُمٍ داخليٍّ حَقيقيٍّ أوْ فَهمٍ عَميقٍ لِلذّاتِ والعالَمِ، بلْ تَنبُعُ فَقَطْ منَ الجُمودِ القاتِلِ، منَ الرُّكودِ الآسِنِ، منَ الاستِقرارِ السَّطحيِّ الهَشِّ الذي لا يُحَرِّكُ في العقلِ ساكِنًا، ولا يُثيرُ في العاطِفةِ شُعلةً، ولا يَدفَعُ بِالفِكرِ خُطوةً واحِدةً إلى ما هوَ أبعدُ منَ الحُدودِ المَألوفةِ، المَريرةِ، لِسِجنِهِ الصَّغيرِ. يَجِدُ نَفسَهُ، بِلا وَعيٍ غالِبًا، مُرتاحًا، مُستكينًا، آمِنًا، في مُحيطٍ آسِنٍ، مُتَعَفِّنٍ، منَ المَفاهيمِ الثّابتةِ الجامِدةِ التي لا تُثيرُ في نَفسِهِ أدنى شَكٍّ، ولا تُوقِظُ أيَّ سُؤالٍ مُحرِجٍ، ولا تُجبِرُهُ على النَّظَرِ إلى ما هوَ أبعدُ منْ قِشرةِ الظّواهِرِ الخادِعةِ، إلى ما يَكمُنُ خَلفَ سِتارِ الوَهْمِ الكَثيفِ. تِلكَ المَفاهيمُ العَتيقةُ، الباليةُ، التي لَمْ تَخضَعْ يَومًا لِمِشرَطِ الشَّكِّ الجَرّاحِ، أوْ لِسَوطِ الاستفهامِ النّاقِدِ اللاذِعِ، تُصبِحُ بِفِعلِ العادَةِ والتِّكرارِ كَالقَوالِبِ الجاهِزةِ، كَالأطُرِ الحَديديّةِ الصَّدِئةِ، التي يُشَكِّلُها العقلُ الأسيرُ بِنَفسِهِ لِيَحيا داخِلَها بِأمانٍ مُزَيَّفٍ وهُدوءٍ كاذِبٍ ودونَ عَناءِ التَّفكيرِ المُؤلِمِ المُرهِقِ. وفي هذهِ السَّكينةِ الظّاهريّةِ المُقَنَّعةِ، في هذا الخَدَرِ الوُجوديِّ القاتِلِ، لا يُسائِلُ الإنسانُ نَفسَهُ أبَدًا عنْ أصولِ أفكارِهِ المُستوَردةِ، عنْ جُذورِ قَناعاتِهِ المَوروثةِ، ولا يُواجِهُ تِلكَ الحَقيقةَ الفاضِحةَ المُزعِجةَ بِأنَّ مُعظَمَ هذهِ المَفاهيمِ ليستْ في الأصْلِ إلا تَوارُثاتٍ مُستمِرّةً، نُسَخًا باهِتةً، لِمُعتَقَداتٍ قَديمةٍ باليةٍ، لِأوهامٍ تَحَجَّرَتْ عَبرَ الزَّمَنِ حتّى صارَتْ كَالمُومياءِ، كَأنّها قِطَعٌ مُتناثِرةٌ منْ أشياءَ مُهَشَّمةٍ أُعيدَ تَجميعُها بِطُرُقٍ عَبَثيّةٍ، فَوْضَويّةٍ، بَعيدةٍ كُلَّ البُعدِ عنْ أيِّ شَبَهٍ بِالحَقيقةِ أوْ أيِّ صِلةٍ بِالواقِعِ. فالرّاحَةُ التي يَشعُرُ بِها في سِجنِهِ

هذا، ليستْ طُمأنينةَ الحُرِّ الذي يَعرِفُ ويَختارُ، بلْ هيَ مُجرَّدُ غِيابٍ تامٍّ، فَراغٍ مُطْبِقٍ، لِأيِّ نَوعٍ منَ التَّساؤُلِ العَميقِ أوِ النَّقدِ الجَذريِّ الذي يُحرِّرُ. إنَّ هذهِ السَّكينةَ المَزعومةَ، هذهِ الطُّمأنينةَ الكاذِبةَ، ليستْ إلا إغراءً خَبيثًا لِلفِكرِ لِيَنغَلِقَ على ذاتِهِ كَمَحارَةٍ صَمّاءَ لا تَسمَعُ نِداءَ البَحرِ، لِيَختَبِئَ في قَوقَعَتِهِ الضَّيِّقةِ خَوفًا منْ مُواجَهةِ الحَقيقةِ غَيرِ المُريحةِ، الحَقيقةِ التي قَدْ تُزلزِلُ أركانَ وَهمِهِ وتُلقي بِهِ في عَراءِ الوُجودِ البارِدِ. فأنْ تَعيشَ في ظِلِّ أفكارٍ ثابتةٍ، جامِدةٍ، لا تَتَطَلَّبُ منكَ أنْ تُراجِعَها أوْ تُسائِلَها، هوَ في جَوهَرِهِ نَوعٌ منَ الخُضوعِ الطّوعيِّ المَرَضيِّ لِروتينٍ عَقليٍّ مُميتٍ، روتينٌ قَدْ يُخَفِّفُ عنكَ عِبءَ المَعرِفةِ وقَلَقَ الشَّكِّ، لكِنّهُ في ذاتِ الوَقتِ يُقَيِّدُكَ، يَخنُقُكَ، يَسلُبُكَ إنسانيّتَكَ الحَقيقيّةَ ويَجعلُكَ ظِلاًّ. فكَيفَ يُمكِنُ أنْ تُسَمّى "راحَةً" ما هيَ في صَميمِها سِجنٌ ذِهنيٌّ لا قُضبانَ لهُ ولا أسوارَ؟ وكَيفَ يُمكِنُ أنْ يُعتَبَرَ الفِكرُ "مُطمَئِنًّا" وهوَ في واقِعِ الحالِ ليسَ إلا أداةَ هُروبٍ جَبانةٍ منْ عَناءِ التَّفكيكِ وخَطَرِ التَّغييرِ وفَزَعِ الحُرِّيّةِ؟ إنَّ هذهِ السَّكينةَ ليستْ إلا تَعبيرًا فاضِحًا عنْ قَبولِ الإنسانِ الأعمى لِلمُسلَّماتِ دونَ فَحصٍ أوْ نَقدٍ، عنْ رِضاهُ الذَّليلِ بِالرّاحَةِ السَّلبيّةِ التي تَأتي مَعَ الإغفالِ الكامِلِ لِلمُراجَعةِ النَّقديّةِ، عنِ استسلامِهِ لِدِفءِ القَفَصِ الذي يُؤويهِ ويَقتُلُهُ. فهوَ يَعيشُ ويَتَنَفَّسُ داخِلَ أفكارٍ قَدْ تَظُنُّ أنتَ، أوْ حتّى هوَ، أنّها مِلكٌ لَهُ، لكِنّها في حَقيقةِ أمرِها المُحزِنِ ليستْ سِوى بَقايا مُتَناثِرةٍ لِحقائِقَ مُحَرَّفةٍ، وأصداءٍ باهِتةٍ مَرَّتْ على الوَعيِ البَشريِّ وتَوارَثَها الأفرادُ جِيلاً بَعدَ جِيلٍ دونَ أنْ يَدْروا بِزَيفِها أوْ يُحاوِلوا كَشفَهُ. فالرّاحَةُ التي يَشعُرُ بِها، تِلكَ الطُّمأنينةُ المُخَدِّرةُ، هيَ في واقِعِ الحالِ مُحاوَلةٌ يائِسةٌ لِتَجَنُّبِ الأَلَمِ العَقليِّ، لِتَفادي الصِّدامِ المُباشِرِ مَعَ ما قَدْ يُغيِّرُ رُؤيَتَهُ لِلعالَمِ ويُجبِرُهُ على مُواجَهةِ ذاتِهِ المُتَناقِضةِ. ولِذلكَ، تَبقى الأفكارُ المَوروثةُ حَبيسةَ الماضي السَّحيقِ، سَجينةَ التَّقاليدِ البالِيةِ، مُستمِرّةً في تَكرارِ نَفسِها بِشَكلٍ رَتيبٍ مُميتٍ يُشْبِهُ دَقّاتِ ساعَةِ المَوتِ. بَينما يَبقى العقلُ الأسيرُ في حالةٍ منَ السُّكونِ المُضَلِّلِ، منَ الجُمودِ القاتِلِ، منَ المَوتِ البَطيءِ الذي لا يَشعُرُ بِهِ إلا حينَ يَفوتُ الأوانُ وتُغلَقُ الأبوابُ.

الفصل الثالث

الشك المنهجي

تَخَيَّلْ، وَلَوْ لِوَهلَةٍ عاصِفةٍ تُزَلزِلُ أركانَ الكِيانِ، أنَّكَ تَقِفُ فَجْأةً، لا على أرضِ اليَقينِ الصُّلبَةِ التي أَلِفْتَ، بلْ على رِمالٍ مُتَحَرِّكةٍ، في عالَمٍ تَتَهاوى فيهِ، كَقُصورٍ منْ وَهمٍ أمامَ مَوجِ الحَقيقةِ الغاضِبِ، كُلُّ تِلكَ الأفكارِ المُتَحَجِّرَةِ التي شَكَّلَتْ يومًا قِوامَ عَقلِكَ الهَشِّ وهيكَلَ وُجودِكَ المُستَعارِ. تَتَهاوى المُسلَّماتُ التي اعتَقَدتَها، بِيَقينِ المُخَدَّرِ لا بَصيرةِ العارِفِ، أُسسَ حَياتِكَ الرّاسِخةَ المَكينَةَ، وتَتَلاشى كَضَبابِ صَباحٍ خادِعٍ تِلكَ القِيَمُ المُطلَقَةُ التي ظَنَنْتَها نُجومًا ثابِتةً لا تَغيبُ في سَماءِ الحَقيقةِ، حَقائِقَ لا يُمكِنُ أنْ تُمَسَّ أوْ أنْ تَخيبَ. في هذا العالَمِ المُفاجِئِ المُربِكِ، في هذا الخَرابِ الذي يَعقُبُ زِلزالَ الوَعيِ النّاقِدِ، لا يَبقى شَيءٌ على حالِهِ مِمّا كانَ يَمنَحُكَ يومًا وَهْمَ الثَّباتِ الزّائِفِ أوْ خِداعَ الطُّمأنينةِ المُؤقَّتِ: لا هُوِيّةٌ صُلْبَةٌ تَستَنِدُ إليها كَصَخرةٍ، فَقَدْ ذابَتْ في نِسبيّةِ التّاريخِ وتَقَلُّباتِ الثَّقافَةِ، ولا يَقينٌ مُطلَقٌ تَعتَصِمُ بِهِ كَحِصنٍ، فَقَدْ أثبَتَ الكَونُ صَمْتَهُ المُطبِقَ وعَدَمَ اكتِراثِهِ بِحَقائِقِنا الصَّغيرةِ. لا يَبقى سِوى فَراغٍ مَعرِفيٍّ مُطلَقٍ، وخَواءٍ وُجوديٍّ صاخِبٍ بِالصَّمتِ، يُحيطُ بِكَ منْ كُلِّ جانِبٍ كَلَيلٍ بَهيمٍ لا فَجْرَ لهُ يُؤَمَّلُ، وكَسُكونٍ مُطْبِقٍ، مُرعِبٍ، يَلي أعتى العَواصِفِ التي هَدَمَتْ كُلَّ مَأوىً يُحتَمَلُ. فكَيفَ تُواجِهُ، أيُّها الواقِفُ المُرتَعِشُ على الحافّةِ، هذا الفَراغَ المُتَّسِعَ الذي لا قَرارَ لهُ؟ هلْ تَرتَعِشُ خَوفًا وتَرتَدُّ جُبنًا، فَتَتَشَبَّثُ بِأطرافِ أصابِعِكَ الواهِنةِ بِظِلالِ الأفكارِ القَديمةِ البالِيةِ، بِأشباحِ المُعتَقَداتِ المُتَهافِتَةِ التي تَكَسَّرَتْ، مُراهِنًا بِبُؤسٍ على استِقرارِها المُوهومِ رُغمَ اهتِزازِها الواضِحِ أمامَ عَينيكَ، ورُغمَ تَصَدُّعِ أركانِها المُتَهاوِيةِ؟ أمْ تَملِكُ مِنْ جُرأةِ العقلِ المُتَحَرِّرِ منْ أغلالِ الغَيبِ، ما يَكفي لِتُلقِيَ بِنَفسِكَ، بِشَجاعةِ اليائِسِ الذي لا يَملِكُ شَيئًا لِيَخسَرَهُ أوْ بِبَصيرةِ الحُرِّ الذي يَصنَعُ قَدَرَهُ، في لُجّةِ المَجهولِ المُخيفِ والمُغري في آنٍ؟ مُستَعِدًّا لِأنْ تُعيدَ بِناءَ فَهمِكَ، بَلْ ذاتَكَ كُلَّها، منْ نُقطةِ الصِّفرِ المُطلَقِ، منْ طينِ الحَيرةِ الأُولى التي لا يَقينَ فيها، مُعتَمِدًا على العقلِ وَحدَهُ، وعلى التَّجرِبةِ نَاقِدًا؟ هُنا، في عُمْقِ هذا المَأزِقِ الوُجوديِّ، يَبرُزُ السُّؤالُ الأعمَقُ، السُّؤالُ الجارِحُ الذي يُمزِّقُ حِجابَ الرّاحَةِ الزّائِفةِ التي أَلِفْتَها، ويَكشِفُ عُريَ أوهامِكَ المُقَدَّسةِ: أيُّ الأفكارِ، أيُّ القَناعاتِ، أيُّ القِيَمِ التي حَمَلْتَها كَأنّها وَحيٌ مُنَزَّلٌ، تَستَحِقُّ حَقًّا البَقاءَ في وَجهِ هذهِ

العاصِفةِ الهَوجاءِ مِنَ الشَّكِّ النّاقِدِ؟ أيُّها تَصمُدُ أمامَ مِطرَقةِ التّحليلِ العَقليِّ القاسي، وتُقاوِمُ تآكُلَ المَنطِقِ الصّارِمِ الذي لا يُحابي؟ وأيُّها تَسقُطُ وتَتَلاشى، كَقِناعٍ كَرتونيٍّ بالٍ، كَوَهمٍ سَخيفٍ، أمامَ أولِ هُبوبٍ لِرياحِ النّقدِ الجَريءِ الذي لا يَخشى مُقَدَّسًا؟ إنَّ هذا التَّمرينَ الذِّهنيَّ، هذهِ المُواجَهةَ الفَلسفيّةَ، ليستْ مُجَرَّدَ لُعبةٍ فِكريّةٍ عابِرَةٍ أوْ تَرَفٍ فَلسفيٍّ لِلعُقولِ الفارِغةِ، بلْ هيَ دَعوةٌ حارِقةٌ، صَرخةٌ مُدوّيةٌ، لِاختبارِ حُدودِ الوَعيِ الذي تَسكُنُهُ وتُقَدِّسُهُ، لِمُواجهةِ ذاكَ الإدراكِ المَشروطِ الذي فَصَّلْناهُ في إشكاليّةِ الفَهمِ المَسجونِ بِقُيودِ الوِراثةِ والتَّلقينِ، حَيثُ يَتَكَشَّفُ لَنا بِقَسوَةٍ لا رَحمَةَ فيها أنَّ ما نُسَمّيهِ بِثقةٍ عَمياءَ "حَقيقةً مُطلَقةً" قَدْ لا يَكونُ في جَوهَرِهِ إلا بِناءً هَشًّا، كَبيتٍ منْ قَشٍّ تُذروهُ الرِّيحُ، أوْ صَرحًا واهيًا يَرتَكِزُ على رِمالِ التَّلقينِ المُتَحرِّكةِ، لا على صَخرةِ الواقِعِ الصُّلْبَةِ التي لا تَكذِبُ ولا تُناورُ.

فَالعقلُ البَشريُّ، حينَ يُساقُ مُكَبَّلاً بِقُيودِ العادَةِ والتَّلقينِ، إلى حَظائِرِ الأنساقِ الفِكريّةِ ذاتِ اليَقينِ، وحينَ يُرغَمُ على تَجَرُّعِ سُمومِها في كُلِّ حينٍ، لا يَعودُ كائِنًا مُتسائلًا بِحُرّيّةٍ ورَنينٍ، باحثًا عنِ الحَقيقةِ بِلا تَخمينٍ، بلْ يَتَحَوَّلُ إلى عَبدٍ ذَليلٍ مُسْتَكينٍ، أوْ لاجِئٍ خائِفٍ منَ المَجهولِ اللَّعينِ، يَبحَثُ بِذُعرٍ عنْ أيِّ مَلاذٍ زائِفٍ، أوْ قَوقَعةٍ واهِيةٍ يُقيمُ فيها ولا يُخالِفُ. لا اقتِناعًا بِصِحّةِ مَا لُقِّنَ مِنْ تَخاريفٍ، فَلا صِحّةَ هُنا إلا في عالَمِ التَّصانيفِ، بَلْ لِأنَّ ذلكَ الفَراغَ المَعرفيَّ المُخيفَ، الذي يَفتَحُ فاهُ كَجَحيمٍ لا يَعرفُ التَّخفيفَ، يُثيرُ في الأعماقِ ذُعرًا لا يُطاقُ، وقَلَقًا وُجوديًّا لا يُعاقُ. وكَما فَصَّلْنا في "تَشَكُّلِ الفَهمِ" الذي لا يُطاقُ، فَإنَّ الإدراكَ لا يَنبُتُ في فَراغٍ، بلْ يَتَشَكَّلُ في سِياقِ المُناخِ، عَبرَ شُروطٍ خارِجيّةٍ، ثقافيّةٍ وبيولوجيّةٍ، تُحيطُ بِالذّاتِ في المَراحِ، وتَخنُقُ إمكاناتِها قَبلَ الصَّباحِ. لكِنَّ العقلَ المُلَقَّنَ، الذي أَلِفَ قُضبانَ السِّجنِ المُتاحِ، يَفقِدُ القُدرةَ على العَيشِ في الشَّكِّ المُباحِ، وفي بَحرِ اللّايَقينِ ذي الأمْواجِ الرِّياحِ. لا، بَلْ هوَ يَتوقُ بِكُلِّ كِيانِهِ المُرتَاحِ، إلى نُقطةٍ ثابِتةٍ كَالصَّباحِ، إلى مِرساةٍ وَهميّةٍ تَجلِبُ الأفراحَ، يُعلّقُ عليها قارِبَ وُجودِهِ المُتأرجِحَ بِلا نَجاحٍ، وإلى صَخرةٍ يَحتَمي بِها منْ طُوفانِ الشُّكوكِ الجِراحِ، حتّى لوْ كانتْ تِلكَ النُّقطةُ، تِلكَ المِرساةُ، تِلكَ الصّخرةُ، مُجَرَّدَ وَهْمٍ مُتْقَنٍ في المِصباحِ، أوْ سَرابٍ خادِعٍ في الفِجاجِ، يُخفي عُريَ الجَهلِ ويُطيلُ النُّواحَ. وهنا، تَبرُزُ قِيمةُ الشَّكِّ المَنهَجِيِّ، لا كَمعوَلِ هَدمٍ في الرُّواحِ، بلْ كَمِشرَطِ جَرّاحٍ ذي كِفاحٍ. فالشَّكُّ المَنهَجِيُّ، حِينَ يُمارَسُ بِجُرأةِ العقلِ الفَتّاحِ، لا يَعني الهَدمَ الأهوجَ الذي لا يُرْتاحُ، لِكُلِّ ما وَرِثْناهُ منْ أفكارٍ وأتراحٍ. لا، بلْ هوَ اختِبارٌ مُستمِرٌّ، وفَحْصُ دَؤوبٌ مُستَقِرٌّ، لِصَلابةِ هذهِ البُنى المَوروثةِ وقَدَرِها المُستَمِرّ. نَهجٌ عَقليٌّ يَرفُضُ أنْ يَنحَنيَ لِلقَداسَةِ أوِ التَّقديسِ المُضِرِّ، يَتعامَلُ مَعَ

الفِكرةِ، أيّ فِكرةٍ، ليسَ كَحَقيقةٍ لا تُغيَّرُ، أوْ كَصَنَمٍ لا يُكَسَّرُ، بلْ كَـأداةٍ بَشريّةٍ تُستَعْمَلُ وتُيَسَّرُ، صَنَعَها عقلٌ في ظُروفٍ أُخرى لِتُفَسِّرَ، كآلةٍ قابلةٍ للتَّفكيكِ والتَّحليلِ لِتُحَرَّرَ، وربّما حتّى لِلرَّمي بِها في مَزبَلةِ الخُرافاتِ إنْ تَعَسَّرَ أمرُها أوْ تأخَّرَ. فَهَل تَقاوَمُ هذهِ الأنساقُ القَديمةُ، تِلكَ السَّرْديّاتُ العَظيمَةُ، مَنطِقَ التَّساؤُلِ الجَذريّ وحُجَجَهُ القَويمَةَ؟ أمْ أنّها حِكاياتٌ مُنمَّقةٌ، صاغَتها السُّلطَةُ لِتَخدُمَها وهيَ نَئِمَةٌ، وكَرَّسَها الخَوفُ لِتُديمَ سُلطانَهُ وَهيَ مُلْزِمَةٌ؟ وهلْ ما نَعيشُهُ اليومَ منْ "حَقائِقَ"، يَصْدُرُ حَقًّا عنِ الواقِعِ بِلا عائِقٍ، أمْ أنّهُ انعكاسٌ لِمَخاوِفَ دَفينةٍ في الخَلائِقِ، وأوهامٍ مُغرِيةٍ لِكُلِّ عاشِقٍ، تُفرَضُ علينا جِيلاً بَعدَ جِيلٍ كَالسَّوابِقِ، عَبرَ ضَبابِ التّاريخِ وضَغطِ الجَماعَةِ المُعانِقِ؟ هنا الملقن لا يَعودُ كائِنًا مُتسائِلًا، باحِثًا بِشَغَفٍ عنِ الحَقيقةِ، بلْ يَتَحَوَّلُ بِبُطءٍ إلى مُجَرَّدِ عَبدٍ ذَليلٍ لِأسيادٍ لا يَراهُمْ، إلى لاجِئٍ خائِفٍ يَبحَثُ بِذُعرٍ عنْ أيِّ مَلاذٍ زائِفٍ، عنْ أيِّ قَوقَعةٍ واهيةٍ يَختَبِئُ فيها، داخِلَ أسوارِ هذهِ المُسلَّماتِ المُتوارَثةِ التي لُقِّنَها ولَمْ يَخْتَرْها. ليسَ اقتناعًا مَنطقيًّا بِصِحَّتِها كَما قَدْ يَظُنُّ السُّذَّجُ الذينَ يُبَرِّرونَ كُلَّ شَيءٍ، فَلا صِحّةَ هُنا إلا صِحّةَ الوَهْمِ المُريحِ، بَلْ لِأنَّ ذلكَ الفَراغَ المَعرفيَّ المُفزِعَ، الذي رأيناهُ يَفتَحُ فاهُ كَهاويةٍ لا قَرارَ لَها في الفِقرةِ السّابِقةِ، يُثيرُ في أعماقِهِ ذُعرًا لا يُطاقُ، قَلَقًا وُجوديًّا يَكادُ يَفتِكُ بِتَماسُكِهِ الهَشِّ. وكَما فَصَّلْنا بِإسهابٍ في "تَشَكُّلِ الفَهمِ"، فَإنَّ الإدراكَ لا يَنبُتُ في فَراغٍ مُحايِدٍ أو أرضٍ بِكرٍ، بلْ يَتَشَكَّلُ ويَتَلَوَّنُ عَبرَ شُروطٍ خارِجيّةٍ خانِقةٍ، ثقافيّةٍ ولُغويّةٍ وبيولوجيّةٍ، تُحيطُ بِالذّاتِ كَالأسوارِ وتَخنُقُ إمكاناتِها الحُرّةَ في المَهدِ. لكِنَّ العقلَ المُلَقَّنَ، العقلَ الذي أَلِفَ القُضبانَ وظَنَّها جُزءًا منَ النّافِذةِ المُضيئةِ، لا يَملِكُ، أوْ بالأحرى يَفقِدُ بِفِعلِ التَّرويضِ، القُدرةَ الفِطريّةَ النّادِرةَ على العَيشِ في حالةِ شَكٍّ دائِمٍ ومُثمِرٍ، في بَحرِ اللّايَقينِ المُتَلاطِمِ الذي لا شاطِئَ لهُ. لا، بَلْ هوَ يَتوقُ بِكُلِّ كِيانِهِ المُرتَعِشِ، يَتَلَهَّفُ بِجوعٍ مَرَضيٍّ لا يَرتَوي، إلى نُقطةٍ ثابِتةٍ يَستَنِدُ إليها، إلى مِرساةٍ وَهميّةٍ يُعلِّقُ عليها قارِبَ وُجودِهِ المُتَأرجِحَ على أمواجِ العَبَثِ، إلى صَخرةٍ مُتَخَيَّلةٍ يَحتَمي بِها في مُواجَهةِ طُوفانِ الشُّكوكِ، حتّى لوْ كانتْ تِلكَ النُّقطةُ المَزعومةُ، تِلكَ المِرساةُ الخادِعةُ، تِلكَ الصّخرةُ المُتَوَهَّمَةُ، مُجَرَّدَ وَهْمٍ مُتْقَنِ الصُّنعِ، سَرابٍ خادِعٍ في صَحراءِ الوُجودِ، يُخفي خَلفَهُ بِبَراعةٍ عُريَ الجَهلِ المُطلَقِ وحَقيقةَ الفَراغِ الذي لا يَحتَمِلُهُ. وهنا، في هذا المَأزَقِ، تَبرُزُ قِيمةُ الشَّكِّ المَنهَجِيِّ لا كَأداةِ هَدمٍ عَبَثِيٍّ، فَوْضَويٍّ، كَما يَخشاهُ حُرّاسُ اليَقينِ، بلْ كَمِشرَطِ جَرّاحٍ دَقيقٍ، بارِدٍ، لا يَعرِفُ المُجامَلةَ. فالشَّكُّ المَنهَجِيُّ، حينَ يُمارَسُ بِجُرأةِ العقلِ الحُرِّ المُتَمَرِّدِ وشَجاعةِ النَّفسِ المُستَقِلّةِ التي تَرفُضُ الوِصايةَ، لا يَعني البَتّةَ ذلكَ الهَدمَ العَشوائِيَّ الأهوجَ، النِّهيليَّ، لِكُلِّ ما وَرِثناهُ منْ أفكارٍ بالِيةٍ

وقِيَمٍ مُتَحجّرَةٍ وأنظمةٍ مُتكلّسَةٍ. لا، بَلْ هوَ اختبارٌ مُستمرٌّ، دَؤوبٌ، فَحْصٌ قاسٍ لا يَتَهاوَنُ، لِصَلابَةِ هذهِ البُنى المَوروثةِ وهَشاشَتِها. نَهجٌ عَقليٌّ شُجاعٌ يَرفُضُ أنْ يَنحَنِيَ لِسُلطانِ القِدَمِ أوِ التَّقديسِ، يَتعامَلُ مَعَ الفِكرةِ، أيِّ فِكرةٍ، مَهما بَدَتْ راسِخةً أوْ مُبَجَّلَةً، ليسَ كَحَقيقةٍ مُقدَّسةٍ مَصونةٍ لا يَجوزُ لَمسُها، أوْ كَصَنَمٍ ذَهبيٍّ مُحَصَّنٍ ضِدَّ أيِّ نَقدٍ أوْ مُساءَلةٍ أوْ هَمْسٍ، بلْ كَأداةٍ بَشريّةٍ، صَنَعَها بَشَرٌ مِثلُنا في زَمَنٍ آخَرَ لِظُروفٍ أُخرى، كَآلةٍ قابِلةٍ لِلتَّفكيكِ والتَّحليلِ والإعادَةِ، ورُبّما حتّى لِلإلقاءِ بِها، بِلا أسَفٍ، في مَزبَلَةِ الأفكارِ البالِيةِ إنْ ثَبُتَ عَجزُها أوْ زَيفُها أوْ ضَرَرُها. فَهَل تَقاوُمُ هذهِ الأنساقُ القَديمةُ، هذهِ السَّرْديّاتُ الكُبرى التي نَشأنا في ظِلالِها، مَنطِقَ التَّساؤُلِ الجَذريِّ الحارِقِ، وتَصمُدُ أمامَ نِيرانِهِ التي تَلتَهِمُ الهَشَّ؟ أمْ أنّها، في الغالِبِ، مُجرَّدُ حِكاياتٍ مُنمَّقةٍ، مُزَخرَفةٍ، بَنَتْها السُّلطاتُ المُتَعاقِبةُ لِتَخدِمَ مَصالِحَها وتُثَبِّتَ عُروشَها، وكَرَّسَها الخَوفُ الجَماعيُّ لِيُديمَ سُلطانَهُ على النُّفوسِ؟ وهلْ ما نَعيشُهُ اليَومَ منْ "حَقائِقَ" مُعلَنةٍ ومُسلَّماتٍ بَديهيّةٍ، وما نُدافِعُ عنهُ بِحَرارَةِ المُؤمِنِ المُخلِصِ، يَصْدُرُ حَقًّا عنِ الواقِعِ المَوضوعيِّ في تَجَرُّدِهِ البارِدِ، أمْ أنّهُ ليسَ إلا انعِكاسًا مُشَوَّهًا لِتِلكَ المَخاوِفِ الدَّفينةِ التي تَسكُنُ لا وَعينا، وتِلكَ الأوهامِ المُغرِيةِ التي تُداعِبُ أحلامَنا، تِلكَ التي تُفرَضُ علينا، جِيلاً بَعدَ جِيلٍ، عَبرَ ضَبابِ التّاريخِ المُعتِمِ وضَغطِ الجَماعَةِ القاهِرِ؟ إنَّ التَّفكيرَ النَّقديَّ، في جَوهَرِهِ الأعمقِ، ليسَ تَرَفًا فِكريًّا لِلعُقولِ المُتَبَطِّلةِ، ولا هِوايةً فَلسفيّةً لِلنُّخَبِ المُنعَزِلةِ، بلْ هوَ الشَّكلُ الأرقى والأخطَرُ لِلتَّمَرُّدِ على الذّاتِ وعلى العالَمِ، ثَورةٌ حَقيقيّةٌ ضِدَّ تِلكَ البَرمَجَةِ النَّفسيّةِ والثَّقافيّةِ الخانِقةِ التي تُكَبِّلُ العقلَ وتُحَوِّلُهُ إلى عَبدٍ مُطيعٍ يَرتَدي أغلالَهُ بِفَخرٍ. ودَعوةٌ مُلِحّةٌ، صارِخةٌ، لِتَحريرِ الفَهمِ منْ قُيودِ الإجماعِ الجَمعيِّ الخادِعِ، ذاكَ الإجماعُ الذي يُحيطُ بِالفَردِ كَجُدرانِ سِجنٍ هائِلٍ لا يَرى نَوافِذَهُ أوْ يَعرِفُ مَفاتيحَ أبوابِهِ.

لكِنْ، لا تَظُنَّنَّ هذا الدَّربَ، دَربَ الشَّكِّ النَّقّادِ، طريقًا مُعبَّدًا لِأهلِ الوِدادِ، أوْ مَفروشًا بِالحَريرِ لِلسُّعاةِ الجِيادِ. لا، بلْ هوَ مَسارٌ وَعِرٌ، شائِكٌ، لا يُطاقُ، لأنَّ هذا الشَّكَّ الجَذريَّ ليسَ مُريحًا لِلأعماقِ، لِلنَّفسِ البَشريّةِ التي تَتوقُ إلى السَّكينةِ والوِفاقِ، وتَخشى القَلَقَ والفَراغَ وهَولَ الآفاقِ. إنّهُ لا يُقَدِّمُ طُمأنينةً أوْ تَرياقَ، بلْ يُلقي بِالعقلِ، دونَ إنذارٍ أوْ إشفاقٍ، في مُواجَهةٍ مُباشِرةٍ، صِدامٍ عَنيفٍ لا يُطاقُ، مَعَ ذلكَ الفَراغِ المُفزِعِ الذي كانَ مِنْهُ يَهرُبُ في الآفاقِ، الفَراغِ الذي لا تَسُدُّهُ وُعودُ السَّماءِ ولا حِكَمُ الآفاقِ. يُجبِرُهُ على أنْ يُحَدِّقَ بِلا خَوفٍ في وَجهِ أفكارِهِ المُتَناثِرةِ الأوراقِ، أنْ يَتَفَرَّسَ فيها بِعَينٍ ناقِدةٍ لا تَعرِفُ الرِّفاقَ، كَما يَنظُرُ المُهندِسُ الخَبيرُ إلى بِناءٍ قَديمٍ مُتَشابِكِ الأطواقِ، مُتَسائِلًا بِقَلَقٍ

حَذِرٍ: هلِ الأساسُ صُلْبٌ، أمْ أنَّ الجُدرانَ في تَداعٍ لا يَليقُ بِالأعراقِ؟ العقلُ المُلَقَّنُ، الذي أَلِفَ الدِّفءَ في حَظيرةِ القَطيعِ، يُفَضِّلُ دائمًا، بِغَريزةِ الخَوفِ المُريعِ، راحَةَ الوَهْمِ على مَشقَّةِ الحَقيقةِ ووَجعِ الصَّديعِ، ويُعيدُ إنتاجَ المُسلَّماتِ بِآليّةٍ، كَالبَبَّغاءِ الفَظيعِ، ليسَ لِصَوابِها المَزعومِ، بلْ لِأنّها تُخَفِّفُ القَلَقَ الوُجوديَّ المَسْمومَ، وتُعطيهِ إحساسًا كاذِبًا بِالثَّباتِ المَوهومِ. لكِنَّ الشَّكَّ المَنهَجِيَّ، بِصَلابَتِهِ وعِنادِهِ المَعْصومِ، يَرفُضُ هذا المَلاذَ ويَزدَريهِ، ويُصِرُّ أنَّ كُلَّ فِكرةٍ، كُلَّ قِيمةٍ، كُلَّ مُعتَقَدٍ في الوُجودِ يَحويهِ، يَجِبُ أنْ يُبَرِّرَ ذاتَهُ أمامَ مَحكَمةِ العقلِ وما يَنْويهِ، أنْ يُقَدِّمَ بَراهينَهُ لا شَعاراتٍ تُغَطّيهِ، أنْ يُثبِتَ بِالدَّليلِ أنّهُ ليسَ صَدًى باهِتًا أوْ صَوتًا لِسُلطَةٍ قاهِرةٍ تُؤويهِ. وفي هذا السِّياقِ الثَّوريِّ النَّزيهِ، لا يُصبِحُ الشَّكُّ عَدميّةً تُودي بِصاحِبِها وتُرديهِ، بلْ يَتَحَوَّلُ إلى أداةٍ لِإعادةِ التَّشكيلِ تُحييهِ، إلى مِعوَلٍ يُحَطِّمُ الأصنامَ لِيُفسِحَ المَجالَ لِلبِناءِ ويُعليهِ، إلى نَهجِ خَلّاقٍ يُحوِّلُ الأفكارَ مِنْ أصنامٍ تُعبَدُ وتُتيهُ، إلى مَوادَّ خامٍ مَرِنةٍ تُعيدُ صِياغَتَها اليَدُ التي تَجْتَبيهِ. فَما يَصمُدُ أمامَ نارِ التَّمحيصِ التي تكويهِ، يُصبِحُ لَبِنةً صُلْبَةً في بِناءٍ جَديدٍ يُنْميهِ. وما يَنهارُ كَالرَّمادِ وتُذريهِ، يكشِفُ عنْ هَشاشَتِهِ وزَيفِهِ ويُبْليهِ، ويُثبِتُ أنّهُ كانَ أداةً لِلسَّيطَرةِ لا نافِذةً لِلنُّورِ تُجَلّيهِ. الشَّكُّ المَنهَجِيُّ، إذنْ، دَعوةٌ لِلتَّحَرُّرِ مِنْ أغلالِ الوَعيِ المُستعارِ الذي فيهِ نَتيهُ، وإعلانُ تَمَرُّدٍ على سُلطةِ الماضي وما يُمليهِ. هوَ دَعوةٌ لِإعادةِ صِياغةِ الفَهمِ بِوَعْيٍ لا يَتَوانى في تَرقِيهِ، لا كَصَدًى آليٍّ، بلْ كَعَمَلِيّةٍ حَيّةٍ، تُواجِهُ الفَراغَ بِصَدرٍ عارٍ وتُعْرِيهِ، وتُشَكِّلُ المَعنى بِفِعلِ الإرادَةِ الحُرّةِ التي تُزْهيهِ، بَدلاً مِنْ أنْ تَظلَّ طِينًا تَشَكِّلُهُ أصابعُ المَوروثِ وتُبْنيهِ. لكِنَّ الشَّكَّ المَنهَجِيَّ، في صَلابَتِهِ النّادِرةِ وإصرارِهِ العَنيدِ، يَرفُضُ هذا المَلاذَ الجَبانَ، يَزدري هذهِ الرّاحَةَ المُخَدِّرةَ الذَّليلةَ، ويُصِرُّ بِلا هَوادةٍ أوْ كَلَلٍ على أنَّ كُلَّ فِكرةٍ، كُلَّ قِيمةٍ، كُلَّ مُعتَقَدٍ، مَهما بَدا راسِخًا أوْ مُقدَّسًا، يَجِبُ أنْ يُبَرِّرَ وُجودَهُ أمامَ مَحكَمةِ العقلِ النّاقِدِ الصّارِمَةِ، أنْ يُقَدِّمَ بَراهينَهُ العَقليّةَ لا شَعاراتِهِ الرَّنّانَةَ، أنْ يُثبِتَ بِالدَّليلِ القاطِعِ لا بِالتِّكرارِ الأجْوَفِ أنّهُ ليسَ مُجَرَّدَ صَدًى باهِتٍ لِثَقافةٍ مُتَحَجِّرةٍ، أوْ صَوتًا مُستأجَرًا لِسُلطةٍ قاهِرةٍ تَحمي نَفسَها بِالأوهامِ والأكاذيبِ التي تَضُرُّ. وفي هذا السِّياقِ الثّوريِّ، لا يُصبِحُ الشَّكُّ رَفضًا مُطلَقًا أوْ عَدميّةً مُظلِمةً تُفضي إلى الشَّلَلِ واليأسِ، بلْ يَتَحَوَّلُ إلى أداةٍ حَيَويّةٍ، ضَروريّةٍ، لِإعادَةِ التَّشكيلِ والبِناءِ، إلى مِعوَلٍ قَويٍّ يُحَطِّمُ الأصنامَ البالِيةَ لِيُفسِحَ المَجالَ لِبِناءِ مَعنىً أصيلٍ، إلى نَهجِ خَلّاقٍ يُحوِّلُ الأفكارَ مِنْ أصنامٍ مُتَصَلِّبةٍ عَمياءَ تُعبَدُ بِجَهلٍ، إلى مَوادَّ خامٍ مَرِنةٍ، طيّعةٍ، إلى طينٍ يُمكِنُ لِأصابِعِ العقلِ الحُرِّ أنْ تُعيدَ صِياغَتَهُ مِنْ جَديدٍ، بِشَكلٍ أكثَرَ نُضجًا وانسجامًا مَعَ الواقِعِ الذي لا يَكذِبُ. فَما يَصمُدُ أمامَ هذا

الاختبارِ القاسي، أمامَ نارِ التَّمحيصِ الحارِقةِ التي لا تُبقي ولا تَذَر، يُصبِحُ لَبِنةً صُلبةً في بناءٍ معرفيٍّ جَديدٍ أكثَرَ مَتانةً وحُرّيّةً وأقربَ للوُجودِ. وما ينهارُ ويتَلاشى كالرَّمادِ في الرِّيحِ، يكشِفُ عنْ هَشاشَتِهِ المتأصِّلةِ، وعنْ زَيفِهِ المُقنَّعِ الذي يُخفي الحَقيقَةَ، وعنْ كونِهِ لمْ يكُنْ يومًا سِوى أداةٍ للسَّيطَرةِ والتَّلقينِ والخِداعِ، لا نافِذةً تُطلُّ على الواقِعِ الصَّريحِ، أوْ جِسرًا يعبُرُ بنا إلى شاطِئِ الفَهمِ الرَّفيعِ. الشَّكُّ المَنهَجيُّ، إذنْ، في جوهَرِهِ الأعمَقِ، ليسَ إلا دَعوةً صارِخةً، مُلحّةً، للتَّحرُّرِ منْ أغلالِ ذلكَ الوَعي المُستعارِ المُقيِّدِ الذي فَصَّلْناهُ، وإعلانَ تمرُّدٍ صَريحٍ على سُلطةِ الماضي المُثقِلِ والأنساقِ المَوروثةِ التي لا تُفيدُ. هوَ دَعوةٌ لإعادَةِ صِياغةِ الفَهمِ، لا كَصَدًى آليٍّ باهِتٍ لِما تلَقَّيناهُ قَسرًا دونَ اختيارٍ، بلْ كَعَمَليّةٍ حَيّةٍ، نابِضةٍ، شُجاعةٍ، تُواجِهُ الفَراغَ الوُجوديَّ المُخيفَ بِصَدرٍ عارٍ دونَ أنْ تَهرُبَ منهُ إلى أحضانِ وَهمٍ جَديدٍ يُريحُها ويُخدِّرُها. عَمليّةٌ تُشَكِّلُ الحَقيقةَ وتبدِعُ المَعنى بِفعلِ الإرادةِ الحُرّةِ المُستَنيرةِ، بَدلاً منْ أنْ تَظلَّ مُجرَّدَ طينٍ طَيِّعٍ تَشَكِّلُهُ أصابعُ الأنساقِ المَوروثةِ وتُعيدُ إنتاجَهُ في قَوالِبِها العَتيقةِ الباليةِ المُنيرةِ ظاهِرًا والمُظلِمةِ باطِنًا.

فَحينَ يُدركُ الإنسانُ، بِبَصيرةٍ ثاقِبةٍ تَخرِقُ حُجُبَ الوَهمِ، أنَّ كُلَّ فِكرةٍ، مَهما بَدَتْ مُقَدَّسةً، قابِلةٌ للنَّقضِ والتَّفكيكِ، وأنَّ كُلَّ صَنَمٍ فِكريٍّ، مَهما عَلا واشتَهَرَ، مَصيرُهُ إلى التَّحطيمِ والتَّفتيتِ على يَدِ العقلِ النَّقّادِ، يَتحوَّلُ في تلكَ اللَّحظَةِ الفاصِلةِ الحاسِمةِ، في لَحظةِ الوَعي المُحرِّرِ التي تُشبِهُ صُعودَ الشَّمسِ، منْ مُجرَّدِ أسيرٍ ذَليلٍ مُنقادٍ للأفكارِ التي استَعبَدَتْهُ طَويلاً، إلى سَيِّدٍ، ولَوْ كانَ سَيِّدًا نِسبيًّا، لِعقلِهِ الذي كادَ أنْ يَفقِدَهُ في غَياهِبِ الظَّلامِ. إنَّ تَحطيمَ هذهِ الأصنامِ الفِكريّةِ التي عُبِدَتْ بِجَهلٍ أو بِخَوفٍ دُهورًا، لا يُلقي بِالذّاتِ، كَما قَدْ يُخَيَّلُ لِلخائفينَ مِنْ نورِ الحَقيقةِ، في غَياهِبِ فَراغٍ مَعرفيٍّ مُظلِمٍ ودائمٍ يُهلِكُها، أوْ في مَتاهةِ عَدميّةٍ سَوداءَ لا قَرارَ لَها ولا مَلاذَ يُدرِكُها. لا، بلْ إنَّ هذا الفِعلَ الثَّوريَّ، فِعلَ التَّحريرِ، يَفتَحُ المَجالَ واسِعًا أمامَ العقلِ، يُشرِعُ لَهُ الأبوابَ والنَّوافِذَ، لِتبنّي أفكارٍ جَديدةٍ، أكثَرَ نُضجًا وصَلابَةً، أفكارٍ مُختَبَرةٍ بِصَرامَةٍ على مِحَكِّ النَّقدِ العَقليِّ، مُستَنِدةٍ إلى صَخرةِ تَجربةٍ ذاتيّةٍ حَيّةٍ نابِضةٍ بِالألَمِ والمَعرفةِ، لا إلى مُجرَّدِ تَرديدٍ أبلَهَ، صَدًى أجوَفَ، لأيديولوجيّاتٍ مَيتةٍ باليةٍ فُرِضَتْ عليهِ فَرضًا مِنَ الخارِجِ ولَمْ يَختَرْها. فالتَّفكيرُ النَّقديُّ، كَما أشرنا مِنْ قَبلُ، ليسَ مُجرَّدَ مِعوَلِ هَدمٍ عشوائيٍّ يُحطِّمُ بِلا هَدفٍ المَفاهيمَ والقِيَمَ التي شَكَّلَتْ يومًا مَرجعيّاتِنا الوَهميّةَ الآمِنةَ، بلْ هوَ في جَوهَرِهِ عَمليّةٌ بِنائيّةٌ مُستَمِرّةٌ، حَرَكةٌ جَدَليّةٌ دَؤوبةٌ لا تَهدأُ، تَتَجاوَزُ سَلبيّةَ الرَّفضِ العَقيمِ الذي لا يُثمِرُ، لِتُشَيِّدَ بِصَبرٍ بِناءً فِكريًّا جَديدًا، أكثَرَ مَتانةً في أساسِهِ، وأصدَقَ في بُنيانِهِ، مِنْ أنقاضِ ما تَهَدَّمَ مِنَ القَديمِ البالي المُتَهاوي. والعقلُ الذي يَمتَلِكُ تِلكَ الشَّجاعةَ

النّادرةَ، شَجاعةَ أنْ يَرفُضَ الخُضوعَ الذَّليلَ المُهينَ لِأيّ سُلطةٍ فِكريّةٍ خارِجيّةٍ تَفرِضُ نَفسَها، سَواءٌ كانَتْ هذهِ السُّلطةُ دينيّةً تَتَحَدَّثُ بِاسْمِ السَّماءِ، أوْ سِياسيّةً تَتَحَدَّثُ بِاسْمِ الوَطَنِ، أوْ اجتِماعيّةً تَتَحَدَّثُ بِاسْمِ التَّقاليدِ والأعرافِ، إنّما يَتحَرَّرُ في لَحظةِ الرَّفضِ الجَريئةِ تِلكَ مِنْ أغلالِها الخانِقةِ، يُكَسِّرُ قُيودَهُ بِذاتِهِ، ويُصبِحُ قادِرًا أخيرًا على التَّساؤُلِ بِلا خَوفٍ مِنْ عِقابٍ أرضيٍّ أوْ سَماويٍّ، وعلى النَّقدِ بِلا خَشيةٍ منْ نَبذٍ أوْ إقصاءٍ اجتِماعيٍّ، ويَمتَلِكُ تِلكَ الشَّجاعةَ النّادِرةَ، شَجاعةَ الحُكَماءِ الحَقيقيّينَ، لِلاعترافِ بِالجَهلِ كَجُزءٍ لا يَتَجَزَّأُ منَ الحَقيقةِ إذا ما اقتَضى المَنطِقُ ذلِكَ، وإذا ما تَواضَعَ العقلُ أمامَ لُغزِ الوُجودِ. فالحُرّيّةُ الفِكريّةُ الحَقيقيّةُ، يا صاحِ، لا تَكمُنُ أبَدًا في الوَهمِ المُتَعالي المُتَكَبِّرِ لامتلاكِ "مَعرِفةٍ مُطلَقةٍ" تُسكِتُ كُلَّ سُؤالٍ وتُنهي كُلَّ جَدَلٍ، أوْ في بِناءِ قَصرٍ شامِخٍ منَ اليَقينِ الزّائِفِ لا تَتَصدَّعُ جُدرانُهُ ولا تَهتَزُّ أركانُهُ، بلْ تَكمُنُ، بِكُلِّ تَواضُعٍ، في تِلكَ القُدرةِ الحَيَويّةِ النّاقِدةِ على التَّمييزِ بينَ الغَثِّ والسَّمينِ، وفي الشَّجاعةِ على تَجاوُزِ الأنساقِ المَوجودةِ وتَفكيكِها بِلا رَحمَةٍ، وفي الإرادةِ الخلّاقةِ على خَلقِ مَعنًى خاصٍّ، مَعنًى ذاتيٍّ يُشبِعُ الرُّوحَ، في عالَمٍ صامِتٍ ومُحايِدٍ لا يُقَدِّمُهُ لَنا جاهِزًا ولا يَكتَرِثُ بِبَحثِنا المُضني عنهُ. فَمَنْ يَجرُؤُ على أنْ يُحَطِّمَ أصنامَهُ الفِكريّةَ التي رَكَعَ أمامَها طَويلاً بِخُضوعٍ، ومَنْ يَتَحدّى الأوهامَ المُقَدَّسةَ التي نَشأَ عليها وتَغَذّى مِنْها، يُصبِحُ هوَ صاحِبَ الحُرّيّةِ الأصيلةِ الحَقّةِ، سَيِّدَ ذاتِهِ الأوحدَ الذي لا سَيِّدَ فَوقَهُ. لِماذا؟ لِأنَّ السَّجينَ الذي يُدرِكُ بِوَعْيٍ حُدودَ زِنزانَتِهِ الضَّيِّقةِ ويَرى قُضبانَها الصَّدِئةَ بِوُضوحٍ، هوَ دائِمًا أقرَبُ إلى فَجرِ التَّحرُّرِ منْ ذلِكَ الأسيرِ الآخَرِ الذي يَرقُصُ طَرَبًا في قَفَصِهِ الذَّهَبيِّ، ظانًّا نَفسَهُ حُرًّا طَليقًا كَالنَّسرِ، فَقَطْ لِأنَّهُ لا يُدرِكُ، في عَمى بَصيرَتِهِ المُطْبِقِ، أنَّهُ مُقيَّدٌ بِأغلالٍ خَفيّةٍ، وأنَّ حُرّيَّتَهُ المَزعومةَ ليستْ إلا وَهمًا آخَرَ منْ أوهامِ العقلِ المَأسورِ.

فَما هوَ الشَّكُّ المَنهَجِيُّ هذا، في جَوهَرِهِ الأعمَقِ والأخطَرِ، بَعدَ أنْ حَطَّمْنا بِهِ الأصنامَ المُقَدَّسةَ ورَأَيْنا فيهِ فَجرًا كاذِبًا أوْ صادِقًا لِلحُرّيّةِ الأصيلةِ؟ إنَّهُ ليسَ، كَما قَدْ يَتَوهَّمُ البُسَطاءُ في تَفكيرِهِمُ السّاذِجِ، أوْ يَخشى المُتَزَمِّتونَ في تَحَجُّرِهِمُ المُقيتِ، مُجَرَّدَ غِيابٍ سَلبيٍّ بارِدٍ لِليَقينِ المُريحِ الذي اعتادوهُ، أوْ فَراغًا عَدميًّا مُظلِمًا تَتَهاوى فيهِ الرُّوحُ وتَضيعُ فيهِ القِيَمُ. لا، بلْ هوَ، لِمَنْ يَملِكُ الجُرأةَ على احتِضانِهِ، أُفُقٌ مَعرِفيٌّ مَفتوحٌ على اللّامُتَناهي، فَضاءٌ شاسِعٌ منَ الاحتمالاتِ المُتَضارِبةِ والإمكاناتِ التي لا تُحَدُّ، يَسمَحُ لِلعقلِ الحُرِّ المُتَمَرِّدِ بأنْ يَحيا ويَتَنَفَّسَ ويُحَلِّقَ في مَساحةِ اللّايَقينِ المُتَوَتِّرَةِ، القَلِقةِ، دونَ الحاجَةِ المُذِلّةِ إلى تَسَوُّلِ إجاباتٍ مُسبَقةٍ، جاهِزةٍ، منْ سُلطةٍ خارِجيّةٍ تَفرِضُ وَصايَتَها، سَواءٌ كانَتْ هذهِ السُّلطةُ نَصًّا مُقَدَّسًا، أوْ

شَيخًا مُعَمَّمًا، أوْ حِزبًا مُؤَدلَجًا، أوْ حتّى عُرفًا اجتِماعيًّا مُتَحَجّرًا. ودونَ الارتِماءِ بِخُضوعٍ في أحضانِ حُلولٍ مُعلّبةٍ، مُخَدِّرةٍ، تُخَفِّفُ الألَمَ لِوَهلةٍ ولكِنّها لا تَشفيهِ أبَدًا. إنَّ التَّفكيرَ النَّقديَّ، حينَ يَصِلُ إلى أقصى مَداهُ، إلى ذُروةِ جُرأتِهِ، حينَ يَتَجَرَّدُ منْ كُلِّ قَيدٍ مَفاهيميٍّ أوْ وَصايَةٍ سُلطَويّةٍ، لا يَعودُ يَخشى الفَراغَ المَعرفيَّ الذي يَنشَأُ عنْ تَحطيمِ اليَقينِ، بلْ يُواجِهُهُ بِشَجاعةٍ صارِمةٍ كَعُنصُرٍ طَبيعيٍّ، كَجُزءٍ لا يَتَجَزَّأُ منْ دَيناميكيّةِ تَطوُّرِ العقلِ ونُمُوِّهِ المُستمِرِّ، لا كَخَطَرٍ مُحدِقٍ يَجِبُ الهُروبُ مِنهُ بِأيِّ ثَمَنٍ، أوْ تَغطيتُهُ بِأقنِعةِ الوَهْمِ المُزَخرَفةِ. لكِنْ، يَبرُزُ هُنا التَّحدّي العَمَليُّ الأكبَرُ، المِحَكُّ الحَقيقيُّ: كَيفَ لَنا أنْ نُعيدَ النَّظَرَ بِجُرأةٍ وصِدقٍ، لا بِمُراوَغةٍ أوْ خِداعٍ، في تِلكَ المُسلَّماتِ المُتَجَذِّرَةِ في أعماقِنا والتي نَشأنا عليها وتَشَرَّبْناها كَالهَواءِ؟ تِلكَ التي تَشَرَّبَتْها عُقولُنا الغَضّةُ قَبلَ أنْ نَعيَ بِوُجودِها حتّى؟ كَيفَ نَخلَعُ تِلكَ النَّظّارةَ المُلَوَّنةَ التي أُلصِقَتْ على أعْيُنِنا قَسرًا مُنذُ الوِلادةِ وشَوَّهَتْ رُؤيَتَنا لِلأشياءِ؟ إنَّ الخُطوةَ الأُولى، المِفتاحَ الذَّهبيَّ لِكَسرِ القَيدِ وتَحطيمِ الصَّنَمِ، تَبدأُ بِذلكَ الاعترافِ الصّادِمِ، والمُحَرِّرِ في آنٍ واحِدٍ: بأنَّ كُلَّ فِكرةٍ نَحمِلُها في عُقولِنا، كُلَّ قِيمةٍ نُدافِعُ عَنْها بِحَماسَةٍ، كُلَّ مُعتَقَدٍ نَعتَنِقُهُ بِيَقينٍ، ليسَ حَقيقةً مُطلَقةً، مُنَزَّلَةً، هَبَطَتْ منْ عَماءِ الأزلِ بِلا سابِقٍ، بلْ هوَ نِتاجٌ تاريخيٌّ مَحْضٌ، صَنيعةٌ ثَقافيّةٌ نِسبيّةٌ، لا شَيءَ مِنْهُ يَقِفُ خارِجَ سِياقِ الزَّمَنِ والمَكانِ اللّذَيْنِ أنتَجاهُ، ولا شَيءَ نَزَلَ منْ عَلٍ مُكتَمِلاً، ناجِزًا، لا يَأتيهِ التَّغييرُ أوِ التَّبديلُ. فَكُلُّ مَفهومٍ، وكُلُّ مَنظومةٍ فِكريّةٍ أوْ أخلاقيّةٍ أوْ دينيّةٍ، ليستْ إلا حَصيلةً مُعقَّدةً لِلتَّفاعُلاتِ الشّائِكةِ لِسياقِها التّاريخيِّ والاجتِماعيِّ الذي احتَضَنَها، تَتَشَكَّلُ وتَتَبلورُ عَبرَ تَراكُماتٍ طَويلةٍ منَ الظُّروفِ والأحداثِ، والأيديولوجيّاتِ المُتَصارِعةِ، والسُّلطاتِ المُهيمِنةِ التي صَنَعَتْها ورَوَّجَتْ لَها وحَمَتْها بِأسوارِ القَمعِ أوْ بِإغراءِ المَنفَعةِ. وحينَ يَرى الإنسانُ أخيرًا أفكارَهُ المُقَدَّسةَ بِهذهِ العَينِ المُتَجَرِّدةِ، المُشَرِّحةِ، حينَ يُدرِكُ أنّها ليستْ حقائِقَ ثابتةً كَالنُّجومِ في الأفلاكِ، بلْ مُجَرَّدَ مَحطّاتٍ عابِرةٍ، إشاراتٍ مُؤقَّتةٍ، في مَسارِ الفِكرِ البَشريِّ الطَّويلِ والمُتَعَرِّجِ، يَبدأُ حِينَئذٍ فَقَطْ في كَسرِ قُيودِ التَّلقينِ التي أسَرَتْهُ سِنينًا، ويُدرِكُ أنَّ الفِكرةَ ليستْ شَيئًا مُقَدَّسًا يَجِبُ الرُّكوعُ أمامَهُ بِذِلّةٍ، بلْ هيَ مُجَرَّدُ بِناءٍ بَشريٍّ، هَيكلٍ مَفاهيميٍّ، يُمكِنُ – بَلْ يَجِبُ – تَحليلُهُ، تَفكيكُهُ، ونَقدُهُ بِلا رَحمةٍ أوْ مُهادَنةٍ. إنَّ هَدمَ الفِكرةِ ليسَ لِأجلِ الهَدمِ ذاتِهِ، كَما تَفعَلُ العَدَميّةُ الجَوفاءُ التي لا تُبقي ولا تَذَرُ، بلْ لِإعادَةِ تَشكيلِها، لِتَحريرِ جَوهَرِها النّافِعِ (إنْ وُجِدَ) منْ قُشورِها الزّائِفةِ وأشواكِها المُؤذيةِ. وهذهِ عَمليّةٌ شاقّةٌ تَتَطلَّبُ نَظرةً نَقديّةً فاحِصةً كَعَينِ الصَّقرِ، وشَجاعةً كَشَجاعةِ المُستكشِفِ في أرضٍ مَجهولةٍ، ودِقّةً كَدِقّةِ الجَرّاحِ في يَدِهِ المِبضَعُ. نَظرَةٌ كالتي يُوَجِّهُها القارِئُ

المُتَمَرِّسُ النّاقِدُ إلى نَصٍّ مَكتوبٍ أمامَهُ: فَإذا كانتِ النُّصوصُ، مَهما بَدَتْ مُحكَمَةً أوْ مُقدَّسةً، قابِلةً لِإعادَةِ القِراءةِ والتَّأويلِ والتَّفكيكِ والنَّقدِ، فَالأفكارُ والمُعتَقَداتُ، وهيَ أشَدُّ خَطَرًا على العُقولِ وأعمقُ أثَرًا في الحَياةِ، أولى وأجْدَرُ بِأنْ تكونَ قابِلةً لِلتَّعديلِ والاختِبارِ والنَّقدِ المُستَمِرِّ. فالشَّكُّ المَنهَجِيُّ، في صَميمِهِ، لا يَعني ذلِكَ التَّشكيكَ الأعمى، المُتَخَبِّطَ، العابِثَ، الذي يُساوي بينَ الغَثِّ والثَّمينِ ويَخلِطُ الحابِلَ بِالنّابِلِ، بلْ هوَ اختِبارٌ دائِمٌ، مُتَيَقِّظٌ، قاسٍ، لِحُدودِ الفِكرةِ وقُدرَتِها على الصُّمودِ أمامَ مَنطِقِ العقلِ وسُؤالِ الوُجودِ: ماذا لوْ كانتْ هذهِ القيمةُ التي أُدافِعُ عَنْها بِحَرارَةٍ خاطِئةً منَ الأساسِ؟ ماذا لوْ كانَ هذا المُعتَقَدُ الذي أعتَنِقُهُ بِيَقينٍ مُجرَّدَ صَدًى لِخَوفٍ دَفينٍ في اللّاوَعي، أوْ قَيدٍ ثقافِيٍّ مَوروثٍ لَمْ أنتَبِهْ لهُ، أوْ وَهمٍ دينِيٍّ مُريحٍ صَنعتُهُ لِأهرُبَ منْ قَلَقي ورُعبي؟ هذهِ الأسئلةُ الحارِقةُ، هيَ مِطرَقةُ الشَّكِّ التي تُحَطِّمُ جُدرانَ السِّجنِ الفِكريِّ وتَفتَحُ الطَّريقَ، ولوْ كانَ مُؤلِمًا، نَحوَ فَضاءِ الحُرِّيّةِ.

وفي تِلكَ اللَّحْظَةِ البُركانِيّةِ المُفاجِئةِ، لَحْظَةِ انْفِجارِ بُركانِ الشَّكِّ الحارِقِ في أعماقِ الوَعي الذي كانَ هادِئًا مُستكينًا، يَدخُلُ العقلُ، شاءَ أمْ أبى، طائِعًا أمْ كارهًا، في مَرحلةٍ عَنيفةٍ منَ الفَوضى الفِكريّةِ العارِمةِ، وفي دَوّامةٍ مُظلِمةٍ منَ التَّساؤُلاتِ المُتَصادِمةِ التي لا تَعرِفُ الرَّحمَةَ أوَ الهُدوءَ. يَتَأرجَحُ العقلُ فيها كَسَفينةٍ تائِهةٍ فَقَدَتْ دَفَّتَها وشِراعَها في عُرضِ البَحرِ الهائِجِ، بينَ أمواجِ الاحتمالاتِ المُتَضارِبةِ التي لا تَستَقِرُّ على حالٍ، وتيّاراتِ الأسئلةِ الحارِقةِ التي لا تَجِدُ في قاموسِ اليَقينِ المُتَوارَثِ، الذي تَحَطَّمَ، أيَّ إجاباتٍ شافِيةٍ تُريحُ القَلبَ أوْ تُطَمْئِنُ الرُّوحَ. يُواجِهُ، وَحيدًا وعاريًا أمامَ الكَونِ الصّامِتِ، قَلَقًا وُجوديًّا حادًّا، لَزِجًا، يَخنُقُ الأنفاسَ ويُثقِلُ الصُّدورَ، قَلَقٌ يُشبِهُ الشُّعورَ المُفزِعَ المُريعَ لِلوُقوفِ على حافّةٍ هاويةٍ مُظلِمةٍ لا قَرارَ لَها ولا ضِياءَ، حَيثُ الصُّراخُ لا يُجدي نَفعًا والصَّمتُ لا يُريحُ بَالًا. وهُنا، في مُفتَرَقِ الطُّرُقِ هذا، مُفتَرَقِ المَصيرِ، يَجِدُ العقلُ المُضطَرِبُ، المُتَأَلِّمُ، نَفسَهُ أمامَ خِيارَيْنِ مُرَّيْنِ، لا ثالِثَ لَهُما في قاموسِ القَدَرِ، خِيارَيْنِ كَحَدَّيْ سَيفٍ قاطِعٍ: إمّا أنْ يَرتَدَّ خائِفًا، جَبانًا، فَيَجْبُنُ أمامَ عاصِفةِ اللّايَقينِ الهائِجةِ، ويَهرُبَ عائِدًا، مُنْكَسِرًا، إلى دِفءِ القَفَصِ الفِكريِّ الذي أَلِفَهُ واعتادَهُ، إلى سَكينَةِ الوَهْمِ المُخَدِّرةِ التي تُنسيهِ أَلَمَهُ، هَرَبًا منْ هذا الاضطرابِ الدّاخِلِيِّ الذي لا يُطاقُ ويَكادُ يَقتُلُهُ. وإمّا أنْ يَجمَعَ شَتاتَ شَجاعَتِهِ المُتَبَقّيَةِ، ويَحتَضِنَ هذهِ الفَوضى الخَلّاقةَ كَجُزءٍ منْ مَسيرَتِهِ الشّاقّةِ، ويَمضيَ قُدُمًا، بِخُطًى ثابتةٍ ولَوْ كانتْ مُرتَعِشةً، نَحوَ أُفُقِ اللّايَقينِ الدّائِمِ، الأُفُقِ المَفتوحِ على كُلِّ الاحتمالاتِ، مُستَعِدًّا لِأنْ يَعيشَ مَعَ السُّؤالِ كَرَفيقٍ مُلازِمٍ لا كَعَدُوٍّ مُخاصِمٍ، وأنْ يَتَّخِذَ منَ الحَيرَةِ مَوطِنًا لا مَنْفًى. فالشَّكُّ المَنهَجِيُّ الحَقيقِيُّ، الشَّكُّ

الخلّاقُ، يَتجاوَزُ بِطَبيعَتِهِ الثَّوريّةِ ذلكَ التَّشكيكَ السَّطحيَّ، العابِرَ، الذي قَدْ يُداعِبُ العقلَ بينَ حِينٍ وآخَرَ كَنَسيمٍ خَفيفٍ دونَ أنْ يُزلزِلَ أركانَ يَقينِهِ. لا، بلْ إنّهُ يُصبِحُ، بِفعلِ الإصرارِ والجُرأةِ والمُثابَرةِ، آليةً تَفكيكيّةً جَذريّةً، مِشرَطًا دَقيقًا يُعيدُ صِياغةَ تِلكَ العَلاقةِ المُلتَبِسةِ، المُتَوَتِّرَةِ، بينَ الذّاتِ العارِفةِ التي تَسألُ، وبينَ شَبَكةِ المَعاني والقِيَمِ التي تُشَكِّلُ تَجرِبَتَها وتُؤَطِّرُ وُجودَها في هذا العالَمِ. إنّهُ لا يَسعى، كَما تَفعَلُ الثَّوراتُ الفاشِلةُ التي تَستَبدِلُ طاغِيةً بِآخَرَ، لِاستبدالِ يَقينٍ قَديمٍ مُتهاوٍ بِيَقينٍ جَديدٍ قَدْ يَكونُ أكثَرَ قَهرًا وضَلالاً. لا، بَلْ يَهدِفُ إلى خَلقِ فَضاءٍ مَعرفيٍّ مُتَجَدِّدٍ ومَفتوحٍ، سَماءٍ لا حُدودَ لَها لِلتَّحليقِ، حَيثُ تَنهارُ وتَتَلاشى مُسلَّماتُ الوَعيِ المُتَراكِمِ كَقُصورٍ منْ رِمالٍ، وحُصونُ اليَقينِ المُصطَنَعِ كَقِلاعٍ منْ وَرَقٍ، تَحتَ وَطأةِ مِطرَقةِ النَّقدِ القاسيةِ وضَغطِ التَّفكيكِ المُستمِرِّ لِأنساقِ التَّلقينِ والتَّأطيرِ الثَّقافيِّ التي صَنَعَتْها أيادي الخَوفِ والسُّلطَةِ. وإذا كانَ الإدراكُ البَشريُّ، كَما أثبَتْنا بِما لا يَدَعُ مَجالاً لِلشَّكِّ، مَحكومًا أبَدًا بِبُنيةِ المَعرِفةِ التي تُنتِجُهُ وتُقَولِبُهُ، ومَحدودًا بِأدواتِهِ القاصِرةِ التي تُشَكِّلُهُ وتُوَجِّهُهُ. وإذا كانَ الوَعيِ، بِطَبيعَتِهِ المُقيَّدةِ والأسيرةِ، عَاجِزًا عنْ تَجاوُزِ حُدودِهِ المَرسومةِ دونَ أنْ يُعيدَ، بِشَكلٍ لا واعٍ، إنتاجَ ذاتِ الأنساقِ التي يُحاوِلُ الهُروبَ مِنْها والانتِصارَ عليها. فَكَيفَ، إذنْ، نَكسِرُ هذهِ الدّائِرَةَ المَلعونَةَ؟ كَيفَ نُفلِتُ منْ هذهِ الحَلْقةِ الجَحيميّةِ التي لا تَنتَهي؟ إنَّ الإجابةَ لا تَكمُنُ، كَما قَدْ يَظُنُّ المُتَفائلونَ السُّذَّجُ في أحلامِهِمُ الوَرديّةِ، في مُجَرَّدِ إدراكِ أنَّ وَعيَنا مَشروطٌ بِأُفُقٍ تاريخيٍّ وتَأويليٍّ نِسبيٍّ فَحَسْبُ، فَهذا الإدراكُ الوَحيدُ، إنْ لَمْ يُستَثمَرْ، قَدْ يُؤدّي إلى اليأسِ والشَّلَلِ العَقليِّ. لا، بلْ تَكمُنُ في البَحثِ الدّؤوبِ، في السَّعيِ المُضني الحَثيثِ، عنْ أدواتٍ فِكريّةٍ ومَنهجيّةٍ قادِرةٍ على أنْ تُعيدَ تَشكيلَ الوَعيِ نَفسِهِ بِجُذورِهِ، لا فَقَطْ تَصَوُّراتِهِ وقُشورِهِ. قادِرةٍ على أنْ تُغيِّرَ شُروطَ إنتاجِ المَعرِفةِ منْ أساسِها، بَدلاً منْ أنْ تَكتَفيَ بِتَقديمِ بَدائلَ جاهِزةٍ، أوهامٍ جَديدةٍ، أقفاصٍ أُخرى لِسِجنٍ قَديمٍ. وهذا المَسعى الجَذريُّ، الثَّوريُّ، يَتَطلَّبُ نَهجًا مَنهجيًّا صارِمًا، نَهجًا لا يَتَوقَّفُ عندَ حُدودِ الشَّكِّ النَّظَريِّ المُجَرَّدِ الذي يَبقى في الأبراجِ العاجيّةِ، بلْ يَتَجاوَزُهُ إلى مُمارَسةٍ عَمليّةٍ حَيّةٍ، إلى تَجرِبةٍ ذاتيّةٍ مُستمِرّةٍ، إلى تَدريبٍ مُتواصِلٍ، يُعيدُ بَرمَجةَ الإدراكِ نَفسِهِ، ويُحَوِّلُ العقلَ منْ مُستقبِلٍ سَلبيٍّ خانِعٍ لِلمَوروثِ، إلى فاعِلٍ نَشِطٍ يَخلُقُ مَعناهُ بِحُرّيّةٍ وشَجاعةٍ.

وهذا المَسعى الجَذريُّ لِإعادَةِ بَرمَجةِ الإدراكِ وتَحريرِ الوَعيِ، يُصبِحُ ضَرورةً وُجوديّةً لا تَرَفًا فِكريًّا، لِأنَّ الحَقيقةَ المُجَرَّدَةَ، الحَقيقةَ التي يَهرُبُ مِنْها العقلُ المَأسورُ كَما يَهرُبُ الخُفّاشُ منَ النُّورِ، هيَ أنّهُ لا وُجودَ أصلاً لِما يُسمّى إدراكًا "نَقيًّا" مُتَجَرِّدًا، أوْ فَهْمًا "مُحايِدًا" مُتَرَفِّعًا لِلعالَمِ. هذا مُجَرَّدُ وَهْمٍ آخَرَ منْ أوهامِ

الفَلسفاتِ السَّاذجةِ المُتعالِيةِ، التي تَظُنُّ بِغُرورٍ طُفوليٍّ أنَّ العقلَ البَشريَّ قادرٌ على الوُصولِ إلى جَوهَرِ الأشياءِ بِلا وَسيطٍ أوْ حِجابٍ. فالواقِعُ الأكثَرُ قَسوةً وتَعقيدًا، هوَ أنَّ كُلَّ فِكرةٍ، كُلَّ خاطِرةٍ، تَتَسَلَّلُ إلى أذهانِنا المُضطَرِبةِ، وكُلَّ انطباعٍ حِسّيٍّ يَتَشَكَّلُ في وِجدانِنا المُتَقَلِّبِ، وكُلَّ حُكمٍ قِيَميٍّ نُصدِرُهُ على الأشياءِ والأفعالِ، لا يَصِلُ إلينا خامًا، نَقيًّا، كَما هوَ في أصْلِهِ، بلْ يَمُرُّ حَتمًا، ودونَ أنْ نُدرِكَ ذلكَ غالبًا، عَبرَ مِصفاةٍ تَأويليّةٍ كَثيفةٍ، مُتَعَدِّدَةِ الطَّبَقاتِ، شَبكةٍ بالِغةِ التَّعقيدِ منَ المُرَشِّحاتِ الخَفيّةِ التي تَراكَمَتْ طبقاتُها الدَّقيقةُ عَبرَ الزَّمَنِ كَالصَّدأِ على الحَديدِ. شَبكةٌ مَشكولةٌ منْ خُيوطِ اللُّغةِ المُقَيِّدَةِ التي نُفكِّرُ بِها ونَحلُمُ ونَتكَلَّمُ، ومنْ غُبارِ البِيئةِ الثَّقافيّةِ والاجتِماعيّةِ التي نَشأنا في أحضانِها وتَشَرَّبْنا قِيَمَها، ومنْ ظِلالِ المَوروثاتِ الدِّينيّةِ والأسطوريّةِ التي تَسكُنُ لا وَعيَنا وتُوَجِّهُهُ، ومنْ نُدوبِ التَّجارِبِ الفَرديّةِ العَميقةِ التي حَفَرَتْ أخاديدَها المُميَّزةَ في نُفوسِنا، بلْ وحتّى منْ تِلكَ التَّحيُّزاتِ العَصَبيّةِ الخَفيّةِ، المَغروسةِ في بُنيةِ الدِّماغِ البَشريِّ ذاتِها، التي تَعمَلُ في الظَّلامِ كَالجَواسيسِ دونَ أنْ نُدرِكَ وُجودَها أوْ نَتَحَكَّمَ في أثَرِها المُدَمِّرِ أحيانًا. فالعقلُ البَشريُّ، خِلافًا لِما تَوَهَّمَهُ المُتفائلونَ والمُثاليّونَ عَبرَ العُصورِ، ليسَ مِرآةً صَقيلةً، مَصقولةً، نَقيّةً، تَعكِسُ الواقِعَ الخارِجيَّ بِأمانةٍ ودِقّةٍ ووُضوحٍ، بلْ هوَ أقرَبُ إلى مَنظومةٍ نَشِطةٍ، فاعِلةٍ، مُعقَّدةٍ، لا تَكتَفي بِالاستِقبالِ السَّلبيِّ لِلمُعطَياتِ كَلوحٍ فوتوغرافيٍّ، بلْ تُمارِسُ بِاستمرارٍ، وبِشكلٍ لا واعٍ غالبًا، فِعلَ التَّصْفِيَةِ والتَّصنيفِ والتَّحليلِ والتَّأويلِ، تُعيدُ تَرتيبَ العالَمِ وتُلَوِّنُهُ وتُشَوِّهُهُ وَفقَ قَوالِبِها الخاصّةِ وأدواتِها المَحدودةِ واحتِياجاتِها الأنانيّةِ. فَما نَراهُ ونُدرِكُهُ في النِّهايةِ ليسَ هوَ الواقِعَ في عُرْيِهِ الأوَّلِ البَسيطِ، بلْ مُجَرَّدَ صُورةٍ مُعَدَّلَةٍ، مُنقَّحةٍ، مُفلتَرةٍ، نُسخةٍ مَحدودةٍ ومُشَوَّهةٍ، كَما يَتيحُهُ لَنا وَعيُنا المُقَيَّدُ بِالتّاريخِ واللُّغةِ والبَيولوجيا، وكَما تَسمَحُ بِهِ حُدودُ سِجنِنا المَعرِفيِّ الذي لا نَراهُ. والشَّكُّ المَنهَجِيُّ، حِينَ يُصبِحُ مُمارَسةً حَيّةً، مُتَواصِلةً، لا مُجَرَّدَ فِكرةٍ نَظَريّةٍ تُدَرَّسُ في الكُتُبِ، هوَ الكَشّافُ القَويُّ الذي يُسَلِّطُ ضَوءَهُ الحارِقَ على هذهِ الحُدودِ الخَفيّةِ لِلوَعي، يَفضَحُها ويُعَرِّيها أمامَنا، ويُظهِرُ لَنا بِجَلاءٍ قاسٍ أنَّ المَعرِفةَ التي نَتباهى بِها ونَعتَبِرُها أساسَ حَياتِنا ليستْ انعِكاسًا أمينًا لِلحَقيقةِ المُستَقِلّةِ عَنّا، بلْ هيَ، كَما قُلنا مِرارًا، مُجَرَّدُ بِناءٍ بَشريٍّ هَشٍّ، صَرحٍ مُؤقَّتٍ، يَتَشَكَّلُ ويَتَقَوَّلَبُ ضِمنَ شُروطٍ تاريخيّةٍ وثقافيّةٍ ونَفسيّةٍ لَمْ نَصنَعْها ولَمْ نَختَرْها، لكِنّها تَصنَعُنا وتَختارُ لَنا. ولكي نَكسِرَ هذهِ الحَلْقةَ الجَحيميّةَ، لِكي نُفلِتَ منْ هذهِ الدّائِرةَ المَلعونةَ التي تُعيدُ فيها الأنساقُ القَديمةُ إنتاجَ ذاتِها عَبرَ وَعينا المُستَعبَدِ، لا يَكفي أنْ نَعتَرِفَ بِهذهِ الشَّرطيّةِ المُقَيِّدةِ فَحَسْبُ، فَهذا الاعتِرافُ النَّظَريُّ قَدْ يَظَلُّ عَقيمًا، بَلْ مُحبِطًا، إنْ لَمْ

يَتَحَوَّلْ إلى فَعلٍ تَحريريٍّ. لا، بلْ يَجِبُ أنْ تَتَجاوَزَ الإدراكَ النَّظَريَّ لِلقَيدِ إلى مُحاوَلةٍ جادّةٍ، شاقّةٍ، لِتَغييرِ آلِيّاتِ الإدراكِ ذاتِها، لِإعادَةِ هَندَسةِ العقلِ إنْ أمكَنَ القَولُ، لِتَطهيرِ مِرآةِ الوَعي. يَجِبُ تَحويلُ الشَّكِّ منْ مُجرَّدِ سُؤالٍ عابِرٍ يَطرَأُ على البالِ ثُمَّ يَزولُ كَغَيمةٍ، إلى مُمارَسةٍ عَمليّةٍ مُستمِرّةٍ، إلى تَدريبٍ نَفسيٍّ وعَقليٍّ دَؤوبٍ لا يَعرِفُ الكَلَلَ، يُعيدُ تَشكيلَ الذّاتِ العارِفةِ بِجُذورِها، ويُوَسِّعُ مَدارِكَها، ويُحَرِّرُها شَيئًا فَشَيئًا منْ قَوالِبِها العَتيقةِ المُتَصَلِّبةِ. وهذا، بِالضَّبطِ، هوَ جَوهَرُ الحُرّيّةِ الفِكريّةِ الحَقيقيّةِ التي نَنشُدُها في هذا الكِتابِ: حُرّيّةٌ لا تَكمُنُ في الوَهمِ المُريحِ، المُتَعالي، لِامتلاكِ حَقيقةٍ مُطلَقةٍ نَحتَكِرُها ونُدافِعُ عَنْها بِتَعصُّبٍ، بلْ في القُدرةِ الشُّجاعةِ، النّادِرةِ، على مُواجَهةِ اللّايَقينِ بِصَدرٍ رَحْبٍ وقلبٍ ثابِتٍ، وعلى خَلقِ المَعنى الخاصِّ بِنا منْ رُكامِ الفَوضى والعَبَثِ المُحيطِ بِنا، وعلى العَيشِ بِكَرامةٍ واستِقلالٍ دونَ الحاجَةِ المُذِلّةِ إلى أصنامٍ فِكريّةٍ نَعبُدُها، أوْ قادةٍ مُلْهَمينَ نَتْبَعُهُمْ بِعَمىً، أوْ يَقينياتٍ مُخَدِّرةٍ تُعطينا الوَهْمَ بِالثَّباتِ في عالَمٍ لا يَعرِفُ إلا التَّغيُّرَ والدَّورانَ والصَّيْرورةَ.

وفي أغوارِ هذا الشَّكِّ المَنهَجيِّ العَميقِ، في قاعِهِ السّحيقِ المُظلِمِ حَيثُ لا تَنفعُ حِبالُ اليَقينِ الواهِيةُ ولا تَصِلُها أشِعّةُ الإيمانِ، يَتَكَشَّفُ لِلعقلِ الجَريءِ، الذي تَجَرَّأَ على الغَوْصِ، أنّهُ لا وُجودَ لِيَقينٍ نِهائِيٍّ صُلبٍ، لِأرضٍ ثابتةٍ، يُمكِنُ أنْ يَستقِرَّ عليهِ العقلُ المُتعَبُ ويَتَخندقَ داخِلَهُ كَصَخرةٍ صَمّاءَ لا تَهتَزُّ، تَصمُدُ في وَجهِ عاصِفةِ الوُجودِ الهَوجاءِ التي تَقتَلِعُ كُلَّ شَيءٍ. لا، بلْ ما هُناكَ هوَ مُحيطٌ هائِجٌ، لا نِهايةَ لَهُ، منَ التَّأويلاتِ المُتَشَعِّبةِ كَأغصانِ شَجَرةٍ عِملاقةٍ، ومنَ التَّفسيراتِ المُتَصارِعةِ كَجُيوشٍ مُتَحارِبةٍ، تَترَنَّحُ هذهِ التَّأويلاتُ وتَتَأرجَحُ بِاستمرارٍ كَقَواربَ صَغيرةٍ بِلا أشرِعةٍ في بَحرٍ عَظيمٍ، عُرضةً أبَدًا لِلتَّفكيكِ والإعادَةِ والتَّساؤُلِ في نَسيجٍ مُعقَّدٍ لا نِهائِيٍّ، شَبَكةٍ مُترامِيةِ الأطرافِ لا يُحيطُ بِها عِلمٌ، منَ الاحتمالاتِ والتَّفسيراتِ التي لا تَستَقِرُّ على حالٍ ولا تَهدأُ لِبالٍ. فالوَعي الإنسانيُّ، حينَ يُدرِكُ هذا الأُفُقَ المَفتوحَ على المَجهولِ، والمُرعِبَ في اتِّساعِهِ، لا يَنبَغي لهُ أنْ يَطمَحَ بِسذاجةٍ، كَما تَطمَحُ العُقولُ الخائِفةُ المُتَشَبِّثةُ بِالوَهمِ، إلى تَثبيتِ ذاتِهِ الهَشّةِ كَبِناءٍ مُتَماسِكٍ مُغلَقٍ يُقاوِمُ تَيّاراتِ التَّغييرِ الدّائِمِ ويَرفُضُ التَّعَدُّدَ والاختِلافَ. بلْ يَنبَغي لهُ، إنْ أرادَ الحُرّيّةَ الحَقيقيّةَ، أنْ يَسعى دائِمًا، بِجُهدٍ مُتَواصِلٍ، إلى تَحطيمِ افتِراضاتِهِ الجَوهَريّةِ التي يَرتَكِزُ عليها دونَ وَعيٍ، إلى زَعْزَعةِ أُسسِهِ التي يَظُنُّها ثابتةً وهيَ كالرِّمالِ، إلى البَقاءِ بِشَجاعةٍ نادِرةٍ في حالةٍ دائِمةٍ منْ عَدَمِ الاستِقرارِ الخَلّاقِ، منَ القَلَقِ المُنتِجِ الذي يُولِّدُ الفِكرَ، حَيثُ يُصبِحُ كُلُّ يَقينٍ جَديدٍ يَصِلُ إليهِ لَيسَ نِهايةً لِلرِّحلةِ أوْ مَرفأً لِلرّاحةِ، بلْ نُقطةَ انطلاقٍ

لشَكٍّ جَديدٍ أعمَقَ وأشَدَّ إرباكًا وإيلامًا. كالمَوجةِ في البَحرِ التي لا تَهدأُ، تُفضي بِاستمرارٍ إلى مَوجةٍ أُخرى، في حَركةٍ أزَليّةٍ مُتَواصِلةٍ لا تَعرِفُ السُّكونَ المُطْلَقَ ولا تَستَقِرُّ على شاطِئِ الرّاحَةِ النِّهائيّةِ أبدًا.

ولِكي نَتَجاوَزَ بِحَقٍّ مَأزِقَ الكوجيتو الدّيكارتِيِّ – تِلكَ الصّيغةَ الفَلسفيّةَ الأيقونيّةَ التي حاوَلَتْ بِبَراعةٍ مَنطقيّةٍ ويأسٍ وُجوديٍّ أنْ تَجعَلَ مِنْ "أنا أُفَكِّرُ، إذًا أنا مَوجودٌ" مِرساةً أخيرةً لِخَلاصِ الذّاتِ التّائِهَةِ في مُحيطِ الشَّكِّ اللُّجّيِّ – يَجِبُ علينا أنْ نُحَرِّرَ العقلَ البَشريَّ بِشَكلٍ جَذريٍّ، قاسٍ، منْ وَهمِهِ المُتَأَصِّلِ، المُتَجَذِّرِ، بِأنّهُ نُقطةُ انطلاقٍ مُستَقِلّةٌ، نَقيّةٌ، جَوهرٌ خالِصٌ لا يَشوبُهُ تاريخٌ أوْ لُغةٌ أوْ ثَقافةٌ، كِيانٌ قادِرٌ على إنتاجِ المَعرِفةِ "المَوضوعيّةِ" منْ صَميمِ ذاتِهِ المُجَرَّدَةِ المُتَعاليةِ. وهذا التَّحريرُ الجَذريُّ لا يَعني، بِالطَّبعِ، إنكارَ فِعلِ التَّفكيرِ كَفعلٍ وُجوديٍّ أساسيٍّ يُشَكِّلُ كَينونَتَنا ويُمَيِّزُ إنسانيّتَنا، بلْ يَعني الدَّعوةَ المُلِحّةَ إلى إعادةِ تَأمُّلٍ جَذريّةٍ، إلى نَبشٍ عَميقٍ في الآثارِ، في كَيفيّةِ تَشَكُّلِ هذا التَّفكيرِ ذاتِهِ. كَيفَ أنَّ الإدراكَ نَفسَهُ، في كُلِّ لَحظةٍ منْ لَحَظاتِهِ، مَحكومٌ بِشَبكةٍ هائِلةٍ منَ الأنساقِ الخِطابيّةِ والمَعرفيّةِ واللُّغويّةِ والثَّقافيّةِ التي تَسبِقُهُ وتُؤَطِّرُهُ وتُحَدِّدُ إمكاناتِهِ وحُدودَهُ، كَالنَّصِّ المكتوبِ الذي يُكتَبُ ويُصاغُ وَفقَ قَواعِدَ مُعيَّنةٍ قَبلَ أنْ يَأتِيَ القارِئُ لِيَقرأَهُ ويُفَسِّرَهُ. تُحيطُ بِهِ قَواعِدُ اللُّغةِ الصّارِمةِ، وتُقيِّدُهُ أعرافُ الخِطابِ المُتوارَثةِ، قَبلَ أنْ يُدرِكَ كاتِبُهُ نَفسُهُ حُدودَ هذهِ القُيودِ التي تَحبِسُهُ. فَلا وُجودَ، إذنْ، في هذا العالَمِ النِّسبيِّ، لِما يُسمّى "وَعيٌ نَقيٌّ" مُطلَقٌ يُطِلُّ علينا مِنْ خارِجِ الزَّمنِ والتّاريخِ كَمَلَكٍ هابِطٍ منَ السَّماءِ، أوْ كَمُراقِبٍ مُحايِدٍ يَجلِسُ على قِمّةِ جَبَلٍ فَيَرى الحَقيقةَ بِلا حِجابٍ أوْ قِناعٍ. لا، بلْ ما هُناكَ هوَ أنماطٌ مُتَداخِلةٌ، مُتَصارِعةٌ، طَبَقاتٌ مُتَراكِبةٌ، منَ التَّفسيرِ والتَّأويلِ والإدراكِ المَشروطِ، تَتَبَدَّلُ ألوانُها وتَتَغيّرُ أشكالُها بِتَحَوُّلِ السّياقاتِ والأُطُرِ والمَواقِفِ، كَالضَّوءِ الأبيَضِ الذي يَتَحَلَّلُ ويَتَغَيَّرُ لونُهُ ومَظهرُهُ حَسبَ المَنشورِ الزُّجاجيِّ الذي يَمُرُّ منْ خِلالِهِ أو السَّطحِ الذي يَنعَكِسُ عليهِ. ولِتُدرِكَ عُمْقَ هذهِ الشَّرطيّةِ القاتِلةِ لِلوَهمِ، تَخَيَّلْ لِلَحظةٍ، بِجُرأةِ الخَيالِ، أنّكَ لستَ "أنتَ" هذا الذي تَعرِفُهُ وتُقَدِّسُهُ. أنّكَ كائِنٌ آخَرُ تَمامًا، يَحمِلُ مَرجعيّةً فِكريّةً مُغايِرةً كُلَّ المُغايَرةِ، يَتَحَدَّثُ بِلُغةٍ لَمْ تُولَدْ فيها ولَمْ تَألَفْ تَراكيبَها أوْ مَجازاتِها، يَعيشُ في عالَمٍ ثَقافيٍّ واجتِماعيٍّ لا يَمُتُّ بِأدنى صِلةٍ إلى عالَمِكَ المَألوفِ الذي نَشَأتَ فيهِ. كَيفَ سَتَبدو أفكارُكَ "الشَّخصيّةُ" حِينَئِذٍ؟ كَيفَ سَتُفَكِّرُ؟ كَيفَ سَتُحاكِمُ الأمورَ؟ سَتَصيرُ أفكارُكَ، تِلكَ التي تَظُنُّها الآنَ نِتاجَ ذاتِكَ الحُرّةِ، مُجَرَّدَ ظِلالٍ باهِتةٍ تَتَحَرَّكُ على جِدارٍ مُختَلِفٍ، أشباحٍ هُلاميّةٍ تُعادُ صِياغَتُها وتَلوينُها وتَوجيهُها وَفقَ شَبَكةٍ تَأويليّةٍ جَديدةٍ لَمْ تَختَرْها ولَمْ تَصنَعْها بِيَدَيكَ. هذا التَّمرينُ الفِكريُّ، إنْ أجَدْتَهُ، يَكشِفُ بِقَسوةٍ

لا تُطاقُ أنَّ ما تُسمّيهِ أنتَ بِثقةٍ عَمياءَ "حَقيقتَكَ" الشَّخصيّةَ، ليسَ في الغالِبِ الأعمِّ سِوى صَدًى باهِتٍ، مُشوَّهٍ، لِأنساقٍ ثقافيّةٍ ولُغويّةٍ وتاريخيّةٍ أعمَقَ وأقدَمَ وأقوى مِنْكَ بِكَثيرٍ، أنساقٍ لَمْ تُشارِكْ في صُنعِها لكِنّها صَنَعَتْكَ. فَاجعَلِ الشَّكَّ، إذنْ، أيُّها الباحِثُ عنِ النُّورِ، حالةً دائمةً تُلازِمُكَ، لا طارِئةً تَزورُكَ ثُمَّ تَرحَلُ. اجعَلْهُ نَهجَ حَياةٍ تَسيرُ عليهِ، لا مَرحَلةً عابِرَةً تَتَجاوَزُها لِتَعودَ إلى اليَقينِ المُخَدِّرِ. لا تَتَوقَّفْ أبدًا عِندَ أيِّ لَحْظَةٍ يَقينيّةٍ تُغريكَ بِالرّاحَةِ والدِّفءِ، كَما فَعَلَ ديكارتُ في لَحْظَةِ ضَعفٍ حينَ أرسى قارِبَ وُجودِهِ الهَشِّ على صَخرَةِ "الأنا" المُتَوَهَّمَةِ وظَنَّ أنّهُ وَجَدَ المَلاذَ. لا، بلِ استَمِرَّ، بِعَزمٍ لا يَلينُ، في هَدمِ كُلِّ افتِراضٍ، في تَفكيكِ كُلِّ مُسلّمةٍ، في مُساءَلةِ كُلِّ بَديهيّةٍ، حتّى ذلكَ الافتِراضُ الأخيرُ، الأكثَرُ خَفاءً، الذي يُوَسوِسُ لكَ بِأنّهُ يَقِفُ خارِجَ دائِرَةِ الشَّكِّ نَفسِها، كَالنُّقطَةِ الثّابِتَةِ التي تَظُنُّها في مَركَزِ الزَّوبَعةِ العاصِفةِ، أوْ كَالأرضِ الصُّلْبَةِ التي تَقِفُ عليها وتَثِقُ بِها بينما هيَ تَتَزلزَلُ وتَنهارُ تَحتَ قَدَميكَ. فالشَّكُّ المَنهَجِيُّ، هُنا، يَتَحَوَّلُ منْ مُجَرَّدِ أداةٍ حادّةٍ لِلنَّقدِ والتَّحليلِ، إلى حَركَةٍ لا نِهائيّةٍ منَ التَّفكيكِ وإعادَةِ التَّشكيلِ، حَركَةٍ تُعيدُ صِياغَةَ الوَعيِ نَفسِهِ، ليسَ كَكِيانٍ مُغلَقٍ مُتَماسِكٍ يُقاوِمُ التَّشَتُّتَ ويَخشى التَّعَدُّدَ، بلْ كَفَضاءٍ رَحْبٍ مَفتوحٍ، كَنَهرٍ جارٍ، يَستَقبِلُ التَّعَدُّدَ والاختِلافَ والفَوضى دونَ أنْ يُحاوِلَ تَقييدَها أوْ تَصنيفَها أوْ الحُكمَ عليها. كَالسَّماءِ الشّاسِعةِ التي تَتَّسِعُ لِكُلِّ الغُيومِ المُتَغيِّرةِ الأشكالِ والألوانِ دونَ أنْ تُمسِكَ بِها أوْ تَحبِسَها في إطارٍ واحِدٍ. وإنَّ التَّفكيرَ الحُرَّ، في هذا السِّياقِ المُتَحَرِّرِ، ليسَ بِناءً لِأبراجٍ شامِخةٍ منَ المَعرِفةِ المُطلَقةِ تُنافِسُ السَّماءَ في عُلُوِّها، بلْ هوَ أشبَهُ بِحَفرٍ مُتواصِلٍ، نَبشٍ دَؤوبٍ لا يَهدأُ، في أغوارِ الأنساقِ المَعرفيّةِ والسُّلطَويّةِ التي تَحكُمُنا وتُشَكِّلُنا، يَكشِفُ شَرطيّتَها التّاريخيّةَ ونِسبيّتَها، ويُظهِرُ أنَّ كُلَّ فِكرَةٍ، مَهما بَدَتْ أصيلةً أوْ مُقدَّسةً، هيَ في النِّهايةِ نِتاجٌ لِأُفُقٍ يَسبِقُها ويُحيطُ بِها ويُحَدِّدُ مَسارَها وإمكاناتِها، كَالنَّهرِ الذي يَجري مُنْسابًا، حُرًّا ظاهِريًّا، ضِمنَ ضِفَّتَيْنِ لَمْ يَرْسُمْهُما بِنَفسِهِ ولَمْ يَختَرْ عُمقَهُما. وهذا الشَّكُّ الخلّاقُ، الشَّكُّ الذي يَهدِمُ لِيَبني، لا يُنتِجُ، كَما يَخشى الجُبَناءُ وسُجَناءُ اليَقينِ، فَراغًا مَعرفيًّا مُدمِّرًا يُهَدِّدُ الوُجودَ ويُفضي إلى العَدَمِ والشَّلَلِ. بلْ يُحَوِّلُ الإدراكَ منْ حالةٍ سَلبيّةٍ، مُستَقبِلةٍ، تَستَقبِلُ المَعلوماتِ كَوِعاءٍ فارِغٍ، إلى فِعلٍ خلّاقٍ دائِمٍ، نَشاطٍ حَيَويٍّ مُستَمِرٍّ لا يَنقَطِعُ، يُعيدُ صِياغَةَ المَعنى بِلا تَوقُّفٍ، مُحَرِّرًا العقلَ منْ أوهامِ الثَّباتِ واليَقينِ النِّهائيِّ، ومُعلِنًا بِصَوتٍ واضِحٍ أنَّ الحَقيقةَ ليستْ وَجهةً نِهائيّةً، جَزيرةً آمِنةً نَصِلُ إليها فَنَستريحَ، بلْ هيَ رِحلَةٌ لا تَنتَهي، سَفَرٌ لا يَتَوقَّفُ، بَحرٌ لا

شاطِئَ لَهُ. يَتطلَّبُ مِنّا شَجاعةً نادِرةً لِلعَيشِ في اللّايَقينِ المُتَوَتِّرِ، لِاتِّخاذِهِ وَطَنًا حَقيقيًّا لِلفِكرِ الحُرِّ، لا مَنْفًى نَخشاهُ أَوْ نَهرُبُ مِنهُ إلى قُصورِ الوَهْمِ.

وفي خِضَمِّ هذا السَّيرِ الشّاقِّ على دَربِ الشَّكِّ، هذا الإبحارِ اللّامُتناهي في مُحيطِ اللّايَقينِ الذي لا شاطِئَ لهُ ولا مَرفأَ، يَتحوَّلُ العقلُ البَشريُّ، لا إلى مَرفأٍ آمِنٍ منَ اليَقينِ المُريحِ كَما كانَ يَأمَلُ، بلْ إلى ساحَةِ مَعركةٍ ضارِيةٍ، إلى مَيدانٍ لِصِراعٍ داخليٍّ، وُجوديٍّ، مُحتَدِمٍ لا يَهدأُ ولا يَستكينُ أَبَدًا. صِراعٌ تَتصادَمُ فيهِ بِعُنفٍ لا هَوادةَ فيهِ، حَقيقةُ الإدراكِ المَشروطِ، النِّسبيِّ، الذي كَشَفناهُ، مَعَ تِلكَ الرَّغبةِ البَشريّةِ العَميقةِ، المُتَجَذِّرَةِ في الخَوفِ الفِطريِّ، في الاستِقرارِ واليَقينِ والثَّباتِ والهُدوءِ. وكَأنَّ الوَعي نَفسَهُ، في لَحْظَةِ صِدقٍ مُرعِبةٍ مَعَ الذّاتِ، يُقيمُ مَحكَمةً باطِنيّةً لِيُحاكِمَ فيها ذاتَهُ، ولكِنّها مَحكَمةٌ غَريبَةٌ، لا قاضيَ واضِحًا فيها سِوى الشَّكِّ النّاقِدِ، ولا تُصدِرُ حُكمًا نِهائيًّا يُنهي القَضيّةَ، بلْ تُبقيها مَفتوحةً، نازِفةً، إلى الأَبَدِ، أَوْ حتّى يَأتيَ المَوتُ فَيُغلِقَ المَحكَمةَ. فالشَّكُّ المَنهَجِيُّ، بِطَبيعَتِهِ الجَذريّةِ التي تَقتَلِعُ الأُصولَ، لا يُقَدِّمُ لِلنَّفسِ القَلِقةِ، الباحِثةِ عنِ الطُّمأنينةِ، أيَّ مَلاذٍ دافِئٍ أَوْ أيَّ وِسادَةٍ ناعِمةٍ تُخَفِّفُ منْ وَطأةِ ذلكَ القَلَقِ الوُجوديِّ الحادِّ، النّاشِئِ عنْ غِيابِ اليَقينِ المُطلَقِ وتَلاشي المَعنى الثّابِتِ. لا، بلْ على العَكسِ تَمامًا، إنّهُ يُجبِرُها، بِقَسوةٍ جَرّاحيّةٍ لا رَحمَةَ فيها، على مُواجَهةِ ذلكَ القَلَقِ وَجهًا لِوَجهٍ، على احتِضانِهِ كَجُزءٍ لا يَتَجَزَّأُ مِنْها، كَعُنصُرٍ أساسيٍّ في تَشَكُّلِها العَقليِّ والنَّفسيِّ، كَمَنْ يُجبَرُ على أنْ يَنظُرَ بِثَباتٍ، دونَ أنْ يَرمِشَ جَفنُهُ، إلى هاويةٍ داخليّةٍ سَحيقةٍ، مُظلِمةٍ، دونَ أنْ يَجِدَ لَها قاعًا يَستَنِدُ إليهِ أَوْ حافّةً يَتَمَسَّكُ بِها لِئَلا يَسقُطَ. والعقلُ، في سَعيِهِ الدّؤوبِ، المُضني، لِفَهمِ ذاتِهِ وتَفكيكِ أَلغازِها المُستَعصِيةِ، يُدرِكُ، مَعَ كُلِّ خُطوةٍ يَخْطوها في دَربِ الشَّكِّ المُوحِشِ، أنَّ كُلَّ مُحاوَلةٍ لِلتَّثَبُّتِ، كُلَّ تَشَبُّثٍ بِيَقينٍ ما، كُلَّ بِناءٍ لِمَعنًى، لا تُفضي في النِّهايةِ إلا إلى انهيارٍ جَديدٍ، إلى سُقوطٍ أعمَقَ في فَراغِ اللّايَقينِ الذي لا قَرارَ لهُ. لِماذا؟ لِأنَّ تِلكَ الأنساقَ الإدراكيّةَ التي نَعتَمِدُ عليها، تِلكَ القَوالِبَ المَفاهيميّةَ التي نَستخدِمُها كَخَرائِطَ لِلوُجودِ، ليستْ في حَقيقَتِها سِوى بُنًى هَشّةٍ، مُتهاوِيةٍ، قُصورٍ منْ وَهمٍ تُشَيِّدُ نَفسَها بِاستمرارٍ منْ مُخلّفاتِ التَّجرِبةِ المُشَوَّهةِ، ومنْ أنقاضِ اللُّغةِ المُقَيِّدَةِ، ومنْ غُبارِ التّاريخِ المُثقَلِ بِالأوهامِ والأساطيرِ. بُنًى أشبهُ بِأحجارٍ رَمليّةٍ ناعِمةٍ تَتآكَلُ وتَتَفَتَّتُ وتَذوبُ بِمُجرَّدِ أنْ يُسَلَّطَ عليها ضَوءُ التَّساؤُلِ النّاقِدِ أَوْ تُلامِسَها أصابِعُ الشَّكِّ الجَريءِ. لكِنَّ هذا الصِّراعَ النَّفسيَّ العَميقَ، هذهِ المَعركَةَ الدّاخليّةَ الضّاريةَ، لا تُنتِجُ بِالضَّرورةِ حالةً منَ العَجزِ المُطلَقِ أوِ الشَّلَلِ الفِكريِّ التّامِّ كَما قَدْ يَخشى الجُبَناءُ أَوْ يَزعُمُ المُحافِظونَ. لا، بلْ إنّها، لِمَنْ يَملِكُ

الشَّجاعةَ لِاحتضانِها والعيشِ مَعَها، تُحوِّلُ الوَعي منْ كِيانٍ جامدٍ، مُغلَقٍ، مُتَحَجِّرٍ، يَخشى التَّغييرَ، إلى كِيانٍ ديناميكيٍّ، حَيٍّ، نابضٍ، كَنَهرٍ مُتدَفِّقٍ لا يَتوقَّفُ، يَعيشُ في حالةٍ مُستمرَّةٍ منَ التَّفكُّكِ وإعادَةِ البِناءِ، منَ الهَدمِ والخلقِ. وكأنَّ الفِكرَ نَفسَهُ لا يَتنفَّسُ ولا يَحيا إلا منْ خِلالِ شُقوقِ الشَّكِّ وتَصَدُّعاتِ اليَقينِ، يَتَغذّى على عَدمِ الاستِقرارِ ذاتِهِ بَدلاً منْ أنْ يَهرُبَ مِنهُ إلى سُكونِ المَقابرِ وطُمأنينةِ المَوتِ.
تَخَيَّلْ، لِتُدركَ هذهِ الدّيناميكيّةَ المُحيِّرةَ، أنَّ العقلَ أشبهُ بِآلةٍ عَجيبةٍ تُعيدُ بَرمجةَ ذاتِها بِلا تَوقُّفٍ، كُلّما حاوَلَتِ الاقترابَ منْ فِكرةٍ تَظُنُّها جوهَريّةً أوْ أساسيّةً، وكُلّما تَشَبَّثَتْ بِمُسلَّمةٍ تَعتَبِرُها نِهائيّةً ومُطلَقةً، تَكتَشِفُ فَجأةً، بِصَدمَةٍ، أنّها ليستْ إلا نِتاجًا عَرَضيًّا لِشُروطٍ خارِجيّةٍ لمْ تَتَحَكَّمْ فيها، مُجرَّدَ تَراكُماتٍ نَفسيّةٍ وثقافيّةٍ مُعقَّدةٍ تُشَكِّلُها وتُصيغُها قَبلَ أنْ تُفكِّرَ هيَ في تَشكيلِها. هذا الكَشفُ المُفاجِئُ يُثيرُ في البِدايةِ ذُعرًا أوّليًّا، خَوفًا منْ فُقدانِ الأرضِ الصُّلْبَةِ تَحتَ الأقدامِ، لكنَّ هذا الذُّعرَ قَدْ يَتَحوَّلُ تَدريجيًّا، مَعَ التَّمَرُّسِ في فُنونِ الشَّكِّ، إلى نَوعٍ منَ القُوّةِ الخلّاقةِ، إلى قُدرةٍ على التَّحليقِ فَوقَ الأنقاضِ بِأجنحةِ الوَعي. فالشَّكُّ، هُنا، في هذا السِّياقِ الوُجوديِّ، يَتَحَوَّلُ إلى حالةٍ نَفسيّةٍ عَميقةٍ، إلى مَوقِفٍ كِيانِيٍّ يُعيدُ تَعريفَ العَلاقةِ المُتَوَتِّرَةِ، المُلْتَبِسةِ، بينَ الذّاتِ والمَعرِفةِ، ويُحطِّمُ بِلا رَحمَةٍ وَهْمَ "السِّيادةِ العقليّةِ" المُتَعاليةِ التي تُوهِمُ الفَردَ بأنّهُ مَركَزٌ مُستَقِلٌّ لِلمعنى، نُقطةُ أرخميدسَ المَزعومةُ التي يُمكِنُ مِنها رَفعُ العالَمِ بِرافِعةِ الفِكرِ. بَدلاً منْ ذلكَ، يُظهِرُ الشَّكُّ أنَّ الذّاتَ نَفسَها ليستْ جَوهَرًا نَقيًّا مُنفَصِلاً، بلْ هيَ مُجَرَّدُ نُقطةِ تَقاطُعٍ، بُؤرةِ لِقاءٍ، لِأنساقٍ قَويّةٍ مُتَشابِكةٍ – لُغويّةٍ، ثقافيّةٍ، تاريخيّةٍ، نَفسيّةٍ – أشبهُ بِخُيوطٍ دَقيقةٍ تُنسَجُ مِنها هُويّةٌ مُؤقَّتةٌ، قِناعٌ يَتَغيَّرُ، يَتَبَدَّلُ، يَتفكَّكُ ويَنهارُ بِمُجرَّدِ أنْ يَبدأَ التَّساؤُلُ النّاقِدُ في فَحصِهِ وتَفكيكِ خُيوطِهِ. وإنَّ هذا التَّفكيكَ المُستمِرَّ، هذهِ الزَّعزَعةَ الدّائمةَ لِلأُسسِ، تُوَلِّدُ تَوَتُّرًا عَقليًّا حادًّا، شُعورًا مُقلِقًا يُشبِهُ الوُقوفَ على حافّةٍ رَفيعةٍ، حادّةٍ، بينَ الوُجودِ والعَدَمِ، بينَ المَعنى واللّامَعنى. لكنّهُ، في ذاتِ الوَقتِ، يُحَرِّرُ النَّفسَ منْ أوهامِ التَّثَبُّتِ القاتِلةِ، منْ عُبوديّةِ اليَقينِ الأعمى، ويُتيحُ لَها أنْ تُدرِكَ بِوُضوحٍ أنَّ كُلَّ يَقينٍ تَصِلُ إليهِ ليسَ إلا مَحطّةً عابِرةً في رِحلَةٍ لا تَنتهي، ومضةً خاطِفةً في لَيلٍ طَويلٍ، في سِلسلةٍ لا نِهائيّةٍ منَ الاحتمالاتِ والإمكاناتِ. فالعقلُ الذي يَعيشُ هذهِ الحالةَ الدّيناميكيّةَ لا يَعودُ يَبحثُ بِقلَقٍ مَرَضِيٍّ عنْ إجاباتٍ نِهائيّةٍ لِيُطمئِنَ بِها نَفسَهُ ويُخَدِّرَ قَلَقَهُ، بلْ يَتَّخِذُ منَ الأسئلةِ المَفتوحةِ التي لا تُغلَقُ، منَ التَّساؤُلِ الدّائِمِ الذي لا يَنقطِعُ، مَسكَنًا حَقيقيًّا لَهُ، وَطَنًا يَرتاحُ في حَرَكَتِهِ الدّائِمَةِ لا في سُكونِهِ المَيتِ. يُعيدُ تَشكيلَ ذاتِهِ في كُلِّ لَحْظَةٍ، كَأنَّ الشَّكَّ نَفسَهُ قَدْ أصْبَحَ هوَ اليَقينَ الوَحيدَ المُمْكِنَ

في هذا الوُجودِ المُتَغيّر، ليسَ كَثَباتٍ صُلْبٍ يُعتَمَدُ عليهِ أوْ يُبنى فَوقَهُ، بلْ كَحركةٍ دائمةٍ لا تَهدأُ، كَتيّارٍ جارفٍ يُعيدُ إنتاجَ الوَعي بِاستمرارٍ ويبقيهِ حَيًّا، مُتيَقِّظًا، مُتَوَهِّجًا. وفي هذا السِّياقِ الجَديدِ، يُصبِحُ الإدراكُ نَفسُهُ فِعلًا نفسيًّا وعَقليًّا مُتَشابِكًا في آنٍ واحدٍ، يَتَجاوَزُ حُدودَ الفِكرِ المُجَرَّدِ والتَّحليلِ البارِدِ لِيُصبِحَ تَجرِبةً وُجوديّةً مُتكامِلةً، حَيثُ يُدرِكُ الفَردُ أنَّ ما يُسَمّيهِ "حَقيقةً" ليسَ سِوى انعِكاسٍ مُتَغيّرٍ لِتلكَ الأنساقِ الدّاخليّةِ والخارجيّةِ التي تُشَكِّلُه وتُعيدُ إنتاجَهُ، وأنَّ السَّعيَ المُستمرَّ لِفَهمِ هذهِ الأنساقِ وتَفكيكِها هوَ ما يُبقي الوَعي حَيًّا، مُشتَعِلًا، كَأنَّ الحَياةَ الفِكريّةَ نَفسَها لا تَتَغذّى إلا على الشَّكِّ والقَلَقِ كَما تَتَغذّى النّارُ على الهواءِ والأُكسجينِ، لا لِتَصِلَ إلى نِهايةٍ مُريحَةٍ أوْ سُكونٍ أبديٍّ، بلْ فَقَطْ لِتَستَمِرَّ في الاحتراقِ، في التَّوَهُّجِ، في الحركةِ الدّائبَةِ.

وفي قَلبِ هذا الفَضاءِ العاصِفِ الذي يُحييهِ الشَّكُّ كَنارٍ لا تَهدأُ في اللَّيلِ البَهيمِ، وكَرَعدٍ قاصِفٍ لا يَصمُتُ عنِ التَّرنيمِ، وفي خِضَمِّ هذهِ الحَرَكةِ اللّانهائيّةِ مِنَ التَّفكيكِ والتَّهديمِ، يُصبِحُ "تَفكيكُ الذّاتِ" نَفسِها، ونَسفُ اليَقينيّاتِ الشَّخصيّةِ الأشدِّ رُسوخًا كَالصَّخرِ العَظيمِ، هوَ الخُطوةَ الحاسِمةَ والأكثَرَ خُطورةً وإيلامًا مِنْ أيِّ سُمٍّ سَقيمٍ، لِتَحريرِ الوَعي مِنْ أغلالِهِ الخَفيّةِ، ومِنْ قُيودِهِ الدّاخليّةِ التي لا تُرى بِعَينٍ بَشريّةٍ. فَلا تَخدَعَنَّ نَفسَكَ أيُّها السّائِرُ في دَربِ التّيهِ، لا تُوجَدُ فِكرةٌ واحدةٌ، مَهما بَدَتْ بَديهيّةً كَالصُّبحِ المُنيرِ، أوْ مُسلَّمةً كَالشَّمسِ في الظَّهيرةِ، تَقِفُ خارِجَ سِياقِها التّاريخيِّ والثَّقافيِّ الذي أنْتَجَها بِلا نَظيرٍ، ولا يَقينٌ واحِدٌ، مَهما بَدا صُلبًا كَالفولاذِ، أوْ راسِخًا كَالجَبَلِ الكَبيرِ، يُولَدُ مِنَ العَدَمِ المُطلَقِ دونَ شُروطٍ تُشَكِّلُهُ وتُحَدِّدُهُ وتُسَيِّرُ مَسيرَهُ. فالعقلُ الذي يَتَحَصَّنُ داخِلَ أسوارِ ذاتِهِ كَالقَلعةِ، ويَرفُضُ أنْ يُشكِّكَ في نَفسِهِ، في مُسلَّماتِهِ، في أدواتِهِ ذاتِها التي بِها يَرى وبِها يُجادِلُ بِلا قَلعةٍ، ليسَ عَقلًا حَيًّا مُتَجَدِّدًا، نامِيًا، قادِرًا على النَّقدِ، بلْ هوَ في حَقيقتِهِ المُحزِنةِ ليسَ سِوى أداةٍ مَيْتةٍ، خَشَبةٍ مُسنَدَةٍ لا تَنتِجُ ثَمَرًا، آلةٍ صَمّاءَ تُعيدُ إنتاجَ التَّلقينِ المُتوارَثِ بِآليّةٍ بَبغائيّةٍ، دونَ أنْ تُدرِكَ حَجمَ عُبوديّتِها المُخزِيةَ أوْ أنْ تَطلُبَ عِتقًا. وإنَّ إعادَةَ تَشكيلِ الإدراكِ الحَقيقيِّ، وتَحريرَ الوَعي مِنْ قَيدِهِ الوَثيقِ، لا تَبدأُ أبَدًا بِتَحطيمِ أوهامِ الآخَرينَ أوْ بِنَقدِ مُجتَمَعاتِهِمْ، فَهذا أمْرٌ سَهلٌ ورَخيصٌ في الغالِبِ، لا يَليقُ بِسالِكِ الطَّريقِ، بلْ تَبدأُ بِالمُهِمّةِ الأشدِّ صُعوبةً وجُرأةً وعُمْقًا في التَّحقيقِ: بِنَسفِ الوَهْمِ الذّاتيِّ الذي يَسكُنُكَ ويُقَيِّدُكَ، بِتَدميرِ ذلكَ الأساسِ الرَّمليِّ الهَشِّ الذي يُشَكِّلُ قاعدةَ يَقينِكَ الشَّخصيِّ ويُغْرِقُكَ، بِاقتحامِ ذاكَ الحِصنِ الوَهميِّ الذي شَيَّدْتَهُ بِعِنايةٍ لِتُخْفيَ فيهِ هَشاشَتَكَ المُؤلِمةَ وعَجزَكَ المُلازِمَ، وراءَ جُدرانٍ سَميكةٍ مِنَ الثِّقةِ العَمياءِ والغُرورِ

الأجوفِ الذي يُوبِقُكَ. فَلتَسألْ نَفسَكَ الآنَ، لا بِتَرَدُّدٍ يُضعِفُ العَزمَ أَوْ خَوفٍ يَشلُّ القَدَمَ، بلْ بِجُرأةٍ تُزلزِلُ أعمَقَ أعماقِكَ وتَهْدِمُ الصَّنَمَ: ماذا لوْ كُنتُ أنا، بِكُلِّ ما أحمِلُهُ منْ قَناعاتٍ راسِخةٍ ويَقينياتٍ شامِخةٍ، مُخطِئًا بِشَكلٍ جَذريٍّ، مُضَلَّلاً بِلا عِلمٍ؟ لا فَقطْ في تَفاصيلَ عابِرةٍ أوْ آراءٍ هامِشيّةٍ لا قِيمةَ لَها في الحُكْمِ، بلْ في صَميمِ الأساسِ الذي أُبنِي عليهِ كُلَّ رُؤيَتي لِلوُجودِ، وكُلَّ مَعنًى لِحَياتي، وكُلَّ قِيمةٍ لِكُلِّ نَظْمٍ؟ كَيفَ سَتَظهَرُ أفكارُكَ، قِيَمُكَ، مُعتَقَداتُكَ التي تَعتَبِرُها جُزءًا أصيلاً مِنْكَ، لوِ انهارَ فَجأةً، كَبِناءٍ مِنْ وَرَقٍ، ذاكَ الافتِراضُ الأوّليُّ الخَفيُّ الذي تَستَنِدُ إليهِ كُلُّها ولا تَنْفَكُّ؟ كَمَنْ يُعيدُ النَّظَرَ في مَدينةٍ أَحَبَّها سِنينًا وعُمْرًا، ليَكتَشِفَ فَجأةً أنَّ أساساتِها ليستْ صَخرًا مَتينًا، بَلْ رِمالٌ مُتَحَرِّكةٌ تَبتَلِعُ كُلَّ شَيءٍ وتُخفي الأثَرَا؟ تَعلَّمْ، يا مَنْ تَرتَجي النُّورَ، أنْ تَتَعامَلَ مَعَ يَقينِيّاتِكَ الشَّخصيّةِ، مَعَ "أنا أعرِفُ" التي تَسكُنُكَ وتَتَعالى، كَما يَتَعامَلُ العالِمُ النَّزيهُ الحَقُّ مَعَ النَّظَريّاتِ العِلميّةِ التي تَعلَمُ وتَتوالى: مُجَرَّدُ فَرضيّاتٍ مُؤقَّتةٍ، أدواتٍ قابِلةٍ لِلاختِبارِ القاسي والتَّعديلِ المُستمِرِّ بِلا مَلالَةٍ، بلْ وحتّى لِلإلغاءِ التّامِّ والنَّبذِ الكامِلِ إذا ما اقتَضى البُرهانُ العَقليُّ ذلِكَ، أوْ كَشَفَ النَّقدُ الصّارِمُ عَوارَها وضَعفَها في كُلِّ حالَةٍ. فَما تُقَدِّسُهُ اليَومَ وتُدافِعُ عنهُ بِحَرارَةِ المُؤمِنِ الوَلْهانِ، قَدْ يُصبِحُ غَدًا مُجَرَّدَ ظِلٍّ باهِتٍ في ذاكِرَتِكَ، أوْ أضحوكَةً سَخيفةً في عَينِ المُستقبَلِ الذي لا يُهانُ. فَهَلْ تَملِكُ الشَّجاعَةَ الكافِيةَ، هَلْ تَملِكُ القُوّةَ النَّفسيّةَ الصّافِيةَ، لِمُواجهةِ هذا الاحتمالِ المُزلزِلِ، القاتِلِ لِليَقينِ، الآنَ، في هذهِ اللَّحْظَةِ الآنيّةِ؟ أمْ أنَّ النَّفسَ، بِخَوفِها المُتَأصِّلِ منَ الفَراغِ الذي لا قَرارَ لهُ، تَتَراجَعُ، تَرتَعِدُ، تَهرُبُ مِنْ مُواجَهةِ ذاكَ الفَراغِ المُخيفِ الذي يَتْرُكُهُ انهيارُ ما ظَنَنْتَهُ جَوهَرَها الثّابتَ وصَخرَتَها الأبديّةَ التي لَنْ تُهانَ؟ حَرِّكْ إدراكَكَ إذنْ، أَخرِجْهُ مِنْ قَوقَعتِهِ المُحْكَمةِ، اجعَلْهُ يَسبَحُ بِحُرِّيّةٍ بينَ الأنساقِ الفِكريّةِ المُختلِفةِ، كَمَنْ يَتَنَقَّلُ بِجُرأةٍ بينَ عَوالِمَ مُتَضادّةٍ لا تُحْكَمُ، كَمَنْ يَعيشُ حَيواتٍ مُتَعَدِّدةً في حَياةٍ واحِدةٍ ويَتَعَلَّمُ: فإنْ كُنتَ مُؤمِنًا مُتَيَقِّنًا، فاختَبِرْ بِصِدقٍ وجِدّيّةٍ كَيفَ يُفَكِّرُ ويَرى العالَمَ مَنْ يَقِفُ على الضِّفّةِ الأُخرى، مِنْ مَوقِعِ المُلحِدِ أوِ الشّاكِّ، بِكُلِّ ما يَحمِلُهُ هذا المَوقِفُ منْ قَلَقٍ وحُرِّيّةٍ وشَكٍّ مُتَكَلِّمٍ. وإنْ كُنتَ عَقلانيًّا بارِدًا تَزدري الانفِعالَ وتُحَرِّمُ، فانظُرْ لِمَرّةٍ واحِدةٍ إلى الوُجودِ بِعينِ الشّاعِرِ الحالِمِ أوْ قَلبِ العاطِفيِّ المُتَيَّمِ. ليسَ الهدفُ منْ هذا التَّنَقُّلِ الخيالِيِّ أنْ تَتَبنّى هذهِ الرُّؤى المُغايِرةَ وتُصبِحَ جُزءًا مِنْها، بلْ أنْ تُدرِكَ بِوُضوحٍ تامٍّ، كَالشَّمسِ في رائِعةِ النَّهارِ، مَدى القَيدِ الذي يُحيطُ بِأنساقِكَ الشَّخصيّةِ ويُكَلِّمُ، أنْ تَرى بِعَينِكَ تِلكَ الحُدودَ غَيرَ المَرئيّةِ التي تُشَكِّلُكَ دونَ أنْ تُلاحِظَها أوْ تَتَكَلَّمَ، تِلكَ الجُدرانَ التي تَظُنُّها نِهايةَ العالَمِ وهيَ ليستْ إلا نِهايةَ سِجنِكَ المُحَطَّمِ. فَكُلُّ فَردٍ

مِنّا، في النِّهايةِ، يَقْطُنُ كَأسيرٍ داخِلَ نِظامٍ مَعرفيٍّ مُحَدَّدٍ لَمْ يَخْتَرْهُ أَوْ يَعْلَمْ، لكِنَّ الفَرقَ الجَوهَريَّ، الفاصِلَ بينَ العُبوديّةِ والحُرّيّةِ، يَكْمُنُ بينَ مَنْ يُؤمِنُ بِسذاجةٍ بِهذا النِّظامِ كَحَقيقةٍ مُطلَقةٍ لا تَتَغيَّرُ ويَتَوَهَّمُ، وبينَ مَنْ يُحَلِّلُهُ بِعَينٍ ناقِدةٍ كَبِنيةٍ تاريخيّةٍ قابِلةٍ لِلتّفكيكِ والهَدمِ ويَتَفَهَّمُ. الفَرقُ بينَ مَنْ يَرى أفكارَهُ المَوروثةَ مَرايا صَقيلةً لِلواقِعِ، وبينَ مَنْ يَراها أقفاصًا صَدِئةً تُعيدُ إنتاجَ الشُّروطِ التي صَنَعَتْها وتُديمُ أَسْرَهُ وتُؤَلِّمُ. فَلا تَكتَفِ بِالاعتِقادِ السَّلبيِّ الأَرْعَنِ، بلِ اختَبِرْ كُلَّ فِكرةٍ كما يُختَبَرُ المَعدَنُ النَّفيسُ تَحتَ نارِ التَّمحيصِ الأَرْفَعِ. لا تَتْبَعِ الأفكارَ كَأعمى يَسيرُ في طَريقٍ مُعبَّدٍ لا يَعرِفُ نِهايَتَهُ ولا يَسْمَعُ، بلْ راقِبْها بِحيادِ عالِمٍ يُفكِّكُ تَجرِبةً في مُختَبَرِهِ ويَنْفَعُ. ولا تَستَسلِمْ أَبَدًا لِإجاباتٍ تُنهي التَّساؤُلَ وتُغلِقُ البابَ وتَقمَعُ، بلِ اجعَلِ الأسئلةَ ذاتَها مَوطِنَكَ الدّائِمَ، الفَضاءَ الذي يَعيشُ فيهِ الوَعي في حالةٍ منَ اليَقَظةِ المُستَمِرّةِ، منَ التَّوَتُّرِ الخلّاقِ الذي يُبْدِعُ. ودَرِّبْ عقلَكَ على "الرُّؤيةِ المُزدَوَجةِ"، تلكَ القُدرةِ النّادِرةِ على أنْ يَرى الفِكرةَ الواحِدةَ كما يَراها أنصارُها المُتَحَمِّسونَ بِإخلاصٍ تامٍّ، ثمَّ في اللّحظةِ ذاتِها، كما يَراها خُصومُها الأَلِدّاءُ بِنَفسِ الحِدّةِ والقَسوَةِ النّاقِدةِ. ثمَّ، وهوَ الأصعَبُ، يَتَجاوَزُ الاثْنَينِ إلى مَوقِعٍ خارِجيٍّ، مَنظورٍ مُتَعالٍ، يُحَلِّلُ البُنيةَ الخَفيّةَ التي أنتَجَتْهُما مَعًا وأوجَدَتْ هذا الصِّراعَ بينَهُما – لا لِيُصْدِرَ حُكمًا قاطِعًا أَوْ يُقَرِّرَ مَصيرَ الفِكرةِ، فَهذا وَهمٌ آخَرُ، بلْ لِيُدرِكَ أنّهُما، في الغالِبِ، مُجَرَّدُ أصداءٍ مُتَضارِبةٍ لِأنساقٍ أعمَقَ تَتَصارَعُ في ساحَةِ الوَعي والتّاريخِ. واحذَرْ، كُلَّ الحَذَرِ، منْ أنْ تَجعَلَ أيَّ فِكرةٍ، مَهما بَدَتْ ساميةً أَوْ مُقَدَّسةً، جُزءًا لا يَتَجَزَّأُ منْ هُويّتِكَ الشَّخصيّةِ فَتُخْدَعَ، فالإنسانُ الذي يَربِطُ ذاتَهُ بِمُعتَقَداتِهِ رِباطًا عاطِفيًّا وَثيقًا، يُصبِحُ بِلا شَكٍّ أسيرًا لَها، عَبدًا يَخْدِمُها ويُطْلَعَ، عاجِزًا عنِ التَّشكيكِ فيها أَوْ نَقدِها دونَ أنْ يَشعُرَ بِأنَّ وُجودَهُ نَفسَهُ مُهَدَّدٌ بِالانهيارِ فَيُصْرَعَ، كَأنَّ الشَّكَّ في الفِكرةِ يُصبِحُ شَكًّا في صَميمِ كِيانِهِ الذي لا يَعرِفُ سِواها وَيُقْمَعَ. إنَّ هذا التَّفكيكَ الشَّخصيَّ الجَريءَ، هذهِ الجِراحةَ الذّاتيّةَ المُؤلِمةَ، هيَ ما يُحَوِّلُ الإدراكَ منْ حالةٍ سَلبيّةٍ خامِلةٍ تَتَلَقّى اليَقينَ وتَبتَلِعُهُ وتَخْضَعَ، إلى عَمليّةٍ نَشِطةٍ، فَاعِلةٍ، تُنتِجُ المَعنى وتُعيدُ إنتاجَهُ بِاستمرارٍ وتُبْدِعَ. هيَ ما يُحَرِّرُ النَّفسَ منْ أوهامِ الثَّباتِ العاطِفيِّ والمَعرِفيِّ التي تُقَيِّدُها وتَمنَعَ، ويُجبِرُ العقلَ على أنْ يَرى نَفسَهُ أخيرًا كما هوَ في حَقيقتِهِ العارِيةِ ويَتَشَجَّعَ: ساحَةً مَفتوحةً لِلصِّراعِ الدّائِمِ والاختِبارِ القاسي، لا مَعبَدًا مُغلَقًا يُقَدَّسُ فيهِ أصنامُ اليَقينِ المَوروثِ ويُصْنَعَ، بلْ مُختَبَرًا حَيًّا يُعيدُ فيهِ الوَعي تَشكيلَ ذاتِهِ بِلا نِهايةٍ ويَتَمَتَّعَ، يَعيشُ في قَلبِ الشَّكِّ ليسَ كَعِقابٍ أَوْ مَنْفًى يُرْقَعَ، بلْ كَدليلٍ صارِخٍ على حَيويّتِهِ وقُدرَتِهِ على النُّمُوِّ ويُشَجَّعَ، كَمَنْ يَتَنَفَّسُ الهواءَ العاصِفَ بِرِئَتَيْنِ قويّتَيْنِ، ليسَ لأنهُ

يُحِبُّ العَذابَ، بلْ لأنَّ هذا الهواءَ، بِكُلِّ ما فيهِ منْ تَوتُّرٍ وقَلَقٍ، هوَ الوَحيدُ الذي يُبقيهِ على قَيدِ الحَياةِ والتَّوَهُّجِ ويُقْنِعَ.

وهكَذا، في هذا المُختَبَرِ الدّاخليِّ الحارِقِ، وفي مَعمَلِ العقلِ حيثُ تُحَطِّمُ مِطرَقَةُ الشَّكِّ المَنهَجِيِّ أصنامَ اليَقينِ التي طالَ عُمرُها وتَصَلَّبَتْ، وتُذيبُ نارُ التَّمحيصِ والنَّقدِ قُشورَ الوَهْمِ العَتيقِ التي تَسَتَّرَتْ، يُصبِحُ "تَحَمُّلُ القَلَقِ" الوُجوديِّ، لا نَبذُهُ أو الهَرَبُ مِنهُ، هوَ الاختبارَ الأخيرَ والأعمَقَ لِجَوْهَرِ الوَعي الحُرِّ، والمِعيارَ الفاصِلَ الحَقَّ بينَ العَبدِ الذي يَخضَعُ ويَسكُتُ، والسَّيِّدِ الذي يُواجِهُ ويُفلِتُ. إنّها تِلكَ اللَّحْظَةُ المُفزِعةُ، القاسيةُ، والمُحَرِّرةُ في آنٍ واحِدٍ، اللَّحْظَةُ التي يَجِدُ فيها العقلُ نَفسَهُ، بَعدَ طُولِ عُزلةٍ، وَجهًا لِوَجهٍ مَعَ ذاتِهِ العاريةِ المُرتَعِشةِ، دونَ أقنِعةٍ مُزيَّفةٍ تُخفي هَشاشَتَهُ، ودونَ دُروعٍ واهِيةٍ تَستُرُ عَجزَهُ وتَستُرُ عَورَتَهُ. فَلا تُسرِعْ، أيُّها السّائِرُ في دَربِ الشَّكِّ المُوحِشِ، لا تَهرَعْ لِالتِقاطِ الإجاباتِ الفَوريّةِ كَمَنْ يَلتَقِطُ فُتاتًا مُتَناثِرًا منْ على قارِعةِ الطَّريقِ، ولا تَندَفِعْ بِعَجَلةٍ لِسَدِّ الفَراغِ الذي يَعتَريكَ بِأوّلِ فِكرةٍ بَرّاقَةٍ تَلمَعُ وتُغْريكَ. فما إنْ يَبدأُ الفَردُ، في لَحظةِ شَجاعةٍ نادِرةٍ، في زَعزَعةِ مُسلَّماتِهِ الرّاسِخةِ كَالجِبالِ، وفي تَفكيكِ بِنيَتِهِ الفِكريّةِ المَوروثةِ الثَّقيلةِ كَالأغلالِ، حتّى يَصطَدِمَ بِعُنفٍ، بِحائِطٍ صُلبٍ منَ الخَوفِ والارتباكِ والضَّياعِ الذي لا يُطاقُ، يَتَمَلَّكُهُ ذلكَ الشُّعورُ الخامُ، البَدائيُّ، المُخيفُ، بِالفَراغِ العَقليِّ الذي لا قاعَ لَهُ ولا قَرارَ، ذاكَ الفَراغُ الذي يُثيرُ في النَّفسِ ذُعرًا أوَّليًّا عَميقًا، يَصعُبُ تَجاهُلُهُ أوِ القَفزُ فَوقَهُ أوْ أنْ يُراقَ. وهذا الفَراغُ المُتَّسِعُ، المُخيفُ، ليسَ، كَما قَدْ يَظُنُّ البُسَطاءُ في تَفكيرِهِمُ السّاذِجِ، مُجَرَّدَ غِيابٍ هادِئٍ لِلمَعنى أوِ انقِطاعٍ لِلنُّورِ، بلْ هوَ تَهديدٌ وُجوديٌّ حادٌّ، زِلزالٌ باطِنيٌّ يُزلزِلُ أُسسَ الوَعي ذاتِها ويُحَطِّمُ الأركانَ، إذْ إنّهُ يَكشِفُ بِقَسوَةٍ فاضِحةٍ، لا تَعرِفُ السُّتورَ، أنْ لا يَقينَ ثابِتًا في هذا الوُجودِ، لا صَخرَةَ صَمّاءَ مَنيعةً، يُمكِنُ التَّشَبُّثُ بِها كَطَوقِ نَجاةٍ أخيرٍ في خِضَمِّ بَحرِ اللّايَقينِ المُتَلاطِمِ الأمواجِ بِلا نُشورٍ. فالعقلُ المُلَقَّنُ، العقلُ المُستأجَرُ، ذاكَ الذي اعتادَ التَّسليمَ الأعمى بِالأجوبةِ المَوروثةِ والنُّصوصِ المُقَدَّسةِ بِلا عُبورٍ، لا يَجِدُ في هذا الفَراغِ إلا تَهديدًا لِكَينونَتِهِ، فَيَهرُبُ مِنهُ كَالفَأرِ المَذعورِ، لِيَبحَثَ عنْ مَلاذٍ زائِفٍ في أيِّ قِصّةٍ تُريحُهُ أوْ أيِّ وَهمٍ يَعبُرُ. يُفَضِّلُ دِفءَ الرّاحَةِ الوَهميّةِ التي تُوَفِّرُها الأفكارُ الجاهِزةُ والمُريحَةُ – حتّى لوْ كانتْ في ذُروةِ التَّشويهِ والسَّخافَةِ والسُّفورِ – على صَقيعِ مُواجَهةِ اللّايَقينِ في عُرْيِهِ القاسي الفاضِحِ لِلمَستورِ. كَأنَّ الاستقرارَ المُصطَنَعَ، الذي يَصنَعُهُ بِالتَّجاهُلِ والتَّبريرِ، هوَ دِرعُهُ الأخيرُ، حِصنُهُ الوَهميُّ، الذي يَحميهِ منَ الانهيارِ النَّفسيِّ الكامِلِ ومِنَ التّيهِ في الدُّهورِ. لكِنَّ العقلَ الحُرَّ، ذاكَ

الذي تَجَرَّأَ على كَسرِ القَيدِ بِفَأسِهِ، والخُروجِ منَ القَفَصِ بِأنفاسِهِ، يَقِفُ أمامَ هذا الفَراغِ المُخيفِ بِجُرأةٍ نادِرةٍ لا تُضاهى، وبِصَلابةِ الفولاذِ التي لا تَتَناهى. يُدرِكُ أنَّ غِيابَ الإجاباتِ النِّهائيّةِ ليسَ عَلامةَ ضَعفٍ يَجِبُ أنْ يُخشى، ولا دَليلَ عَجزٍ يَستَدعي اليأسَ والبُؤسا، بلْ هوَ، على العَكسِ تَمامًا، إعلانُ قُوّةٍ صارِخٍ لا يُنْسى، وشَهادةٌ على استقلالِهِ الوَليدِ الأمسى، ودَليلٌ دامِغٌ على قُدرَتِهِ على تَحَمُّلِ عِبءِ التَّساؤُلِ الأبديّ بِلا مَرسى، دونَ أنْ يَنهارَ أوْ يَتَراجَعَ تَحتَ وَطأةِ الشَّكِّ المُستمِرِّ الذي لا يُرْسى. إنَّ تَحدّيَ هذا الفَراغِ الوُجوديّ، هذهِ المُواجَهةَ العاريةَ مَعَ العَدَمِ المُخيفِ، هوَ الاختبارُ الحَقيقيُّ لِصَلابةِ الذّاتِ العَميقةِ وما تَأسى، وهوَ نُقطةُ الانطلاقِ الجَذريّةُ التي تُعاكِسُ تيّارَ التَّلقينِ الجارِفِ، وتُحوّلُ القَلَقَ، منْ عَدُوٍّ غادِرٍ يُهدّدُ الاستقرارَ ويُشِلُّ الحركةَ ويُقْسي، إلى حافِزٍ خَفيٍّ دافِعٍ، إلى وَقودٍ يُغذّي النُّموَّ العَقليَّ ويَدفَعُهُ نَحوَ آفاقٍ أرْحَبَ وأرسَى. فكَيفَ لَنا، إذنْ، أنْ نُواجِهَ هذا الفَراغَ المُتَّسِعَ دونَ أنْ نَغرَقَ في مُستنقَعِ القَلَقِ الذي يُصاحِبُهُ كَظِلٍّ لا يُنسى؟ إنَّ الخُطوةَ الأُولى، المِفتاحَ الذَّهبيَّ، تَكمُنُ في "إعادَةِ تَأويلِ" اللّايَقينِ ذاتِهِ، في تَغييرِ نَظْرَتِنا إليهِ لِتَرقَى: فَهُوَ ليسَ خَطَرًا مُحدِقًا يُهدّدُ الوُجودَ ويَستَدعي الدِّفاعَ بِكُلِّ القُوى، بلْ هوَ أرضٌ خِصبةٌ بِكرٌ تَنتَظِرُ البَذرَ لِتُحيا، يَنبُتُ فيها الوَعيُ الحُرُّ ويَنمو ويَتَرَقّى، مَساحةٌ شاسِعةٌ مَفتوحةٌ لِلخَلقِ والإبداعِ، تُتيحُ لَنا أنْ نُعيدَ تَشكيلَ أفكارِنا بِحُرّيّةٍ، بَعيدًا عنْ قَوالِبِ الأنساقِ المَألوفةِ التي كَبَّلَتِ العقلَ لِدُهورٍ وأبقَتْهُ مُستَلقيًا. فَبَدلاً منَ الخَوفِ المَرَضيِّ منْ هذا الفَراغِ المُعْيي، يَجِبُ أنْ نَراهُ كَفُرصةٍ نادِرةٍ لِلتَّأمُّلِ النَّقديِّ العَميقِ والمُستَحْيي، كَلَوحٍ أبيَضَ فارِغٍ يَدعونا لِلرَّسْمِ، يُمكِنُ أنْ نُعيدَ فيهِ تَرتيبَ خَرائِطِ الإدراكِ بِحِلمٍ، دونَ أنْ تُمليَ علينا الثَّقافةُ المُقَيّدةُ أوِ التّاريخُ المُثقَلُ بِالوَهمِ، خُطوطَها وتَعرُّجاتِها وظُلَمِها. لكِنْ، ليكُنْ واضِحًا، كَالشَّمسِ في الضُّحى، أنَّ هذا لا يَعني البَتّةَ التَّسَرُّعَ الأهوجَ، الطّائِشَ، في مَلءِ الفَراغِ بِأفكارٍ جَديدةٍ عَشوائيّةٍ لا تُجْدي نَفعًا، فَقَطْ لِمُجَرَّدِ الهُروبِ منْ حَرارةِ القَلَقِ المُحرِقةِ، أوْ لِإيجادِ يَقينٍ بَديلٍ بِأيِّ ثَمَنٍ ولوْ كانَ وَهْمًا يُشْقي. فَإنَّ هذا الاندفاعَ غيرَ المَدروسِ نَحوَ إجاباتٍ بَديلةٍ قَدْ لا يَفعَلُ شَيئًا سِوى أنْ يُعيدَ إنتاجَ الأوهامِ القَديمةِ ذاتِها التي تُغْوي، ولكِنْ تَحتَ أقنِعةٍ جَديدةٍ أوْ بِألوانٍ مُختلِفةٍ تُزْوي، كَمَنْ يُعيدُ بِناءَ قَفَصٍ آخَرَ بِمُجَرَّدِ أنْ يُحَطِّمَ سابِقَهُ ويَهْوي. إنَّ التَّأمُّلَ العَميقَ الذي لا يَستعجِلُ النَّتائِجَ، والصَّبرَ النَّقديَّ الذي لا يَمَلُّ المُراجَعةَ، والاختبارَ المُتَأنّيَ لِلأفكارِ ولِمَا تَحْمِلُهُ وتَرْوي، هيَ السِّياجُ الواقي، الحِصنُ الباقي، الذي يَمنَعُ العقلَ منَ السُّقوطِ مُجَدَّدًا في فَخِّ الرّاحَةِ الزّائِفةِ التي يَعرِفُها جَيِّدًا ويَأوي. فَالإجابةُ السَّريعةُ، واليَقينُ

المُستعجَلُ، ليسَ سِوى وَهمٍ آخَرَ يُخَفِّفُ التَّوَتُّرَ لِفترةٍ مُؤقَّتةٍ ويُقَوّي، بينما يَبقى السُّؤالُ المَفتوحُ، السُّؤالُ الذي يَرفُضُ الإغلاقَ ويَتَحَدّى، هوَ النّارُ المُقدَّسةُ التي تُبقي مَشْعَلَ الفِكرِ مُشتَعِلاً وَقّادًا، وتَمنَعُهُ منَ الانطفاءِ ويَتَجَدَّى. فَتَعلَّمْ، أيُّها العقلُ الحُرُّ، أنْ تَعيشَ مَعَ الأسئلةِ، أنْ تُصاحِبَها كَرَفيقٍ، دونَ أنْ تُطارِدَها بِحُمّى اليَقينِ المَرَضيّةِ التي لا تَليقُ. ففي السُّؤالِ الذي لا يُغلَقُ بابُهُ، وفي التَّساؤُلِ الذي لا يَنتَهي حِسابُهُ، تَكمُنُ قوّةٌ حقيقيّةٌ لا يُستهانُ بِها، تِلكَ القُدرةُ اللّامَحدودةُ على فَتحِ أبوابٍ لا نِهائيّةٍ لِلمَعرِفةِ والاستكشافِ الرَّحيبِ، دونَ أنْ تُقيِّدَها أوْ تَخنُقَها جُدرانُ الإجاباتِ الجاهِزةِ أوْ أسوارُ المَوروثِ العَطيبِ. لكِنْ، يَبقى تَحذيرٌ أخيرٌ لِكُلِّ لَبيبٍ: إنَّ تَفكيكَ التَّلقينِ وهَدمَ أصنامِ اليَقينِ ليسَ نِهايةَ المَسارِ، ولا مَحطّةَ الوُصولِ أوِ القَرارِ، كَما قَدْ يَتَوهَّمُ المُتعبونَ منَ الأسفارِ. بلْ هوَ فَقطْ بِدايةٌ لِرحلةٍ أعمَقَ، وأشَدّ وَعورةً وخَطَرًا، ومَسؤوليّةً أكبَرَ. فَلا يَكفي أنْ تَترُكَ فَراغًا مُوحِشًا، مُقْفِرًا، خَلفَكَ حَيثُ كانتْ تَقِفُ أصنامُكَ المُحَطَّمةُ وتَتَجَبَّرُ. بلْ يَجِبُ عليكَ أنْ تَمتَلِكَ الشَّجاعةَ الكافِيةَ، والإرادَةَ الصّافِيةَ، لِتُعيدَ بِناءَ مَعرِفَتِكَ مِنْ جَديدٍ، مِنْ أنقاضِ ما تَهَدَّمَ وتَبَعْثَرَ. مَعرِفةٌ لا تُستَمَدُّ بِسُهولةٍ ويُسرٍ منْ أنساقٍ خارِجيّةٍ تُفرَضُ عليكَ كَقَوالِبَ جامِدةٍ، بلْ تَنبُتُ بِصُعوبةٍ وأَلَمٍ، كَزَهرةٍ في صَخرٍ، منْ تُربةِ التَّجرِبةِ الشَّخصيّةِ الحيّةِ النّابِضةِ، وتَصقُلُها نارُ الاختبارِ العَقليّ النّاقِدِ الصّارِمِ، الذي تَتَحَمَّلُ أنتَ وَحدَكَ مَسؤوليّتَهُ الكامِلةَ وتَصْطَبِرُ. وهُنا، في هذهِ المَسؤوليّةِ الثَّقيلةِ، وفي هذا العِبءِ الجَليلِ، تَتَجَلّى ذِروةُ شَجاعةِ الوَعيِ الحُرِّ الأصيلِ: أنْ يَقبَلَ القَلَقَ كَرَفيقٍ دائِمٍ لا يُفارِقُ، وأنْ يَتَحَمَّلَ عِبءَ التَّفكيرِ المُستمِرِّ دونَ أنْ يَلجَأَ إلى مَلاذاتٍ جاهِزةٍ أوْ حَضاناتٍ فِكريّةٍ تُريحُهُ وتُشارِقُ، وأنْ يُشَكِّلَ رُؤاهُ الخاصّةَ بِناءً على ما اختَبَرَهُ بِنَفسِهِ وفَحَصَهُ بِعقلِهِ، كَصانِعٍ ماهِرٍ يُبدِعُ ولا يُسارِقُ. كَأنَّ العقلَ يُعيدُ اختراعَ ذاتِهِ في كُلِّ لَحْظَةٍ، لا كَكِيانٍ ثابتٍ مُغلَقٍ يَبحَثُ عنِ الأمانِ المَفقودِ ويُنافِقُ، بلْ كَحَركةٍ حَيّةٍ، نَهرٍ مُتَدفِّقٍ، تَتَغذّى على اللّايَقينِ وتَنمو في فَوضاهُ ولا تَضايَقُ. عَقلٌ يُحوِّلُ الفَراغَ المُخيفَ منْ تَهديدٍ يُشَلُّهُ ويُفارِقُ، إلى مَصدَرٍ لِلقُوّةِ والإبداعِ الخارِقِ. يَعيشُ فيهِ الإنسانُ ليسَ كَضَحيّةٍ مُستَسلِمةٍ لِلشَّكِّ والعَبَثِ المُوافِقِ، بلْ كَصانِعٍ جَريءٍ لِمَعناهُ الخاصِّ بِهِ لائِقٍ. كَمَنْ يَبني سَفينَتَهُ بِإصرارٍ وعَزمٍ، في قَلبِ العاصِفةِ الهَوجاءِ والجَزْمِ، لا لِيَصِلَ بِها إلى شاطِئٍ أمانٍ قَدْ لا يَكونُ مَوجودًا ويُحْتَرَمُ، بلْ فَقطْ لِيُتقِنَ فَنَّ الإبحارِ في قَلبِها ويُعَلِّمُ، لِيَعيشَ الرِّحلَةَ ذاتَها كَغايةٍ لا كَوَسيلةٍ، ويُكَرَّمُ.

الفصل الرابع

مأزق الإدراك

أنْ تَقِفَ وَحدَكَ، في عَراءِ الوُجودِ المُوحِشِ، بِلا سَنَدٍ تَرتَكِنُ إليهِ أوْ دِعامَةٍ تَستَنِدُ إليها في وَجَلٍ، لِتَحمِلَ، بِشَجاعةٍ أوْ بِرُعبٍ، مَسؤوليّةَ وُجودِكَ الكامِلةَ الثَّقيلةَ، دونَ أنْ تَلوذَ بِأعذارٍ مُلَفَّقةٍ تُبَرِّرُ عَجزَكَ الفاضِحَ أوْ تُخفي فَشَلَكَ القَبيحَ، ودونَ أنْ تَختَبِئَ جَبانًا خَلفَ حَواجِزَ وَهميّةٍ مُتَهاوِيةٍ، أوْ دُروعٍ مُصْطَنَعةٍ بالِيةٍ، تُشَكِّلُ سِتارًا رَقيقًا بينَكَ وبينَ حَقيقةِ ذاتِكَ العارِيةِ المُرتَعِشةِ، حَقيقةِ هَشاشَتِكَ الدّامِيةِ. إنَّ هذا، يا لَهُ مِنْ تَحَدٍّ جَبّارٍ، مِنْ عِبءٍ لا يُطاقُ ولا يُجارى، يَكادُ يَتَجاوَزُ حُدودَ الاحتمالِ البَشريِّ الهَشِّ القاصِرِ، ويَسحَقُهُ تَحتَ وَطأتِهِ القاسيةِ كَحَجَرِ الرَّحى الدّائِرِ. أنْ تَقِفَ صامِدًا في وَجهِ الرّيحِ، أوْ على الأقَلِّ تَتَظاهَرَ بِالصُّمودِ وتَجْأَرُ كالذَّبيحِ، في وَجهِ قَلَقِكَ الوُجوديِّ المُستَعِرِ الذي يَعصِفُ بِكَ كَرِيحٍ صَرْصَرٍ لا تَستَريحُ، مُواجِهًا بِصَدرٍ عارٍ، مُكَشَّفٍ، ذلكَ الفَراغَ المُتَّسِعَ، المُظْلِمَ، الذي يُهَدِّدُ في كُلِّ لَحْظَةٍ بِابتِلاعِكَ كَلُقمةٍ سائِغةٍ لا تُسيغُ، مُواجَهةً مُباشِرةً، دامِيةً، مَريرةً، مَعَ العَدَمِ ذاتِهِ في تَجَلّيهِ المُطلَقِ المُفْزِعِ، حَيثُ لا قِناعٌ سَميكٌ مِنْ أوهامِ اليَقينِ يُخفي ارتجافَ وَجهِكَ الشّاحِبِ المُتَغَيِّرِ، ولا حائِطٌ صُلبٌ مِنْ مُعتَقَدٍ مَتينٍ تَستَنِدُ إليهِ حينَ تَترَنَّحُ وتَكادُ تَسقُطُ تَحتَ وَطأةِ الصَّمتِ الكَونيِّ المُطْبِقِ الذي يَلُفُّكَ كَكَفَنٍ ولا يُجيبُ سُؤالَ المُنيبِ. إنَّ هذا لَهُوَ اختبارٌ لا يُطاقُ، مِحنةٌ تَفوقُ طاقَةَ البَشَرِ وتُذيبُ، حِمْلٌ لا تَقوى على حَملِهِ أكتافُ الفانينَ ولا تَصلِبُ. فَالعالَمُ، بِبُرودَتِهِ القاسيةِ اللّامُتناهِيةِ، ولا مُبالاتِهِ المُطلَقةِ التي تُعَذِّبُ، لنْ يُلقيَ إليكَ، مِنْ كَرَمِهِ المَفقودِ، بِطَوقِ نَجاةٍ سِحريٍّ مِنْ سُفُنِ التَّفسيراتِ الجاهِزةِ التي تَطفو بِخِفّةٍ على سَطحِ الوَهْمِ المُحَبَّبِ، ولنْ يُهديكَ، في سَخاءٍ مُستَحيلٍ، مَعنًى دافِئًا تَتَكِئُ عليهِ وتَستَريحُ في ظِلِّهِ الكَذّابِ، كَما يَتَكِئُ المُتعَبُ المُنهَكُ على عَصاهُ الوَديعَةِ في نِهايةِ الدَّربِ الطَّويلِ المُتعِبِ. لا، بَلْ إنّهُ سَيَترُكُكَ هكَذا، مُهمَلاً، مَنسيًّا، مُعلَّقًا بِلا حِبالٍ أوْ سَنَدٍ، تائِهًا بِلا دَليلٍ أوْ رَشَدٍ، في فَراغٍ لُجّيٍّ لا نِهايةَ لهُ ولا أمَدَ، بِلا يَقينٍ واحِدٍ يُضيءُ لكَ الطَّريقَ في هذهِ العَتمَةِ السَّرمَدِ، بِلا شُعاعِ ضَوءٍ واحِدٍ يُبَدِّدُ ظُلمةَ النَّفسِ والكَمَدِ، بِلا يَدٍ حانيةٍ تَمتَدُّ لِتُمسِكَ بِكَ وتُنتَشِلَكَ مِنْ غَياهِبِ الضَّياعِ وتُساعِدْ. وهُنا، في عُمْقِ هذهِ العُزلةِ القاتِلةِ وهذا اليُتْمِ الوُجوديِّ المُتَجَدِّدِ، تَنبُعُ وتَتَجَذَّرُ مُعضِلةُ الوَعيِ الكُبرى، تِلكَ الشَّوكَةُ

الحادّةُ، النّاشبةُ في خاصِرةِ الكِيانِ، مُعضِلةُ المَسؤوليّةِ والامتحانِ: ماذا أنتَ فاعِلٌ، أيُّها المَتروكُ لِذاتِكَ ولِلأحزانِ، حينَ تُدرِكُ بِقَسوةٍ لا تُحتَمَلُ أنَّ كُلَّ شَيءٍ قَدْ تُرِكَ لَكَ، وأنَّ مَسؤوليّةَ الخَلقِ والإيجادِ مُلقاةٌ على كاهِلِكَ وَحدَكَ بِلا سُلطانٍ؟ وأنْ لا شَيءَ على الإطلاقِ خارِجَ نَفسِكَ الهَشّةِ المُرتَعِشةِ سَيُقدِّمُ لكَ الخَلاصَ المَنشودَ أوْ يُنقِذُكَ منْ غَياهِبِ هذا الفَراغِ المُطْبِقِ المَسدودِ؟ إنّكَ في هذهِ اللّحْظَةِ المُفْزِعةِ لا تُواجِهُ مُجرَّدَ غِيابٍ لِلمَعنى كَما قَدْ يَفعَلُ المُتَشائِمُ القانِطُ، بلْ تُدرِكُ بِرُعبٍ أشَدَّ، بِفَزَعٍ يُشِلُّ الأركانَ، أنَّ هذا الغِيابَ ذاتَهُ، هذا الفَراغَ ذاتَهُ، يُلقي عليكَ، بِلا رَحمَةٍ، عِبئًا هائلًا، حِملاً جَبَلِيًّا، لا مَهرَبَ مِنهُ ولا فِكاكَ: أنْ تَخلُقَ أنتَ المَعنى بِنَفسِكَ، بِجُهدِكَ، بِعَرَقِكَ، أنْ تَنحِتَهُ بِصُعوبةٍ منْ صَخرةِ العَبَثِ الصَّمّاءِ، دونَ أيِّ دَليلٍ خارِجيٍّ يَضمنُ صَوابَكَ أوْ يُقِرُّ فِعالَكَ، ودونَ أيّةِ خَريطةٍ مُسبقةٍ تُحَدِّدُ لكَ الوِجهةَ الآمِنةَ في هذهِ الصَّحراءِ الوُجوديّةِ التي لا تَنتَهي، صَحراءِ اللّايَقينِ والأهوالِ. وهَذِهِ المُفارَقةُ القاسيةُ، هذا التَّناقُضُ المُؤلِمُ في صَميمِ الكِيانِ، هوَ ما يَكمُنُ في قَلبِ الوُجودِ الإنسانيِّ المُعذَّبِ: لا مُبَرِّرَ خارِجيًّا، لا ضَمانَ سَماويًّا، يُدعِّمُ خُطُواتِكَ التّائِهةَ أوْ يُعطي لِجُهدِكَ المُضني قِيمةً ذاتَ شأنٍ، ومَعَ ذلكَ، فَإنَّ عليكَ، كَقَدَرٍ لا مَفَرَّ مِنهُ، كَواجِبٍ وُجوديٍّ ثَقيلٍ، أنْ تُواصِلَ السَّيرَ، أنْ تُواصِلَ الخَلقَ، أنْ تَرفَعَ قَدَمًا وتَضَعَ أُخرى بِعَناءٍ، كَأنَّ هُناكَ حَقًّا هَدفًا نَبيلًا يَستَحِقُّ كُلَّ هذا العَناءِ، وكَأنَّ هُناكَ مَعنًى خَفيًّا يَنتَظِرُكَ بَعدَ كُلِّ هذا الشَّقاءِ. وكَأنَّ كُلَّ قَرارٍ، صَغيرًا كانَ أمْ كَبيرًا، تَتَّخِذُهُ في مَسيرَةِ حَياتِكَ القَصيرةِ، ليسَ مُجرَّدَ اختيارٍ عَابِرٍ بينَ خِياراتٍ مُتاحةٍ، بلْ هوَ إعلانٌ وُجوديٌّ صارِخٌ، تَصويتٌ بِالدَّمِ والنّارِ لِصالِحِ ذاتِكَ الهَشّةِ في عالَمٍ أصَمَّ، أبكَمَ، لا يُبالي بِصَوتِكَ المُختَنِقِ ولا يَكتَرِثُ بِصُراخِكَ المَبحوحِ. كَأنّكَ تَصرُخُ بِأعلى صَوتِكَ في وادٍ خالٍ، سَحيقٍ، لا يُرَدِّدُ الصَّدى فيهِ إلا صَمتًا أعمَقَ، صَمتًا يَسخَرُ مِنْ جُهدِكَ ويَزيدُكَ أَلَمًا.

وإذا كُنتَ، في غَمرةِ سَذاجَتِكَ الفِطريّةِ أوْ تَفاؤُلِكَ المُفرِطِ الذي يُعمي، قَدْ ظَنَنْتَ لِوَهلَةٍ خاطِفةٍ أنَّ الحُرِّيّةَ، تِلكَ الغايةَ النَّبيلةَ التي نَبحَثُ عَنْها ونَنشُدُها، هيَ تِلكَ المُكافأةُ البَرّاقةُ، الجائِزةُ الثَّمينةُ، التي تُتَوِّجُ نِهايةَ هذهِ الرِّحلةِ الشّاقّةِ المُميتةِ في دُروبِ الوَعيِ المُظلِمةِ، فَأنتَ، ويا لَلأسَفِ المُرِّ، ويا لَخَيبَةِ الأمَلِ، لمْ تُدرِكْ بَعدُ طَبيعَتَها الحَقيقيّةَ المُخاتِلةَ، وَجهَها الآخَرَ القاسيَ، المُظلِمَ والمُرعِبَ. فَالحُرِّيّةُ الحَقيقيّةُ ليستْ كَأسًا ذَهبيّةً تُمنَحُ لكَ في نِهايةِ المَعرَكةِ الدّاميةِ لِتَرتَشِفَ مِنْها نَخبَ الانتِصارِ المَوهومِ. لا، بَلْ هيَ عِبءٌ هائِلٌ لا يُحمَلُ، صَخرةٌ سِيزيفيّةٌ ثَقيلةٌ لا قَرارَ لَها ولا مَوصِلَ، تَتَجَرَّعُ مَرارَتَها دُفعةً واحِدةً بِلا أيِّ تَمهيدٍ أوْ مُقَدِّمةٍ، تَسقُطُ على كاهِلِكَ فَجأةً كَصاعِقةٍ مِنْ سَماءٍ صافِيةٍ، دونَ سابِقِ إنذارٍ يُهَيِّئُكَ لِثِقَلِها، ودونَ أيِّ

تَحذيرٍ مُسبقٍ يُخَفِّفُ منْ وَقعِ الصَّدمَةِ المُزلزِلَةِ، ودونَ أيِّ دَليلٍ إرشاديٍّ أوْ كُتيِّبِ تَعليماتٍ يُريكَ كَيفَ يُمكِنُ لِكائِنٍ هَشٍّ، ضَعيفٍ، مِثلِكَ، أنْ يَتَحَمَّلَ هذا الحِملَ الجَبَلِيَّ الذي يَقصِمُ الظَّهرَ ويُحَطِّمُ العِظامَ. إنّها حالةٌ تُشبِهُ، بِشَكلٍ مُفزِعٍ ومُريعٍ، أنْ تَخلَعَ دِرعَكَ الوَحيدَ الذي يَحميكَ في ذُروةِ مَعركةٍ ضارِيةٍ، شَرِسَةٍ، لا هَوادةَ فيها ولا رَحمَةَ تُرجى، أنْ تَقِفَ أعزَلَ تَمامًا أمامَ نِيرانِ الحَقيقةِ الحارِقةِ المُلتَهِبَةِ بِلا أيّةِ طَبَقاتٍ نَفسيّةٍ واقيةٍ، بِلا أيّةِ حَواجِزَ فِكريّةٍ تُخَفِّفُ منْ لَفحِ الضَّرَباتِ المُتَلاحِقةِ القاضِيةِ، بِلا تِلكَ الرِّواياتِ المُطَمْئِنَةِ، المُخَدِّرةِ، التي اعتَدْتَها عَنِ القَدَرِ المَحتومِ أوِ العِنايَةِ الإلهيّةِ أوِ المَعنى المُعَدِّ سَلَفًا، تِلكَ التي كانَتْ تُهَدِّئُ مِنْ خَوفِكَ وتُسَكِّنُ رَوعَكَ في لَيالي القَلَقِ الطَّويلةِ. كَأنّكَ، بِفعلِ حُرِّيّتِكَ هذهِ، تُلقي بِنَفسِكَ طَوعًا، بِإرادةٍ عَمياءَ، في أتونِ فُرنٍ مُستَعِرٍ منَ التَّساؤُلاتِ التي لا تَنتَهي، مِنْ الشُّكوكِ التي لا تَهدأُ، دونَ أنْ تَملِكَ أدنى أمَلٍ واهٍ أوْ تَتَوقَّعَ أيَّ نَجاةٍ مُحتَمَلَةٍ منْ هذا الجَحيمِ. والمُفارَقَةُ الأشَدُّ إيلامًا، الأكثَرُ سُخريّةً، هيَ: أنّهُ كُلّما ازدادَ تَحَرُّرُكَ الظّاهِريُّ منْ قُيودِ الوَهْمِ والتَّلقينِ، وكُلّما ارتَقَيتَ دَرَجةً في سُلَّمِ الوَعيِ النّاقِدِ الشّاهِقِ، كُلّما انكَشَفَتْ أمامَ عينَيكَ، بِلا رَحمَةٍ أوْ شَفَقةٍ، حَقيقةُ هَشاشَتِكَ المُتَأصِّلةِ وعَجزِكَ الوُجوديِّ المُلازِمِ. وكُلّما أدرَكتَ، بِشَكلٍ أوضَحَ وأقسى، أنْ لا شَيءَ على الإطلاقِ، لا إلهٌ في السَّماءِ ولا مَبْدَأٌ في الأرضِ ولا عَقيدةٌ في القَلبِ، سَيُخَفِّفُ عنكَ هذا الحِملَ الهائلَ، حِملَ الوُجودِ الحُرِّ الذي لا يُطاقُ. وأنَّ هذا التَّمَزُّقَ الدّاخليَّ المُميتَ، هذا الصِّراعَ الأبَديَّ بينَ الوَعيِ والفَراغِ، ليسَ حالةً عارِضةً يُمكِنُ الشِّفاءُ مِنْها، بلْ هوَ جَوهَرُ وُجودِكَ ذاتِهِ، لُحمَتُهُ وسَداهُ الذي لا يَنفَكُّ. وهُنا، بِالضَّبطِ، في نُقطةِ تَلاقي الحُرِّيّةِ القاسيةِ مَعَ الهَشاشَةِ المُلازِمةِ، يَبدأُ "مَأزِقُ الإدراكِ" في تَشَكُّلِهِ الأعمقِ والأخطرِ والأشَدِّ إيلامًا: فالمَأزِقُ الحَقيقيُّ ليسَ في مُجَرَّدِ غِيابِ المَعنى عنِ العالَمِ الصّامِتِ في حَدِّ ذاتِهِ، بلْ في ذلكَ الإدراكِ القاسي، الوَخّازِ كَالإبَرِ، المُؤلِمِ كَالجُرحِ، بِأنّكَ أنتَ، أيُّها الكائِنُ الحُرُّ الهَشُّ، مُطالَبٌ، مُجبَرٌ، بِخَلقِ هذا المَعنى الغائِبِ منْ صَميمِ العَدَمِ، منْ رُكامِ الفَوضى، دونَ أيِّ ضَمانٍ خارِجيٍّ لِصَوابِكَ أوْ تَصديقٍ إلهيٍّ على نَجاحِكَ، ودونَ أيِّ مُساعَدةٍ أوْ إرشادٍ في هذا التّيهِ. أنْ تُدرِكَ أنّكَ مَلقًى، مَرميٌّ، كَنُفايةٍ، في هذا الوُجودِ الخالي منْ أيِّ إشاراتٍ أوْ عَلاماتٍ، دونَ أيِّ جِسرٍ مَتينٍ يَعبُرُ بِكَ منْ ضِفّةِ الشَّكِّ المُوحِشةِ والمُقْفِرَةِ، إلى شاطِئِ اليَقينِ الآمِنِ المُستَحيلِ. كَأنَّ الحَياةَ نَفسَها، تَحتَ وَطأةِ هذهِ الحُرِّيّةِ الثَّقيلةِ كَالصُّخورِ، تَتَحَوَّلُ منْ رِحلَةٍ ذاتِ مَعنًى مُتَوَهَّمٍ، إلى مُجَرَّدِ فَعلٍ مُتَواصِلٍ منَ المُقاوَمةِ اليائِسةِ، جُهدٍ دائِمٍ منَ الإرادَةِ المُعَذَّبَةِ، منَ الخَلقِ المُضني وَسطَ عَبَثٍ مُطْبِقٍ لا يَنتَهي. حَيثُ تُصبِحُ

كُلُّ خُطوةٍ تَخطوها اختبارًا حارِقًا لِشَجاعَتِكَ في مُواجَهةِ العَدَمِ الصّامِتِ، ويُصبِحُ كُلُّ قَرارٍ تَتَّخِذُهُ رِهانًا خاسِرًا مُقدَّمًا على ذاتِكَ الهَشّةِ المُرتَعِشةِ، في مُواجَهةِ الفَراغِ المُطلَقِ الذي يَبتَلِـعُ كُلَّ شَيءٍ بِلا اكتِراثٍ.

فَأَنْ تَتَحَمَّلَ، بِصَبرٍ أَيّوبِيٍّ وعِنادٍ سِيزيفِيٍّ لا يُثْنى، مَسؤولِيّةَ وُجودِكَ المُلقاةَ على كاهِلِكَ كَصَخرةٍ تُعْنى، يَعني أَنْ تَرفَعَ هذا الثِّقَلَ الهائلَ على كَتِفَيْكَ العارِيَتَيْنِ وتَسْعى، وأَنْ تَمضيَ بِهِ قُدُمًا دونَ أَنْ تَضعُفَ فَتَتكِئَ على عُكّازِ وَهمٍ جَديدٍ يُسَلّي ويُغْنى، ودونَ أَنْ تَتَلَفَّتَ باحِثًا بِذِلّةٍ عنْ مَلاذٍ آمِنٍ أَوْ حِصنٍ يُعْلي، يُعيدُكَ إلى أحضانِ اليَقينِ المُصطَنَعِ الذي هَجَرتَهُ وتَتَأَبّى. فَلا سَبيلَ، بَعدَ أَنْ عَبَرتَ نَهرَ الشَّكِّ الجاريَ، لِلعَودةِ إلى الضِّفّةِ الأُخرى بِلا انْثِناءٍ، ولا مَجالَ، بَعدَ أَنْ حَطَّمتَ القَفَصَ بِجَوارِحي، لِلتَّراجُعِ خائفًا إلى أحضانِ نِظامٍ جاهِزٍ مُداري، أَوْ إلى دِفءِ قَطيعٍ مُريحٍ يُعفيكَ مِنْ آلامِ الاختيارِ الحارِقَةِ ومَسؤولِيّتِهِ القاصِمةِ بِلا مُوارِي. كَأَنّكَ، بِفعلِ وَعيِكَ، قَدْ أَغلَقتَ خَلفَكَ بابًا حَديديًّا لا يُفتَحُ، وعَبَرتَ وَحيدًا إلى صَحراءَ مُترامِيةِ الأَطرافِ لا تُفلَحُ، صَحراءِ اللّايَقينِ التي لا نِهايةَ لَها، حَيثُ لا ظِلالَ تُريحُ جَسَدَكَ المُنهَكَ، ولا عَلاماتِ طَريقٍ تَهديكَ في ظُلمةِ الرُّوحِ ولا تَترُكُكَ. إنَّ المَسؤولِيّةَ الوُجوديّةَ هذهِ ليستْ غايةً نَبيلةً تَصِلُ إليها ثُمَّ تَستَريحُ منْ عَنائِها، كَما يَستَريحُ العامِلُ بَعدَ أَنْ يُنهيَ مَهَمّةً شاقّةً ويَطيبُ مَناها. لا، بلْ هيَ طَريقٌ مَفتوحٌ على المَجهولِ، ودَربٌ لا وَجهةَ لهُ إلا استمرارُكَ في السَّيرِ المَجهولِ، مَسيرةٌ لا راحَةَ فيها إلا في قُدرَتِكَ المُتَجَدّدةِ على تَحَمُّلِ ثِقَلِ الخُطُواتِ بِلا أُفولٍ، رُغمَ المَعرِفةِ القاسيةِ بِأَنْ لا أَحَدَ يَقِفُ خَلفَكَ لِيُساندَكَ إنْ عَثَرتَ، أَوْ لِيَرفَعَكَ إنْ تَدهوَرتَ، وأَنْ لا شَيءَ، لا جَنّةً ولا حَقيقةً، يَنتَظِرُكَ في نِهايَتِها إلا المَزيدَ منَ الأَسئلةِ التي لَمْ تَختَرتَ، والمَزيدَ منَ الفَراغِ الذي فيهِ حِرتَ. إنّها مَسيرةٌ لا تُطَمْئِنُ قَلبًا خائفًا، ولا تُريحُ عَقلًا تالِفًا، بلْ تَزيدُهُما قَلَقًا وتَكالُفًا، تُجبِرُ القَلبَ أَنْ يَنبُضَ وَسطَ عَبَثِ الوُجودِ مُخالِفًا، وتُجبِرُ العقلَ أَنْ يُفكّرَ في الفَراغِ مُحالِفًا. وكَأَنَّ العقلَ في هذهِ الرِّحلَةِ يَتحَوَّلُ إلى رَحّالةٍ لا يُؤْنَسُ، مُسافِرٍ بلا زادٍ أَوْ مُؤنِسٍ، لا يَملِكُ إلا شَجاعَتَهُ التي تُشْمَسُ، مُدرِكًا أَنَّ كُلَّ خُطوةٍ اختبارٌ لا يُقَيَّسُ، مِحَكٌّ قاسٍ لِقُدرَتِهِ على مُواجَهةِ العَدَمِ الصّامِتِ دونَ أَنْ يَنهارَ ويُبْأَسُ.

وقَدْ تَظُنُّ، في لَحظةِ ضَعفٍ تُغويكَ، أَوْ في غَفْلةِ تَردُّدٍ تُنْسيكَ، أَنّكَ بِحاجةٍ ماسّةٍ إلى الفَهمِ الكامِلِ قَبلَ أَنْ تُقدِمَ وتُلبّي، إلى مَعرِفةٍ مُسبَقةٍ تُنيرُ دَربَكَ المُعْتَمَ وتَهْدي، إلى جُرعةِ اطمئنانٍ تُسَكّنُ قَلبَكَ المُضْني،

لِتَقْفِزَ تِلكَ القَفزةَ الكُبرى، قَفزةَ الإرادَةِ الحُرّى، نَحوَ المَجهولِ الذي يَفتَحُ فاهُ كَثُعْبانٍ، ونَحوَ تَحمُّلِ المَسؤوليّةِ الثَّقيلةِ كَالبُركانِ. لكِنْ حَذارِ، أيُّها الوَاهِمُ، فَما هذا إلا وَهمٌ آخَرُ، لَعينٌ، خُدعةٌ ماكِرةٌ، لَئيمةٌ، يَنسِجُها العقلُ الخائفُ بِبَراعةِ شَيطانٍ، لِيُبَرِّرَ تَردُّدَهُ وجُبنَهُ أمامَ الطُّوفانِ. شِباكٌ مُحكَمةٌ مِنَ التَّسويفِ والتَّأجيلِ، تُبقيهِ آمِنًا، كَما يَظُنُّ، في دائِرتِهِ المُغلَقةِ كَالسِّجنِ، في قَوقَعتِهِ الدّافِئةِ كَالوَكَنِ، بَعيدًا كُلَّ البُعدِ عنْ فَوضى التَّجرِبةِ الحيّةِ المُؤلِمةِ، وعنْ لَهيبِ الواقِعِ الحارِقِ كَالجَمرَةِ، وعنْ عَواصِفِ الاحتمالاتِ المُدَمِّرَةِ. كَأنّهُ، بِفعلِ هذا الوَهمِ القاتِلِ، يَرفُضُ بِعِنادِ الطِّفلِ المُدَلَّلِ أنْ يُلقِيَ بِنَفسِهِ عَارِيًا، أعزَلَ، بِلا دُروعٍ واقِيةٍ، في مُحيطٍ هائِجٍ لا ساحِلَ لهُ مِنَ الإمكاناتِ اللّانِهائيّةِ والخِياراتِ المَفتوحةِ التي لا تُطاقُ عُقباها. فالحَقيقةُ القاسيةُ كَالسِّياطِ هيَ: لا أحَدَ على الإطلاقِ، مَهما عَلا شَأنُهُ أوْ تَعَمَّقَ فَهمُهُ، كانَ "جاهِزًا" بِمَعنى الكَلمةِ قَبلَ أنْ يَقْفِزَ قَفْزَتَهُ الحاسِمةَ المُميتةَ في فَراغِ الوُجودِ المُطْبِقِ. لا أحَدَ! لِأنَّ "الجاهِزيّةَ" المَزعومةَ هذهِ، التي نَتوهَّمُها كَشَرطٍ لا بُدَّ مِنهُ لِلعُبورِ، ليستْ حالةً ذِهنيّةً هادِئةً تُبنى وتَكتَمِلُ في عُزلةِ التَّأمُّلِ البارِدِ كَالثَّلجِ، أوْ في صَومَعةِ التَّفكيرِ المُجَرَّدِ عَنِ الواقِعِ، بَعيدًا عنْ صَخَبِ الحَياةِ وضَجيجِها. لا، بَلْ هيَ، في أحسَنِ الأحوالِ، مُجَرَّدُ أثَرٍ جانبيٍّ باهِتٍ، نَتيجةٍ لاحِقةٍ مُتَأخِّرَةٍ، لِذلكَ "التَّورُّطِ الوُجوديِّ" العَميقِ، لِذلكَ الانغماسِ الكامِلِ، الأعمى أحيانًا، في مَعرَكةِ الحَياةِ الضَّروسِ التي لا تَرحَمُ. إنّها ثَمرةٌ تَتكوَّنُ وتَنضُجُ وتَتَشكَّلُ، ليسَ مِنَ التَّخطيطِ المُسبَقِ في الأوراقِ، بلْ مِنْ وَحلِ السُّقوطِ المُتَكرِّرِ في الأغوارِ، ومِنْ أَلَمِ النُّهوضِ بَعدَ الانكِسارِ، ومِنْ نِيرانِ الخَطَأِ الفادِحِ وجُرأةِ المُحاوَلةِ الجبّارةِ، ومِنَ الاحتِكاكِ الدّائِمِ، المُؤلِمِ، لِلذّاتِ الهَشّةِ بِصَخرةِ الواقِعِ الصُّلْبَةِ التي لا تَنهارُ. كَأنَّ العقلَ البَشريَّ، بِكُلِّ ما فيهِ مِنْ تَعقيدٍ وقُدرةٍ على التَّجريدِ، لا يَتَشكَّلُ حَقًّا، لا يَكتَسِبُ صَلابَتَهُ ومُرونَتَهُ وقُوَّتَهُ، إلا في حَرارةِ الفِعلِ المُباشِرِ، في لَهيبِ المُواجهةِ الحَقيقيّةِ، لا في بُرودةِ الانتِظارِ السَّلبيِّ القاتِلِ أوْ في جُمودِ التَّأمُّلِ العَقيمِ الذي لا يُثمِرُ إلا الوَهْمَ. فالفِعلُ، يا هذا التّائِهُ في الأفكارِ، الفِعلُ وَحدَهُ، هوَ الذي يَصنَعُكَ مِنْ جَديدٍ بَعدَ كُلِّ انهيارٍ، هوَ الذي يُعيدُ نَحتَ كِيانِكَ المُتَصَدِّعِ، هوَ الذي يُوَلِّدُ الفَهمَ الحَقيقيَّ مِنْ رَحِمِ التَّجرِبةِ الخامِ لا مِنْ كُتُبِ المَوتى، هوَ الذي يَدفَعُكَ بِقُوّةٍ جَبّارةٍ لِتَخرُجَ مِنْ حِيادِكَ المُجَمِّدِ كَالجَليدِ، مِنْ بُرودَتِكَ الخائِفةِ كَالرَّمادِ، وتُلقِيَ بِنَفسِكَ بِشَجاعةٍ في لَهيبِ الحَياةِ المُتأجِّجِ بِالتَّناقُضاتِ والتَّحدّياتِ والنِّيرانِ. كَأنّكَ لا تَتعلَّمُ فَنَّ السِّباحةِ الحَقيقيَّ إلا حِينَ تُلقي بِنَفسِكَ في عُمْقِ البَحرِ الهائِجِ وتُصارِعُ أمواجَهُ العاتِيةَ، لا بَينما تَقِفُ بِجُبنٍ وتَرَدُّدٍ على الشّاطِئِ الآمِنِ تُحَلِّلُ حَرَكةَ التَّيّاراتِ بِعقلٍ

بارِدٍ وتَحسِبُ احتِمالاتِ الغَرَقِ بِقَلبٍ مُرتَعِدٍ. فَإذا ظللتَ تَنتَظِرُ، كَالأبْلَهِ، أنْ "تَفهَمَ" كُلَّ شَيءٍ قَبلَ أنْ تَجرُؤَ على أنْ تَعيشَ حَياتَكَ القَصيرةَ، إذا رَهَنْتَ وُجودَكَ الهَشَّ بِشَرطِ المَعرِفةِ المُسبَقةِ المُستَحيلةِ، فَأنتَ لا تَفعَلُ شَيئًا سِوى أنْ تَخدَعَ نَفسَكَ بِخُدعةٍ ماكِرةٍ وقاتِلةٍ، أنْ تُؤَجِّلَ البِدايةَ الحَقيقيّةَ إلى أجَلٍ غَيرِ مُسَمًّى لنْ يَأتيَ أبَدًا، وأنْ تَحبِسَ ذاتَكَ بِاختِيارِكَ في بُرجٍ عاجيٍّ مُنيعٍ مِنْ التَّردُّدِ والخَوفِ والانتِظارِ العَقيمِ. لِأنَّ الفَهمَ، في حَقيقَتِهِ الوُجوديّةِ العَميقةِ، ليسَ شَرطًا مُلزِمًا يَسبِقُ الحَياةَ ويُبَرِّرُها، بلْ هوَ، في أغلَبِ الأحوالِ، ظِلُّها الذي يَتْبَعُها كَالخَيالِ، الصَّدى الذي يَتَرَدَّدُ بَعدَها كَالأغلالِ، النُّورُ الذي يَنكَشِفُ، إنِ انكَشَفَ، مِنْ خِلالِها بِجَلالٍ. كَأنّكَ لا تُدرِكُ مَعنى النّارِ الحَقيقيَّ إلا حِينَ تَكتَوي بِلَهيبِها الحارِقِ، ولا تَعرِفُ قِيمةَ الضَّوءِ السّاطِعِ إلا حِينَ تُعْميكَ ظُلمةٌ حالِكةٌ وتَبحَثُ عنهُ بِلا جَدوى في اللَّيالِكِ.

وهكَذا، إذْ يَنتَشِلُكَ الفِعلُ الجَريءُ مِنْ سُباتِ الانتِظارِ المُميتِ، ويُلقي بِكَ في مَعرَكةِ الحَياةِ، فإنّهُ، بِمُفارَقةٍ لاذِعةٍ كَالسُّمِّ، لا يَمنَحُكَ خَلاصًا أبَديًّا أوْ راحةً دائِمةً، بلْ يَقذِفُ بِكَ مُجَدَّدًا في أتونِ مُواجَهةٍ أُخرى أشَدَّ قَسوةً، في عُمْقِ "مَأزِقِ الإدراكِ" حَيثُ تَتَحَوَّلُ الحَركةُ ذاتُها، سَعيُكَ الدّؤوبُ، إلى شَهادةٍ صارِخةٍ على العَبَثِ المُستَحكِمِ الذي لا يُرَدُّ. فَأنْ تَستَيقِظَ كُلَّ صَباحٍ وتُحَدِّقَ في المِرآةِ الصَّقيلةِ، فَلا تَرى فيها إلا ذاتَكَ الباهِتةَ الشّاحِبةَ، صُورةً جَوفاءَ مُفرَغةً يَتردَّدُ فيها صَدى فَراغِ الأمسِ القاتِمِ ورَتابةِ الغَدِ المُظلِمِ، هوَ أنْ تَصطَدِمَ بِعُنفٍ، لا بِجِدارٍ خارِجيٍّ يُمكِنُ تَحطيمُهُ، بلْ بِالصَّخرةِ الصَّمّاءِ، القاسيةِ، لِتِكرارِ الوُجودِ نَفسِهِ، بِدَورانِ عَجَلةِ الأيّامِ العَقيمةِ التي لا تُثمِرُ، عَجَلةٌ تَطحَنُ بِبُطءٍ وبِلا رَحمةٍ كُلَّ جَديدٍ، كُلَّ أمَلٍ، كُلَّ إمكانيّةٍ لِلتَّغييرِ. لا دَهشةَ حَقيقيّةً تُباغِتُ رَتابةَ خُطُواتِكَ الآليّةِ المُمِلّةِ، ولا انفراجٌ مُفاجِئٌ يَلْمَعُ كَبَرقٍ في أُفُقِكَ المُعتِمِ المَسدودِ، ولا بِدايةٌ حَقيقيّةٌ تُغادِرُ فيها مَسارَكَ المَحفورَ سَلَفًا كَأخدودٍ في صَخرٍ. كَأنَّ الكَونَ بِأسرِهِ مَسرَحٌ أبديٌّ كَئيبٌ لِعَرضٍ واحِدٍ، مُعادٍ، مُمِلٍّ، تَتَكَرَّرُ فيهِ المَشاهِدُ ذاتُها بِبُطءٍ قاتِلٍ بِلا أدنى تَغييرٍ أوْ تَجديدٍ، وأنتَ، أيُّها الأسيرُ المُتعَبُ، تَجِدُ نَفسَكَ تَدورُ وتَدورُ في ذاتِ الحَلَقةِ البالِيةِ، الصَّدِئةِ، التي حَفَرتْها في رُوحِكَ المُنهَكةِ قَدَما العادَةِ القاتِلةِ، وتُؤَدّي، بِجَسَدٍ مُثقَلٍ بالهُمومِ وروحٍ خامِلةٍ مَيتةِ الطُّموحِ، ذاتَ الطُّقوسِ اليَوميّةِ الفارِغةِ التي تَجَرَّدَتْ، بِفِعلِ التِّكرارِ، مِنْ كُلِّ مَعنًى أوْ حَرارةٍ أوْ شُموخٍ، وصارَتْ مُجَرَّدَ هَياكِلَ عَظميّةٍ مُتآكِلةٍ لِأفعالٍ كانَتْ تَحمِلُ وَعدًا زائِفًا يَومًا مَا. إنَّ هذا التِّكرارَ الكابوسيَّ، هذهِ الرَّتابةَ المُميتةَ، هوَ الشَّكلُ الأعمَقُ والأخطَرُ لِلسِّجنِ، قَفَصٌ لا مَرئِيٌّ تُدرِكُ فَراغَهُ

القاتِلَ لكِنّكَ، بِفعلِ اليأسِ أوِ الإلْفِ، تتكيَّفُ مَعَ قُضبانِهِ وتُهادِنُها، كَسَجينٍ يَئِسَ منَ الهُروبِ فَبَدأَ يُزَيِّنُ جُدرانَ زِنزانَتِهِ المُظلِمةِ بِرُسومٍ طُفوليّةٍ. وتَعودُ لِتُطْلِقَ، في صَمتِ الصَّباحِ البارِدِ، ذلكَ السُّؤالَ المُختَنِقَ في الحَلقِ: "لِماذا؟". لكِنَّ هذا السُّؤالَ، الذي كانَ يَحمِلُ يومًا ثِقَلَ الوُجودِ وأَلَمَ الوَعي، يَتَحَوَّلُ هوَ الآخَرُ، تَحتَ وَطأةِ التِّكرارِ المُميتِ وفُقدانِ الجَدوى الكامِلِ، إلى مُجَرَّدِ طَقسٍ عَبثِيٍّ، إلى عادةٍ فارِغةٍ، إلى صَدًى باهِتٍ لِصَرخةٍ قديمةٍ لا تَنتَظِرُ إجابةً، لأنَّ الإجابةَ غائبةٌ أصلاً، مَفقودةٌ، في هذا الكَونِ الأصَمِّ الذي لا يَسمَعُ ولا يُبالي. وكَأنَّكَ تُرَدِّدُ هَمسَكَ اليائِسَ في وادٍ سَحيقٍ، مُقْفِرٍ، لا يُرجِعُ إليكَ إلا صَمتَكَ الخاصَّ، صَمتٌ يَزدادُ وَحشةً وقَتامةً مَعَ كُلِّ تَكرارٍ، ويُؤَكِّدُ لَكَ، بِلا رَحمةٍ أوْ شَفَقةٍ، عَبثَ السُّؤالِ ذاتِهِ في وَجهِ اللّاشَيءِ المُطْلَقِ.

وهلْ تَظُنُّ، أيُّها المُتَوَهِّمُ المَخدوعُ بِمركزيّتِكَ الكاذِبةِ، أنَّ هذا الكَونَ الهائلَ، الصّارِخَ بِعَظَمَتِهِ وصَمتِهِ، بِصَمتِهِ الجَليديِّ المُمتَدِّ في الأبَدِ، يُشارِكُكَ قَلَقَكَ السَّخيفَ التّافِهَ، أوْ يَكترِثُ لِتَساؤُلِكَ الوُجوديِّ المُضني الذي لا يُجدي؟ حَماقةٌ مُطلَقةٌ! فالكَونُ لا يَنطِقُ بِلُغةٍ تَستطيعُ أنتَ، أيُّها العَقلُ الصَّغيرُ المُتَوَهِّمُ، أنْ تَفْهَمَها، ولا يَملِكُ مُترجِمًا أمينًا لِهَذياناتِ وَعيِكَ المُتَورِّمِ بِالذّاتِ. لا يُشيرُ بِأُصبُعٍ خَفيٍّ مِنْ وَراءِ السِّتارِ إلى مَقصَدٍ سِرِّيٍّ أوْ غايةٍ تَتبَعُها كَالأعمى في الظَّلامِ، ولا يَحمِلُ في جَعبَتِهِ الفارِغةِ أيَّ غايةٍ مُقَدَّسةٍ أوْ مَعنًى خَفيٍّ يَنتَظِرُكَ لِتَكتَشِفَهُ وتَركَعَ أمامَهُ بِخُضوعٍ. إنَّهُ فَقَطْ يَتَمَدَّدُ ويَدورُ، بِلا وَعيٍّ ولا اكتراثٍ ولا إرادةٍ، في صَمتِهِ الأزَليِّ المُطْبِقِ، فَضاءٌ لا نِهائِيٌّ مُظلِمٌ منَ البُرودةِ واللّامُبالاةِ والفَراغِ، لا يَهتَمُّ على الإطلاقِ بِهَمْهَماتِ وَعيِكَ الضَّئيلةِ المُتَأَلِّمةِ، ولا يُبالي بِرَقصِكَ العَبثِيِّ المُحزِنِ على مَسرَحِ الوُجودِ الهَزليِّ، ولا يَكترِثُ لِكُنهِكَ الفاني الزّائِلِ كَما تَكترِثُ أنتَ بِهِ بِهَوَسٍ مَرَضِيٍّ يُثيرُ الشَّفَقَةَ. أنتَ في نَظَرِهِ، إنْ كانَ لهُ نَظَرٌ أصلاً أوْ قُدرةٌ على التَّمييزِ، لستَ سِوى صَوتٍ ضَئيلٍ، هَمسةٍ خافِتةٍ، في فَراغٍ شاسِعٍ لا آذانَ لهُ، تَتَلاشى وتَذوبُ في العَدَمِ قَبلَ أنْ يَسمَعَها أحَدٌ أوْ يَلْتَفِتَ إليها كائِنٌ. وهذا الصَّمتُ الكَونيُّ المُريعُ، المُطْبِقُ، ليسَ مُجَرَّدَ غِيابٍ سَلبِيٍّ لِلكَلامِ أوِ الصَّوتِ كَما قَدْ يَعتَقِدُ المُتَفائِلونَ في غَفلَتِهِمْ، بلْ هوَ الحُضورُ الطّاغي، الحُضورُ المُطلَقُ، لِلوُجودِ المَحْضِ في عُرْيِهِ القاسي، البَدائِيِّ، حَيثُ تَتَحَطَّمُ كُلُّ مُحاوَلةٍ ساذَجةٍ، طُفوليّةٍ، لِلبَحثِ عنْ غايةٍ عُليا أوْ هَدفٍ نَبيلٍ، وتَتَحَوَّلُ إلى مُجَرَّدِ هُروبٍ جَبانٍ، مُخْزٍ، منْ مُواجَهةِ الفَراغِ الأبديِّ الذي لا يَعتَرِفُ بِكَ ولا يَمنَحُكَ أيَّ قِيمةٍ خاصّةٍ تُذكَرُ. كَأنَّكَ، في سَعيكَ المَحمومِ هذا، تُحاوِلُ بِجُهدٍ يَائِسٍ أنْ تَرسُمَ خارِطةً مُفَصَّلةً لِلتّيهِ على صَفحةٍ بَيضاءَ ناصِعةٍ لا تَحمِلُ أدنى مَعْلَمٍ أوْ إشارةٍ أوْ

دَليلٍ. أنتَ، أيُّها الكائنُ العَطشانُ أبَدًا لِلمَعنى، أنتَ وَحدَكَ مَنْ يَشعُرُ بِهذا الظَّمأِ الوُجوديِّ الجارِفِ، بِهذهِ الحاجَةِ المَرَضيّةِ المُلِحّةِ لِأنْ يَكونَ لِكُلِّ شَيءٍ سَبَبٌ مُقنِعٌ وقِيمةٌ مُطلَقةٌ وهَدَفٌ نَبيلٌ. بَينما الكَونُ العَظيمُ، في لا مُبالاتِهِ الصَّمّاءِ، يَظَلُّ غافِلاً تَمامًا عنْ عَطَشِكَ المُهلِكِ، لا يُقَدِّمُ لكَ، ولَنْ يُقَدِّمَ أبَدًا، قَطرةَ ماءٍ واحِدةً تَروي جَفافَ رُوحِكَ المُحتَرِقةِ أوْ تُطفِئُ نارَ قَلَقِكَ المُستَعِرِ. فَلا تَخدَعْ نَفسَكَ أكثَرَ بِالأوهامِ: فالمَعنى ليسَ شَيئًا غائبًا عنكَ كَكَنزٍ ضائِعٍ في قاعِ البَحرِ يُمكِنُ استِعادَتُهُ بِالجُهدِ المُضني أوْ بِالدُّعاءِ الخاشِعِ. لا، بَلْ هوَ بِبَساطةٍ مُرعِبةٍ لَمْ يَكُنْ مَوجودًا أصلاً، لَمْ يُخلَقْ في المَقامِ الأوَّلِ لِتَجِدَهُ! ليسَ مَدفونًا في أغوارِ الكُتُبِ المُقَدَّسةِ التي تُقَلِّبُ صَفَحاتِها بِأصابِعَ مُرتَعِشةٍ، ولا في تَعرُّجاتِ مَصيرِكَ الشَّخصيِّ الذي تُحَلِّلُهُ بِهَوَسٍ مُتَزايِدٍ، ولا في نُسُجِ فَلسَفاتِ التّاريخِ الكُبرى التي تَتَعَلَّقُ بِخُيوطِها الواهيةِ كَغَريقٍ يائِسٍ. كَأنَّ كُلَّ هذا البَحثِ المُضني، المُنهِكِ، عنِ المَعنى ليسَ في حَقيقتِهِ إلا انعِكاسًا باهِتًا لِرَغبَتِكَ الدّاخليّةِ العَمياءِ في إيجادِهِ، إسقاطًا لِقَلَقِكَ أنتَ على جِدارِ الوُجودِ الفارِغِ، لا دَليلًا قاطِعًا على وُجودِهِ المُستَقِلِّ خارِجَ أسوارِ وَعيِكَ المُتَألِّمِ. وهذا الفَراغُ الذي تُواجِهُهُ، ليسَ نَقصًا عارِضًا في الكَونِ يَجِبُ إصلاحُهُ، أوْ خَطأً فادِحًا في الخَلقِ يَستَدعي الشَّكوى والبُكاءَ، بَلْ هوَ حَقيقَتُهُ العارِيةُ، جَوهَرُهُ الصُّلبُ، الذي لا يَتَغيَّرُ ولا يَتَبَدَّلُ. وأنتَ، في مُواجَهَتِكَ المُستَمِرّةِ لَهُ، لستَ سِوى كائِنٍ هَشٍّ، ضَعيفٍ، يُصارِعُ صَمتَهُ الخاصَّ، يُحاوِلُ بِجُهدٍ يائِسٍ، بائِسٍ، أنْ يُنطِقَ ما لا يُمكِنُ نُطقُهُ، أنْ يُعطيَ اسمًا لِلّاشَيءِ المُطلَقِ. كَأنَّ سُؤالَكَ الوُجوديَّ ذاتَهُ، هذا السُّؤالَ الذي تَعتَقِدُ أنَّهُ يُقَرِّبُكَ منَ الجَوابِ، قَدْ تَحوَّلَ إلى مِرآةٍ لَعينةٍ لا تَعكِسُ إلا عَجزَكَ المُريعَ وضَآلَتَكَ المُحزِنةَ، لا إجاباتِ العالَمِ الغائِبةَ والمُستَحيلةَ.

وهكَذا، بَينما يُحاوِلُ العقلُ البَشريُّ، بِفِعلِ إرادةٍ يائِسةٍ تَرفُضُ الاستِسلامَ لِلعَدَمِ، أنْ يَبعَثَ شَيئًا منْ وهجِ الحَياةِ في جُثّةِ التِّكرارِ اليَوميِّ الهامِدةِ، وأنْ يَصنَعَ مَعنًى، أيَّ مَعنًى، مِنْ قُمامَةِ العَبَثِ المُتَراكِمةِ كَما رأينا، فإنّهُ، في هذا الفِعلِ البائِسِ ذاتِهِ، يَرتَدُّ بِنا، بِشَكلٍ لا مَفَرَّ مِنهُ ولا مَناصَ، إلى سُؤالٍ آخَرَ أشَدَّ عُمقًا وقَسوةً، سُؤالٍ يَغرِزُ أنيابَهُ الحادّةَ في جُذورِ "مَأزِقِ الإدراكِ" ذاتِهِ: ماذا لَوْ تَأمَّلْنا بِصِدقٍ، بِعَينٍ ناقِدةٍ لا تُجامِلُ، لا بِعَينِ مُؤمِنٍ مُخَدَّرٍ، في كُلِّ تِلكَ الصُّروحِ الشّاهِقةِ، المُتَصَدِّعةِ، لِلمُعتَقَداتِ الكُبرى التي طَبَعَتْ تاريخَنا؟ في كُلِّ تِلكَ الأنظمةِ الفِكريّةِ المُعَقَّدةِ، المُتَهافِتةِ، التي شَيَّدَها الإنسانُ بِجُهدٍ مُضنٍ وعَناءٍ شَديدٍ عَبرَ مَسيرَتِهِ الدّاميةِ في ظُلُماتِ التّاريخِ؟ سَنَجِدُ، إنْ مَلَكْنا شَجاعةَ النَّظَرِ بِلا أقنِعةٍ أوْ أوهامٍ، أنّها، في جَوهَرِها المُجَرَّدِ، المُقلِقِ، لَمْ تَكُنْ يَومًا سِوى أدواتٍ مَاهِرةٍ، حِيَلٍ مُتقَنةٍ، ألاعيبَ لُغويّةٍ بارِعةٍ،

لِترويضِ وَحشِ اللّامَعنى المُفترِسِ الذي يَسكُنُ في قَلبِ الوُجودِ، ولِتَخديرِ الإحساسِ المُؤلِمِ بِالفَراغِ الذي لا يُطاقُ. مُجرَّدَ جُدرانٍ وَهميّةٍ عاليةٍ، قِلاعٍ شامِخةٍ مِنْ رَملٍ، أُقيمَتْ بِعَجَلَةٍ، لا لِتَحمِيَ الحَقيقةَ النّادِرةَ، بلْ لِتُسَكِّنَ ذلكَ الرُّعبَ الوُجوديَّ الخانِقَ، ذاكَ القَلَقَ الأزَليَّ المُميتَ، الذي يُوَلِّدُهُ صَمتُ الكَونِ المُطْبِقُ في أغوارِ الوَعي البَشريِّ المُعذَّبِ. فالإنسانُ، بِطَبيعَتِهِ المَلعونَةِ كَكائِنٍ واعٍ لا يَستطيعُ إطفاءَ نورِ وَعيِهِ أوْ تَجاهُلَهُ، لمْ يَستَطِعْ أبَدًا، في أيِّ عَصرٍ، أنْ يَتَقبَّلَ بِهُدوءٍ، أنْ يَهضِمَ بِسَلامٍ، حَقيقَةَ أنّهُ أُلقيَ بِلا إرادَةٍ مِنهُ، كَنَفايةٍ، في عالَمٍ عَبثِيٍّ، بارِدٍ، لا اتِّجاهَ مُسبَقًا فيهِ يَهديهِ أوْ يُرشِدُهُ. عالَمٍ لا يَحمِلُ بينَ طَيّاتِهِ الغامِضةِ أيَّ خَريطةٍ سِرّيّةٍ لِلكَنزِ المَفقودِ، ولا أيَّ غايةٍ عُليا سامِيةٍ تُبَرِّرُ وُجودَهُ الهَشَّ أوْ تُعطي لِشقائِهِ الأبديِّ أيَّ قِيمةٍ أوْ مَعنًى. ولِأنّهُ لمْ يَستَطِعْ تَحَمُّلَ هذا العُري الوُجوديِّ المُخيفِ، فَقَدْ صَنَعَ بِيَديهِ المُرتَعِشَتَيْنِ أنساقًا مُغلَقةً، حِكاياتٍ كُبرى مُحكَمَةَ النَّسجِ، تَمنَحُهُ وَهْمَ التَّماسُكِ والنِّظامِ والمَعنى، كَأنَّ العقلَ اليائِسَ يُحاوِلُ أنْ يُغَطِّيَ فَراغَهُ المُتَّسِعَ بِأقمِشةٍ مُزَخرَفةٍ بَرّاقَةٍ، بِأغطيةٍ مُلَفَّقةٍ منَ المَعاني والأهدافِ والقِيَمِ المُصطَنَعةِ التي تُريحُهُ لِحينٍ. لكِنْ، ماذا لوْ قَلَبْنا الطّاوِلةَ على رؤوسِ أصحابِها؟ ماذا لوْ كانَ هذا الفَراغُ ذاتُهُ الذي نَهرُبُ مِنهُ بِهَلَعٍ، ليسَ شَيئًا سَلبيًّا، ليسَ نَقصًا أوْ غِيابًا لِلمَعنى، بلْ هوَ نَفسُهُ البُنيةُ الأصليّةُ، الجَوهَرُ الأوَّليُّ، لِكُلِّ شَيءٍ، الواقِعُ الأخيرُ؟ ماذا لوْ لمْ يَكُنْ هُناكَ أيُّ "ما وَراءَ" غامِضٍ، أيُّ سِرٍّ دَفينٍ، يُخفي الحَقيقةَ ويَنتَظِرُ الكَشفَ، بلْ مُجرَّدَ امتدادٍ أبديٍّ، بارِدٍ، صامِتٍ، لِلعَدَمِ المُطْلَقِ، يُحيطُ بِكُلِّ شَيءٍ، يَتَخَلَّلُ كُلَّ شَيءٍ، ويَبتَلِعُ في النِّهايةِ كُلَّ شَيءٍ بِلا استِثناءٍ؟ إنَّ الميتافيزيقا بِأكمِلِها، بِكُلِّ تَشَعُّباتِها وتَعقيداتِها، مُنذُ أنْ رَسَمَ الإنسانُ الأوَّلُ ظِلالَهُ المُرتَعِشةَ على جُدرانِ الكُهوفِ المُظلِمةِ، لمْ تَكُنْ سِوى مُحاوَلةٍ يائِسةٍ أبَديّةٍ، بَطوليّةً في عَبَثِها ويأسِها، لِرَسمِ حُدودٍ واهِيةٍ، خُطوطٍ مُتَخَيَّلَةٍ، على عالَمٍ فَوضويٍّ عارٍ بِلا شَكلٍ مُحَدَّدٍ أوْ مَلامِحَ واضِحةٍ. شَبَكةٍ لُغويّةٍ ومَفاهيميّةٍ مُعقَّدةٍ، نَسَجَها العقلُ الخائِفُ، تُحاوِلُ بِجُهدٍ خارِقٍ أنْ تُرَتِّبَ الفَوضى الكَونيّةَ، أنْ تَجِدَ صِلاتٍ خَفيّةً ومَعانيَ مُستَتِرةً في واقِعٍ عَنيدٍ، أصَمَّ، لا يَتَبَعُ قَوانينَ العقلِ البَشريِّ المَحدودِ، ولا يَنصاعُ لِمَنطِقِ المَبدأِ الأوَّلِ أوِ الغايةِ النِّهائيّةِ التي اختَرَعَها الإنسانُ لِيُريحَ نَفسَهُ مِنْ عَناءِ التَّفكيرِ في اللّامَعنى. لكِنَّ هذهِ الميتافيزيقا، في جَوهَرِها العَميقِ، ليستْ بَحثًا نَزيهًا عنِ الحَقيقةِ كَما تَزعُمُ بِغُرورٍ، بلْ هيَ في الغالِبِ الأعَمِّ مُجرَّدُ لُعبةٍ لُغويّةٍ مُغلَقةٍ على ذاتِها، تُصارِعُ أشباحَ أسئلةٍ لا وُجودَ لَها خارِجَ أروِقَتِها المُظلِمةِ والمُتَربةِ، مُحاوَلةٌ فاشِلةٌ أبَديًّا لِتَهدئةِ صَرَخاتِ العقلِ المَذعورِ الذي يَرفُضُ بِعِنادٍ أنْ يُسَلِّمَ بِفَراغِ الكَونِ وصَمتِهِ المُطْبِقِ، كَأنّها

تُحاوِلُ بِبَلاهةٍ طُفوليّةٍ أنْ تُغَنّيَ أُنشودةً عَذبَةً عَنِ النُّورِ والأمَلِ في قَلبِ وادٍ سَحيقٍ، أسوَدَ، لا يَرُدُّ الصَّدى ولا يَسمَعُ الغِناءَ ولا يُبالي.

ولكِنْ، إذا كانتِ الحَقيقةُ المُطلَقةُ التي طارَدْناها كَالمَجانينِ عَبرَ دُروبِ الفِكرِ المُوحِشةِ، تَكمُنُ في صَميمِ هذا الفَراغِ المُحيطِ بِنا، لا في "ما وَراءٍ" مَزعومٍ نَتَوَهَّمُهُ أوْ سِرٍّ دَفينٍ مَكتومٍ نَحلُمُ بِهِ، فَماذا يَعني هذا الانكِشافُ المُزلزِلُ، المُدَمِّرُ لِليَقينِ، لَنا نَحنُ الكائِناتِ القَلِقةَ، الضَّعيفةَ، التي لا تَستطيعُ تَحَمُّلَ الحَقيقةِ؟ وما هوَ مَغزى هذا التَّجَلّي العَصِيِّ على الفَهمِ، المُحطِّمِ لِكُلِّ بناءٍ؟ وإذا كانَ هذا الفَراغُ الأزَليُّ الذي نَهرُبُ مِنهُ، هذا الصَّمتُ الأبَكَمُ الذي يُرعِبُنا، هوَ العُنصُرُ الوَحيدُ الثّابِتُ في هذا الوُجودِ المُتَغَيِّرِ، الذي لا يُمكِنُ اختزالُهُ بِكَلِمةٍ أوْ تَشبيهٍ، ولا تَحليلُهُ بِمَنطِقٍ أوْ قِياسٍ، ولا تَجاوُزُهُ بِصَلاةٍ أوْ دُعاءٍ، ولا تَزييفُهُ بِوَهمٍ أوْ رِياءٍ، فَماذا تَبَقّى، يا تُرى، لِهذا الإنسانِ الضَّئيلِ، التّافِهِ، في مُلكِ هذا الكَونِ الشّاسِعِ الذي لا يُلقي لهُ بالًا، ولا يُعيرُهُ أدنى اهتمامٍ أوْ ظِلاًّ؟ كَيفَ يُمكِنُ لِكائِنٍ أُعْطِيَ نِعمةَ الوَعي المُميتةَ ولَعنَتَها المُستَديمةَ في آنٍ، أنْ يُواجِهَ هذا العَدَمَ المُطلَقَ، هذا الفَناءَ الكامِلَ، في كُلِّ نَبْضةٍ مِنْ نَبَضاتِ قَلبِهِ الخافِقِ بِالرُّعبِ، وفي كُلِّ لَحْظَةٍ مِنْ لَحَظاتِ وَعيِهِ المُستَعِرِ؟ أنْ يَحيا وَسطَ واقِعٍ أصَمَّ، بارِدٍ، غَيرِ مُكترِثٍ بِهِ أوْ بِصُراخِهِ الذي لا يَصِلُ، واقِعٍ لا يُقَدِّمُ لهُ غايةً واحِدةً تُحَرِّكُ خُطُواتِهِ التّائِهةَ في الصَّحراءِ، ولا يُظهِرُ أيَّ إشارةٍ، وَلَوْ خاطِفةً كَالبَرقِ، على أنَّ لِوُجودِهِ الهَشِّ، العابِرِ، أيَّ مَعنًى حَقيقيٍّ أوْ قِيمةٍ باقِيةٍ أوْ أثَرٍ يُذكَرُ؟ هُنا، في عُمْقِ هذهِ الحَيرةِ القاتِلةِ، في قَلبِ هذا المَأزِقِ الوُجوديِّ الذي لا قَرارَ لهُ ولا شاطِئَ، تَتَجَلّى بِأقسى صُوَرِها، بِأفظَعِ مَلامِحِها، تِلكَ المُفارَقةُ الكُبرى، مُفارَقةُ "مَأزِقِ الإدراكِ" التي تُلازِمُنا كَقَدَرٍ مَحتومٍ لا مَهْرَبَ مِنهُ: فَالتَّمَرُّدُ الحَقيقيُّ، الشَّجاعَةُ القُصوى، النُّبلُ الأخيرُ لِلوَعي الحُرِّ المُتَوَهِّجِ، لا يَكمُنُ في مُقاوَمةِ الفَراغِ بِأسلِحةِ الوَهْمِ البالِيةِ، كَما فَعَلَتْ بِجُبنٍ وخِداعٍ تِلكَ الأنظمةُ الفِكريّةُ المُتَهاويةُ عَبرَ العُصورِ، في مُحاوَلةٍ بائِسةٍ لِإنكارِهِ بِسَفْسَطةٍ جَدَليّةٍ فارِغةٍ، أوْ لِمَلئِهِ بِأوهامٍ مُطَمْئِنةٍ مُخَدِّرةٍ تَحْجُبُ وَجهَهُ القاسِيَ المُخيفَ. لا، وأَلفُ لا! بلْ إنَّ التَّمَرُّدَ الأسمى، النُّبلَ الأرفَعَ، يَكمُنُ في "احتِضانِهِ" بِقُوّةٍ، في مُعانَقَتِهِ بِصِدقٍ كَحَقيقةٍ صُلبةٍ لا تَذوبُ، لا مَفَرَّ مِنْها ولا مَحيصَ عَنْها، كَجُزءٍ أصيلٍ مِنْ صَميمِ كَينونَتِنا التي لا نَختارُها. كَأنَّ العقلَ، في لَحْظَةِ شَجاعةٍ نادِرةٍ تُشبِهُ المُعجِزَةَ، يُعلِنُ لِلفَراغِ المُطْبِقِ بِصَوتٍ لا يَرتَعِشُ: "لَنْ أهرُبَ مِنْكَ بَعدَ اليَومِ، لَنْ أُحارِبَكَ بِأوهامي البالِيةِ، بَلْ سَأعيشُكَ بِكُلِّ ما فيكَ مِنْ صَمتٍ وعَدَمٍ وفَناءٍ، سَأجعَلُكَ مَوطِني الأخيرَ، سَأبني قَصري فَوقَ رُكامِكَ!". وهذا الاحتضانُ الجَريءُ،

هذهِ المُعانَقةُ الوُجوديّةُ الشُّجاعَةُ، ليستْ استِسلامًا سَلبيًّا لِليأسِ أوِ العَدَميّةِ كَما قَدْ يَبدو لِأعيُنِ الخائِفينَ الجُبَناءِ، ولا انهِزامًا أمامَ العَبَثِ المُستَحكِمِ، بلْ هيَ فَعلٌ جَذريٌّ، فِعلٌ ثَوريٌّ، قَفزةٌ في الظَّلامِ، تُعيدُ تَعريفَ الوُجودِ وتُحَرِّرُ مَعناهُ منْ قُيودِ البَحثِ الخارِجيِّ العَقيمِ. لِماذا؟ لأنّها تُحَرِّرُ الإنسانَ منْ تِلكَ العُبوديّةِ المُذِلّةِ، عُبوديّةِ البَحثِ المُستمِرِّ، المَرَضيِّ، عنْ غايةٍ خارِجيّةٍ تَأتيهِ مِنْ عَلٍ لِتُبَرِّرَ لَهُ حَياتَهُ وتُعْفيهِ مِنْ مَسؤوليّةِ خَلقِها. وتُلقي بهِ، عارِيًا ولكِنْ حُرًّا، في مُواجَهةٍ مُباشِرةٍ، صادِقةٍ، مَعَ الوُجودِ المَحْضِ، مَعَ الواقِعِ كَما هوَ، بِلا أقنِعةٍ مُزَيَّفةٍ أوْ أوهامٍ مُخَدِّرةٍ. كَأنَّ الفَراغَ نَفسَهُ، بِفعلِ هذا الاحتِضانِ الخلّاقِ، يَتَحَوَّلُ بِأعجوبةٍ سِحريّةٍ منْ عَدُوٍّ مُرعِبٍ يُهدِّدُ الوَعيَ ويُحاصِرُهُ، إلى فَضاءٍ شاسِعٍ، إلى سَماءٍ رَحبةٍ بِلا حُدودٍ، يُمارِسُ فيها الوَعيُ الحُرُّ حَقيقَتَهُ، ويَخلُقُ مَعناهُ الخاصَّ، ويُحَلِّقُ بِأجنِحَةِ الإرادَةِ بِلا قُيودٍ أوْ أغلالٍ.

فَإذا كانَ هذا الكَونُ العَظيمُ، كَما رأيناهُ وتَحَسَّسْنا بُرودَتَهُ، أصَمَّ أبكَمَ، مُنْغَمِسًا حتّى النُّخاعِ في صَمتِهِ الجَليديِّ الأزَليِّ، فَإنَّ الإنسانَ، هذا الكائِنَ الضَّئيلَ القَلِقَ المُتَوَتِّرَ، هوَ وَحدَهُ مَنْ يَملِكُ نِعمةَ اللُّغةِ الثَّمينةَ ولَعنَتَها المُستَديمةَ، هوَ مَنْ أُعطِيَ، في لُغزٍ لا يُحَلُّ، القُدرةَ المُعجِزةَ والمُهلِكةَ على الكَلامِ والنُّطقِ والصُّراخِ والعَويلِ في وَجهِ هذا الصَّمتِ المُطْبِقِ الذي لا يُجيبُ. وإذا كانَ الفَراغُ المُطلَقُ، العَدَمُ البارِدُ الذي لا شَكلَ لهُ، هوَ البُنيةَ الأصليّةَ الحَقيقيّةَ لِلوُجودِ، نَسيجَهُ الأوَّلَ الذي لا نَسيجَ سِواهُ، فَإنَّ الإنسانَ، بِفعلِ وَعيِهِ المُتمرِّدِ، المُتَألِّمِ، هوَ الكائِنُ الوَحيدُ في هذا الكَونِ الشّاسِعِ الذي يَستطيعُ، بِجُهدٍ وإرادَةٍ، أنْ "يُشَكِّلَ" مَعانيهِ الخاصّةَ، أنْ يَخلُقَ قِيَمَهُ الذّاتيّةَ، في قَلبِ هذا الفَراغِ المُوحِشِ، أنْ "يَنحِتَ" قِصَّتَهُ الفَريدةَ، المُمَيَّزةَ، على جِدارِ اللّاشَيءِ الأملَسِ. فَلَيسَ المَطلوبُ مِنّا، أيُّها الأسرى في قَيدِ الوَعيِ، كَما تَوَهَّمَ الباحِثونَ المُتعَبونَ عنِ الخَلاصِ الأبديِّ، أنْ نَجِدَ مَعنًى خارِجيًّا، مُسبَقَ الصُّنعِ، مَدفونًا في أغوارِ الكَونِ كَجَوهَرةٍ ضائِعةٍ نَبحثُ عَنْها، مَعنًى يَأتي مِنْ عَلٍ لِيُبَرِّرَ لَنا وُجودَنا الهَشَّ ويُعطيَ لِألَمِنا المُزمِنِ قِيمةً أوْ جَزاءً. لا، بَلِ المَطلوبُ، وهوَ الأصعَبُ والأسمى والأكثَرُ تَحدّيًا لِكِبريائِنا، هوَ أنْ نُدرِكَ بِعُمْقٍ قاسٍ، بِوُضوحٍ لا لَبْسَ فيهِ، أنَّ غِيابَ هذا المَعنى المُطلَقِ المُريحِ، أنَّ هذا الفَراغَ الوُجوديَّ ذاتَهُ الذي نَخشاهُ، هوَ بِعَينِهِ ما يَمنَحُنا، بِشَكلٍ مُفارِقٍ ومُحيِّرٍ، "الحُرّيّةَ" الكامِلةَ، والمَسؤوليّةَ المُطلَقةَ الثَّقيلةَ، لِأنْ نَخلُقَهُ نَحنُ بِأيدينا، بِإرادَتِنا الحُرّةِ، بِشَجاعَتِنا المُتَوَهِّجَةِ. كَأنَّ العَقلَ البَشريَّ، في أوجِ نُضجِهِ وتَمَرُّدِهِ، يَتَحَوَّلُ منْ مُجرَّدِ باحِثٍ خائِفٍ، ذَليلٍ، عنْ "حَقيقةٍ" خارِجيّةٍ قَدْ لا تَكونُ مَوجودةً إلا في خَيالِهِ، إلى

"صانِعٍ" جَريءٍ، مُبدِعٍ، لَها، إلى خالِقٍ لِقِيَمِهِ الخاصّةِ التي تُناسِبُهُ، لا لِأنّها مَنقوشةٌ في ألواحٍ سَماويّةٍ أوْ في صَميمِ الطَّبيعَةِ، بلْ لِأنّها تُولَدُ وتَتَشَكَّلُ منْ صَميمِ إرادَتِهِ الحُرّةِ التي تَرفُضُ الاستِسلامَ الذَّليلَ لِلعَدَمِ أوِ الخُضوعَ لِلصَّمتِ. وهذا "الاحتِضانُ" الشُّجاعُ لِلفَراغِ، هذهِ "المُعانَقَةُ" الوُجوديّةُ لِلعَدَمِ التي تَكَلَّمْنا عَنْها كَثورةٍ، لا تُنهي بِالسِّحرِ الأسودِ ذلكَ التِّكرارَ اليَوميَّ الكابوسيَّ الذي واجَهْناهُ في رَتابَةِ الحَياةِ، ولا تُبَدِّدُ بِمُعجِزةٍ خارِقةٍ ذلكَ الصَّمتَ الكَونيَّ الأزَليَّ الذي يُحيطُ بِنا ويُذَكِّرُنا بِضآلَتِنا وَفَنائِنا. لا، لكِنّها تُعيدُ صِياغَتَهُما، تُحَوِّلُهُما مِنْ سِجنَيْنِ خانِقَيْنِ، قاتِلَيْنِ لِلرُّوحِ، إلى فَضاءَيْنِ رَحْبَيْنِ لِلخَلقِ والمُقاوَمةِ: فالتِّكرارُ الرَّتيبُ المُمِلُّ يُصبِحُ إيقاعًا خامًا يُمكِنُ لِلوَعي الحُرِّ المُبدِعِ أنْ يَرقُصَ عليهِ بِخِفّةٍ وابتِكارٍ، والصَّمتُ المُطْبِقُ المُخيفُ يَتحوَّلُ إلى صَفحةٍ بَيضاءَ شاسِعةٍ، كَلوحةِ رَسّامٍ، نَكتُبُ عليها قَصيدَتَنا الخاصّةَ بِأحرُفٍ منْ نارِ الإرادَةِ وحِبْرِ الدَّمِ. كَأنَّ الإنسانَ، بِفعلِ هذا التَّحَوُّلِ الدّاخليِّ العَميقِ، يُصبِحُ شاعِرًا وُجوديًّا يُغَنّي بِصَوتٍ عالٍ في عالَمٍ لا يَعرِفُ الشِّعرَ، في كَونٍ لا يَسمَعُ الألحانَ ولا يَفهَمُ المَعانيَ. لا لِأنّهُ يَطْمَحُ بِغُرورٍ في تَغييرِ الكَونِ الأصَمِّ أوْ إجبارِهِ على الإنصاتِ لِأنينِهِ، بلْ فَقَطْ لِيُثبِتَ لِنَفسِهِ أوَّلاً، ولِلعَدَمِ ثانيًا، أنَّ وُجودَهُ، على الرَّغمِ منْ عَبَثيَّتِهِ الظّاهِرةِ وقِصَرِهِ الحَتميِّ، هوَ في جَوهَرِهِ فَعلٌ خَلّاقٌ جَريءٌ، قَفزةٌ في الظَّلامِ، يَتَحَدّى العَدَمَ ويُعانِدُ الفَناءَ بِإصرارٍ. وهُنا، في هذهِ النُّقطةِ منَ الاحتِضانِ الخلّاقِ لِلعَبَثِ والمُعانَقَةِ الشُّجاعَةِ لِلفَراغِ، يَتَجاوَزُ المَأزِقُ نَفسَهُ، تَتَحَطَّمُ الدّائِرَةُ المُغلَقَةُ التي كُنّا فيها أسرى: فَالخَلاصُ الحَقيقيُّ ليسَ في إيجادِ إجابةٍ مُريحَةٍ، سَطحيّةٍ، لِذلكَ السُّؤالِ الطُّفوليِّ المُتَكَرِّرِ "لِماذا؟"، بلْ في التَّوَقُّفِ التّامِّ عنِ انتِظارِ هذهِ الإجابةِ التي لنْ تَأتيَ أبَدًا منَ الخارِجِ، وفي الشَّجاعةِ الأكبَرِ على العَيشِ مَعَ الفَراغِ لا كَعَدُوٍّ مُتَرَبِّصٍ، بلْ كَرَفيقٍ مُلازِمٍ، كَظِلٍّ لا يُفارِقُ ولكِنْ لا يُخيفُ. مُعلِنًا بِذلكَ أنَّ الحُرّيّةَ الحَقيقيّةَ ليستْ في الهُروبِ الجَبانِ منَ العَبَثِ أوْ إنكارِهِ بِأوهامٍ، بلْ في القُدرةِ الفائِقةِ، النّيتشَويّةِ، على "الرَّقصِ مَعَهُ"، في الشَّجاعةِ على احتِضانِ ما لا يُمكِنُ تَرويضُهُ أوْ تَفسيرُهُ أوْ تَجاوُزُهُ. كَأنَّ الوُجودَ الإنسانيَّ الحُرَّ يَتَحَوَّلُ إلى لَحنٍ مُتَفَرِّدٍ، سِيمفونيّةٍ خاصّةٍ، يُعزِفُها الإنسانُ بِأصابِعِ إرادَتِهِ المُرتَعِشةِ على أوتارٍ هَشّةٍ لا يَملِكُها الكَونُ ولا يَسمَعُها العَدَمُ. لَحنٌ لا يَنتَظِرُ تَصفيقًا مِنْ جُمهورٍ غائِبٍ أوْ مُتَخَيَّلٍ، ولا يَسعى لِخُلودٍ زائِفٍ في ذاكِرةِ الزَّمَنِ، بلْ يَكتَفي بِأنْ يُحيِيَ اللّحظةَ الحاضِرةَ التي يُولَدُ فيها، وأنْ يُضيءَ بِشُعلَتِهِ الخاصّةِ، ولَوْ كانَتْ ضَعيفةً، ظَلامَ العَدَمِ المُحيطِ بِهِ منْ كُلِّ جانِبٍ.

وهكذا، بَعدَ هذا الاحتضانِ الجَريءِ لِلفَراغِ المُحيطِ، كَحَقيقةٍ وُجوديّةٍ أصليّةٍ لا كَسَرابٍ أو شَطَطٍ، وبَعدَ هذا التَّحَوُّلِ الجَذريِّ منْ مُطارَدةِ المَعنى الخارجيِّ المُتَمَنّـِعِ إلى شَجاعةِ خَلقِهِ الدِ أكبَرَ، كَالشَّمسِ بَعدَ انقِشاعِ الغَمامِ، ذلكَ الفَرقُ الجَوهَريُّ، الشّاسِعُ كَالمُحيطِ، بينَ كِيانَيْنِ، بينَ مَصيرَيْنِ، بينَ عالَمَيْنِ: مَصيرُ الإنسانِ المَأسورِ في قَفَصِ الوَهْمِ والخَوفِ والطّاعَةِ، ومَصيرُ الإنسانِ الواعي الذي تَجَرَّأَ على مُعانَقَةِ العَدَمِ بِصَدرٍ عارٍ. هذا الفَرقُ ليسَ مُجرَّدَ تَأخليّ المُتَقَنَّعِ، يَبرُزُ بِجَلاءٍ أكبَرَ، كَالصُّبحِ إذا أَسْفَرَ، ذلكَ الفَرقُ الجَوهَريُّ، الشّاسِعُ كَالبَحرِ، بينَ كِيانَيْنِ يَسكُنانِ الأرضَ، بينَ قَدَرَيْنِ يَصنَعُهُما الفِكرُ: قَدَرُ الإنسانِ المأسورِ، الغارِقِ، في قَفَصِ الوَهْمِ والخِداعِ الذي لا يُكسَرُ، وقَدَرُ الإنسانِ الواعي، الثّائِرِ، الذي تَمايُزٍ في الدَّرَجاتِ أوِ المَراتِبِ، بلْ هوَ تَجَلٍّ عَميقٌ، فاضِحٌ، لِـ"مَأزِقِ الإدراكِ" ذاتِهِ في أقصى حِدَّتِهِ، يَرفَعُنا مِنْ مُستنقَعِ المَعرِفةِ السَّطحيّةِ المُتواطِئةِ مَعَ الوَهْمِ، لِيَجعَلَنا نُعانِقُ، بِرُعبٍ وبَهاءٍ في آنٍ واحِدٍ، قُوى الوَعيِ المُتمرِّدِ وشَجاعةَ الفَهمِ الذي يَجرُؤُ على النَّظَرِ في وَجهِ الصَّمتِ الكَونيِّ المُطْبِقِ دونَ أنْ يَرتَعِشَ جَفنُهُ أوْ يَرتَدَّ فُؤادُهُ. فالجَوهَرُ الحَقيقيُّ لِلإنسانِ، ما يُمَيِّزُهُ حَجَراً على مُعانَقَةِ العَدَمِ بِلا خَوفٍ أوْ ضَجَرٍ. هذا الفَرقُ الشّاسِعُ ليسَ مُجرَّدَ تَمايُزٍ سَطحيٍّ في الدَّرَجاتِ أوِ الألوانِ، بلْ هوَ تَجَلٍّ عَميقٌ، صارِخٌ، لِـ "مَأزِقِ الإدراكِ" ذاتِهِ، الذي يَرْفَعُنا منْ مُستنقَعِ المَعرِفةِ السَّطحيّةِ المُتواطِئةِ مَعَ الوَهْمِ، لِيَجعَلَنا نُعانِقُ، بِرُعبٍ وبَهاءٍ في آنٍ واحِدٍ لا يُنكَرُ، قُوى الوَعيِ المُتمرِّدِ الشّامِخِ، وشَجاعَةَ الفَهمِ الذي يَجرُؤُ على النَّظَرِ في وَجهِ الصَّمتِ الكَونيِّ المُطْبِقِ دونَ أنْ يَرتَعِشَ أوْ يَتَأَثَّرَ. فالجَوهَرُ الحَقيقيُّ لِلإنسانِ، ما يُمَيِّزُهُ في هذا الوُجودِ ويَرفَعُهُ فَوقَ الطَّقَّا ويَرفَعُهُ فَوقَ طينِ الغَريزةِ أوْ يَخفِضُهُ إلى دَرَكِ البَهيمةِ، ليسَ كامِناً في كَمِّ المَعلوماتِ الهائِلِ الذي يَحشُرُهُ في رأسِهِ الفارِغِ، أوْ في عَدَدِ الكُتُبِ التي يَلتَهِمُها بِلا هَضمٍ كَما قَدْ توحي بِسذاجةِ أنظمةُ التّعليمِ التّقليديّةِ المَيتةِ والعَقيمةِ، بلْ في "كَيفيّةِ" توظيفِهِ لِهذهِ المَعرِفةِ، قَليلةً كانتْ أمْ كَثيرةً، في قُدرَتِهِ على استِخدامِها إمّا كَسلاحٍ حادٍّ لِلتَّحرُّرِ والخَلقِ، أوْ كَدِرعٍ صَدِئٍ لِلتَّخَنُّقِ والتَّقَوْقُعِ، لِيُواجِهَ بِها تِلكَ التَّحدّياتِ الوُجوديّةَ القاسيةَ، الأزَليّةَ، التي تُحيطُ بِهِ منْ كُلِّ جانِبٍ وتُهَدِّدُ كِيانَهُ - تَحَدّي العَبَثِ الصّارِخِ، والفَناءِ الحَتْميِّ، والفَراغِ المُطْبِقِ، واللّامَعنى المُستَحكِمِ. كَأَنَّ العَقلَ، حينَ يَبلُغُ نَيْنٍ أوْ يَخفِضُهُ إلى الحَضيضِ، ليسَ كامِناً في كَمِّ المَعلوماتِ الهائِلِ الذي يَحشُرُهُ في رأسِهِ الفارِغِ، أوْ في عَدَدِ الكُتُبِ التي يَلتَهِمُها بِنَهَمٍ كَما قَدْ توحي بِسذاجةٍ أنظمةُ التّعليمِ التّقليديّةِ المَيْتةِ التي تُكاثِرُ الجَهلَ. بلْ يَكمُنُ في "كَيفيّةِ" توظيفِهِ لِهذهِ المَعرِفةِ القَليلةِ أوِ الكَثيرةِ، في قُدرَتِهِ النّادِرةِ على استِخدامِها إمّا كَسلاحٍ حادٍّ

لِلتَّحريرِ والنَّحتِ والخلَقِ، أوْ كَدِرعٍ واهٍ لِلدِّفاعِ عنِ السِّجنِ والوَهمِ والقَلَقِ، لِيُواجهَ بِها تِلكَ التَّحدّياتِ الوُجوديّةَ القاسيةَ التي تُحيطُ بهِ منْ كُلِّ جانبٍ وتُذكِّرُهُ بِالنِّهايةِ – تَحدّيَ العَبَثِ المُستحكِمِ، والفَناءِ الحَتْميِّ، والفَراغِ المُطْبِقِ، واللّامَعنى الذي لا يُبْقِي ولا يَذَرُ. كَأنَّ العقلَ البَشريَّ، حينَ يَبلُغُ نُضجَهُ الحَقيقيَّ، لا يَعودُ مُجرَّدَ مَخزَنٍ مُتْرَبٍ، خانِقٍ، لِتَكديسِ "الحَقائِقِ" المُعلَّبةِ والأفكارِ المُستوَرَدةِ البالِيةِ، بلْ يَنبَغي أنْ يكونَ أداةً حُضجَهُ الحَقيقيَّ (إنْ بَلَغَهُ)، يَنبَغي أنْ يكونَ أداةً حادّةً، مَصقولةً، لِلتَّحرُّرِ والنَّحتِ والخلَقِ، لا مُجرَّدَ مَخزَنٍ مُتْرَبٍ، مُهْمَلٍ، لِتَكديسِ "الحَقائِقِ" المُعلَّبةِ البالِيةِ والأفكارِ المُستوَرَدةِ الرَّخيصةِ.

فَالإنسانُ المأسورُ، كَما نَراهُ الآنَ بِوُضوحٍ أكثَرَ، في هذا السِّياقِ المُظْلِمِ مِنْ مُواجَهةِ الفَراغِ الأكبَرِ، هوَ ذلكَ الكائِنُ البائِسُ، المِسكينُ، الذي يَظَلُّ، بِرَغبَتِهِ أوْ رُغمًا عنْ أنفِهِ، أسيرًا يَائِسًا، ذَليلاً، في تِلكَ الدَّوامةِ اللّانهائيّةِ التي رأيناها تَبتَلِعُهُ وتَطْحَنُهُ، دَوامةِ البَحثِ المُضني، العَقيمِ، عنْ مَعانٍ خارجيّةٍ مُسبَقةٍ تَأتيهِ منَ السَّماءِ، عنْ قِصصٍ مُريحَةٍ تُخَدِّرُ قَلَقَهُ، عنْ تَبريراتٍ مُلفَّقةٍ، واهِيةٍ، تَأتيهِ مِنْ عَالِمِ الغَيبِ أوْ مِنْ كُتُبِ التّاريخِ المُزَوَّرَةِ، لِتُبَرِّرَ وُجودَهُ الهَشَّ، العارِضَ، في عالَمٍ أصَمَّ يَرفُضُ بِاستمرارٍ، وبِقَسوَةٍ، أنْ يُقَدِّمَ لهُ أيَّ مَعنًى حَقيقيٍّ أوْ أيَّ عَزاءٍ باقٍ. تَراهُ يُفَتِّشُ بِهَوَسٍ مَرَضيٍّ، كَمَنْ يَبحَثُ عنْ إبرةٍ في كَومَةِ قَشٍّ، في زَوايا الكَونِ المُظلِمةِ عَنْ خُيوطٍ واهِيةٍ لِقِصّةٍ كُبرى مَزعومةٍ تَربِطُ الأحداثَ المُشَتَّتَةَ، عَنْ آثارٍ باهِتةٍ لِنَسَقٍ شامِلٍ خَفيٍّ يُعطي لِوُجودِهِ المُتَشظّي شَيئًا منَ التَّماسُكِ الوَهميِّ الذي يَخدَعُ. كَأنَّهُ يُحاوِلُ، بِجُهدٍ مُستميتٍ، بائِسٍ، أنْ يُطابِقَ الواقِعَ العَشوائيَّ الفَوضويَّ الذي لا يَفهَمُهُ، مَعَ سَرديّةٍ مُنَظَّمةٍ، مُريحَةٍ، مُتَناسِقةطي لِوُجودِهِ المُشتَّتِ، المُتَناثِرِ، شَيئًا منَ التَّماسُكِ الوَهميِّ والنِّظامِ المُتَخيَّلِ. كَأنَّهُ يُحاوِلُ، بِجُهدٍ مُستميتٍ ويَائِسٍ، أنْ يُطابِقَ الواقِعَ العَشوائيَّ الفَوضويَّ الذي يَعيشُهُ، مَعَ سَرديّةٍ خَياليّةٍ مُنَظَّمةٍ، مُريحَةٍ، تُسكِتُ قَلَقَهُ المُتأجِّجَ وتُهَدِّئُ رَوعَهُ مِنْ خَوفِ العَدَمِ. مُتَجاهِلاً في غَفلَتِهِ المُطْبِقةِ، أوْ رُبّما مُتَناسيًا بِعَمدٍ لِيَهرُبَ منَ الألَمِ، أنَّ ذلكَ الفَراغَ الكامِنَ، المُتَرَبِّصَ خَلفَ كُلِّ شَيءٍ، لا يُمكِنُ إخفاؤُهُ أوْ تَغطيتُهُ بِأيِّ حِكايةٍ، مَهما بَدَتْ مُحكَمَةَ النَّسجِ أوْ بَليغةَ اللِّسانِ أوْ مُقَدَّسةَ المَصدَرِ. هذا الإنسانُ المَخدوعُ بِأوهامِهِ، يَرزَحُ، طَوالَ حَياتِهِ القَصيرةِ، تَحتَ ثِقَلِ العِبءِ الميتافيزيقيِّ الخانِقِ، ذاكَ الهاجِسُ المَرَضيُّ بِالمُطلَقِ وبِـ "ما وَراءَ" الحَياةِ، الهاجِسُ الذي يَدفَعُهُ لِلُّجوءِ المُستمِرِّ إلى مَلاذاتٍ فِكريّةٍ مُخَدِّرةٍ، إلى أحضانٍ دافِئةٍ تُخَدِّرُ شُعورَهُ الحادَّ، المُؤلِمَ، بِالعَبَثِ وبِفَراغِ الوُجودِ، سَواءٌ اتَّخَذَتْ هذهِ

المَلاذاتُ شَكلَ إيمانٍ دينيّ ساذَجٍ يُعَلّقُ آمالَهُ الهَشّةَ على وُعودِ السَّماءِ الغائبةِ، أوْ تَأمُّلٍ فَلسفيّ مُجرَّدٍ يَجِدُ العَزاءَ في بُرودةِ التَّجريدِ والمَفاهيمِ، أوْ انتماءٍ اجتماعيّ خانِقٍ يُذيبُ قَلَقَهُ الفَرديَّ في حَرارةِ القَطيعِ الوَهميّةِ. كَأنّهُ بِكُلِّ هذهِ الحِيَلِ النَّفسيّةِ يُحاوِلُ أنْ يُغَطّيَ فُوَّهةَ الهاويةِ السّحيقةِ التي تَفتَحُ فاهَا المُخيفَ تَحتَ قَدَميهِ، بِطَبَقاتٍ رَقيقةٍ، مُتَهافِتَةٍ، منَ الأوهامِ المُزَخرَفةِ والأكاذيبِ الجَميلةِ. رُغمَ أنّهُ يَعلَمُ، أوْ يَنبغي لَهُ أنْ يَعلَمَ في لَحَظاتِ صِدقِهِ النّادِرةِ، أنَّ هذهِ القِصَصَ الكُبرى، هذهِ السَّرْديّاتِ المُطَمْئِنَةَ، ليستْ في النّهايةِ سِوى سَتائِرَ رَقيقةٍ بالِيةٍ، حُجُبٍ شَفّافةٍ مُتَهَرّئةٍ، تُخفي واقِعًا لا يٍ، تُسكِتُ قَلَقَهُ المُتأجّجَ كَالبُركانِ وتُهَدّئُ رَوعَهُ المُتَزايدَ. مُتَجاهِلاً، في غَفلَتِهِ العَمياءِ، أوْ رُبّما مُتَناسيًا بِعَمدٍ لِيَحمِيَ وَهمَهُ، أنَّ ذلكَ الفَراغَ الكامِنَ في صَميمِ الوُجودِ، المُتَرَبّصَ خَلفَ كُلِّ شَيءٍ، لا يُمكِنُ إخفاؤُهُ أوْ تَغطيتُهُ أوْ تَجاهُلُهُ بِأيِّ حِكايةٍ، مَهما بَدَتْ مُحكَمَةَ النَّسجِ أوْ بَليغةَ اللّسانِ أوْ قَديمةَ الزَّمانِ. هذا الإنسانُ المَخدوعُ بِذاتِهِ، يَرْزَحُ، طَوالَ حَياتِهِ القَصيرةِ، تَحتَ ثِقَلِ العِبءِ الميتافيزيقيّ الخانِقِ، ذاكَ الهاجِسُ المَرَضيُّ المُلازِمُ بِالمُطلَقِ وبِـ"ما وَراءَ" الحَياةِ والمَوتِ، الهاجِسُ الذي يَدفَعُهُ لِلُّجوءِ المُستمِرِّ، المُذِلِّ، إلى مَلاذاتٍ فِكريّةٍ مُخَدِّرةٍ، إلى أحضانٍ دافِئةٍ تُخَدِّرُ شُعورَهُ الحادَّ بِالعَبَثِ وبِفَراغِ الوُجودِ المُطْبِقِ، سَواءٌ اتَّخَذَتْ هذهِ المَلاذاتُ شَكلَ إيمانٍ دينيّ أعمى يُعَلّقُ آمالَهُ الواهِيةَ على السَّماءِ الغائبةِ، أوْ تَأمُّلٍ فَلسفيّ مُجرَّدٍ يَجِدُ العَزاءَ في التَّجريدِ البارِدِ، أوْ انتماءٍ اجتماعيّ خانِقٍ يُذيبُ قَلَقَهُ الفَرديَّ في الجَماعَةِ العمياءِ. كَأنّهُ بِكُلِّ هذهِ الحِيَلِ النَّفسيّةِ يُحاوِلُ أنْ يُغَطّيَ فُوَّهةَ الهاويةِ السّحيقةِ التي تَفتَحُ فاهَا المُخيفَ تَحتَ قَدَميهِ بِطَبَقاتٍ رَقيقةٍ، مُزَخرَفةٍ، منَ الأوهامِ والأحلامِ والأكاذيبِ. رُغمَ أنّهُ يَعلَمُ، أوْ يَنبَغي لهُ أنْ يَعلَمَ، في أعماقِهِ، أنَّ هذهِ القِصَصَ الكُبرى، هذهِ السَّرْديّاتِ المُطَمْئِنَةَ، ليستْ في النّهايةِ سِوى سَتائِرَ رَقيقةٍ، حُجُبٍ شَفّافةٍ، تُخفي، وَلا تَحجُبُ تَمامًا، واقِعًا لا يُمكِنُ فَهمُهُ بِأدواتِ العقلِ المَحدودِ، واقِعًا يَظَلُّ أبَدًا صامِتًا، بارِدًا، أصَمَّ، لا يُبالي بِصَرَخاتِهِ اليائسةِ ولا يَستَجيبُ لِتَوَسُّلاتِهِ المُرَّةِ أوْ بُكائِهِ.

أمّا الإنسانُ الواعي، ذاكَ الذي تَجَرَّأَ على النَّظَرِ المُباشِرِ في هاويةِ العَدَمِ دونَ أنْ يَرتَعِشَ جَفنُهُ أوْ يَخْفِقَ فُؤادُهُ، فهوَ الكائِنُ الذي يَرفُضُ بِشُموخٍ وكِبرياءٍ أنْ يُعَلّقَ ما تَبَقّى منْ آمالِهِ الهَشّةِ على حِبالِ القِصصِ الكُبرى الواهِيةِ، المُتَهافِتَةِ، التي تَفرِضُها الأنظمةُ الفِكريّةُ المُتَهاوِيةُ لِتَستَعبِدَ العُقولَ. وهوَ الذي لا يَهرُبُ كَالجُرَذِ الخائِفِ إلى جُحورِ الإجاباتِ الجاهِزةِ المُظلِمةِ التي تُلقى إليهِ منْ خارِجِ ذاتِهِ كَحَبلِ نَجاةٍ زائِفٍ، لا

يَلبَثُ أنْ يَلتَفَّ حولَ عُنقِهِ ويَخنُقَهُ. لا، بلْ إنّهُ يُدرِكُ، بِعُمْقٍ ثَلجيٍّ نافِذٍ وبِبَصيرةٍ ثاقِبةٍ لا تَرحَمُ الوَهمَ، تَفاهةَ هذهِ الحِكاياتِ جَميعِها وزَيفَها المُقَنَّعَ المُخادِعَ، ويُواجِهُ "مُعضِلةَ الوُجودِ" الكُبرى بِصَدرٍ عارٍ، في صُورَتِها الأوَّليّةِ العاريةِ، القاسيةِ، المُؤلِمةِ، بِلا أيِّ تَزييفٍ يُجَمِّلُ قُبحَها الفاضِحَ، وبِلا أيِّ مُوارَبةٍ تُخَفِّفُ منْ وَطأتِها السَّاحِقةِ. كَأنّهُ يُحَدِّقُ بِثَباتٍ وصُمودٍ في عَينِ الفَراغِ المُطلَقِ ذاتِها، دونَ أنْ يُغمِضَ جَفنَهُ خَوفًا أوْ جُبنًا، ودونَ أنْ يَرتَدَّ إلى الوَراءِ لِيَحتَميَ بِوَهمٍ قديمٍ أوْ جَديدٍ. فالوَعيُ هُنا، في هذا المَقامِ العالي والشّائِكِ، ليسَ مُجَرَّدَ تَراكُمٍ بارِدٍ، أكاديميٍّ، لِلمَعلوماتِ كَما في العُقولِ المَوسوعيّةِ الجَوفاءِ التي لا تُنتِجُ حِكمةً، بلْ هوَ انفِتاحٌ كُلِّيٌّ، استِسلامٌ شُجاعٌ، لِحَقيقةِ العَبَثيّةِ الكامِنةِ، المُتَجَذِّرَةِ، التي تَتَخَلَّلُ كُلَّ زاويةٍ منْ زَوايا الحَياةِ وكُلَّ نَبضٍ منْ نَبَضاتِ القَلبِ. كَأنَّ العقلَ الحُرَّ، في هذهِ اللَّحْظَةِ منَ الصِّدقِ المُطلَقِ والمُواجهةِ العاريةِ، يُصبِحُ مِرآةً صافِيةً، نَقيّةً، لا تَشوبُها شائِبَةٌ، تَعكِسُ الفَراغَ كما هوَ، بِصَمتِهِ، بِبُرودَتِهِ، بِلامُبالاتِهِ، دونَ أنْ يُشَوِّهَهُ بِخَيالاتِ المَعنى أوْ يُلَوِّنَهُ بِأقنِعةِ اليَقينِ المُطَمْئِنةِ التي يَرتَديها المَأسورونَ في أقفاصِهِمْ. ومَعَ ذلكَ، فَإنَّ الإنسانَ الواعي، هذا المُتمرِّدَ النَّبيلَ، لا يَتَوقَّفُ، لا يَتَجَمَّدُ كَصَنَمٍ، عندَ هذا الإدراكِ القاسي المُهلِكِ لِيَتَقوقَعَ في سَلبيّةٍ عَقيمةٍ تُشِلُّ حَرَكَتَهُ وتُطفِئُ نارَ إرادَتِهِ كَما يَفعَلُ المُتَشائِمونَ الذينَ يَستَسلِمونَ لِليأسِ. لا، بلْ إنّهُ يَتَجاوَزُ لَحظَةَ اليَأسِ الأوَّليّةِ، لَحظَةَ السُّقوطِ الحُرِّ في هاويةِ العَدَمِ المُظلِمةِ، لِيَختارَ، بِفعلٍ إراديٍّ حُرٍّ، واعٍ، أنْ يَرويَ "قِصَّتَهُ الخاصّةَ" هوَ، أنْ يَنحِتَ مَعناهُ الفَريدَ، أنْ يُشَيِّدَ عالَمَهُ الخاصَّ، على أنقاضِ العالَمِ القَديمِ الذي تَحَطَّمَ. قِصّةٌ ومَعنًى وعالَمٌ لا يَستَمِدُّ شَرعيّتَهُ أوْ قُوَّتَهُ منْ صَمتِ الكَونِ الأبكَمِ، أوْ منْ أوامِرِ السَّماءِ الغائِبةِ، بلْ يَستَمِدُّها فَقَطْ وفَقَطْ منْ إرادَتِهِ الحُرَّةِ المُتَوَهِّجَةِ التي تَأبى الانْهِزامَ أمامَ العَدَمِ، منْ قُدرَتِهِ الخَلّاقَةِ، المُعجِزةِ، على الخَلقِ في قَلبِ الفَراغِ، على إيجادِ النُّورِ في صَميمِ الظَّلامِ. فالفِعلُ هُنا، في حَياةِ الواعي المُتمرِّدِ، لا يَنبُعُ منْ ضَرورةٍ مَوضوعيّةٍ خارِجيّةٍ تُمليها قَوانينُ الطَّبيعَةِ الق يَفضَحُهُ النَّقدُ. ويُواجِهُ "مُعضِلةَ الوُجودِ" الكُبرى بِصَدرٍ عارٍ، في صُورَتِها العاريةِ القاسيةِ المُخيفةِ، بِلا أيِّ تَزييفٍ يُجَمِّلُ قُبحَها، وبِلا أيِّ مُوارَبةٍ تُخَفِّفُ منْ وَطأتِها المُزلزِلةِ، كَأنّهُ يُحَدِّقُ بِثَباتٍ في عَينِ الفَراغِ المُطلَقِ دونَ أنْ يُغمِضَ جَفنَهُ خَوفًا أوْ يَرتَدَّ إلى الوَراءِ يَأسًا. فالوَعيُ هُنا، في تَجَلّيهِ النّادِرِ، ليسَ مُجَرَّدَ تَراكُمٍ بارِدٍ لِلمَعلوماتِ التّافِهةِ كَما في العُقولِ المَوسوعيّةِ الجَوفاءِ التي لا تُثمِرُ، بلْ هوَ انفِتاحٌ كُلِّيٌّ، استِسلامٌ شُجاعٌ وجَريءٌ، لِحَقيقةِ العَبَثيّةِ الكامِنةِ، المُتَجَذِّرَةِ، التي تَتَخَلَّلُ كُلَّ زاويةٍ منْ زَوايا الحَياةِ وكُلَّ نَبضٍ منْ نَبَضاتِ القَلبِ القَلقِ. كَأنَّ العقلَ الحُرَّ، في هذهِ اللَّحْظَةِ منَ الصِّدقِ المُطلَقِ مَعَ

الذّات، يُصبحُ مِرآةً صافيةً، نَقيّةً، لا غُبارَ عليها، تَعكسُ الفَراغَ كما هوَ، بِصَمتِهِ الأَبَديّ وبُرودَتِهِ الجَليديّة، دونَ أنْ يُشَوّهَهُ بِفلاترِ الرَّغبةِ أوْ يُلَوّنَهُ بِأقنعةِ اليَقينِ المُطَمْئِنةِ التي يَرتَديها المَأسورونَ في أقفاصِهِمْ. ومَعَ ذلكَ، وَهُنا تَكمُنُ المُعجزةُ الحَقيقيّةُ، فَإنَّ الإنسانَ الواعي لا يَتوقَّفُ، لا يَتَجَمَّدُ كَالصَّنَمِ، عِندَ هذا الإدراكِ القاسي المُحطِّمِ لِلآمالِ، لِيَتقوقَعَ في سَلبيّةٍ عَقيمةٍ تُشِلُّ حَرَكَتَهُ وتُطفِئُ نارَ إرادَتِهِ كَما يَفعَلُ المُتَشائِمونَ الذينَ يَستَسلِمونَ لِليأسِ. لا، بلْ إنّهُ يَتجاوَزُ لَحظةَ اليأسِ الأوّليّةِ المُرعِبةِ، لَحظةَ السُّقوطِ الحُرِّ في هاويةِ العَدَمِ، لِيَختارَ، بِفِعلٍ إراديٍّ حُرٍّ، نابِعٍ منْ صَميمِ كِيانِهِ المُتمرِّدِ، أنْ يَروِيَ "قِصَّتَهُ الخاصّةَ" هوَ، أنْ يَنحِتَ مَعناهُ الفَريدَ، المُمَيَّزَ، مِنْ صَخرةِ العَبَثِ ذاتِها. قِصّةٌ لا تَستَمِدُّ شَرعيّتَها أوْ قُوَّتَها منْ صَمتِ الكَونِ اللّامُبالي أوْ منْ أوامِرِ السَّماءِ الغائبةِ، بلْ تَستَمِدُّها فَقطْ مِنْ إرادَتِهِ الحُرّةِ التي تَأبى الانْهِزامَ وتَرفُضُ الخُضوعَ، منْ قُدرَتِهِ الخلّاقةِ على إيجادِ النُّورِ في قَلبِ الظَّلامِ، على الخَلقِ في قَلبِ الفَراغِ.

فالفِعلُ هُنا، في حَياةِ الواعي المُتمرِّدِ، لا يَنبُعُ منْ ضَرورةٍ مَوضوعيّةٍ خارِجيّةٍ تُمليها قَوانينُ الطَّبيعَةِ العَمياءُ أوْ أوامِرُ المُجتَمَعِ القاهِرةُ، بلْ يَنبُعُ منْ قَرارٍ داخليٍّ عَميقٍ، منْ إرادةٍ حُرّةٍ تُشَكِّلُ نَفسَها في صَميمِ الفَراغِ الوُجوديِّ وتَرفُضُ أنْ تَذوبَ فيهِ بِصَمتٍ أوْ تَستَسلِمَ لَهُ بِخُنوعٍ. كَأنَّ الإنسانَ يُعلِنُ بِفخرٍ وتَحَدٍّ في وَجهِ الكَونِ الصّامِتِ: "إذا كانَ الكَونُ لا يَمنَحُني مَعنًى، فَأنا، بِقُوّةِ وَعيي وإرادَتي، سَأصنَعُهُ أنا!".

وهذهِ الإرادةُ الحُرّةُ المُتمرِّدةُ، هذهِ الشُّعلةُ المُتَوَهِّجَةُ في الظَّلامِ الدّامِسِ، لا تَبحَثُ عنْ تَبريرٍ خارِجيٍّ يُسْنِدُها أوْ يُعطيها شَرعيّةً زائِفةً، بلْ هيَ تُوجَدُ لِذاتِها، كَغايةٍ عُليا في نَفسِها، تَمنَحُ الإنسانَ إحساسًا نادِرًا، ثَمينًا، وَلوْ كانَ مُؤقَّتًا، بِالمُقاوَمةِ، بِالصُّمودِ، بِالقُدرةِ على الوُقوفِ بِشُموخٍ في وَجهِ العَبَثِ المُطْبِقِ. ليسَ لِأنّها قادِرةٌ على تَغييرِ طَبيعَةِ العالَمِ الأصَمِّ أوْ على فَرضِ نِظامِها الهَشِّ عليهِ، بلْ فَقطْ لِأنّها تُثبِتُ، بِشَكلٍ قاطِعٍ لا يَقْبَلُ الشَّكَّ، أنَّ الوَعيَ البَشريَّ، حتّى في أقصى دَرَجاتِ أَلَمِهِ وعُزلَتِهِ وقُربِهِ منَ اليأسِ، قادِرٌ على الوُقوفِ شامِخًا في وَجهِ العَبَثِ دونَ أنْ يَنهارَ كُلّيًّا أوْ يَستَسلِمَ تَمامًا. فالفَرقُ الحاسِمُ بينَ المأسورِ في قَفَصِ الوَهْمِ، والواعي الحُرِّ في فَضاءِ الخَلقِ، إذنْ، ليسَ في امتِلاكِ مَعرِفةٍ أكثَرَ أوْ أقَلَّ، بلْ في المَوقِفِ الوُجوديِّ منْ هذهِ المَعرِفةِ ذاتِها ومِنْ هَذا العالَمِ: فالإنسانُ المأسورُ يُحوِّلُ إدراكَهُ المَحدودَ والمُشَوَّهَ إلى قَيدٍ يُبقيهِ أسيرًا لِأوهامِ التَّماسُكِ الزّائِفِ والنِّظامِ المُتَخَيَّلِ، يُكَرِّرُ بِهَوَسٍ مَرَضيٍّ البَحثَ العَقيمَ عنْ غايةٍ خارِجيّةٍ كَمَنْ يَحفِرُ بِلا جَدوى في أرضٍ جَرداءَ بَحثًا عنْ ماءٍ لنْ يَجِدَهُ أبَدًا. بَينما الإنسانُ الواعي يُحوِّلُ مَعرِفَتَهُ القاسيةَ بِالفَراغِ والعَبَثِ إلى أداةٍ جَبّارةٍ لِلتَّحرُّرِ والخَلقِ، يُدرِكُ أنَّ الفَراغَ ليسَ عَدُوًّا يَجِبُ

هَزيمَتُهُ بِالوَهمِ، بلْ فَضاءً رَحبًا يُمكِنُ العَيشُ فيهِ، بَلْ ويُمكِنُ الإبداعُ داخِلَهُ. كَأنَّ العقلَ يَنتَقِلُ منْ حالةِ سَجينٍ بائسٍ يَبحَثُ بِقَلَقٍ عنْ مِفتاحٍ لِزِنزانَتِهِ المُظْلِمةِ، إلى حالةِ فنّانٍ حُرٍّ، مُبدِعٍ، يَرْسُمُ بِألوانِ إرادَتِهِ الزّاهِيةِ على جُدرانِ تِلكَ الزّنزانةِ ذاتِها، مُحَوِّاسيةُ أوْ أوامرُ المُجتَمَعِ القاهِرةُ، بلْ يَنبُعُ منْ قَرارٍ داخليٍّ عَميقٍ، مِنْ إرادةٍ نَقيّةٍ تُشَكِّلُ نَفسَها في صَميمِ الفَراغِ الوُجوديِّ ذاتِهِ، وتَرفُضُ بِكِبرياءٍ أنْ تَذوبَ فيهِ بِصَمتٍ كَحَبّةِ مِلحٍ. كَأنَّ الإنسانَ الواعي يُعلِنُ بِفخرٍ وتَحَدٍّ لِلكَونِ الصّامِتِ: "إذا كُنتَ لا تَمنَحُني مَعنًى، فَأنا، بِقُوَّةِ وَعيي وإرادَتي، سَأصنَعُهُ أنا بِنَفسي!". وهذهِ الإرادةُ الحُرّةُ، هذهِ الشُّعلةُ المُتَوَهِّجَةُ في الظَّلامِ، لا تَبحَثُ عنْ تَبريرٍ خارِجيٍّ يُسْنِدُها أوْ يُعطيها شَرعيّةً، بلْ هيَ تُوجَدُ لِذاتِها، كَغايةٍ في نَفسِها، تَمنَحُ الإنسانَ إحساسًا نادِرًا، ثَمينًا، وَلوْ كانَ مُؤقّتًا، بِالمُقاوَمةِ، بِالصُّمودِ، بِالقُدرةِ على الوُقوفِ في وَجهِ العَبَثِ المُطلَقِ. ليسَ لِأنّها قادِرةٌ على تَغييرِ طَبيعَةِ العالَمِ الأصَمِّ أوْ على فَرضِ نِظامِها الهَشِّ عليهِ، بلْ فَقَطْ لِأنّها تُثبِتُ، بِشَكلٍ قاطِعٍ لا يَقْبَلُ الجَدَلَ، أنَّ الوَعيَ البَشريَّ، حتّى في أقصى دَرَجاتِ أَلَمِهِ وعُزلَتِهِ، قادِرٌ على الوُقوفِ شامِخًا في وَجهِ العَبَثِ دونَ أنْ يَنهارَ كُلّيًّا أوْ يَستَسلِمَ بِالكامِلِ.

فالفَرقُ الحاسِمُ، القاطِعُ، بينَ المأسورِ في قَفَصِهِ والواعي الحُرِّ في فَضائِهِ، إذنْ، ليسَ في امتِلاكِ مَعرِفةٍ أكثَرَ أوْ عِلمٍ أغزَرَ، بلْ في المَوقِفِ الوُجوديِّ الجَذريِّ منْ هذهِ المَعرِفةِ ذاتِها، في كَيفيّةِ التَّعامُلِ مَعَها ومُواجَهَتِها. فالإنسانُ المَأسورُ، الأسيرُ لِخَوفِهِ ووَهمِهِ، يُحوِّلُ إدراكَهُ المَحدودَ، بَلْ حتّى المُشَوَّهَ، إلى قَيدٍ جَديدٍ يُبقيهِ أسيرًا لِأوهامِ التَّماسُكِ الزّائِفِ والنِّظامِ المُتَخَيَّلِ، يُكَرِّرُ بِهَوَسٍ مَرَضيٍّ البَحثَ عنْ غايةٍ خارِجيّةٍ مُنقِذةٍ، كَمَنْ يَحفِرُ بِلا جَدوى وبِأظافِرَ دامِيةٍ في أرضٍ جَرداءَ، قاحِلةٍ، بَحثًا عنْ نَبعِ ماءٍ لنْ يَجِدَهُ أبَدًا. بَينما الإنسانُ الواعي، المُتمرِّدُ على قَدَرِهِ، يُحوِّلُ مَعرِفَتَهُ القاسيةَ، المُؤلِمَةَ، بِالفَراغِ والعَبَثِ، إلى أداةٍ حادّةٍ لِلتَّحَرُّرِ والخَلقِ والإبداعِ. يُدرِكُ أنَّ الفَراغَ ليسَ عَدُوًّا شِرّيرًا يَجِبُ هَزيمَتُهُ بِالوَهمِ أوْ تَجاهُلُهُ بِالإنكارِ، بلْ فَضاءٌ رَحْبٌ، شاسِعٌ، يُمكِنُ العَيشُ فيهِ، بَلْ ويُمكِنُ الإبداعُ والخَلقُ داخِلَهُ بِحُرّيّةٍ. كَأنَّ العقلَ يَنتَقِلُ منْ حالةِ سَجينٍ بائسٍ يَبحَثُ بِقَلَقٍ عنْ مِفتاحٍ سِحريٍّ لِزِنزانَتِهِ المُظلِمةِ، إلى حالةِ فنّانٍ حُرٍّ، مُبدِعٍ، يَرْسُمُ بِألوانِ إرادَتِهِ الزّاهِيةِ على جُدرانِ تِلكَ الزّنزانةِ ذاتِها، مُحَوِّلاً السِّجنَ الكَئيبَ إلى مَسرَحٍ مُشرِقٍ لِحُرّيّتِهِ الخلّاقةِ. إنَّ هذا الوَعيَ لا يُنهي "مَأزِقَ الإدراكِ" بِشَكلٍ كامِلٍ، فَالشَّرطُ الوُجوديُّ قائِمٌ لا يَتَزَحزَحُ، لكِنّهُ يُعيدُ صِياغَتَهُ بِشَكلٍ جَذريٍّ، يُفَرِّغُهُ منْ شُحنَتِهِ اليائِسةِ: فَبَدلاً منَ السَّعيِ المُضنيِ،

المُنهِك، لِمَلءِ الفَراغِ بِأوهامٍ مُتَراكِمةٍ كَالغُبارِ، يُصبِحُ الإنسانُ قادِرًا على "احتِضانِهِ" بِشَجاعةٍ ورِضًا، ليسَ كَاستِسلامٍ لَهُ أوْ خُضوعٍ لِظُلمَتِهِ، بلْ كَتَمَرُّدٍ خَلّاقٍ، مُبدِعٍ، عليهِ ومِنهُ. كَأنّهُ يَقولُ لِلكَونِ الصّامِتِ بِابتِسامةٍ حَزينةٍ: "صَمتُكَ لنْ يُسكِتَني، وظَلامُكَ لنْ يُعمِيَني، بَلْ سَأُغنّي أنا في قَلبِ هذا الصَّمتِ، وسَأُشعِلُ شَمعَتي الخاصّةَ في هذا الظَّلامِ، لا لِأُنيرَ الكَونَ، بلْ لِأُنيرَ دَربي". وهُنا، في هذهِ المُعادَلةِ الصَّعبةِ، تَكمُنُ ذِروةُ شَجاعةِ الفَهمِ الإنسانيّ: ليستْ في إيجادِ إجاباتٍ مُغلَقةٍ، جاهِزةٍ، تُسكِتُ التَّساؤُلَ وتُريحُ العقلَ القَلِقَ، بلْ في القُدرةِ الفائِقةِ على العَيشِ مَعَ الأسئلةِ المَفتوحةِ بِلا خَوفٍ أوْ وَجَلٍ، وعلى خَلقِ "قِصّةٍ ذاتيّةٍ" صامِدةٍ، مُتَماسِكةٍ، وَسطَ عَبَثِ الكَونِ وفَوضاهُ. قِصّةٌ قَدْ لا تَدَّعي امتلاكَ الحَقيقةِ المُطلَقةِ أوِ اليَقينِ النّهائيّ، لكِنّها تُثبِتُ، بِكُلِّ تَحَدٍّ وكِبرياءٍ، أنَّ الإنسانَ، رُغمَ كُلِّ شَيءٍ، رُغمَ هَشاشَتِهِ الفاضِحةِ وقِصَرِ عُمْرِهِ الحَتميّ، قادِرٌ على أنْ يَكونَ صانِعًا لِمَعناهُ الخاصّ، خالِقًا لِقِيَمِهِ الفَريدةِ. حتّى لوْ كانَ هذا المَعنى زائِلاً كَنَغمةٍ تَتَرَدَّدُ لِوَهلَةٍ في فَراغٍ لا يَرُدُّ الصَّدى، وحتّى لوْ كانتْ هذهِ القِيَمُ نِسبيّةً كَالظِّلالِ المُتَغيِّرةِ تَحتَ ضَوءِ الشَّمسِ. فَإنَّ الوُجودَ الحُرَّ يَتَحَوَّلُ إلى فَعلٍ مُستمِرٍّ، مُقاوِمٍ، يَتَحَدّى الصَّمتَ والعَدَمَ، لا إلى انتِظارٍ سَلبيٍّ، خانِعٍ، يَخضَعُ لَهُما.

فَالمُقاوَمةُ الحَقيقيّةُ، المُقاوَمةُ التي تَستَحِقُّ هذا الاسمَ، لا تُراهِنُ على تَغييرِ قَوانينِ الكَونِ الصَّمّاءِ التي لا تَتَغيَّرُ، ولا تَحلُمُ بِتَرويضِ العَبَثِ المُطلَقِ الذي لا يُرَوَّضُ، بلْ تُراهِنُ على تَطويعِ العَبَثِ ذاتِهِ، على تَحويلِهِ مِنْ سِجنٍ خانِقٍ إلى أرضيّةٍ رَحبةٍ تُشَكَّلُ عليها تَجرِبةُ الوُجودِ الخاصّةُ بِالذّاتِ الحُرّةِ المُبدِعةِ. إنّهُ تَمَرُّدٌ لا يُقاتِلُ الفَراغَ لِيُزيلَهُ أوْ يَملأَهُ، بلْ يَستَخدِمُهُ كَمادّةٍ خامٍ، كَطينٍ بِلا شَكلٍ، لِلخَلقِ والإبداعِ، كَقُماشٍ أسودَ فَسيحٍ يَرسُمُ عليهِ الفَنّانُ لَوحَتَهُ الخاصّةَ بِألوانِ إرادَتِهِ الحيّةِ. والفِعلُ هُنا، في هذا الوَعيِ المُتَجاوِزِ، لا يَسعى لِانتِصارٍ خارِجيٍّ مُدَوٍّ يُعيدُ تَرتيبَ العالَمِ وَفْقَ أهوائِهِ، بلْ يَسعى إلى **إعادَةِ تَنظيمِ الملأ السِّجنَ القاتِمَ إلى مَسرَحٍ مُضيءٍ لِحُرّيّتِهِ الخَلّاقَةِ. إنَّ هذا الوَعيَ لا يُنهي "مَأزِقَ الإدراكِ" بِشَكلٍ كامِلٍ، فَالشّرطُ الوُجوديُّ قائِمٌ لا يَتَزَحزَحُ، لكِنّهُ يُعيدُ صِياغَتَهُ بِشَكلٍ جَذريّ: فَبَدلاً مِنَ السَّعيِ المُضني لِمَلءِ الفَراغِ بِأوهامٍ مُتَراكِمةٍ لا تَصمُدُ، يُصبِحُ الإنسانُ قادِرًا على "احتِضانِهِ" بِشَجاعةٍ، ليسَ كَاستِسلامٍ لَهُ، بلْ كَتَمَرُّدٍ خَلّاقٍ عليهِ ومِنهُ. كَأنّهُ يَقولُ لِلكَونِ الصّامِتِ اللّامُبالي: "صَمتُكَ لنْ يُسكِتَني، وظَلامُكَ لنْ يُعمِيَني، بلْ سَأُغنّي أنا في قَلبِ هذا الصَّمتِ، وسَأُشعِلُ شَمعَتي الخاصّةَ في هذا الظَّلامِ!". وهُنا تَكمُنُ

ذِروةُ شَجاعةِ الفَهمِ: ليستْ في إيجادِ إجاباتٍ مُغلَقةٍ، مُريحَةٍ، تُسكِتُ التَّساؤُلَ وتُريحُ العقلَ القَلِقَ، بلْ في القُدرةِ على العَيشِ معَ الأسئلةِ المَفتوحةِ بِلا خَوفٍ أوْ وَجَلٍ، وعلى خَلقِ "قِصّةٍ ذاتيّةٍ" صامِدةٍ وَسطَ عَبَثِ الكَونِ، قِصّةٍ قَدْ لا تَدَّعي امتلاكَ الحقيقةِ المُطلَقةِ، لكِنّها تُثبِتُ، بِكُلِّ تَحَدٍّ وكِبرياءٍ، أنَّ الإنسانَ، رُغمَ كُلِّ شَيءٍ، رُغمَ هَشاشَتِهِ وقِصَرِ عُمرِهِ، قادِرٌ على أنْ يَكونَ صانِعًا لِمَعناهُ، خالِقًا لِقِيَمِهِ. حتّى لوْ كانَ هذا المَعنى زائِلاً كَنَغمةٍ عَذبَةٍ تَتردَّدُ لِوَهلَةٍ في فَراغٍ لا يَرُدُّ الصَّدى، حتّى لوْ كانتْ هذهِ القِيَمُ نِسبيّةً كَالظِّلالِ المُتَغيِّرةِ تَحتَ ضَوءِ الشَّمسِ. فَإنَّ الوُجودَ الحُرَّ يَتَحَوَّلُ إلى فَعلٍ مُستمِرٍّ يَتَحَدّى الصَّمتَ، لا إلى انتظارٍ سَلبِيٍّ يَخضَعُ لَهُ بِذِلّةٍ.

وبَعدَ هذا التَّحَوُّلِ مِنْ مُطارَدةِ المَعنى إلى شَجاعةِ الخلَقِ والفَرَضِ، يَبرُزُ الفَرقُ الجَوهَريُّ الشّاسِعُ، بينَ كِيانَيْنِ، بينَ قَدَرَيْنِ لا يَستَويانِ في العَرَضِ: قَدَرُ الإنسانِ المَأسورِ، الغارِقِ في قَفَصِ الوَهْمِ المُقْتَرَضِ، وقَدَرُ الإنسانِ الواعي، الثّائِرِ، الذي تَجَرَّأَ على مُعانَقَةِ العَدَمِ ولَمْ يَعْتَرِضْ. هذا الفَرقُ ليسَ تَمايُزًا في الدَّرَجاتِ فَقطْ، بلْ هوَ تَجَلٍّ لِـ"مَأزِقِ الإدراكِ" الذي يُمحِصُ ويَفْحَصُ، يَرفَعُنا منْ مُستنقَعِ المَعرِفةِ السَّطحيّةِ التي تَركُضُ، لِنُعانِقَ، بِرُعبٍ وبَهاءٍ، قُوَى الوَعيِ المُتمرِّدِ الذي لا يَنقُصُ، وشَجاعةَ الفَهمِ الذي يَجرُؤُ على النَّظَرِ في وَجهِ الصَّمتِ الكَونيِّ ولا يَتَقَلَّصُ. فالجَوهَرُ الحَقيقيُّ لِلإنسانِ، ما يُمَيِّزُهُ في هذا الحِمى، ليسَ كامِنًا في كَمِّ المَعلوماتِ التي في الرَّأسِ تَرتَمي، أوْ في عَدَدِ الكُتُبِ التي يَلْتَهِمُها بِنَهَمٍ أعمى، كَما تُوحي بِسذاجةٍ أنظمةُ التَّعليمِ المَيْتةِ التي لا تُنْمي. بلْ في "كَيفيّةِ" تَوظيفِهِ لِهذهِ المَعرِفةِ التي تَنمو أو تَذوي وتُرمى، في قُدرَتِهِ على استِخدامِها كَسِلاحٍ أوْ دِرعٍ في الوَغَى، لِيُواجهَ بِها تِلكَ التَّحدّياتِ الوُجوديّةَ القاسيةَ التي لا تُحصى – تَحدّيَ العَبَثِ والفَناءِ والفَراغِ، وتَحدّي اللّامَعنى الذي يُدمي. كَأنَّ العقلَ، حينَ يَبلُغُ نُضجَهُ ويُعلي، يَنبَغي أنْ يَكونَ أداةً حادّةً لِلتَّحرُّرِ والنَّحتِ والخلَقِ الأجلى، لا مُجرَّدَ مَخزَنٍ مُتْرَبٍ لِتَكديسِ "الحَقائِقِ" المُعلَّبةِ والأفكارِ التي تُلى. فالإنسانُ المَأسورُ، كَما نَراهُ الآنَ، وفي هذا السِّياقِ مِنْ مُواجَهةِ الرَّدى، هوَ ذلكَ الكائِنُ البائِسُ الذي يَظَلُّ أسيرًا في الدَّوامةِ اللّانهائيّةِ التي تُردي، دَوامةِ البَحثِ المُضني، العَقيمِ، عنْ مَعانٍ خارجيّةٍ تَأتي مِنْ عِندِ النَّدى، عنْ قِصصٍ مُريحَةٍ، عنْ تَبريراتٍ مُلَفَّقةٍ تَأتيهِ مِنْ غَيرِ هُدى، لِتُبَرِّرَ وُجودَهُ الهَشَّ في عالَمٍ أصَمَّ يَرفُضُ أنْ يُقَدِّمَ مَعنًى أوْ صَدَى. تَراهُ يُفَتِّشُ بِهَوَسٍ في زَوايا الكَونِ عَنْ خُيوطِ قِصّةٍ كُبرى، عنْ آثارِ نَسَقٍ شامِلٍ يَمنَحُ وُجودَهُ المُشَتَّتَ

مَجْرى، كَأنّهُ يُحاوِلُ أنْ يُطابِقَ الواقِعَ العَشوائيَّ مَعَ سَرديّةٍ مُنَظَّمةٍ تَجلِبُ البُشرى. مُتَجاهِلاً أنَّ الفَراغَ الكامِنَ لا يُمكِنُ إخفاؤُهُ بِأيِّ حِكايةٍ تُثْرى. هذا الإنسانُ المَخدوعُ يَرزَحُ تَحتَ ثِقَلِ العِبءِ الميتافيزيقيِّ، ذاكَ الهاجِسُ المَرَضيُّ بِالمُطلَقِ والحَقيقيِّ، الهاجِسُ الذي يَدفَعُهُ لِلُّجوءِ إلى مَلاذاتٍ تُخَدِّرُهُ في الطَّريقِ، سَواءٌ كانَتْ إيمانًا دينيًّا يُعَلِّقُ آمالَهُ على الرَّفيقِ، أوْ تَأمُّلاً فَلسفيًّا يَجِدُ العَزاءَ في التَّحليقِ، أوْ انتِماءً اجتِماعيًّا يُذيبُ قَلَقَهُ في الرَّفيقِ. كَأنّهُ يُغَطّي فُوَّهةَ الهاويةِ بِطَبَقاتٍ منَ الأوهامِ ذاتِ البَريقِ، رُغمَ أنّهُ يَعلَمُ أنَّ هذهِ القِصَصَ ليستْ سِوى سَتائِرَ تَحجُبُ الحَريقَ، واقِعًا يَظَلُّ أبَدًا صامِتًا، بارِدًا، لا يُبالي بِصَرَخاتِهِ ولا يُفيقُ.

أمّا الإنسانُ الواعي، ذاكَ النَّسرُ الذي حَلَّقَ فَوقَ القِمَمِ، ونَظَرَ في الهاويةِ بِلا نَدَمٍ، فهوَ الكائِنُ الذي يَرفُضُ بِشُموخٍ وعَزمٍ، أنْ يُعَلِّقَ آمالَهُ الهَشّةَ على حِبالِ القِصصِ الكُبرى التي نَسَجَها الوَهَمُ، ولا يَهرُبُ كَالجُرَذِ الخائِفِ إلى جُحورِ الإجاباتِ الجاهِزةِ التي تُلقى إليهِ فَيَستَلِمُ. لا، بلْ إنّهُ يُدرِكُ، بِعُمْقٍ ثَلجيٍّ وبَصيرةٍ كَحَدِّ القَلَمِ، تَفاهةَ هذهِ الحِكاياتِ وزَيفَها المُستَديمَ، ويُواجِهُ "مُعضِلةَ الوُجودِ" بِصَدرٍ عارٍ لا يُهْدَمُ، في صُورَتِها القاسيةِ بِلا تَزييفٍ أوْ تَرميمٍ، فالوَعيُ هُنا انفِتاحٌ كُلِّيٌّ على الحَقيقةِ التي تُؤلِمُ، استِسلامٌ شُجاعٌ لِعَبَثِيّةِ الوُجودِ المُتَجَهِّمُ. كَأنَّ العقلَ الحُرَّ مِرآةٌ صافيةٌ تَعكِسُ الفَراغَ ولا تَتَلَعثَمُ، بِصَمتِهِ وبُرودَتِهِ، دونَ أنْ يُشَوِّهَهُ بِوَهْمِ اليَقينِ المُتَكَلِّمُ. ومَعَ ذلكَ، فَإنَّ الواعي لا يَتَوَقَّفُ أوْ يَتَحَجَّرُ، لا يَتَقَوقَعُ في سَلبيّةٍ عَقيمةٍ أوْ يَتَكَدَّرُ، بلْ يَتَجاوَزُ لَحظةَ اليَأسِ لِيَتَحَرَّرَ، ويَختارُ، بِفعلٍ إراديٍّ حُرٍّ لا يَتَأخَّرُ، أنْ يَروِيَ "قِصَّتَهُ الخاصّةَ" هوَ ويُعَبِّرُ، أنْ يَنحِتَ مَعناهُ الفَريدَ مِنْ صَخرِ العَبَثِ ويُقَدِّرُ. قِصّةٌ لا تَستَمِدُّ قُوَّتَها منْ صَمتِ الكَونِ أوْ أمرِ مَنْ تَجَبَّرَ، بلْ تَستَمِدُّها فَقَطْ منْ إرادَتِهِ الحُرّةِ التي لا تَنكَسِرُ، ومنْ قُدرَتِهِ على الخَلقِ في قَلبِ الفَراغِ المُستَعِرُ. فالفِعلُ هُنا لا يَنبُعُ منْ ضَرورةٍ خارجيّةٍ تُؤَمِّرُ، بلْ منْ قَرارٍ داخليٍّ عَميقٍ يُقَرِّرُ، إرادةٌ تُشعِلُ ضِمنَ حُدودِ الشَّخصيّةِ ذاتِها**، كَأنَّ العقلَ يُحَوِّلُ الفَوضى الكَونيّةَ المُحيطةَ منْ عَدُوٍّ خارِجيٍّ يُهَدِّدُهُ ويُفزِعُهُ، إلى حَقلٍ مَفتوحٍ يَزرَعُ فيهِ، بِحُرّيّةٍ وشَجاعةٍ، بُذورَ إرادَتِهِ الحُرّةِ ويَنتَظِرُ حَصادَها. وهذا التَّنظيمُ الدّاخليُّ للمَعنى ليسَ مُحاوَلةً لِفَرضِ نِظامٍ دائِمٍ أوْ يَقينٍ مُطلَقٍ، بلْ عَمليّةٌ دَؤوبةٌ تَمنَحُ الإنسانَ الواعي قوّةً داخليّةً هائِلةً، صَلابةً رُوحيّةً، تُعصِمُهُ منَ الانهيارِ الكامِلِ أمامَ عَبَثِ الوُجودِ وفَراغِهِ، قوّةٌ تَتَغذّى على الإرادَةِ الخَلّاقَةِ التي تَرفُضُ تَسليمَ الذّاتِ لِلصَّمتِ الأبَديِّ والعَدَمِ المُطْلَقِ. إنّها

مُقاوَمةً لا تَبحَثُ عنْ مُكافأةٍ خارِجيّةٍ، ولا تَنتَظِرُ اعترافًا أوْ تَصفيقًا، بلْ تكتَفي بِإثباتِ أنَّ الإنسانَ، هذا الكائِنَ الهَشَّ، قادِرٌ على أنْ يُشَكِّلَ عالَمَهُ الخاصَّ، أنْ يَخلُقَ مَعناهُ الفَريدَ، وَسطَ الفَراغِ المُطلَقِ. كَأنَّهُ يُعلِنُ لِلفَوضى بِتَحَدٍّ: "لَنْ تَنتَصِري عَلَيَّ، لَنْ تَسحَقيني، بلْ سَأصنَعُ مِنْكِ مَسرَحًا لِفِعلي ولِوُجودي ولِإرادَتي!". وهَذِهِ الشَّجاعةُ المُطلَقةُ، أنْ تَستَوعِبَ العَبَثَ بِوُضوحِهِ المُرعِبِ حتّى النُّخاعِ، وتَنظُرَ إلى الفَراغِ بِعَينَيْنِ ثابِتَتَيْنِ دونَ أنْ تُغمِضَهُما خَوفًا، وفي ذاتِ الوَقتِ، أنْ تُقدِمَ على خُطوةِ الخلَقِ، على فِعلِ إعادَةِ تَعريفِ الذّاتِ والمَعنى، هيَ ما تَجعَلُ الوَعيَ سَيفًا ذا حَدَّيْنِ: يَقطَعُ بِحَدّةٍ أوهامَ اليَقينِ الزّائِفِ، ويَنحَتُ بِصَلابةٍ مَعنًى جَديدًا منْ صَخرةِ اللّاشَيءِ المُطلَقِ. فالإنسانُ الواعي لا يَهرُبُ كَالجَبانِ، بلْ يُواجِهُ بِشُموخٍ. لا يَنتَظِرُ غايةً تَأتيهِ منْ عَلٍ، بلْ يَعيشُ تَجرِبَتَهُ بِكُلِّ ما فيها منْ أَلَمٍ وفَرَحٍ. وهذا الاعترافُ الصّريحُ بِالعَبَثِ ليسَ نِهايةَ الطَّريقِ، بلْ بِدايةً جَديدةً تُشعِلُ جَذوةَ الإرادَةِ، وتُحَرِّرُ الذّاتَ منْ أوهامِ الخَلاصِ الخارِجيِّ، وتَلقي بِها في فَضاءٍ يُصبِحُ فيهِ كُلُّ فَعلٍ، مَهما كانَ صَغيرًا، إثباتًا لِلحُضورِ وتَحَدّيًا لِلغِيابِ. كَأنَّ العقلَ يَتحوَّلُ إلى مُهندِسٍ جَريءٍ يَبني جُسورًا واهِيةً فَوقَ الهاويةِ السَّحيقةِ، لا لِيَصِلَ إلى ضِفّةٍ أُخرى قَدْ لا تَكونُ مَوجودةً، بلْ فَقَطْ لِيُثبِتَ لِنَفسِهِ أنّهُ قادِرٌ على البِناءِ حتّى في قَلبِ الخَرابِ. فالوُجودُ كَتَجرِبةٍ حَيّةٍ لا يَحتاجُ تَبريرًا خارِجيًّا، بلْ يَحتاجُ شَجاعةً تُحييهِ، شَجاعةً تَرفُضُ تَسليمَ الذّاتِ لِلغَرقِ في الفَوضى وتُحَوِّلُها إلى لَحَظاتٍ نابِضةٍ، مُتَوَهِّجَةٍ، كَلَوحةٍ فَنيّةٍ تُرسَمُ كُلَّ يَومٍ بِألوانٍ جَديدةٍ، لِتُعاشَ لا لِتُعَلَّقَ على جِدارٍ. وهذا التَّمَرُّدُ الوُجوديُّ الأخيرُ لا يُنهي المَأزِقَ بِالكَاملِ، بَلْ يُحَوِّلُهُ مِنْ سِجنٍ خانِقٍ إلى مَيدانٍ لِلتَّحدّي والخَلقِ، حَيثُ لا يَعودُ الفَراغُ سِجنًا يُخشى، بلْ مِساحةً شاسِعةً لِإثباتِ القُوّةِ والإرادَةِ. لِأنَّ المُقاوَمةَ الحَقيقيّةَ ليستْ في إنكارِ العَبَثِ بِجُبنٍ، بلْ في تَحويلِهِ إلى مادّةٍ لِلخَلقِ، إلى طينٍ تُشَكِّلُهُ يَدُ الحُرّيّةِ. كَأنَّ الإنسانَ الواعي يَقولُ لِلكَونِ الصّامِتِ في تَحَدٍّ أخيرٍ: "صَمتُكَ لَنْ يُسكِتَني، بلْ سَأجعَلُهُ صَدًى لِصَوتي الخالِقِ!". هذهِ القُوّةُ الدّاخليّةُ لا تُغيِّرُ الواقِعَ الخارِجيَّ، بلْ تُغيِّرُ مَوقِفَنا الداخليَّ منهُ، فَيَتحوَّلُ العقلُ منْ ضَحيّةٍ بائِسةٍ لِلظُّروفِ، إلى فاعِلٍ حُرٍّ يَصنَعُ مَعناهُ. والشَّجاعةُ الحَقيقيّةُ ليستْ في إيجادِ الأجوبةِ المُريحَةِ، بلْ في العَيشِ مَعَ الأسئلةِ المَفتوحةِ بِقَلَقٍ خَلّاقٍ، وفي تَحويلِ التَّجارِبِ القاسيةِ إلى أفعالٍ صامِدةٍ تُثبِتُ أنَّ الحَياةَ، رُغمَ عَبَثِها الظّاهِرِ، تَستَحِقُّ أنْ تُعاشَ بِإرادةٍ حُرّةٍ لا تَنثَني. هُنا يَنتَصِرُ الإنسانُ الواعي، لا على الكَونِ الذي لا يُقْهَرُ، بلْ على ذاتِهِ الخائِفةِ داخِلَ هذا الكَونِ، ويَتحوَّلُ الوُجودُ إلى رَقصةٍ مُستمِرّةٍ، حَزينةٍ ورائِعةٍ، مَعَ الفَراغِ، رَقصةٍ لا تَسعَى لِنِهايةٍ أوْ لِاستِقرارٍ، بلْ لِاستمرارٍ

يُظهِرُ أنَّ الإنسانَ هوَ صانِعُ مَعناهُ، ولوْ كانَ هذا المَعنى كَنارٍ تَشتَعِلُ بِقُوّةٍ في الظَّلامِ المُطْبِقِ، تُحيي اللّحظةَ التي تُخلَقُ فيها، ثُمَّ تَنطفِئُ. فَالحُرّيّةُ الأسمى ليستْ في الهُروبِ منَ الفَوضى أوِ إنكارِها، بلْ في القُدرةِ على الغِناءِ وَسطَها، في الشَّجاعةِ على أنْ تَكونَ صَوتًا واضِحًا في صَمتٍ لا يَهتَمُّ بِكَ، لِأنَّ هذا الصَّوتَ، رُغمَ ضَآلَتِهِ وَوَحدَتِهِ، هوَ ما يُعطي الوُجودَ شَكلَهُ الإنسانيَّ الفَريدَ ويَمنَحُهُ قِيمةً لا تَأتيهِ منْ خارِجٍ.

الفصل الخامس

عقل يُمزّق ذاته

إنّهُ العقلُ، وَقَدْ أضحى في مَتاهَةِ حُرّيَّتِهِ المُكتَشَفَةِ حديثًا، حُرّيّةٌ كَما رَأيناها عِبءٌ ثَقيلٌ ومَأزِقٌ لا يُحتَمَلُ، يَسعى الآنَ جاهِدًا، كَغريقٍ يَقبِضُ على خُيوطِ الماءِ، أوْ كَعَطشانٍ يُطارِدُ السَّرابَ في الفَلاةِ، لِلتَّشَبُّثِ بِما يَعلَمُ يَقينًا أنّهُ لا يَنالُهُ، ولِلإمساكِ بِما يَفِرُّ هارِبًا مِنْ بَينِ أصابِعِهِ كَالرّيحِ التي لا تُحَدُّ. يُدرِكُ، في عُمْقِ وَعيِهِ المُتأَجِّجِ، أنّهُ أصْبَحَ أسيرًا لا لِسُلطَةٍ خارِجيّةٍ أوْ قَيدٍ مَوروثٍ، بلْ أسيرًا لِأفكارِهِ ذاتِها، تِلكَ الأفكارُ التي تَوَلَّدَتْ مِنْ صَميمِ حُرّيّتِهِ المَزعومةِ، فَصارَتْ قُضبانَ سِجنِهِ الجَديدِ. تُلاحِقُهُ ظِلالُ هذهِ الأفكارِ المُتناقِضَةِ أيْنَما حَلَّ وارْتَحَلَ، فَلا يَجِدُ مِنْها مَهرَبًا أوْ مَلاذًا، ويَقِفُ حائِرًا، مَشدوهًا، أمامَ تَناقُضاتٍ لا يَفتأُ يَنسِجُ خُيوطَها المُعَقَّدَةَ حَولَ نَفسِهِ، كَعَنكَبوتٍ يَبني شَبَكَتَهُ لِيَصطادَ فيها ذاتَهُ، دونَ أنْ يَجِدَ طَريقًا واضِحًا لِلخُروجِ أوْ سَبيلًا مُقنِعًا لِلتَّسويةِ أوِ الصُّلحِ. فَبَعدَ أنْ تَوارَتْ في ضَبابِ الشَّكِّ صُورةُ المَرجِعِ الأعلى، ذاكَ المُطلَقُ الذي كانَ لِلوَعيِ المُستكينِ مِثلَ القُطبِ لِلنَّجمِ التّائِهِ، أوْ كَالبَوصَلَةِ لِلسَّفينَةِ في البَحرِ الهائِجِ، يَهديهِ ويُعطيهِ نِظامًا ومَعنًى، ويَمنَحُ الوُجودَ العَبثِيَّ شَكلاً وَهميًّا وتَناسُقًا زائِفًا، يُصبِحُ العقلُ الآنَ، بِلا شَريكٍ أوْ وَزيرٍ، هوَ السَّيِّدَ الأوحَدَ، المَلِكَ المُتَوَّجَ، على مَملكَةِ الفِكرِ الشّاسِعةِ، لكِنّها مَملكَةٌ خَرِبَةٌ تَلاشَتْ حُدودُها، وغابَتْ مَعالِمُها، وانهارَتْ قُصورُها، وسُلطانٌ تائِهٌ لا يَجِدُ لَهُ رَعيّةً تُطيعُهُ إلا ذاتَهُ المُضطَرِبةَ، المُتَشظّيةَ كَالمِرآةِ المكسورةِ. يَقِفُ مُقيَّدًا بِما لا يَرى مِنْ أغلالِ حُرّيَّتِهِ، مُحاصَرًا بِما لا يُدرِكُ مِنْ تَبِعاتِ استقلالِهِ، وكَأنَّ استقلالَهُ الذي نَشَدَهُ بِشَغَفٍ، قَدْ صارَ سِجنَهُ الأوسَعَ والأخفى، زِنزانَتَهُ التي لا جُدرانَ لَها ولكِنْ لا مَخرَجَ مِنْها. وفي غِيابِ تِلكَ المَراجِعِ الخارِجيّةِ المُطَمْئِنةِ، كَالإلهِ أوِ التَّقليدِ أوِ الحَقيقةِ المُطلَقةِ، التي كانتْ تُنيرُ، ولَوْ بِضَوءٍ خافِتٍ، دُروبَ المَعرِفةِ المُعتِمَةَ وتَرسُمُ مَعالِمَ القِيَمِ الثّابِتةَ، يَجِدُ الإنسانُ نَفسَهُ كَسَفينَةٍ تائِهةٍ تَتقاذَفُها أهواءُ الشَّكِّ وعَواصِفُ القَلَقِ، وَقَدْ ضَلَّتْ مَرفَأَها الأخيرَ وضاعَتْ في عُبابِ اللُّجَجِ، يَغرَقُ في بَحرٍ لُجّيٍّ، عَميقٍ، مِنَ الأسئلةِ الوُجوديّةِ التي لا تَجِدُ لَها قَرارًا في الأعماقِ، ولا إجاباتٍ شافيةً تُريحُ على الشُّطآنِ. أسئلةٌ تَطفو على

سَطح الوَعي وترسُبُ في قاعِهِ، تُقبِلُ وتُدبِرُ بِلا انقطاعٍ، كَأمواجٍ عاتيةٍ لا تَهدأُ ولا تَستكينُ، تُذكِّرُهُ على الدَّوامِ بِحيرَتِهِ القاتِلةِ وضَياعِهِ المُحتَّمِ في هذا التِّيهِ. نَعَمْ، قَدْ يعتريهِ لِوَهلَةٍ خاطِفةٍ، في بِدايةِ الأمْرِ، شُعورٌ بِنَشوةِ الحُرِّيّةِ المُكتَشَفةِ التي كانَ يتوقُ إليها ويَحْلُمُ، حُرِّيّةِ الانعتاقِ مِنْ أغلالِ الأنساقِ المُهيمِنةِ التي كَبَّلَتْهُ طَويلاً بِقُيودِها، لكِنَّ هذهِ الحُرِّيّةَ الخادِعةَ سُرعانَ ما تكشِفُ عنْ وَجهِها الآخَرِ القَبيحِ، عنْ فَجَواتِها العَميقةِ كَالآبارِ، عنْ ثُغراتِها التي لا يَملِكُ العقلُ أيَّ شَيءٍ يَسُدُّها بِهِ إلا مَزيدًا ومَزيدًا منَ التَّساؤُلاتِ الوُجوديّةِ الحارِقةِ، تِلكَ التي تَفتَحُ، بِدَورِها، أبوابًا جَديدةً على قَلَقٍ لا يَنتَهي، على جَحيمٍ لا يَنطَفِئُ لَهيبُهُ. وكَأنَّ كُلَّ خُطوةٍ يَخْطوها بِثِقةٍ زائِفةٍ على دَربِ التَّحَرُّرِ المُتَوَهَّمِ، ليستْ إلا اقترابًا حَتميًّا منْ حافّةٍ هاويةٍ لا يُمكِنُ الوُقوفُ عليها، حَيثُ يَنقلِبُ العقلُ، بِقَسوةٍ لا تُوصَفُ، على ذاتِهِ، يُعاقِبُها بِالفَراغِ الذي اكتَسَبَهُ مِنْ شَكِّهِ، ويَجِدُ أنَّ وَحدَتَهُ القاتِلةَ في هذهِ المَملكةِ الخاويةِ التي لا ساكِنَ فيها سِواه، هيَ أثقَلُ أعبائِهِ، وأشَدُّ آلامِهِ، وأقسى جَلّاديهِ.

وهكَذا، يَقِفُ العقلُ، الذي كانَ يَومًا ما خادِمًا قانِعًا، مُطيعًا، يَسيرُ بِأمانٍ في دُروبٍ مَرسومةٍ واضِحةِ المَعالِمِ، تُنَظِّمُها مَعاييرُ خارِجيّةٌ، قُدسيّةٌ أوْ اجتِماعيّةٌ، وتُضيئُها أنوارُ الغَيبِ المُتَخَيَّلَةِ أوْ مَصابيحُ التَّقاليدِ المُتَوارَثةِ. يَقِفُ اليَومَ، بَعدَ أنْ تَحَطَّمَتِ الأصنامُ وتَلاشَتِ المَراجِعُ، مُثقَلاً، حائِرًا، مُمَزَّقًا، يَئِنُّ تَحتَ وَطأةِ حُرِّيّةٍ مُطلَقةٍ، مُرعِبةٍ، لمْ يَكُنْ مُهيَّأً لَها ولَمْ يَستَعِدَّ، حُرِّيّةٍ نالَها كَثمرةٍ مُرَّةٍ، كَعَلقَمٍ، لِسُقوطِ تِلكَ المَرجِعيّاتِ الشّامِخةِ، الأبَويّةِ، التي كانتْ تُظَلِّلُهُ مِنْ شَمسِ الحَقيقةِ الحارِقةِ، وتُوَجِّهُ خُطُواتِهِ التّائِهةَ في الظُّلُماتِ. حُرِّيّةٌ لا تُثمِرُ سَكينَةً وهُدوءً، ولا تَجلِبُ راحَةً أوْ سُرورًا، بلْ لا تَزيدُهُ إلا تَمَزُّقًا داخِليًّا عَميقًا، ولا تَمنَحُهُ إلا انشطارًا مُؤلِمًا في صَميمِ كِيانِهِ، يُحوِّلُ كُلَّ فِكرةٍ تَخطُرُ بِبالِهِ إلى شَظيّةٍ حادّةٍ، كَزُجاجٍ مُتَناثِرٍ، تُصيبُ نَسيجَ وِجدانِهِ الرَّقيقَ، وتُدمي وُجودَهُ الهَشَّ، وتَترُكُهُ يَنزِفُ في صَمتٍ. إنّهُ، في هذهِ الوَحدةِ المُستَجَدّةِ القاتِلةِ، في هذا اليُتمِ الوُجوديِّ المُوحِشِ، يَخوضُ قِتالاً ضارِيًا، مُميتًا، ضِدَّ ذاتِهِ في كُلِّ لَحْظَةٍ تَمُرُّ، وكَأنّهُ جَيشٌ يَنتَحِرُ، يُحاصِرُ مَدينَتَهُ الوَحيدةَ ويُهاجِمُ حُصونَهُ الخاصّةَ التي شَيَّدَها يَومًا لِتَحميهِ مِنْ نَفسِهِ ومِنَ العالَمِ. يُراكِمُ الأسئلةَ الحارِقةَ فَوقَ الأسئلةِ المُقْلِقةِ بِلا تَوقُّفٍ، كَمَنْ يُضيفُ حِجارةً ثَقيلةً إلى عِبءٍ هائِلٍ يَنوءُ كاهِلُهُ تَحتَهُ ويَكادُ يَنقَسِمُ، دونَ أنْ يَعثُرَ، في خِضَمِّ هذا الرُّكامِ المُتَزايِدِ منَ الشُّكوكِ والحَيرَةِ، على إجابةٍ واحِدةٍ صَغيرةٍ تُعيدُ إليهِ شَيئًا منْ تَماسُكِهِ المَفقودِ، أوْ تَدُلُّهُ على طَريقِ العَودةِ إلى ذاتِهِ الأُولى التي تَبعثَرَتْ أشلاؤُها في مَتاهةٍ مُعتِمةٍ مِنْ صُنعِ يَديهِ. فَهذهِ الحُرِّيّةُ إذنْ، التي كانَ يُؤَمِّلُ فيها أنْ

تكونَ انعتاقًا مِنْ كُلِّ قيدٍ، وتحليقًا في فَضاءِ الوَعي بِلا حَدٍّ، تنقَلِبُ بِسُخريّةٍ قاسِيةٍ وتَتَحَوَّلُ إلى سِجنٍ جَديدٍ، فَراغٍ مُديدٍ، رُبّما أشَدَّ قَسوَةً وخَفاءً مِنْ سِجنِ الطّاعَةِ القَديمِ. لِماذا؟ لأنّها تَترُكُهُ وَحيدًا، مَسلوبًا، مُنعزِلاً، في صُحبةِ أفكارِهِ التي تُطارِدُهُ كَأشباحٍ لا تَرحَمُ وتُبيدُ، أشباحٌ لا تَمنَحُهُ لَحْظَةَ هُدنةٍ أوْ سَلامٍ، ولا فُسحةَ التِقاطِ أنفاسٍ أوْ كَلامٍ، ولا تَتيحُ لهُ أنْ يَستقِرَّ أوْ يَطمَئِنَّ في أيِّ رُكنٍ مِنْ أركانِ وَعيِهِ المُضطَرِبِ، المُتَلاطِمِ كَالأمواجِ. وكَأنَّ العقلَ، بِفعلِ حُرّيّتِهِ المُطلَقَةِ، قَدْ أصْبَحَ ساحَةَ مَعركةٍ أبديّةٍ لا نِهايةَ لَها، مَعركةٍ لا عَدُوَّ واضِحًا فيها سِوى الذّاتِ المُمَزَّقَةِ، حَيثُ كُلُّ ضَربةٍ قاضِيةٍ تُوَجَّهُ، لا إلى خارِجٍ بَعيدٍ، بلْ إلى الصَّميمِ القَريبِ، وكُلُّ جُرحٍ غائِرٍ يَنزِفُ بِألَمٍ، ليسَ مِنْ يَدِ عَدُوٍّ لَئيمٍ، بلْ مِنْ فِعلِ يَدِهِ هو، يَدِ الوَعي الذي يُحَطِّمُ نَفسَهُ.

لكِنَّ العقلَ، حينَ يَتَجاوَزُ بِجُرأتِهِ حُدودَ الشَّكِّ المَنهَجِيِّ البَنّاءِ الذي يُنقّي ويُقَوّي، ويَتَبنّى بِتَطَرُّفٍ أعمى "السَّلْبَ المُطلَقَ" الذي يَهدِمُ ولا يُبقي، كَنَهجٍ لا رُجوعَ فيهِ ولا تَأنّي، إنّما يَحكُمُ على نَفسِهِ، بِغَيرِ أنْ يَقصِدَ أوْ يَتَمَنّى، بِالتّآكُلِ الذّاتيِّ البَطيءِ، وبِالانهيارِ الحَتميِّ المُفاجِئِ كَالمُدُنِ التي تَبْلى. يُصبِحُ حالُهُ في هذا التّيهِ، كَحالِ بِناءٍ شاهِقٍ، عَظيمٍ، تَتَهاوى أحجارُهُ المُتماسِكةُ واحِدةً تِلوَ الأُخرى، لا بِفعلِ ريحٍ خارجيّةٍ عاتيةٍ تَضْرِبُ، بلْ تَحتَ وَطأةِ تَصَدُّعاتِهِ الدّاخليّةِ الخَفيّةِ التي لا تَغلِبُ. إذْ يَقِفُ، في عُزلةٍ جَليديّةٍ، في مُواجَهةٍ دائِمةٍ ومُنهِكةٍ مَعَ ذاتِهِ، لا يَقبَلُ أيَّ بَصيصِ يَقينٍ، وَلوْ كانَ مُؤقّتًا، يُهَدِّئُ تَوَتُّرَهُ المُستَعِرَ كَنارٍ، ولا يَسمَحُ لِنَفسِهِ بِأدنى قِسطٍ مِنَ السَّكينةِ أوِ الطُّمأنينةِ، وَلوْ كانَ لِمُجَرَّدِ لَحْظَةٍ عابِرَةٍ كَالطَّيفِ، تُلمِلُ شَتاتَهُ المُبعثَرَ وتُعيدُهُ إلى القَرارِ. إنّهُ، في هذهِ الحالِ المُزريةِ، يُشبِهُ ذلكَ السَّيفَ الحادَّ، المُشْرِقَ، المَسمومَ، الذي لا يُمَيِّزُ في غَمرَةِ حِدَّتِهِ وعُنفِوانِهِ، بينَ صَدرِ العَدُوِّ اللّدودِ وجَسَدِ الفارِسِ المَورودِ الذي يَحمِلُهُ ويَصونُهُ، فَيَقطَعُ بِلا تَمييزٍ كُلَّ ما يَقتَرِبُ مِنهُ بِلا تَفكيرٍ أوْ حَذَرٍ، حتّى يَنتَهِيَ بِهِ الأمْرُ إلى تَقْطيعِ أوصالِهِ الخاصّةِ دونَ أنْ يَدريَ أوْ يَتَحَسَّرَ. أوْ يُشبِهُ ذلكَ اللَّهَبَ المُستَعِرَ، المُتَأجِّجَ، الذي يَلتَهِمُ بِشراهةٍ لا تَعرِفُ الحُدودَ كُلَّ ما حَولَهُ مِنْ هَشيمٍ ويابِسٍ في اشتِعالٍ مَحمومٍ لا يَنطَفِئُ ولا يَخْمُدُ، ثُمَّ يَعودُ، حينَ لا يَجِدُ وَقودًا آخَرَ خارِجيًّا يُشعِلُهُ ويُؤَجِّجُهُ سِواها، لِيَفتَرِسَ ذاتَهُ بِوَحشيّةٍ مُرعِبةٍ حينَ يَنفَدُ ما لَدَيْهِ ويَفْقِدُ. فالفِكرُ، حينَ يَصِلُ إلى هذهِ الدَّرَجةِ القُصوى مِنَ النَّفيِ والتَّعريةِ، مِنَ التَّجريدِ والتَّعريةِ، يَتحَوَّلُ مِنْ أداةٍ نَبيلةٍ لِلكَشفِ والبِناءِ والتَّنويرِ، إلى مُجَرَّدِ أداةِ هَدمٍ عَمياءَ، جَوفاءَ، لا تُتقِنُ سِوى الجَدَلِ العَقيمِ الذي لا يُثمِرُ، والتَّفكيكِ الذي لا يُبقي ولا يَذَرُ، والتَّشكيكِ المَرَضيِّ الذي يَأكُلُ الأخضَرَ

واليابِسَ ولا يَعرِفُ حَدًّا أوْ قرارًا. كأنّه آلةٌ دَقيقةٌ، جبّارةٌ، بالغةُ التّعقيدِ، صُمّمتْ بِعبقَريّةٍ شَيطانيّةٍ، لِتُحطّمَ بِلا رَحمةٍ كُلَّ بناءٍ يُقامُ أمامَها، وكُلَّ معنًى يَتَشكَّلُ ويُرامُ، لكنّها في ذاتِ الوَقتِ تقفُ عاجزةً تَمامَ العجزِ، مَشلولةَ الإرادةِ، عنْ أنْ تبتكِرَ معنًى جديدًا أوْ تُؤسّسَ لِقيمةٍ بَديلةٍ تَستدامُ. لماذا؟ لأنّهُ كُلّما اقترَبَ منْ لَحْظَةِ الخلقِ المُحتَملَةِ، كُلّما حاولَ أنْ يُشَيِّدَ شَيئًا على الأنقاضِ الهامِدةِ، تَسَلَّلَ إليهِ شَكُّهُ القاتِلُ كَسُمٍّ زُعافٍ يَسري في العُروقِ ويُهدِمُ، فَأفسَدَ عليهِ كُلَّ مُحاوَلةٍ جادّةٍ لِصياغةِ حَقيقةٍ مُؤقّتةٍ تُسعِفُهُ، أوْ قِيمةٍ مُتواضِعةٍ تُعيدُ لهُ شَيئًا منَ الاتّزانِ المَفقودِ وتُلطِفُهُ. وهذا الشَّكُّ المُفرِطُ، الشَّكُّ الذي تَحوَّلَ منْ دَواءٍ إلى داءٍ، الذي كانَ يَومًا أداةً نَبيلةً لِلتّحرُّرِ منْ أغلالِ الأوهامِ والخُرافاتِ التي تُتلِفُهُ، يُصبِحُ الآنَ، بِفعلِ تَجاوُزِهِ لِحُدودِهِ المَعقولةِ، سِلاحًا فتّاكًا يُوجَّهُ إلى صَدرِ صاحِبِهِ، خِنجرًا مَسمومًا يَغرِزُهُ العقلُ في قَلبِهِ بِلا شَفَقةٍ، يُدَمّرُ بِهِ كُلَّ بَصيصِ أمَلٍ باقٍ في الاستقرارِ أوِ السَّكينةِ أوِ الهُدوءِ ويُتلِفُهُ. وكأنَّ العقلَ، في ذُروةِ انتِصارِهِ المُتوهَّمِ على القُيودِ، قَدْ حَوَّلَ حُرّيّتَهُ الغاليةَ التي ناضَلَ مِنْ أجلِها، إلى لَعنةٍ أبديّةٍ، إلى جَحيمٍ مُقيمٍ، يُطارِدُهُ ويُعَذِّبُهُ ويُكلِّفُهُ، لا إلى نِعمةٍ تُحرِّرُهُ وتُطْلِقُهُ إلى فَضاءٍ أرْحَبَ وألْطَفُهُ.

وهذا التَّناقُضُ القاتِلُ الذي لا يُحَلُّ، هذا الصِّراعُ المُميتُ الذي لا يُفَلُّ، بينَ شَكٍّ لا يَهدأُ ولا يَكِلُّ، وبَحثٍ عنْ مَعنًى لا يُؤسِّسُهُ العقلُ أوْ يُهِلُّ، هوَ ما يَجعلُ العقلَ السّالِكَ في دَربِ النَّفيِ المُطلَقِ، ضَحيّةً مُستكينةً لِنَفسِهِ، فَريسةً بائسةً لِسِلاحِهِ الذي حَمَلَهُ وظَنَّهُ لا يَضِلُّ. إذْ إنَّ هذا النَّهجَ، في تَطَرُّفِهِ الأعمى، وفي تَجاوُزِهِ لِكُلِّ حَدٍّ أوْ ظِلٍّ، يَجُرُّ صاحِبَهُ حَتمًا، قَسرًا، إلى هاويةٍ سَحيقةٍ لا قَرارَ لَها ولا حَلٍّ، مِنْ عَدَميّةٍ مُتَطرِّفةٍ تَلتَهِمُ كُلَّ قِيمةٍ وتُذِلُّ. إلى صَحراءَ مُوحِشةٍ، قاحِلةٍ، يُصبِحُ فيها كُلُّ بَصيصِ فِكرةٍ يَلوحُ، كُلُّ وَمضةِ مَعنًى تَفوحُ، مُهَدَّدًا بِالقتلِ الفَوريِّ فَورَ وِلادَتِهِ، كَما تُقتَلُ الفَريسةُ الضَّعيفةُ بينَ فَكَّيْ صَيّادٍ قاسٍ لا يَرحَمُ النُّوحَ. وحَيثُ يُعتَبَرُ أيُّ شَبَحٍ لِمَعنًى، أيُّ خَيطٍ واهٍ لِيَقينٍ، يَلوحُ في الأُفُقِ البَعيدِ، مُجرَّدَ قَيدٍ جَديدٍ يُكَبِّلُ الحُرّيّةَ، سِلسِلةٍ أُخرى تَستَعبِدُ الرُّوحَ الأبيّةَ، يَجِبُ تَحطيمُها فَورًا وبِلا هَوادةٍ أوْ تَقيّةٍ، وبِلا نَدَمٍ على ما كانَ لَهُ وَصيّةٌ. لكِنَّ هذا العقلَ المُفرِطَ في نَفيِهِ المُستمِرِّ، لا يُدرِكُ، في غَمرةِ انشغالِهِ بِهَدمِ كُلِّ شَيءٍ يُبصِرُ، وفي سَكرةِ تَفكيكِهِ اللّامُتناهي الذي لا يَستَتِرُ، أنَّ التَّحرُّرَ المُطلَقَ مِنْ كُلِّ القُيودِ والأغلالِ، هذا الحُلمَ الطُّفوليَّ السَّاذجَ بِالطَّيَرانِ بِلا أجنِحةٍ أوْ حِبالٍ، لا يَقودُ إلى فَضاءِ الحُرّيّةِ الحَقيقيّةِ الرَّحْبِ كَما يَتوهَّمُ في الخَيالِ، بلْ يَقودُ مُباشَرةً، وبِلا جِدالٍ، إلى العَدَمِ المُطلَقِ، إلى الفَراغِ الصَّمْتِ

الذي لا شَكلَ لهُ ولا مِثالٍ، ذاكَ الفَراغُ الذي لا يَترُكُ خَلفَهُ شَيئًا يُمكِنُ التَّفكيرُ بهِ أوِ التَّعَلُّقُ بِهِ كَالآمَالِ، ولا حتّى شَيئًا يُمكِنُ الاستمرارُ في نَفيِهِ، لِأنَّ النَّفيَ نَفسَهُ يَحتاجُ إلى شَيءٍ يَنفيهِ لِيَستَمِرَّ في المَقالِ. فَالفِكرُ البَشريُّ، مَهما تَعاظَمَ شَكُّهُ وتَوَسَّعَتْ رُؤاهُ ورَجالُهُ، يَظَلُّ بِحاجَةٍ ماسّةٍ إلى أساسٍ ما، إلى أَرْضٍ ما، وَلَوْ كانَ هذا الأساسُ وَهميًّا كَسَرابٍ في فَلَواتِهِ، يَقومُ عليهِ ويَرتَكِزُ إليهِ في غَدَواتِهِ، وإلى نُقطةِ ارتكازٍ، وَلَوْ كانتْ مُتَحَرِّكةً كَالرِّيحِ، تُتيحُ لهُ أنْ يُشَكِّلَ أفكارًا أوْ يُحَلِّلَها، أوْ حتّى يَنقُضَها بِأدواتِهِ. يَحتاجُ إلى حَدٍّ أدنى منَ المُسلَّماتِ، منَ القَواعِدِ المَنطقيّةِ أوِ اللُّغويّةِ، منْ نِقاطِ البِدايةِ، تُمَكِّنُهُ منَ العَمَلِ كَأداةٍ حَيّةٍ، نَشِطةٍ، كَشُعلةٍ مُضيئةٍ تُبَدِّدُ الظُّلُماتِ، لا كَجُثّةٍ هامدةٍ في المَماتِ. فَعِندَما يَسقُطُ كُلُّ شَيءٍ تَحتَ مِطرَقةِ النَّفيِ القاسيةِ، وعِندَما يُحَطِّمُ العقلُ بِعِنادٍ أعمى كُلَّ أرضيّةٍ يَقِفُ عليها، وكُلَّ جِدارٍ يَستَنِدُ إليهِ بِلا عَطِيّةٍ، لا يَبقى لهُ مَفَرٌّ أوْ مَهْرَبٌ سِوى السُّقوطِ الحُرِّ، السُّقوطِ النِّهائِيِّ، في تِلكَ الهاويةِ السَّحيقةِ التي لا قَرارَ لَها، هاويةِ اللّامَعنى واللّاشَيءِ واللّاجَدْوى العَتِيّةِ. وكَأنَّ التَّفكيرَ المُتواصِلَ، الذي كانَ يَومًا جَناحَهُ الذي بِهِ يُحَلِّقُ، قَدْ تَحوَّلَ بِسُخريةٍ مُرَّةٍ إلى حَبلٍ مَتينٍ يَشْنُقُ بهِ نَفسَهُ ويُحْدِقُ، فَيُعانِقُ العَدَمَ المُطْبِقَ، لا لِيُواجِهَهُ بِشَجاعةٍ أوْ لِيَفهَمَهُ فَيُصَدِّقُ، بلْ لِيَذوبَ فيهِ ويَتَلاشى كَنُقطةِ حِبرٍ باهِتةٍ في بَحرٍ أسوَدَ عَميقٍ لا يَشْفَقُ. وهذا العقلُ السّالِبُ، الذي رَفَضَ بِغُرورٍ وكِبرياءٍ كُلَّ يَقينٍ راسِخٍ، ورَأى في كُلِّ مَعنًى، مَهما كانَ نَبيلًا، قَيدًا يَجِبُ كَسرُهُ كَالسِّوارِ النّاسِخِ، يَجِدُ نَفسَهُ، في نِهايةِ مَطافِهِ المَأساويِّ، عاجِزًا تَمامَ العَجزِ عنِ الفِعلِ الخلّاقِ الذي لا يُشاخِصُ، عاجِزًا عنْ بِناءِ أيِّ شَيءٍ ذي قِيمةٍ، حتّى وإنْ كانَ قَصرًا مُتَهاوِيًا منْ رِمالٍ في وَجْهِ الرِّيحِ الشّاخِسُ. حالُهُ كَحالِ سَفينةٍ ضَلَّتْ طَريقَها، وفَقَدَتْ رُبّانَها وشِراعَها وبُوصَلَتَها، فتاهَتْ في بَحرٍ مُظلِمٍ لا شاطِئَ لهُ يُؤويها ولا نُجومَ في السَّماءِ تَهديها، بَلْ وتَزيدُ على ذلكَ، في عَبَثٍ مُطلَقٍ، بِأنْ تُحَطِّمَ أشرِعَتَها المُتَبَقِّيَةَ بِيَدَيْها، لا لِتَصِلَ إلى وَجهةٍ مُحَدَّدةٍ، فَهِيَ لا تَعرِفُ وَجهةً أصلاً، بلْ فَقَطْ لِتُثبِتَ لِنَفسِها ولِلعَدَمِ أنّها لنْ تَصِلَ أبَدًا، وأنَّ السَّفَرَ عَبَثٌ لا يَليقُ بِأمانيها. مُعلِنًا بِذلِكَ، بِصَوتٍ مُختَنِقٍ، مُنْكَسِرٍ، أنَّ الحُرِّيّةَ المُطلَقةَ، حِينَ تُصبِحُ تَفكيكًا بِلا حُدودٍ، ونَفيًا بِلا قُيودٍ، ليستْ سِوى طَريقٍ مُختَصَرٍ، وَمَمَرٍّ سَريعٍ مُستَعِرٍ، إلى هاويةِ العَدَمِ المُستَقِرِّ. حَيثُ العقلُ، بَعدَ أنْ مَزَّقَ ذاتَهُ إرْبًا إرْبًا بِلا تَدَبُّرٍ، لا يَجِدُ ما يُبقيهِ حَيًّا سِوى أنينِهِ الأخيرِ الخافِتِ الذي يَتَلاشى بِبُطءٍ في صَمتٍ مُطْبِقٍ لا يَسمَعُهُ قَمَرٌ أوْ سَمَرٌ.

فَالتَّفكيكُ المُستمِرُّ، الذي بَدأَ مَشروعًا نَبيلًا مُضيئًا، وأداةً رَصينةً لِتَحريرِ العقلِ مِنْ قُيودِ اليَقينيّاتِ المُتَصَلِّبةِ تَشويقًا، ومِنْ أغلالِ الوَهْمِ العَتيقِ تَحقيقًا، كَما رأيناهُ في بِدايَةِ الطَّريقِ، يَقودُ، إنْ تَجاوَزَ حُدودَهُ المَعقولةَ وانفَلَتَ عِقالُهُ بِلا تَوْثيقٍ، يَقودُ حَتمًا إلى مُنحَدَرٍ خَطِرٍ زَلِيقٍ، إلى نُقطةِ اللّاعَودةِ السَّحيقَةِ، حَيثُ يُصبِحُ كُلُّ شَيءٍ، كُلُّ بِناءٍ فِكريٍّ أوْ عاطِفيٍّ، كُلُّ مَعنًى أوْ قِيمةٍ أوْ تَصديقٍ، قابِلاً لِلزّوالِ والانهيارِ الفَوريِّ، مُهَدَّدًا بِالتَّلاشي والفَناءِ المُطْبِقِ بِلا تَفريقٍ. حتّى تِلكَ الفِكرَةُ الأخيرَةُ التي يَعتَمِدُ عليها، فِكرَةُ التَّفكيكِ ذاتُها التي تُبَرِّرُ هذا الزّوالَ الشّامِلَ وتُعطي لَهُ بَريقًا، تَجِدُ نَفسَها تَحتَ مِقْصَلَةِ النَّفي الذي لا يَرحَمُ ولا يَستَفيقُ، كَأنَّ العقلَ، في ذُروةِ نَشوةِ هَدمِهِ الجُنونيّةِ، يُقدِمُ بِلا تَفكيرٍ على تَحطيمِ المِرآةِ الوَحيدةِ التي كانَ يَرى فيها انعِكاسَ ذاتِهِ المُتَشظّيةِ ويُفيقُ، تارِكًا نَفسَهُ في النِّهايةِ بِلا شَكلٍ مُحَدَّدٍ أوْ مَلامِحَ واضِحةٍ، بِلا هُويّةٍ يَستَنِدُ إليها أوْ وَجهٍ صَديقٍ. إنّها حالَةُ "التَّعريةِ الفِكريّةِ المُطلَقةِ"، التَّجَرُّدِ الكامِلِ حتّى مِنَ الذّاتِ، حَيثُ تُزالُ بِقَسوَةٍ جَرّاحيّةٍ جَميعُ الطَّبَقاتِ الواقِيةِ، كُلُّ الأقنِعةِ المُزَيَّفةِ، التي كانتْ تُغَطّي الذّاتَ الهَشّةَ وتَستُرُ عَوراتِها النَّفسيّةَ، تُزالُ طَبَقةً تِلوَ الأُخرى بِلا هَوادةٍ أوْ شَفَقَةٍ، دونَ أنْ يَبقى تَحتَها في النِّهايةِ سِوى خَواءٍ مُفزِعٍ، فَراغٍ مُطْبِقٍ، عَدَمٍ صامِتٍ، يُحَدِّقُ في نَفسِهِ بِرُعبٍ صامِتٍ لا يُفيقُ. خَواءٌ يَستَعصي على الوَصفِ اللُّغويِّ، يَفوقُ قُدرَةَ الكَلِماتِ على الاحتِواءِ، ولا تَملِكُ النَّفسُ البَشريّةُ، مَهما أوتيَتْ مِنْ صَبرٍ، القُدرَةَ على تَحَمُّلِ ثِقَلِهِ الهائِلِ أوْ مُواجَهةِ وَحشَتِهِ القاتِلةِ دونَ أنْ تَضيقَ. وهذا السُّقوطُ الحُرُّ في الخَواءِ، في العَدَمِ، ليسَ اكتِشافًا مُضيئًا لِلحَقيقةِ العُظمى كَما قَدْ يَتَوهَّمُ المُغْتَرّونَ بِشَكّهِمُ المُطلَقِ، وليسَ وُصولاً إلى جَوهَرِ الوُجودِ النَّقيِّ الصّافي كَما تَحلُمُ الفَلسفاتُ المُتَعالِيةُ، بلْ هوَ، بِكُلِّ بَساطةٍ مُرعِبةٍ وفَجيعةٍ، سُقوطٌ حُرٌّ، مُدَوٍّ، في دَوّامةٍ سَحيقةٍ لا قَرارَ لَها، في مَتاهةٍ مُعتِمةٍ لا مَخارِجَ مِنْها تُرتَجى، حَيثُ يَتَلاشى المُفَكِّرُ نَفسُهُ ويَذوبُ كَحَبّةِ مِلحٍ في بَحرٍ لا نِهايةَ لَهُ، يَضيعُ في مَتاهةٍ لا يَستَطيعُ أنْ يُحَدِّدَ بِأدنى دَرَجاتِ اليَقينِ إنْ كانتْ مَوجودةً فِعلاً في الواقِعِ أمْ أنّها مُجَرَّدُ نَسجٍ أخيرٍ، هَذيانٍ، مِنْ خَيالِهِ المُنهَكِ، كابوسٍ مُظلِمٍ يُوَلِّدُهُ عَقلُهُ المُحتَضِرُ وهوَ يُفارِقُ الحَياةَ ويُشْفي. إنّهُ، بِلا أدنى مُبالَغةٍ أوْ تَزيينٍ، "الانتِحارُ المَعرِفيُّ" بِعَينِهِ، الانتِحارُ الذي لا يَقتُلُ الجَسَدَ، بلْ يَقتُلُ العقلَ ويُرديهِ. اللّحظَةُ التي يُبيدُ فيها العقلُ، بِوَعْيٍ كامِلٍ أوْ بِغَيرِ وَعيٍ، كُلَّ وَسيلةٍ لِلبَقاءِ الفِكريِّ، كُلَّ قارِبِ نَجاةٍ في بَحرِ الشَّكِّ، كُلَّ نُقطةِ ارتِكازٍ أوْ أملٍ في مُستَراحٍ. يُحاصِرُ نَفسَهُ بِذاتِ الشَّيءِ الذي كانَ يَهرُبُ مِنهُ بِهَلَعٍ طَوالَ رِحلَتِهِ الشّاقّةِ المُضنيةِ: بِذلكَ الفَراغِ المُطلَقِ، بِذلكَ العَدَمِ الصّارِخِ، الذي لا يَترُكُ لهُ في النِّهايةِ سِوى صَدى

صَوتِهِ الخافِتِ، أنينِهِ الأخيرِ، وهوَ يتَلاشى ويَذوبُ في اللّاشَيءِ المُحيطِ بِهِ كَضَبابٍ. وكَأنَّ التَّفكيرَ ذاتَهُ، الذي بَدأَ كَأداةٍ سامِيةٍ لِلوَعي والتَّحرُّرِ والنُّورِ، قَدْ تَحوَّلَ، في ذُروةِ شَكِّهِ المُفرِطِ وتَطَرُّفِهِ المُميتِ، إلى حَبلِ المِشنَقةِ الذي يَلتَفُّ بِإحكامٍ حَولَ عُنُقِ صاحِبِهِ، لا لِيُحرِّرَهُ مِنْ قُيودِ الوَهْمِ، بلْ لِيُسَلِّمَهُ، بِلا رَحمَةٍ أوْ شَفَقةٍ، إلى أحضانِ العَدَمِ البارِدةِ الأبَديّةِ التي لا حَياةَ فيها ولا نُورَ.

وكَمْ مِنْ عُقولٍ جَبّارةٍ، كَالنُّجومِ السّاطِعةِ، وَكَمْ مِنْ فُحولٍ في مَيادينِ الفِكرِ لامِعةٍ، قدِ انتَهَتْ رِحْلَتُهُمْ الشّاقّةُ المُضنيةُ، بَعدَ أنْ أبْحَروا في بَحرِ الشَّكِّ بلا خَوفٍ، إلى هذا العَدَمِ المُوحِشِ الكالِحِ، وإلى هذا الصَّمتِ المُطْبِقِ الفادِحِ؟ كَمْ منْ مُفكّرِينَ شُجعانٍ، جَسُورِينَ، في سَعيِهِمُ الدّؤوبِ، المُستميتِ، لِسَبْرِ أغوارِ الوُجودِ العَصيّةِ وكَشفِ حُجُبِهِ الخَفيّةِ، قَدْ مَزَّقوا بِشَجاعةٍ خارِقةٍ حِجابَ الأوهامِ القَديمةِ بِلا رَحمَةٍ، وعَرَّوْا الحقائِقَ المُؤلِمةَ بِقَسوةٍ مُرعِبةٍ، حتّى لَمْ يَبْقَ لَهُمْ في النِّهايةِ، بَعدَ أنْ سَقَطَتْ كُلُّ الأقنِعةِ، سِوى الوُقوفِ عُراةً تَمامًا، مُرتَعِشينَ مِنْ بَردِ الحَقيقةِ، في مُواجَهةٍ مُباشِرةٍ، دامِيةٍ، مَعَ ذلكَ الصَّمتِ الكَونيِّ القاسي، الصَّلْبِ كَالحَدِيدِ الذي لا يُذيبُهُ دَمعٌ. ذلكَ الصَّمتُ الذي لا يُجيبُ على صَرَخاتِهِمُ المُختَنِقةِ في صُدورِهِمْ، ولا يُواسي جُروحَهُمُ النّازِفةَ في أرواحِهِمْ، ولا يَمنَحُهُمْ، حتّى في اللّحَظاتِ الأخيرَةِ، وَهْمًا ضَئيلاً بِالخَلاصِ أوْ سَرابًا بَعيدًا لِلأمَلِ يُضيءُ لَهُمُ الدُّروبَ. إنَّ المُفكِّرَ الحَقيقيَّ، حينَ يَدفَعُ نَفسَهُ بِعِنادِ نادِرٍ وشَجاعةٍ مَجنونةٍ إلى تِلكَ الحُدودِ القُصوى لِلتَّحليلِ والتَّفكيكِ والنَّفيِ، حينَ يَخلَعُ عنْ عَينيهِ بِقُوّةٍ كُلَّ نَظّارةٍ مُلَوَّنةٍ، ويَرفُضُ بِكِبرياءٍ كُلَّ تَبريرٍ مُريحٍ أوْ عَزاءٍ زائفٍ، لا يَعودُ مُجَرَّدَ عَقلٍ نَشِطٍ يَشتَغِلُ ضِمنَ حُدودِ العالَمِ المَألوفِ الآمِنِ كَما كانَ في بِدايَةِ الطَّريقِ، بلْ يَتَحَوَّلُ هوَ نَفسُهُ، بِشَكلٍ مَأساويٍّ لا يُحْتَمَلُ، إلى عالَمٍ قائِمٍ بِذاتِهِ، إلى كَونٍ مُصَغَّرٍ مُضطَرِبٍ تَعصِفُ فيهِ الرِّياحُ الهَوجاءُ لِلقَلَقِ والشَّكِّ. يُصبِحُ ساحَةً مُتَلاطِمةَ الأمواجِ لِصِراعٍ داخِليٍّ لا يَهدأُ أبَدًا ولا يَستَكينُ، حَيثُ كُلُّ فِكرةٍ جَديدةٍ تُولَدُ بِبُطءٍ وألَمٍ في رَحِمِ عُزلَتِهِ، لا تُولَدُ إلا لِتُقتَلَ بِوَحشيّةٍ في مَهدِها، وكُلُّ بِناءٍ هَشٍّ لِليَقينِ يُشادُ بِجُهدٍ مُضنٍ لا يُشادُ إلا لِيُهدَمَ فَورًا وبِلا أدنى تَأخيرٍ، وكُلُّ بارِقةِ مَعنًى خاطِفةٍ تَنبثِقُ كَنَجمةٍ هارِبةٍ في لَيلٍ حالِكٍ، لا تَنبثِقُ إلا لِتَذوبَ وتَتَلاشى في عَدميّتِها المُتَزايِدةِ كَالضَّبابِ الخَفيفِ في شَمسٍ حارِقةٍ لا تُبقي ولا تَذَرُ. هذا العقلُ المُتَشظّي، المُتَصَدِّعُ، هذا الكِيانُ المُمَزَّقُ، لا يَجِدُ أيَّ مَلاذٍ آمِنٍ أوْ راحةٍ حَقيقيّةٍ في التّفكيرِ نَفسِهِ الذي أوصَلَهُ إلى هذا الخَرابِ، بلْ يُصبِحُ التّفكيرُ، يا لَلْمُفارَقةِ القاتِلةِ، هوَ سِجنَهُ الأبَديَّ الذي لا قُضبانَ لهُ، زِنزانَتَهُ الدّاخليّةَ التي لا مَفَرَّ مِنْها إلا بِالمَوتِ أوِ الجُنونِ. وكَأنّهُ مَحكومٌ عليهِ بِالدَّورانِ الأبَديِّ في دائِرةٍ

مُغلَقةٍ، مُفرَغةٍ، منَ التَّشكيكِ الذي لا يُثمِرُ، والتَّفكيكِ الذي لا يَبني، يَهدِمُ كُلَّ ما يَبتَكِرُهُ، ويُبَدِّدُ كُلَّ ما يُحاوِلُ تَشكيلَهُ، حتّى لا يَبقى لهُ في النِّهايةِ سِوى أنْ يَنظُرَ بِعَينٍ فارِغةٍ، مُطفَأةٍ، إلى نَفسِهِ وهوَ يَذوبُ ويَتَلاشى بِبُطءٍ مُؤلِمٍ، كَشَمعةٍ تَحتَرِقُ مِنْ طَرَفَيْها حتّى لا يَبقى مِنْها إلا الدُّخانُ والرَّمادُ. وكَأنَّ الصَّمتَ الكَونيَّ العَميقَ، في قَسوَتِهِ المُطلَقةِ وبُرودَتِهِ الجَليديّةِ، يُصبِحُ هوَ المُعلِّمَ الأخيرَ، الدَّرسَ النِّهائيَّ، لِهذا العقلِ المُحتَضِرِ، لا لِيُعَلِّمَهُ حِكمَةً جَديدةً أوْ يُنقِذَهُ مِنْ عَذابِهِ، بلْ فَقَطْ لِيُظهِرَ لهُ بِوُضوحٍ مُؤلِمٍ، قاسٍ، أنَّ كُلَّ ما سَعى إليهِ بِشَغَفٍ طَوالَ رِحلَتِهِ الطَّويلةِ لَمْ يَكُنْ إلا سَرابًا خادِعًا في صَحراءَ لا نِهايةَ لَها، وأنَّ التَّفكيكَ المُطلَقَ، حينَ يُصبِحُ نَفيًا شامِلاً لا يَعرِفُ حُدودًا، لا يُفضي إلى فَضاءِ الحُرِّيّةِ الوَاسِعِ كَما تَوَهَّمَ، بلْ إلى اختفاءِ العقلِ ذاتِهِ، إلى مَحْوِ الوَعي، في الفَراغِ المُظلِمِ الذي خَلَقَهُ بِيَديهِ وشَكَّهِ. وكَأنَّ الوُجودَ نَفسَهُ، بالنِّسبةِ لَهُ، قَدِ اختُزِلَ إلى مُجَرَّدِ لَحْظَةٍ أخيرةٍ، مُتَوَهِّجَةٍ، منَ الوَعي الحادِّ، المُتأجِّجِ، لَحْظَةٍ لا تُدرِكُ سِوى أنَّها تُطفِئُ نَفسَها بِنَفسِها، تَحرِقُ آخِرَ قَطرةٍ منْ زَيتِها، تارِكةً وَراءَها فَقَطْ صَمتًا مُطبِقًا، عَتمَةً كامِلةً، لا يَسمَعُ فيهِ أحَدٌ شَيئًا، لا صُراخًا ولا أنينًا، ولا حتّى هَمسًا.

فَبَعضُ أولئكَ الذينَ غاصوا في لُجَجِ الفِكرِ المُظلِمةِ حتّى وَصَلوا إلى أعمَقِ نُقطةٍ في قاعِ الهاويةِ، لَمْ يَكونوا مُخطِئينَ في مَساراتِهِمُ الفِكريّةِ الجَريئةِ أوْ ضالّينَ عنْ سَبيلِ الحِكمةِ السَّويّةِ كَما قَدْ يَحكُمُ عليهِمُ النّاسُ العاديّونَ بِسُطوحِهِمُ المَعهودةِ وتَصنيفاتِهِمُ الجاهِزةِ. بلْ لَرُبّما كانوا، ويا لَمَأساةِ هذا الصِّدقِ، أشَدَّ صِدقًا مِمّا يَقوى العقلُ البَشريُّ العاديُّ على احتمالِهِ، وأكثَرَ شَجاعةً في مُواجَهةِ الحَقيقةِ العاريةِ، المُخيفةِ، مِمّا تَستَطيعُ النَّفسُ الهَشّةُ تَحَمُّلَهُ أوْ تَجَرُّعَهُ. لَقَدْ تَجاوَزوا، بِجُرأتِهِمُ القُصوى التي تُشبِهُ الجُنونَ، ذلكَ الخَيطَ الأحمرَ الرَّفيعَ، ذاكَ الحَدَّ الخَطِرَ، الغادِرَ، الذي يَفصِلُ بينَ المَعرِفةِ كَأداةٍ لِلبَقاءِ والتَّكَيُّفِ مَعَ العالَمِ، وبينَ المَعرِفةِ كَعِبءٍ وُجوديٍّ لا يُطاقُ، كَحِمْلٍ جَبَليٍّ يَسحَقُ الكَواهِلَ ويُحَطِّمُ الظُّهورَ. وكَأنّهم، بِفِعلِ غَوصِهِمْ هذا في اللُّجَجِ العَميقةِ، قَدْ فَتحوا بِأيديهِمْ باباً مُوصَدًا كانَ يَجِبُ أنْ يَبقى مُغلَقًا، بابًا لا سَبيلَ إلى إغلاقِهِ مَرّةً أُخرى بَعدَ فَتحِهِ، بابًا يُطِلُّ مُباشَرةً، بِلا سِترٍ، على هاويةٍ سَحيقةٍ لا قَرارَ لَها، على فَراغٍ مُطبِقٍ يَبتَلِعُ كُلَّ مَعنًى وكُلَّ أمَلٍ وكُلَّ نُورٍ. لَقَدْ فَكَّكوا، بِمِشرَطِ النَّقدِ القاسي الذي لا يَرحَمُ، كُلَّ بِناءٍ فِكريٍّ شَيَّدوهُ، كُلَّ وَهمٍ جَميلٍ تَشَبَّثوا بِهِ، كُلَّ قِيمةٍ سامِيةٍ آمَنوا بِها، بِلا هَوادةٍ أوْ تَردُّدٍ أوْ شَفَقةٍ، حتّى لَمْ يَتَبَقَّ لَهُمْ في النِّهايةِ، في عَراءِ وُجودِهِمْ، أيُّ خَيطٍ واهٍ يَتَمَسَّكونَ بِهِ، أوْ أيُّ أرْضٍ صُلْبَةٍ يَقِفونَ عليها بِثَباتٍ. وَجَدوا أنفُسَهُمْ، فَجأةً وبِلا أيِّ مُقَدِّماتٍ، عُراةً تَمامًا، كَأطفالٍ حديثي الوِلادةِ، أمامَ

واقِعٍ مُجرَّدٍ، قاسٍ، بارِدٍ، مُتَعَرٍّ منْ أيِّ لِباسٍ إنسانيٍّ دافِئٍ يُغطّيهِ، أوْ مَعنًى مُريحٍ يُطَمْئِنُهُ. واقِعٌ لا يُبالي بِتَراجيدِيّتِهِمُ الخاصّةِ أوْ بِصُراخِ أرواحِهِمْ. وُجودٌ أصَمُّ، أبكَمُ، غَيرُ مَعنيٍّ بِمأساتِهِمُ الوُجوديّةِ العَميقةِ، غَيرُ مُكترِثٍ بِتَراكُمِ أفكارِهِمُ العَبقَريّةِ أوْ عُمْقِ تَحليلاتِهِمُ الثّاقِبةِ، ولا حتّى بِتِلكَ العَذاباتِ الدّاخليّةِ المُمِضّةِ، القاتِلةِ، التي كانتْ تُمزِّقُ أرواحَهُمْ كَحَدِّ السَّكاكينِ الحادّةِ. وعِندَ هذهِ النُّقطةِ القُصوى منَ العُري المُطلَقِ والوَحدةِ القاسيةِ واليأسِ المُطْبِقِ، يَبدأُ العقلُ، وقَدْ أفْلَسَ تَمامًا منْ كُلِّ مَوضوعٍ خارِجيٍّ يَشغَلُهُ أوْ يَتَغَذّى عليهِ، يَبدأُ في الانقلابِ بِعُنفٍ وَحشيٍّ على ذاتِهِ، على آخرِ مَعقِلٍ لَهُ. يَتحوَّلُ إلى وَحشٍ جائِعٍ، ضارٍ، لا يَجِدُ فَريسَةً أُخرى في صَحراءِ الوُجودِ يَلتَهِمُها سِوى نَفسِهِ الهَزيلةِ، فَيَبدأُ بِالتِهامِ أفكارِهِ التي أنتَجَها بِأَلَمٍ، وبِقَضمِ ما تَبَقّى منْ تَماسُكِهِ الهَشِّ الذي كانَ يَحميهِ. حالُهُ كَحالِ كائِنٍ أُسطوريٍّ قَديمٍ، كَـ"أوروبُورُوس"، يُعاقِبُ على جُرأتِهِ في البَحثِ عنِ المَعرِفةِ وفُضولِهِ الزّائِدِ، بِأنْ يُجبَرَ على أنْ يُطعِمَ لَحمَهُ لِذاتِهِ، في دَوّامةٍ مُرعِبةٍ منَ الأَلَمِ والتّآكُلِ الذّاتيِّ، لا تَنتَهي أبَدًا إلا بِتَلاشيهِ التّامِّ، بِمَحْوِهِ الكامِلِ، في العَدَمِ المُطلَقِ الذي فَتَحَ عليهِ البابَ ولَمْ يَستَطِعْ إغلاقَهُ.

وأوّلُ ما يُنذِرُ بِهذا السُّقوطِ الدّاخليِّ المُريعِ، وأوّلُ عَلاماتِ الانهيارِ الوَشيكِ الذي لا يُدفَعُ، هوَ ذلكَ الإدراكُ المُفاجِئُ، القاطِعُ كَحَدِّ السَّيفِ في المَقطَعِ، بِاستحالةِ التَّراجُعِ الكُلّيِّ أوِ العَودةِ إلى ما كانَ وأوقَعَ. ذاكَ الشُّعورُ المُروِّعُ، الذي يَسري في العِظامِ كَالبَردِ القارِسِ، بِأنَّ البابَ الذي عَبَرَ منهُ إلى أرضِ الشَّكِّ القاحِلةِ المُقْفِرَةِ قَدْ أُغلِقَ خَلفَهُ بِإحكامٍ وإلى الأبَدِ ولَنْ يُفْتَحَ، وأنْ لا جُسورَ باقيةً تَربِطُ بَينَ عالَمِهِ الجَديدِ المُوحِشِ، عالَمِ الحَقيقةِ العارِيةِ، وبينَ جِنانِ اليَقينِ القَديمةِ الدّافِئةِ التي هَجَرَها بِجُرأةٍ ولَمْ يَتَشَفَّعْ. فالمُفَكِّرُ الذي يَبلُغُ هذهِ النُّقطةَ الحَرِجةَ مِنْ تَعريةِ الوَهمِ، نُقطةَ اللّاعَودةِ التي لا رُجوعَ مِنْها، يَرى العالَمَ البَسيطَ السّاذَجَ، العالَمَ الذي يَعيشُهُ عامّةُ النّاسِ في غَفلَتِهِمُ المُبارَكةِ ظاهِريًّا، وطُمأنينَتِهِمُ المُخَدِّرَةِ، وبَساطَتِهِمُ الطُّفوليّةِ، لا كَما يَرونَهُ هُمْ بِعُيونِهِمُ المُغْمَضَةِ، بَلْ يَراهُ بِعَينٍ ثاقِبةٍ كَما هوَ في حَقيقَتِهِ الهَشّةِ المُتَهاويةِ: مُجَرَّدَ بِناءٍ واهٍ، صَرحٍ مُتَداعٍ مِنْ تَفسيراتٍ سَطحيّةٍ مُبتَذَلةٍ، مِنْ حِكاياتٍ مُبَسَّطةٍ تُناسِبُ العُقولَ الكَسولةَ، ومِنْ أكاذيبَ ضَروريّةٍ، لا غِنىً عَنْها، نَسَجَها الخَوفُ البَشريُّ الأزَليُّ لِيُخَفِّفَ بِها الإنسانُ عنْ نَفسِهِ ثِقَلَ الوُجودِ المُميتَ وعَبَثَهُ المُطْبِقَ. بِناءٌ هَشٌّ قامَ على مُعتَقَداتٍ صُمِّمَتْ بِدَهاءٍ، لا لِتَكشِفَ حَقيقةً مُؤلِمةً، بلْ لِتَحفَظَ تَوازُنًا نَفسيًّا مُزَيَّفًا، هَشًّا، لِتُديمَ وَهمًا جَماعِيًّا يُعينُ على البَقاءِ ويُسكِتُ الشَّكْوَى. لكِنَّ هذا المُفَكِّرَ المُعَذَّبَ، على النَّقيضِ التّامِّ مِنْ أولئكَ القانِعينَ بِقُيودِهِمْ، لَمْ يَكتَفِ بِهذهِ

القشرةِ الخارجيّةِ الدّافئةِ التي تُطَمْئِنُ القَلبَ الخائفَ وتُريحُ العقلَ القَلِقَ المُتعَبَ، ولمْ يَقبَلْ أنْ يَعيشَ في ظِلالِ التّفسيراتِ السّهلةِ المُبَسَّطةِ أوْ أنْ يَستكينَ لِراحةِ الجَهلِ المُقَدَّسِ. لا، بلْ إنّهُ، إمّا بِدافِعٍ منْ شَغَفِهِ المَرَضيِّ، القاتِلِ، بِالحَقيقةِ العاريةِ، أوْ بِفعلِ قَدَرِهِ التّراجيديِّ المَحْتومِ الذي لا مَهْرَبَ مِنهُ، قَدْ نَبَشَ في الأعماقِ المُظلِمةِ للوَعي بِلا تَردُّدٍ أوْ وَجَلٍ، حَفَرَ في طَبَقاتِ الوَهْمِ المُتَراكِمةِ حتّى اخترَقَ كُلَّ طَبَقةٍ وَهميّةٍ، وكُلَّ ستارٍ مُزَخرَفٍ، وكُلَّ قِناعٍ مُلَوَّنٍ، لِيَسقُطَ في النّهايةِ، بِلا شَبكةِ أمانٍ تَحميهِ، في تِلكَ الهاويةِ السّحيقةِ المُخيفةِ التي كانَ رُبّما يَحذَرُ مِنْها في أعماقِهِ دونَ أنْ يَعلَمَ مَكانَها الحَقيقيَّ أوْ يَقدِرَ عُمْقَها المَهولَ. وهُناكَ، في تِلكَ العَتمَةِ المُطْبِقةِ التي لا نُورَ فيها، في قاعِ الفَراغِ الذي وَصَلَ إليهِ بِشَجاعةٍ ويأسٍ، لا يُصبِحُ التّراجُعُ مُمْكِنًا، ولا تَعودُ العَودةُ إلى الوَراءِ خِيارًا مَطروحًا. لا يُمكِنُ إعادةُ بِناءِ الوَهْمِ الجَميلِ بَعدَ أنْ تَمزَّقَتْ أركانُهُ وتَهاوَتْ أعْمِدَتُهُ بِأيدي مُكتَشِفِهِ، كَحالِ مَنْ هَدَمَ بَيتًا قَديمًا كانَ يَظُنُّهُ قَصرًا مَنيعًا، فَلَمْ يَجِدْ تَحتَ أنقاضِهِ المُتَناثِرةِ سِوى فَراغٍ مُتَّسِعٍ، مُخيفٍ، يَبتَلِعُهُ ويُحاصِرُهُ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ. وهذا السُّقوطُ المَريعُ، هذهِ النّهايةُ المُفْجِعةُ لِلبَحْثِ عنِ الحَقيقةِ، ليستْ مُجَرَّدَ خَسارةٍ لِيَقينٍ مُعيَّنٍ كانَ يَعتَنِقُهُ ويُدافِعُ عنهُ، بلْ هيَ خَسارةٌ أفدَحُ، أشَدُّ إيلامًا: إنّها خَسارةٌ لِـ "إمكانيّةِ اليَقينِ" ذاتِها، لِلقُدرةِ على الإيمانِ بِأيِّ شَيءٍ، بِأيِّ مَعنًى، بِأيِّ قِيمةٍ، بَعدَ الآنَ. وكَأنَّ العقلَ، في لَحْظَةِ تَجَلٍّ أخيرةٍ وقاسيةٍ لا تُنسى، يُدرِكُ بِصَدمةٍ لا تُوصَفُ أنَّ كُلَّ ما آمَنَ بِهِ يَومًا بِحَرارةٍ، كُلَّ ما استَنَدَ إليهِ بِثِقةٍ، لَمْ يَكُنْ سِوى ستارٍ رَقيقٍ، هَشٍّ، حِجابٍ شَفّافٍ كَالماءِ، يُخفي خَلفَهُ بِبَراعةِ العَدَمَ المُطلَقَ، الفَراغَ الكَونيَّ. وعِندَما تَجَرَّأَ ومَزَّقَ هذا السِّتارَ الأخيرَ بِيَدَيهِ، لَمْ يَجِدْ أيَّ أرْضٍ صُلْبَةٍ يَستَنِدُ عليها أوْ يَستَريحُ، لَمْ يَجِدْ سِوى نَفسِهِ مُعلَّقًا، ضائِعًا، في فَراغِ اللّاشَيءِ المُطْلَقِ، وَحيدًا، تائِهًا، بِلا مَرجِعٍ يُرشِدُهُ أوْ دَليلٍ يَقودُهُ أوْ نَجْمٍ يُؤْنِسُهُ.

وحينَ يَصِلُ المُفَكِّرُ المُعَذَّبُ، المُحاصَرُ بِوَعيِهِ، إلى هذهِ النُّقطةِ الحَرِجةِ، القاتِلةِ، إلى تِلكَ "نُقطةِ اللّاعَودَةِ" المَشؤومةِ التي تَجَرَّدَ فيها منْ كُلِّ قِناعٍ مُزَيَّفٍ وكُلِّ وَهمٍ مُخَدِّرٍ، ووَقَفَ عارِيًا تَمامَ العُري أمامَ فَراغِ الوُجودِ المُخيفِ كَما رأيناهُ في انحدارِهِ المَأساويِّ، لا يَتَبَقّى أمامَهُ، في الغالِبِ الأعمِّ، وفي حُكمِ القَدَرِ القاسي، سِوى مَسارَيْنِ مُوحِشَيْنِ، خِيارَيْنِ كَحَدَّيْ مُدْيَةٍ حادّةٍ، لا ثالِثَ لَهُما في قاموسِ المَصيرِ المُظلِمِ: إمّا الجُنونُ أوِ العَدَمُ. إمّا أنْ يُسْجَنَ جَسَدُهُ المُنهَكُ، ويُكَبَّلَ ما تَبَقّى منْ وَعيِهِ المُتَشظّي كَزُجاجٍ مَكسورٍ، داخِلَ جُدرانِ مَصَحّةٍ عَقليّةٍ بارِدةٍ كَالقَبرِ، حَيثُ يُصبِحُ أسيرًا لِعالَمِهِ الدّاخِليِّ المُنهارِ كَمَدينةٍ مُدَمَّرةٍ،

مُحاصَرًا بِأشباحِ أفكارِهِ التي لا تَهدأُ ولا تَنامُ، مُنْقَطِعًا بِالكُلّيّةِ عنْ أيّ صِلةٍ بِواقِعٍ لَمْ يَعُدْ يَفهَمُهُ أوْ يَستطيعُ احتِمالَهُ. وإمّا أنْ "يُحَرِّرَ" نَفسَهُ بِطَريقَتِهِ الخاصّةِ، في لَحْظَةِ يَأسٍ مُطْبِقٍ لا نُورَ فيها أوْ بِقَرارٍ عَقليٍّ أخيرٍ، بارِدٍ كَالجَليدِ، بِفُوَّهةِ مُسَدَّسٍ تَضَعُ، بِضَربةٍ واحِدةٍ خاطِفةٍ كَالبَرقِ، نُقطةَ النِّهايةِ لِهذهِ المَعركةِ الدّاخليّةِ الضّارِيةِ، لِهذا العَذابِ الذي لا يُطاقُ. فالمَصَحّاتُ العَقليّةُ، تِلكَ الأماكِنُ المُظلِمةُ التي يَنظُرُ إليها عامّةُ النّاسِ بِخَليطٍ مُرْبِكٍ منَ الخَوفِ والشَّفَقةِ والرُّعبِ، كَمَلاجِئَ لِلمَجانينِ والمُختَلّينَ والمُهَروسينَ، لَمْ تَكُنْ في حَقيقةِ الأمرِ، على مَرِّ التّاريخِ الدّامي لِلفِكرِ، مُجَرَّدَ سُجونٍ مُحكَمةٍ تُحتَجَزُ فيها العُقولُ المُضطَرِبةُ وتُقَيَّدُ كَما قَدْ يُظَنُّ بِسَطحيّةٍ مُخِلّةٍ. لا، بلْ كانتْ، في كَثيرٍ منَ الأحيانِ، مَحطّاتٍ أخيرةً، مَرافِئَ نِهائيّةً مُحزِنةً، لِأولئكَ القِلّةِ الشُّجاعةِ، أوِ المَلعونةِ، الذينَ رَأوا أكثَرَ مِمّا يَنبَغي، الذينَ تَجاوَزوا بِجُرأةٍ خارِقةٍ حُدودَ البَصَرِ البَشريِّ المَحدودِ، ونَظَروا بِثَباتٍ مُخيفٍ في وَجهِ الحَقيقةِ العارِيةِ دونَ قِناعٍ واقٍ، أولئكَ الذينَ حَمَلوا منْ ثِقَلِ الوَعيِ عِبئًا هائلًا، لا يُحمَلُ، فاقَتْ قُوَّتُهُ الجبّارةُ طاقَةَ تَحَمُّلِ أجسادِهِمُ البَشريّةِ الهَشّةِ فانْهاروا. وهُناكَ، بينَ الجُدرانِ البَيضاءِ الصّامِتةِ كَالقُبورِ، يُحْقَنونَ بِالمُهَدِّئاتِ القَويّةِ، لا كَعِلاجٍ شافٍ لِمَرَضٍ، بلْ كَمُحاوَلةٍ يائِسةٍ، أخيرةٍ، لِإسكاتِ ضَجيجِ أفكارِهِمُ التي لا تَهدأُ كَالعاصِفةِ، لِتَخديرِ ألَمِ الوَعيِ الذي لا يَنطفِئُ كَالجَمرِ المُتَّقِدِ. يُجَرَّدونَ، بِقَسوةٍ، منْ قُدرَتِهِمْ على التّفكيرِ بِعُمْقٍ، على التَّحليلِ والنَّقدِ، وكَأنّهُ عِقابٌ أخيرٌ، مَشروعٌ، على جُرأتِهِمُ القُصوى في تَحَدّي المُسلَّماتِ المُقَدَّسةِ وتَحطيمِ الأصنامِ. يُجبَرونَ، بِطُرُقٍ شَتّى، على نِسيانِ ما لا يُمكِنُ نِسيانُهُ، على مَحْوِ ما حُفِرَ في أرواحِهِمْ بِحِبرِ الألَمِ والوَعيِ، لِيَعودوا، إنْ عادوا أصلاً، إلى العالَمِ الخارِجيِّ كَأشباحٍ باهِتةٍ بِلا ذاكِرةٍ حَيّةٍ، كَدُمًى فارِغةٍ مُبَرمَجةٍ تَتحَرَّكُ بِلا غايةٍ ولا روحٍ ولا حَياةٍ. وكَأنَّ شَيئًا لَمْ يَكُنْ، وكَأنَّ كُلَّ تِلكَ الرِّحلَةِ الشّاقّةِ، الدّاميةِ، في أغوارِ الفَراغِ واللّايَقينِ والعَدَمِ لَمْ تَترُكْ خَلفَها سِوى جَسَدٍ فارِغٍ يَتَنَفَّسُ هَواءً، ولكِنّهُ لا يَعيشُ حَقًّا، جَسَدٌ مَيِّتٌ يَسيرُ. أمّا الآخَرونَ، أولئكَ الذينَ رَفَضوا بِعِنادٍ وتَمَرُّدٍ هذا الصَّمتَ القَسريَّ، هذا المَوتَ البَطيءَ في سِجنِ الجَسَدِ، والذينَ لَمْ يَقبَلوا أنْ يُصبِحوا مُجَرَّدَ "أحياءٍ مَيتينَ" يَقتاتونَ على فُتاتِ الأدويَةِ المُخَدِّرةِ ويَذبلونَ شَيئًا فَشَيئًا تَحتَ رَحمَةِ الجُدرانِ البَيضاءِ الخانِقةِ، فَقَدِ اختاروا بِوَعْيٍ كامِلٍ، بِإرادَةٍ حُرّةٍ أخيرَةٍ، أنْ يُنهوا الأمْرَ بِأنفُسِهِمْ، أنْ يُغلِقوا الكِتابَ بِأيديهِمْ، أنْ يَقفِزوا بِشَجاعةٍ في الهاويةِ. وهذا الاختيارُ الأخيرُ، المَأساويُّ، غالِبًا، لَمْ يَكُنْ نابِعًا منْ مُجَرَّدِ يَأسٍ عَقيمٍ لا يُثمِرُ، أوِ انهيارٍ عاطِفيٍّ مُفاجِئٍ كَما قَدْ يُفهَمُ بِتَبسيطٍ مُخِلٍّ، بلْ كانَ، في كَثيرٍ منَ الحالاتِ المُوثَّقةِ لِعُقولٍ عَظيمَةٍ، نِتاجَ مَنطِقٍ

بارِدٍ، صارِمٍ، لا يَعرِفُ المُساوَمةَ، كَخُطوةٍ أخيرةٍ، حَتميّةٍ، نِهائيّةٍ، في مَسيرةِ العقلِ نَحوَ استنتاجاتِهِ القُصوى التي لا تَرحَمُ ولا تُجامِلُ. وكَأنَّ المَوتَ الإراديَّ قَدْ أصْبَحَ هوَ الحَلَّ المَنطقيَّ الوَحيدَ، النِّهايةَ المُتَّسِقةَ التي لا بُدَّ مِنْها، لِمُعادَلةٍ وُجوديّةٍ مُستعصِيةٍ لمْ يَعُدْ لَها أيُّ حَلٍّ آخَرَ مُمْكِنٍ ضِمنَ حُدودِ الحَياةِ والوَعي والأَلَمِ.

وإنَّ كُلَّ مُحاوَلةٍ جَريئةٍ لِكَسرِ قُيودِ الأوهامِ المُتَراكِمَةِ، ولِهَدمِ صُروحِ اليَقينِ المُتَوارَثِ المُتَحَجِّرِ، كَما فَعَلَ ذلكَ المُفَكِّرُ المُعَذَّبُ في مَسيرَتِهِ الشّاقّةِ التي أفضَتْ بِهِ إلى حافّةِ العَدَمِ المُظْلِمِ، لا بُدَّ، في نِهايةِ المَطافِ الحَتميِّ، أنْ تُفضيَ بِصاحِبِها إلى مُواجَهةِ ذلكَ السُّؤالِ الأخيرِ، السُّؤالِ المُهْلِكِ، الأشدِّ حِدّةً وقَسوَةً منْ أيِّ سِلاحٍ أوْ سُمٍّ، السُّؤالِ الذي يَقطَعُ نِياطَ الوَعي كَنَصلِ سِكّينٍ جَرّاحٍ بارِدٍ: "ومَاذا بَعدَ؟". ماذا بَعدَ أنْ تَجَرَّأتَ على المُقدَّسِ وأسقَطتَ إلهَكَ المَوروثَ مِنْ عَلياءِ عَرشِهِ الوَهميِّ؟ وماذا بَعدَ أنْ حَطَّمتَ بِيديكَ المُرتَعِشَتَيْنِ تِلكَ المُثُلَ العُليا، تِلكَ النُّجومَ البَرّاقَةَ، التي كانتْ يَومًا تُنيرُ لكَ الطَّريقَ في ظُلُماتِ الحَيرةِ والقَلَقِ؟ وماذا بَعدَ أنْ لَفَظْتَ منْ فَمِكَ بِازدِراءٍ كُلَّ مَعنًى مُلَفَّقٍ، كُلَّ قِيمةٍ مُستَعارةٍ، فُرِضَتْ عليكَ منَ الخارِجِ، لَفْظَتَهُ كَما يُبصَقُ السُّمُّ القاتِلُ أوْ يُطرَدُ الوَباءُ المُميتُ؟ قَدْ تَشعُرُ، لِوَهلَةٍ واحِدةٍ، خاطِفةٍ، بِنَشوةٍ عارِمةٍ منَ القُوّةِ العُظمى، بِلَذّةٍ مُسكِرةٍ، حارِقةٍ، منَ التَّحَرُّرِ الذي طالَما نَشَدْتَهُ وحَلُمْتَ بِهِ. ذاكَ الشُّعورُ الخادِعُ الذي يُوهِمُكَ لِلَحظةٍ، لِمُجَرَّدِ لَحْظَةٍ، أنَّكَ قَدْ أصْبَحتَ أخيرًا سَيِّدَ نَفسِكَ، ومالِكَ أمرِكَ، والمُتَحَكِّمَ في خُيوطِ مَصيرِكَ وعالَمِكَ. لكِنْ، ما الذي يَحدُثُ حَقًّا في اللَّحْظَةِ التي تَلي هذهِ النَّشوةَ العابِرةَ؟ حِينَما تَتَلاشى وتَتَبَدَّدُ تِلكَ النَّشوةُ الزّائِفةُ كَسَحابَةِ دُخانٍ في الهَواءِ؟ هلْ تَجِدُ حَقًّا شَيئًا صُلبًا، مَتينًا، تُقيمُهُ في مَكانِ ما هَدَمتَ منْ أصنامٍ شاهِقةٍ وقِلاعٍ مَنيعةٍ؟ هلْ تَملِكُ مادّةً حَقيقيّةً لِبِناءِ مَعنًى جَديدٍ، أصيلٍ، يُعيدُ إليكَ شَيئًا منَ الاتِّزانِ المَفقودِ أو يُرَمِّمُ شُروخَ رُوحِكَ؟ أمْ أنَّكَ، في غَفلَةِ انتِصارِكَ المَزعومِ على القُيودِ، ودونَ أنْ تُدرِكَ كَيفَ ومَتى حَدَثَ الأمْرُ، تُصبِحُ عالِقًا، مُحتَجَزًا، ضائِعًا، في فَراغٍ هائِلٍ، مُرعِبٍ، يَلتَهِمُكَ، في ظُلمةِ اللّاشَيءِ المُطْلَقِ الذي صَنَعتَهُ بِفِعلِ هَدمِكَ لِكُلِّ شَيءٍ؟ إنَّ هذا السُّؤالَ الأخيرَ، سُؤالَ "ماذا بَعدَ؟"، ليسَ مُجَرَّدَ تَساؤُلٍ فَلسفيٍّ عابِرٍ، أوْ نَزوةٍ فِكريّةٍ مُتَرَفةٍ لِلعُقولِ الفارِغةِ. بلْ هوَ الصَّدى الأخيرُ، المُفْزِعُ، لِعقلٍ مَزَّقَ ذاتَهُ بِنَفسِهِ ولَمْ يَعُدْ يَملِكُ ما يُرَمِّمُ بِهِ أنقاضَهُ المُتَناثِرةَ. صَدًى يَائِسٌ، مَبحوحٌ، يَتَرَدَّدُ ويَضيعُ في فَضاءٍ خالٍ، بارِدٍ، صامِتٍ، لا يَرُدُّ عليهِ أحَدٌ، ولا يَسمَعُ أنينَهُ كائِنٌ. وكَأنَّكَ تَجِدُ نَفسَكَ فَجأةً واقِفًا، وَحيدًا، على حافّةٍ سَحيقةٍ تُطِلُّ على هاويةٍ لا قَرارَ لَها،

فَتُدرِكُ، بِرُعبٍ يَشُلُّ الأطرافَ ويُجَمِّدُ الدِّماءَ، أنَّ كُلَّ ما فَعَلتَهُ مِنْ تَفكيكٍ وهَدمٍ وتَحريرٍ، لَمْ يَكُنْ في النِّهايةِ سِوى حَفرٍ لِقَبرِكَ الخاصِّ، بِاستِخدامِ ذاتِ أدواتِ التَّفكيرِ التي ظَنَنْتَها يَومًا مَفاتيحَ لِلحُرِّيّةِ والخَلاصِ!

فَالبَشَرُ، في نِهايةِ المَطافِ، وَعِندَما تَنجَلي غُيومُ الأوهامِ، ليسوا آلِهةً خالِقةً تَصنَعُ العَوالِمَ بِكَلِمةٍ، وهُنا تَحديدًا تَكمُنُ مَأساتُهُمُ الأعمقُ، وجُرحُهُمُ الوُجوديُّ الذي لا يَندَمِلُ أبَدًا. هُمْ، بِطَبيعَتِهِمُ المَحدودةِ، القاصِرةِ، لا يَملِكونَ تِلكَ القُدرةَ الإعجازيّةَ، السِّحريّةَ، على أنْ يَخلُقوا مَعنًى حَقيقيًّا، صُلبًا، مِنْ صَميمِ العَدَمِ المُطلَقِ، أنْ يُشَيِّدوا نِظامًا مُتَماسِكًا مِنْ رُكامِ الفَوضى الكَونيّةِ. مَهما تَوَهَّموا ذلِكَ في لَحَظاتِ الغُرورِ الفِكريِّ العابِرِ الذي يُسكِرُ العُقولَ، ومَهما خُيِّلَ إليهِمْ، في سَكرةِ النَّشوةِ بِحُرِّيَّتِهِمُ المُكتَشَفةِ حَديثًا، أنَّهم قادِرونَ على العَيشِ بِثَباتٍ وصُمودٍ في ذلكَ الفَراغِ الهائِلِ، في تِلكَ العُزلةِ المُوحِشةِ القاتِلةِ، بِلا أيِّ إطارٍ مَرجِعيٍّ خارِجيٍّ أوْ داخِليٍّ يُعطيهِمْ شَكلاً أوْ يَمنَحُهُمْ مَعنًى أوْ يَشُدُّ أزْرَهُمْ. قَدْ يُحاوِلونَ بِعِنادٍ، قَدْ يُقنِعونَ أنفُسَهُمْ بِأنَّ الحُرِّيّةَ المُطلَقةَ مِنْ كُلِّ قَيدٍ هيَ القُوّةُ العُظمى، هيَ اليَقينُ الأخيرُ، هيَ التِّرياقُ الشّافي لِكُلِّ داءٍ وُجوديٍّ. لكِنَّ التَّجرِبةَ القاسيةَ، وتَاريخَ الفِكرِ الدّامي الطّويلَ، يُثبِتانِ بِما لا يَدَعُ مَجالاً لِلشَّكِّ، أنَّ كُلَّ مَنْ تَجَرَّأَ ونَظَرَ بِلا خَوفٍ في وَجهِ العَدَمِ المُطلَقِ مُباشَرةً، وكُلَّ مَنْ سارَ واقتَرَبَ مِنْ حافّةِ الهاويةِ السّحيقةِ دونَ أنْ يُغمِضَ عَينَيهِ أوْ يَرتَدَّ هَلَعًا، قَدْ أدرَكَ تِلكَ الحَقيقةَ الفَظيعةَ، الحَقيقةَ التي لا تُطاقُ ولا تُحتَمَلُ: أنَّ الهاويةَ لا تَنظُرُ إليكَ بِاهتمامٍ، كَما قَدْ يُخَيَّلُ لَكَ في لَحَظاتِ الرُّومانسيّةِ الفَلسفيّةِ الحالِمةِ التي تَخدَعُ. وهيَ قَطْعًا لا تُراهِنُ عليكَ أوْ على قُدرَتِكَ الهَزيلةِ على الصُّمودِ أمامَها، ولا تُبالي، ولَنْ تُبالِيَ أبَدًا، بِصِراعِكَ الدّاخِليِّ المُميتِ أوْ بِجُهدِكَ المَحمومِ العَبثِيِّ. الهاويةُ الصّامِتةُ، البارِدةُ، الغامِضةُ، بِبَساطةٍ مُرعِبةٍ، تَبتَلِعُكَ. نَعَمْ، تَبتَلِعُ بِلا رَحمةٍ كُلَّ مَنْ يَقتَرِبُ مِنْها أكثَرَ مِنَ اللاّزِمِ، تُذيبُكَ في صَمتِها الأبَديِّ المُطْبِقِ كَما تُذيبُ الشَّمسُ الحارِقةُ نُدفةَ الثَّلجِ الهَشّةَ، دونَ أنْ تُبدِيَ أدنى اهتمامٍ بِمَأساتِكَ الوُجوديّةِ، ودونَ أنْ تُقَدِّمَ أيَّ رَدٍّ أوْ صَدًى لِصَرخاتِكَ اليائِسةِ التي تَتَلاشى وتَضيعُ في فَضائِها اللاّمُتناهي المَجهولِ. وهذا العَدَمُ المُطلَقُ، هذا الغِيابُ الكُلِّيُّ التّامُّ، ليسَ عَدُوًّا خارِجيًّا يُمكِنُ مُواجَهَتُهُ بِالسِّلاحِ أوْ هَزيمَتُهُ بِالشَّجاعةِ، بلْ هوَ غِيابٌ مُطلَقٌ لا يُمكِنُ مُقاوَمَتُهُ، لِأنّهُ أصلاً لا يَملِكُ وُجودًا مُستَقِلاً لِتُصارِعَهُ أوْ تَتَغلَّبَ عليهِ. بلْ هوَ "اللاّوُجودُ" ذاتُهُ، ذلكَ الفَضاءُ السَّحيقُ، المُعتِمُ، الذي يُفضي إليهِ حَتمًا كُلُّ تَفكيكٍ جَذريٍّ، وكُلُّ نَفيٍّ مُطلَقٍ. حَيثُ العَقلُ، بَعدَ أنْ هَدَمَ كُلَّ شَيءٍ تَحتَ قَدَمَيهِ، بَعدَ أنْ حَطَّمَ كُلَّ

أساسٍ كانَ يَرتَكِزُ إليهِ، يَجِدُ نَفسَهُ في النِّهايةِ أمامَ ذاتِ السُّؤالِ المُميتِ، المُعَلَّقِ في الفَراغِ "ماذا بَعدَ؟" دونَ أنْ يَملِكَ، ولا حتّى أنْ يَتَخَيَّلَ، أيَّ إجابةٍ مُمكِنةٍ أوْ أيَّ طَريقٍ لِلنَّجاةِ. وكَأنَّهُ، في لَحظةِ الحَقيقةِ الأخيرَةِ، القاسيةِ، يَقِفُ على حافّةٍ لا تُطِلُّ على مَشهَدٍ خارِجيٍّ، بلْ تُطِلُّ فَقطْ على نَفسِهِ وهوَ يَسقُطُ سُقوطًا حُرًّا في لُجَّةِ اللّانِهايةِ، فَيُدرِكُ بِأَلَمٍ حادٍّ، لاذِعٍ، أنَّ كُلَّ ما سَعى إليهِ مِنْ تَحريرٍ، وكُلَّ ما حَلُمَ بِهِ مِنْ تَنويرٍ، لمْ يَكُنْ سِوى مُحاوَلةٍ بائِسةٍ لِمَلءِ فَراغٍ لا يَمتَلِئُ ولا يُملأُ أبَدًا، وأنَّ حُرِّيَّتَهُ التي ظَنَّها انتِصارًا مُبينًا، لمْ تَكُنْ في حَقيقةِ الأمرِ سِوى الخُطوةِ الأُولى، المُمَهِّدَةِ، القاتِلةِ، نَحوَ ابتِلاعِهِ الحَتميِّ في تِلكَ الهاويةِ العَمياءِ، الهاويةِ التي لا تَرى ولا تُرى، ولا تَسمَعُ ولا تُبالي.

فَإذا كانَ الفِكرُ البَشريُّ، في صَميمِ كَينونَتِهِ وآليّةِ عَمَلِهِ القَلِقَةِ، مُجرَّدَ أداةٍ جَبّارةٍ لِلنَّفيِ والسَّلْبِ والتَّجريدِ، كَما تَبَيَّنَ لَنا بِشَكلٍ مُفْجِعٍ في هذهِ المَسيرةِ المُهلِكةِ مِنَ التَّفكيكِ المُتَواصِلِ الذي لا يَرحَمُ، وإذا ثَبُتَ عَجزُهُ المُتَأَصِّلُ، المُخْجِلُ، عنْ أنْ يَمْنَحَ الوُجودَ شَيئًا إيجابيًّا صُلبًا يُؤَسِّسُهُ أوْ يَرتَكِزُ إليهِ، أوْ مَعنًى خالِدًا، باقِيًا، يَبْنيهِ ويُشَيِّدُهُ، وكانَ قُصارى جُهدِهِ، في كُلِّ مَرّةٍ، مُقتَصِرًا على الدَّوامِ على سَلبِ كُلِّ ما يَقَعُ في طَريقِهِ مِنْ قِيمةٍ مُتَوَهَّمَةٍ أوْ يَقينٍ زائِفٍ، وعلى نَفيِ كُلِّ أساسٍ مَتينٍ تُحاوِلُ الذّاتُ التّائِهَةُ أنْ تَتَشَبَّثَ بِهِ كَطَوقِ نَجاةٍ. إذا كانَ الأمْرُ كَذلِكَ، وهُوَ كَذلِكَ في الغالِبِ الأعَمِّ، فَلا عَجَبَ إذنْ، ولا أيُّ مَثارٍ لِلدَّهشةِ أوِ الاستغرابِ، في أنَّ كُلَّ مَنْ سَلَكَ هذا الدَّربَ الشّائِكَ، المُظلِمَ، حتّى وَصَلَ إلى نِهايَتِهِ المَسدودةِ، كَما فَعَلَ أولئكَ الرّائِدونَ المَأساويّونَ، أبطالُ الفِكرِ الذينَ واجَهوا الهاويةَ بِصُدورٍ عاريةٍ وقلوبٍ مُتَوَهِّجَةٍ، قَدْ وَجَدَ نَفسَهُ في خاتِمةِ المَطافِ المُحزِنِ أمامَ مَصيرَيْنِ لا ثالِثَ لَهُما، أمامَ مُفتَرَقِ طُرُقٍ لا يُفضي إلا إلى الهَلاكِ والخُسرانِ: إمّا الجُنونُ الذي يُحَطِّمُ أركانَ العقلِ الهَشِّ تَحتَ وَطأةِ تَناقُضاتِهِ التي لا تُحَلُّ ولا تُحتَمَلُ، ويُلقي بِهِ في غَيابَةِ جُبٍّ مِنَ الهَذَيانِ، وإمّا العَدَمُ السَّرمَديُّ المُطْبِقُ الذي يَبتَلِعُهُ في صَمتِهِ الجَليديِّ ويَمحو أثَرَهُ مِنَ الوُجودِ كَأنْ لمْ يَكُنْ. إنَّ هذهِ ليستْ مُجَرَّدَ نَتيجةٍ مُحتَمَلةٍ ضِمنَ نَتائِجَ أُخَرَ، بلْ هيَ، في الغالِبِ، نِهايةٌ مَحْتومةٌ، قَدَرٌ لا مَفَرَّ مِنهُ، لِكُلِّ مَنْ يَتَجاوَزُ بِغُرورٍ أوْ بِشَجاعةٍ مَجنونةٍ حُدودَهُ العقليّةَ والطّبيعيّةَ، لِكُلِّ مَنْ يُصِرُّ بِعِنادٍ أعمى على إنكارِ كُلِّ شَيءٍ، على تَحطيمِ كُلِّ بِناءٍ، دونَ أنْ يَمتَلِكَ القُدرةَ أوَ الإرادَةَ على أنْ يُقَدِّمَ بَديلًا بنّاءً، مَعنًى جَديدًا، يُنقِذُهُ مِنْ هذا الدَّمارِ. حالُهُ كَحالِ مَنْ يُحَطِّمُ بِعُنفٍ وجُنونٍ كُلَّ جِسرٍ يَعبُرُهُ خَلفَهُ، ظانًّا أنَّهُ بِذلِكَ يَتَحَرَّرُ مِنْ قُيودِ الماضي ويَقطَعُ حِبالَهُ، دونَ أنْ يُدرِكَ، في سَكرَةِ هَدمِهِ وتَخريبِهِ، أنَّهُ إنّما يَقطَعُ على نَفسِهِ كُلَّ طَريقٍ مُمكِنٍ لِلعَودةِ أوْ لِلنَّجاةِ أوْ حتّى

لِلتَّراجُعِ. فَإنّكَ، أيُّها السّالِكُ في هذا الدَّربِ الخطِرِ، وفي هذا السَّعي الذي لا يَعرِفُ الكلَلَ نَحوَ التَّفكيكِ المُطلَقِ والنَّفي الشّامِلِ، تُفضي بِلا شَكٍّ، إنْ وَاصَلْتَ حتّى النّهايةِ، إلى فُقدانٍ كامِلٍ لِكُلِّ المَرجِعيّاتِ التي كانَتْ تُنيرُ لكَ الطَّريقَ، تَفقِدُها واحِدةً تِلوَ الأُخرى بِلا أسَفٍ أوْ نَدَمٍ، كَمَنْ يُزيلُ بِجَهالةٍ أوْ بِتَحَدٍّ أحجارَ الأساسِ الصُّلْبَةِ منْ بِناءٍ شاهِقٍ يَسكُنُهُ، حتّى يَنهارَ السَّقفُ فَوقَ رأسِهِ ويَسحَقَهُ. فَتَجِدُ نَفسَكَ في النّهايةِ، لا حُرًّا طَليقًا كَما كُنتَ تَأمُلُ وتَحلُمُ، بلْ حَبيسًا في العَدَمِ، سَجينًا في الفَراغِ، عاجِزًا عنِ الخُروجِ مِنهُ، بلْ عاجِزًا حتّى عنْ تَحديدِ مَكانكَ في هذا اللّاشَيءِ المُحيطِ بِكَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ. لِماذا؟ لِأنّكَ بِبَساطةٍ، وبِغُرورٍ، لَمْ تَترُكْ لِنَفسِكَ أيَّ أرضيّةٍ صُلبةٍ تَقِفُ عليها بِثَباتٍ، ولا أيَّ سَماءٍ واقيةٍ تَستَظِلُّ بِها مِنْ عَواصِفِ الوُجودِ، ولا حتّى أيَّ حَبلٍ رَفيعٍ، وَلَوْ كانَ مِنْ وَهْمٍ، تَتَعَلَّقُ بِهِ لِيُنقِذَكَ منْ لُجّةِ السُّقوطِ اللّانهائيِّ الذي لا قَرارَ لهُ ولا نِهايةَ.

وهُنا، على حافّةِ هذا التَّلاشي المُريعِ الذي يُفضي إليهِ النَّفيُ المُطلَقُ كَمَصَبِّ نَهرٍ في بَحرِ العَدَمِ، على مَقْرُبَةٍ منَ الجُنونِ أوِ الفَناءِ، قَدْ يَلوحُ في الأُفُقِ المُعتِمِ مَسارٌ آخَرُ، طَريقٌ ثالِثٌ، لِلوَعيِ المُتعَبِ المُنهَكِ مِنْ صِراعِهِ. مَسارٌ لا يَقومُ على الهَدمِ والتَّحطيمِ كَالطِّفلِ الغاضِبِ، بَلْ على التَّرْكِ والتَّجاوُزِ والتَّسليمِ، كَالحَكيمِ الذي يَرفَعُ كَفَّيْهِ عنِ العالَمِ ويَستَريحُ. فَأنْ تَتَجاوَزَ، لا أنْ تُحارِبَ، حُمّى "الرَّغبةِ" التي لا تَهدأُ ولا تَستَكينُ، وأنْ تَسمُوَ بِروحِكَ فَوقَ نِيرانِها المُستَعِرةِ التي لا تُبْقي ولا تُبينُ، أليسَ هذا هوَ العُبورَ العَظيمَ، والانعِتاقَ الأسمى الكَريمَ، الذي قَدْ يُحرِّرُ العقلَ أخيرًا منْ قُيودِ "السَّعي المُستمِرِّ" الأليمِ، السَّعي الذي لا يَعرِفُ راحَةً ولا يَنالُ تَكريمًا؟ ذلكَ السَّعي المَحمومُ، المَجنونُ، الذي كانَ يُغلِقُهُ في دَوّامةِ النَّفي والتَّفكيكِ كَما رأيناهُ في الدَّمارِ المُقيمِ، أوْ يُغرِقُهُ في مُستَنقَعِ الطَّلَبِ الذي لا يَرتَوي ولا يَستَقيمُ. وأنْ تُحطِّمَ، لا بِفَأسِ النَّفي القاسي، بلْ بِفعلِ التَّرفُّعِ النَّبيلِ السَّامي، أصنامَ "الطُّموحِ" الدُّنيَويِّ التي نَصَبَها لكَ الوَهمُ الخادِعُ الغاشِمِ، أوْ غَرَسَها فيكَ المُجتَمَعُ التّافِهُ الظّالِمِ، ألا يَعني ذلكَ أنّكَ قَدْ تَخَطَّيتَ أخيرًا، بِقَفزةِ وَعيٍ، طريقَ التَّنافُسِ الأبَديِّ العَقيمِ مَعَ الزَّمانِ اللّئيمِ، ذاكَ السِّباقَ المَجنونَ الذي لا فائزَ فيهِ وإنْ بَدا عَظيمًا، والذي يُجبِرُكَ على مُطارَدةِ ظِلالٍ هارِبةٍ، أوهامٍ كاذِبةٍ، تَتَلاشى كَالسَّرابِ في القِفارِ كُلّما حاوَلتَ الاقترابَ مِنْها مُستَهيمًا؟ إنْ كانَ هَدَفُكَ الوَحيدُ في هذهِ الحَياةِ القَصيرةِ الوَخيمةِ، هوَ مُجَرَّدَ تَحقيقِ ما تَرغَبُ فيهِ وتَتَمَنّى، إشباعَ نَهَمِ نَفسِكَ الجائِعَةِ التي لا تَشبَعُ ولا تَرتَضي، فَأنتَ بِذلكَ لا تَفعَلُ شَيئًا ذا بالٍ أوْ قِيمةٍ أوْ عَطاءٍ، سِوى أنْ تُغلِقَ على نَفسِكَ الأبوابَ والنّوافِذَ بِإحكامٍ، في دائِرةٍ مُغلَقةٍ،

خانقةٍ، لا نِهايةَ لَها ولا مَخرَجَ أوْ سَلامٍ، كَأنّكَ سَجينٌ يَركُضُ بِجُنونٍ في مَتاهةٍ مِنْ صُنعِ يَديهِ لا يَجِدُ وِئامًا، لا يَرى سِوى جُدرانِ رَغبَتِهِ العَمياءِ التي تُحيطُ بهِ وتَخنُقُهُ وتُورِثُهُ الأسقامَ. فالرَّغبةُ ذاتُها، بِطَبيعَتِها النَّهِمَةِ، إذا ما أُطلِقَ لَها العِنانُ بِلا ضابِطٍ أوْ قَيدٍ أوْ لِجامٍ، كَما قَدْ يَفعَلُ العقلُ المُتَحَرِّرُ ظاهِريًّا مِنْ كُلِّ مَرجِعٍ أوْ إمامٍ، لا تَلبَثُ أنْ تَنقَضَّ عليكَ مُجَدَّدًا كَوَحشٍ مُفتَرِسٍ لا يَعرِفُ الشَّبَعَ أوِ الصِّيامَ، أوْ كَنارٍ جَهَنَّمِيّةٍ لا تكتَفي بِما أُلقِيَ فيها مِنْ حَطَبٍ أوْ عِظامٍ. تُفَرِّخُ، كَالأفاعي، رَغباتٍ أُخرى أصغَرَ وأكثَرَ إلحاحًا وإيلامًا، في سِلسِلةٍ شَيطانيّةٍ مِنَ العَذابِ لا تَنقطِعُ، كُلُّ واحِدةٍ تُولَدُ مِنْ أحشاءِ الأُخرى كَأفعى تَخرُجُ مِنْ جِلدِ أفعى وتَزحَفُ بِانتقامٍ، تَجُرُّكَ إلى أُخرى بِقُوّةٍ لا تُقاوَمُ، حتّى تَجِدَ نَفسَكَ في نِهايةِ المَطافِ تَركُضُ بِلا هُدًى نَحوَ المَجهولِ بِلا اهتمامٍ، تُطارِدُ أُفُقًا مُراوِغًا، هارِبًا، لا يُدرَكُ ولا يُنالُ ويُثيرُ الآلامَ، دونَ أنْ تَقبِضَ على شَيءٍ واحِدٍ مَلموسٍ باقٍ، دونَ أنْ تَحصُلَ على دَليلٍ واحِدٍ يُثبِتُ أنَّ كُلَّ هذا العَناءِ المُضني، وكُلَّ هذا الشَّقاءِ المُتَواصِلِ، كانَ يَستَحِقُّ العَناءَ حَقًّا ويَستَحِقُّ الإكرامَ. إنَّ هذا السِّباقَ اللّاهِثَ، المُميتَ، ليسَ حَياةً حَقيقيّةً تُعاشُ وتُحتَرَمُ، كَما قَدْ يُخَيَّلُ لَكَ في غَفلَتِكَ وسُباتِكَ، بلْ هوَ شَكلٌ آخَرُ، مُقَنَّعٌ، منَ العُبوديّةِ الذَّليلةِ المُستَدامَةِ، عُبوديّةٌ لِلنَّفسِ الأمّارةِ بِالسُّوءِ ورَغَباتِها التي لا تَنتَهي ولا تُحتَكَمُ. حَيثُ العقلُ، بَدلاً منْ أنْ يَتَحَرَّرَ بِفعلِ تَركِهِ لِلقُيودِ الخارِجيّةِ المُقَدَّسةِ أوِ البَشريّةِ، يُصبِحُ أسيرًا لِقُيودٍ داخِليّةٍ أشَدَّ قَسوةً وأعظَمَ نَكسَةً، أسيرًا لِدَوّامةِ رَغَباتِهِ التي يُغذّيها هوَ بِنَفسِهِ بِاستمرارٍ، كَأنّهُ يُطعِمُ نارًا جائِعةً، مُستَعِرةً، تَحرِقُهُ وتَلتَهِمُهُ بِلا تَوقُّفٍ ولا رَحمَةٍ ولا يُكْتَرَمُ.

لكِنَّ الخَلاصَ مِنْ هذهِ العُبوديّةِ المُقَنَّعةِ، مِنْ هذهِ الدَّوامةِ اللَّعينةِ لِلرَّغبةِ التي لا تَشبَعُ ولا تَرحَمُ القُلوبَ، لا يَكمُنُ أبَدًا في الرَّكضِ الأسرعِ في ذاتِ السِّباقِ المُميتِ، ولا في التَّشَبُّثِ بِعِنادٍ أشَدَّ بِحِبالِ الطُّموحاتِ الدّانيةِ أوْ أهدابِ الآمالِ الفانيةِ التي لا تَروي الظَّمآنا، كَما يَفعَلُ ذلكَ المُستَعبَدُ المُتَوهِّمُ الذي لا يَرى منَ الوُجودِ سِوى دَربٍ واحِدٍ ضَيِّقٍ، يَلْهَثُ فيهِ بِلا تَوقُّفٍ حتّى يَهلِكَ أوْ يَهْرَمَ وتَجِفَّ الأجفانُ. لا، بَلْ إنَّ الحَلَّ الجَذريَّ، الطَّريقَ المُخالِفَ، الحِكمَةَ الحَقيقيّةَ، تَكمُنُ في "التَّوَقُّفِ" التّامِّ، في سُكونٍ واعٍ يَكسِرُ آلَةَ الجَري اللَّعينَةَ، في إلغاءِ فِكرةِ "الدَّربِ" نَفسِها مِنْ قاموسِ الوَعي المُتعَبِ، كَما لوْ كُنتَ تَمحو بِقُوّةِ الإرادَةِ خَريطةً زائِفةً كانتْ تُضِلُّكَ وتَقودُكَ إلى سَرابٍ في الصَّحراءِ الكاذِبَةِ. فَعِندَما لا يَكونُ هُناكَ دَربٌ إجباريٌّ لِتَسْلُكَهُ بِلا إرادةٍ، ولا قِمّةٌ وَهميّةٌ لِتَصعَدَها بِلا إفادَةٍ، لا شَيءَ على الإطلاقِ يُعيقُ حُرّيّةَ خُطُواتِكَ الهادِئةِ، ولا هَدَفٌ مُقَدَّسٌ زائِفٌ يُرهِقُ كاهِلَكَ ويَستَنزِفُ أنفاسَكَ، ولا

وَهْمٌ خادِعٌ يُسَيطِرُ على رُؤيَتِكَ ويُغَشّي بَصيرَتَكَ الثّاقِبةَ. كَأنّكَ، بِفعلِ هذا التَّوَقُّفِ الشُّجاعِ، تُحَرِّرُ نَفسَكَ دَفعةً واحِدةً مِنْ قُيودٍ ثَقيلةٍ لَمْ تَكُنْ تَراها أصلاً، ومنْ أغلالٍ لَطالَما كَبَّلَتْكَ ولَمْ تَشعُرْ بِوَزنِها وثِقَلِها، إلا حِينَ تَوَقَّفتَ عَنِ الحَركَةِ القَسريّةِ وعَنِ الجَري العَبثِيّ بِلا مَعنًى أوْ أمَلٍ. وهذا التَّوَقُّفُ عنِ الجَري اللّاهِثِ ليسَ نِهايةً لِلمَسيرِ أوْ إعلانًا لِلهَزيمةِ كَما قَدْ يَظُنُّ الخائِفونَ في لَحَظاتِ ضَعفِهِمْ ووَهنِهِمُ المُسْتَديمِ، بلْ هوَ، في عُمْقِهِ الفَلسفيّ، التَّحَرُّرُ الحَقيقيُّ، الانعِتاقُ الأخيرُ، منْ ذلكَ الخَوفِ ذاتِهِ الذي كانَ يُحَرِّكُهُمْ ويُسَيِّرُهُمْ، الخَلاصُ منْ تِلكَ "الحاجةِ المَرَضيّةِ" المُذِلّةِ لِلوُصولِ الدّائِمِ إلى مَكانٍ مُعيَّنٍ، إلى مَقامٍ مَرموقٍ، إلى حالةٍ مُتَخَيَّلَةٍ، تُثبِتُ فيها وُجودَكَ وتَنالُ اعترافَ القَطيعِ الأعمى الذي لا يُريدُ لكَ الخَلاصَ. فَحِينَ تُلقي بِصُخورِ الطُّموحاتِ الدُّنيَويّةِ جانِبًا كَما يُلقي المُسافِرُ المُتعَبُ أحمالَهُ، وحينَ تَرفُضُ بِكبرياءِ الحُرِّ أنْ تُعَرِّفَ ذاتَكَ بِما تَسعى إليهِ مِنْ مَناصِبَ زائِلةٍ أوْ أمجادٍ فارِغةٍ أوْ لَذّاتٍ فانِيةٍ، تَكونُ في تِلكَ اللَّحْظَةِ بالذّاتِ قَدْ وَجَدتَ، بِلا سَعْيٍ أوْ جُهدٍ، المَسافةَ الحَقيقيّةَ، الهادِئةَ، التي كانتْ تَفصِلُكَ عنْ نَفسِكَ، عنْ جَوهَرِكَ السّاكِنِ المُطمَئِنّ. تِلكَ المَسافةَ التي كانتْ تَحجُبُها وتُخفيها عنكَ سَتائِرُ الرَّغبةِ الكَثيفةُ كَالضَّبابِ، تُعميكَ عنْ رُؤيةِ حَقيقَتِكَ الهادِئةِ، السَّاكِنةِ، المُكتَفِيةِ بِذاتِها في صَميمِها. وهذا "التَّوَقُّفُ" الحَكيمُ، هذا السُّكونُ الوَاعي، ليسَ استِسلامًا سَلبيًّا لِلكَسَلِ أوِ الخُمولِ، ولا دَعوةً لِلجُمودِ والمَوتِ البَطيءِ كَما قَدْ يُفهَمُ بِسُوءِ ظَنٍّ وتَقَوُّلٍ، بلْ هوَ في جَوهَرِهِ فَعلٌ خَلّاقٌ أصيلٌ، بَلْ هوَ أرقَى أفعالِ الخَلقِ وأسماها، فَعلٌ يُعيدُ العقلَ المُنْهَكَ، المُمَزَّقَ، إلى ذاتِهِ الحَقيقيّةِ، إلى مَوطِنِهِ الأوَّلِ، إلى سُكونِهِ الأصليّ. يُحَرِّرُهُ مِنْ عُبوديّةِ المُستقبَلِ الشَّبَحيِّ الذي كانَ يُطارِدُهُ كَدائِنٍ لَئيمٍ لا يَرحَمُ ولا يَكِلُّ. كَأنّكَ، في سُكونِ هذا التَّوَقُّفِ المُبارِكِ، تُدرِكُ أخيرًا، بِبَداهةٍ صافِيةٍ، أنَّ الحَياةَ الحَقيقيّةَ التي كُنتَ تَبحَثُ عَنْها بِقَلَقٍ، ليستْ كامِنةً في الوِجهةِ البَعيدةِ التي تَحلُمُ بِها، ولا في الجائِزةِ المَوعودةِ في نِهايةِ السِّباقِ المَحمومِ، بلْ هيَ مُتَجَلّيَةٌ، حاضِرةٌ، نابِضةٌ بِكُلِّ كَثافَتِها وعُمْقِها، في تِلكَ اللّحْظَةِ الذَّهبيّةِ، الخالِدةِ، التي تَتَوَقَّفُ فيها بِوَعْيٍ كامِلٍ عنِ البَحثِ العَبثِيّ عَنْها، وتَكتَفي بِأنْ تَكونَ، فَقَطْ تَكونُ، حُضورًا خالِصًا، سُكونًا نابِضًا، لا يَطلُبُ شَيئًا ولا يَنتَظِرُ شَيئًا.

فَأولئكَ القِلّةُ النّادِرةُ، تِلكَ النُّجومُ المُتَفَرِّدةُ في لَيلِ القَطيعِ المُظلِمِ، أولئكَ الذينَ تَخَلَّصوا بِشَجاعةٍ منْ حُمّى الرَّغَباتِ المُحرِقةِ التي تَلتَهِمُ الرُّوحَ، والذينَ كَسَروا بِقُوّةٍ قَيدَ السَّعيِ المَحمومِ الذي لا يُجدي، وتَجاوَزوا بِبَصيرةٍ ظُلُماتِ النَّفيِ المُطلَقِ الذي يُودي، هؤلاءِ، وهؤلاءِ وَحدَهُمْ، هُمُ الأحياءُ حَقًّا،

الأحرارُ صِدقًا، لا أشباهُ الأحياءِ، لا ظِلالُ البَشَرِ الذينَ يَركُضونَ كَالآلاتِ بِلا وَعيٍ ويُؤدّونَ أدوارَهُمْ بِخُضوعٍ. لِماذا؟ لِأنَّ وُجودَهُمْ، في تَحَرُّرِهِ، لَمْ يَعُدْ رَهينةً ذَليلةً لِما يُمكِنُ أنْ يُحَقِّقوهُ في عالَمِ الظّواهِرِ الفاني، ولا قِيمةَ لِذَواتِهِمُ العَميقةِ مَربوطةً بِما يَجنونَهُ مِنْ مَكاسِبَ ماديّةٍ زائِلةٍ أوْ أمجادٍ شَخصيّةٍ فارِغةٍ أوْ سُلطَةٍ بالِيةٍ. أولئكَ الذينَ لا يَنقادونَ كَالعُميانِ في الظَّلامِ وَراءَ أهدافٍ لا تَنتَهي، تَتلألأُ في الأُفُقِ البَعيدِ كَسَرابٍ خادِعٍ يُغري العِطاشَ، والذينَ لا يَربِطونَ قِيمةَ كِيانِهِمُ الحَقيقيّ بِما يُنجِزونَهُ مِنْ تَفاهاتٍ في سِباقِ المُجتَمَعِ المَحمومِ الذي لا يَتَوقَّفُ لَحْظةً واحِدةً لِلتَّأمُّلِ أوِ السُّؤالِ، هُمُ الذينَ تَحَرَّروا حَقًّا، وبِشَكلٍ نِهائيٍّ، مِنْ عُبوديّةِ المُستقبَلِ، مِنْ استِبدادِ ذاكَ السَّيِّدِ القاسي، الوَهمِ الأكبَرِ، الذي يُجبِرُكَ على الرَّكضِ المُستمِرِّ نَحوَ شَيءٍ بَعيدٍ لا تَراهُ، ونَحوَ غَدٍ قَدْ لا يَأتي أبَدًا، ونَحوَ سَعادةٍ مُؤجَّلةٍ قَدْ تَكونُ وَهمًا. سَيِّدٌ يُوهِمُكَ بِخُبثٍ أنَّ السَّعادةَ الحَقيقيّةَ كامِنةٌ في لَحْظَةِ الوُصولِ المُنتَظَرةِ، بَينما هوَ في ذاتِ الوَقتِ، بِمَكرٍ شَيطانيٍّ، يَسرِقُ مِنكَ اللّحظةَ الحاضِرةَ التي تَعيشُها، يَمتَصُّ نُخاعَها ويَستَنزِفُ دَمَها، ويَترُكُها قِشرةً جَوفاءَ، فارِغةً، بِلا طَعمٍ أوْ لَونٍ أوْ حَياةٍ. بالنِّسبةِ لِهؤلاءِ المُتَحَرِّرينَ الأفذاذِ مِنْ قَيدِ الزَّمانِ والطَّمَعِ والجَشَعِ، يُصبِحُ العالَمُ بِأسرِهِ، بِكُلِّ ما فيهِ، مِلكًا حَقيقيًّا لَهُمْ. لا بِفعلِ الامتلاكِ المادّيِّ القَبيحِ، فَهُمْ يَزدَرونَهُ ويَحتَقِرونَهُ، بلْ في لَحْظَةِ رَفضِهِمُ الواعي لَهُ، في لَحْظَةِ إدراكِهِمُ العَميقِ، الصّافي، أنّهم لَمْ يَعودوا بِحاجَةٍ إلى أيِّ شَيءٍ مِنهُ لِيُكمِلوا وُجودَهُمْ أوْ لِيَشعُروا بِالامتلاءِ أوِ الغِنى الحَقيقيِّ. يَرفُضونَ بِإباءِ السَّعيَ المَحمومَ الذي يُهلِكُ الرُّوحَ ويُطفِئُ جَذوَتَها، يَرفُضونَ التَّطَلُّعاتِ الخارِجيّةَ التي تُشَتِّتُ الذّاتَ وتُبعِدُها عَنْ جَوهَرِها السّاكِنِ، وفي هذا الرَّفضِ النَّبيلِ، في هذا التَّخَلّي الشُّجاعِ عنِ العالَمِ ومُغرِياتِهِ، يَجِدونَ امتلاكًا حَقيقيًّا، امتلاكًا أعمَقَ وأشَدَّ ثَباتًا، امتلاكًا لا يَعتَمِدُ على الاستِحواذِ الجَشِعِ الأنانيِّ على الأشياءِ الفانِيةِ، بلْ على التَّخَلّي السَّمْحِ، الكَريمِ، عنِ الحاجَةِ إليها. إنَّ سِرَّ امتلاكِ العالَمِ الحَقيقيِّ، يا صَاحِ، لا يَكمُنُ في السَّيطَرَةِ عليهِ، بلْ في رَفضِهِ، في القُدرةِ على النَّظَرِ إليهِ بِعَينٍ مُستَغْنِيةٍ، مُتَرَفِّعَةٍ، في الإدراكِ التّامِّ أنّكَ لستَ بِحاجَةٍ إلى فُتاتِهِ المُتَساقِطِ لِتَمتَلِئَ، أوْ إلى اعترافِهِ الزّائِفِ لِتَكونَ. كَأنّكَ، بِفعلِ هذا التَّجاوُزِ الرّوحيِّ، تَصبِحُ بَحرًا عَميقًا، واسِعًا، هادِئًا، لا يَنتَظِرُ الأنهارَ المُتَدفّقةَ مِنْ كُلِّ صَوبٍ لِتُغذّيهِ وتَرفَعَ مَنسوبَهُ، بلْ يَكتَفي بِذاتِهِ، بِعُمقِهِ، بِغِناهُ الدّاخِليِّ، هادِئًا في جَوفِهِ، ساكِنًا في قَعرِهِ، غَيرَ مُكتَرِثٍ بِما يَجري على سَطحِهِ مِنْ أمواجٍ زائِلةٍ وعَواصِفَ عابِرةٍ لا تُؤثِّرُ في عُمْقِهِ. وهذا التَّحَرُّرُ النِّهائيُّ مِنْ قَيدِ الرَّغبةِ والطُّموحِ ليسَ نِهايةً لِمَسيرةِ العقلِ أوْ مَوتًا لِلوَعي كَما قَدْ يَظُنُّ السّاعونَ في ضَلالِهِمْ، بلْ

هوَ بِدايةً جَديدةً، أصيلةً، نُقطةُ تَحَوُّلٍ جذريّةٍ، يَستَعيدُ فيها العقلُ تَوازُنَهُ الأوَّلَ الذي فَقَدَهُ، حَيثُ يَتَوقَّفُ عنْ تَمزيقِ ذاتِهِ إمّا في ظُلُماتِ النَّفي العَقيمِ أوْ في نيرانِ الرَّغبةِ المُحرِقةِ، ويَبدأُ في العَيشِ كما هوَ، بِبَساطةِ الوُجودِ ذاتِهِ، دونَ أنْ يُطالِبَ نَفسَهُ بِأنْ يَكونَ أكثَرَ مِمّا هوَ عليهِ، ودونَ أنْ يَحكُمَ على ذاتِهِ بِمَقاييسَ خارِجيّةٍ زائفةٍ أوْ أوهامٍ مُستعارةٍ. كَأنَّ التَّوَقُّفَ الذي اختارَهُ، قَدْ أعادَ إليهِ حَياةً حَقيقيّةً كانَ قَدْ فَقَدَها وهوَ يَركُضُ بِلا هُدًى في سِباقِ الأوهامِ الخادِعةِ، تارِكًا الفَراغَ والعَدَمَ والجُنونَ لِأولئكَ الذينَ اختاروا، بِحماقَتِهِمْ أوْ بِجَهلِهِمْ، أنْ يُمزِّقوا أنفُسَهُمْ إرْبًا إرْبًا في سِباقٍ لا يَنتَهي ولا يُثمِرُ إلا المَزيدَ والمَزيدَ منَ الشَّقاءِ والعَذابِ والأوهامِ.

وبَعدَ إلغاءِ فِكرةِ "الدَّربِ" ذاتِها مِنْ قاموسِ الوَعي، بَعدَ أنْ تَوَقَّفْنا بِشَجاعةٍ وإرادةٍ عنِ الجَري اللّاهِثِ المُنهِكِ ونَسينا بِقَصدٍ وتَعمُّدٍ وَهْمَ الهَدَفِ البَعيدِ المُخادِعِ، فَإنَّ هذا التَّحَوُّلَ الجَذريَّ لا يَعني البَتّةَ، كَما قَدْ يَتبادَرُ إلى أذهانِ أولئكَ الذينَ أَلِفوا التَّصنيفاتِ السَّطحيّةَ والثُّنائيّاتِ المُبَسَّطةَ، تَراجُعًا نُكوصيًّا إلى حالةٍ بِدائيّةٍ غافِلةٍ، أوِ ارتِدادًا مُخْجِلاً إلى مُستوى الحَياةِ الحَيوانيّةِ البَسيطةِ التي لا تَعرِفُ قَلَقَ الوَعي أوْ عَذابَ السُّؤالِ. لا، وأَلفُ لا! بلْ هوَ، في جَوهَرِهِ العَميقِ والنَّبيلِ، انتِقالٌ وارتِقاءٌ، قَفزةٌ نَوعيّةٌ، إلى مُستَوًى آخَرَ، أسمى، منَ الوُجودِ، مُستَوًى يَتَجاوَزُ ويَتَخَطّى بِحِكمةٍ تِلكَ الثُّنائيّةَ الزّائِفةَ، المُضَلِّلةَ، التي رَسَمَتْها البَشريّةُ المُتعَبةُ عَبرَ تاريخِها الطَّويلِ بينَ "الإنسانِ" كَكائِنٍ مُميَّزٍ، مُعَذَّبٍ بِوَعيِهِ، وبينَ "الحَيوانِ" كَرَمزٍ لِلاوَعي الغافِلِ المُستَكينِ أوِ اللّذّةِ الغَريزيّةِ العَمياءِ. فَما يَأتي بَعدَ إلغاءِ الدَّربِ المَفروضِ ليسَ انهيارًا مُؤسِفًا إلى حالةٍ منَ اللّاوَعي السَّلبيِّ الخانِعِ كَما قَدْ يُظَنُّ، وليسَ عَودةً مُخْزِيةً إلى ما قَبلَ أنْ يُمزِّقَ العقلُ ذاتَهُ بِعُنفٍ في دَوّاماتِ النَّفي المُطلَقِ المُدَمِّرِ أوْ في نيرانِ الرَّغبةِ المُستَعِرةِ. لا، بلْ هوَ نَوعٌ راقٍ، عَميقٌ، منَ "السُّكونِ الدّاخِليِّ النّابِضِ" بِالحَياةِ، سُكونٌ لا يَعني الجُمودَ المَيْتَ أوِ الخُمولَ القاتِلَ، بلْ يَعني التَّحَرُّرَ الكامِلَ منَ الحَرَكةِ القَسريّةِ التي كانَتْ تُفرَضُ عليهِ. سُكونٌ يَتَخَطّى بِسَلاسَةٍ وهُدوءٍ كُلَّ قُيودِ العقلِ المَوروثةِ والمُكتَسَبةِ التي فُرِضَتْ عليهِ قَسرًا عَبرَ مَسيرةِ التّاريخِ الطَّويلةِ المُضنيةِ، تِلكَ القُيودُ التي جَعَلَتْهُ أسيرًا لِلأهدافِ الوَهميّةِ وعَبدًا لِعَجَلةِ الزَّمانِ التي لا تَرحَمُ ولا تَرْحَمُ. وهذا السُّكونُ الفاعِلُ، هذا الهُدوءُ الخَلّاقُ، ليسَ فَراغًا عَدميًّا يُثيرُ الرُّعبَ، أوْ غِيابًا لِلحَياةِ كَما قَدْ يَخشى المُتَعَلِّقونَ بِالسَّعيِ والحَرَكةِ، بلْ هوَ بِعَينِهِ "الحُرّيّةُ" الأسمى، الحُرّيّةُ منْ أغلالِ المَفاهيمِ المُشَوِّهةِ التي كانَتْ تُجبِرُنا على رُؤيةِ أنفُسِنا في صُورةٍ مُبْتَسَرةٍ، مُقَزَّمَةٍ، كَقِطَعٍ مَقطوعةٍ مِنْ لَوحةِ الوُجودِ الكُبرى، أوْ كَآلاتٍ مُبَرمَجةٍ على الرَّكضِ

الأبَديّ وراءَ شَيءٍ مَفقودٍ قَدْ لا نَعرِفُ حتّى إنْ كانَ مَوجودًا أصلاً أوْ مُجرَّدَ سَرابٍ. إنّهُ الانفِصالُ الجَذريُّ، الهادِئُ، النّهائيُّ، عنْ تِلكَ الحَتميّةِ العقليّةِ المَرَضيّةِ التي كانتْ تُلزِمُنا بِالسَّعي المُستمِرّ كَواجِبٍ مُقَدَّسٍ، وكَأنَّ الحَياةَ لا تَكتَمِلُ ولا تَحْلو إلا بِمُطارَدةٍ لا تَنتَهي لِلسَّرابِ الخادِعِ، بَينما الحَقيقةُ، التي تَنجَلي بِوُضوحٍ في هذا السُّكونِ الصّافي، هيَ أنَّ هذا السَّعيَ المَحمومَ هوَ ذاتُهُ ما كانَ يُبعِدُنا عَنْها ويَحرِمُنا مِنْها ومِنْ جَمالِها. فَالحالةُ التي نَصِلُ إليها بَعدَ إلغاءِ الدَّربِ الوَهميّ هيَ حالةُ "وَعيٍّ عَميقٍ"، لكِنّهُ وَعيٌ مُختلِفٌ جِذريًّا، وَعيٌ لا يَحتاجُ إلى تَصنيفاتٍ لُغويّةٍ تُقَولِبُهُ وتُحَدِّدُهُ، أوْ قَوالِبَ فِكريّةٍ تُحَجِّبُهُ عنْ نَفسِهِ أوْ تَفصِلُهُ عنِ الوُجودِ المُحيطِ بِهِ. كَأنَّ العقلَ، في لَحْظَةِ تَجاوُزٍ نادِرةٍ، مُبارَكةٍ، قَدْ تَخَلّى أخيرًا عنِ الأدواتِ ذاتِها التي كانَ يَستخدِمُها لِتَمزيقِ ذاتِهِ وتَحطيمِ الآخَرينَ – أدواتِ النَّفيِ الحادِّ القاطِعِ، والرَّغبةِ العَمياءِ المُدمِّرةِ، والهَدَفِ المُقَيِّدِ الخانِقِ – لِيُصبِحَ، لا "شَيئًا" عَدَميًّا، بلْ أداةً شَفّافةً، نَقيّةً، مِرآةً صافِيةً كَماءِ الينَبوعِ، تَرى مِنْ خِلالِها الحَياةَ كما هيَ في تَدفُّقِها الطَّبيعيِّ الهادِئِ، لا كَما يُريدُ لَها الوَهمُ أوِ الخَوفُ أوِ الطُّموحُ الأعمى أنْ تَكونَ. وفي هذهِ اللّحظةِ منَ الحُضورِ الخالِصِ، منَ الكَينونةِ الصّافِيةِ، نَستَعيدُ حَياتَنا الحَقيقيّةَ، لا كَما يُنَظِّمُها ويُقَسِّمُها التَّفكيرُ التَّحليليُّ الضَّيِّقُ الذي يُفَتِّتُ الوَحدَةَ إلى مَراحِلَ ومَهامَّ وأهدافٍ، ولا كَما تُشَكِّلُها وتُوَجِّهُها التَّوَجُّهاتُ المُستمِرّةُ التي تُرهِقُ الرُّوحَ وتَستنزِفُ الطّاقَةَ وتُفقِدُها بَريقَها، بلْ كما تَكونُ في جَوهَرِها الأوَّلِ البَسيطِ: مُباشِرةً، خالِصةً، بَسيطةً، حُرّةً، عاريةً منْ كُلِّ التَّوقُّعاتِ المُستقبَليّةِ الكاذِبةِ والشُّروطِ المُسبَقةِ المُقَيِّدَةِ التي وَضَعْناها لَها كَأغلالٍ لَمْ نَكُنْ نَرى وُجودَها إلا حِينَ تَحَرَّرْنا مِنْها بِفعلِ هذا السُّكونِ المُعجِزِ. وهذا "الوَجودُ الخالِصُ" ليسَ نِهايةً لِرِحلةِ العقلِ أوْ مَوتًا لَهُ، كَما كانَ العَدَمُ أوِ الجُنونُ نِهايةً مُرعِبةً لِمَنْ أفْرَطوا في دَربِ النَّفيِ والتَّفكيكِ بِلا حِكمةٍ، بلْ هوَ بِدايةٌ جَديدةٌ، حَقيقيّةٌ، أصيلةٌ، لَهُ، بِدايةٌ تُعيدُهُ إلى حالةٍ أصليّةٍ منَ التَّناغُمِ الكَونيِّ لا يُشَوِّهُها صِراعُ الثُّنائيّاتِ المُفتَعَلِ والمُرهِقِ – بينَ الوَعيِ واللّاوَعيِ، بينَ الإنسانِ والطّبيعةِ، بينَ الذّاتِ والمَوضوعِ، بينَ الحاضِرِ والمُستقبَلِ. إنّهُ سُكونٌ لا يَعني الجُمودَ المَيْتَ، بلْ يَعني الحُرّيّةَ الكامِلةَ منَ الحَرَكةِ القَسريّةِ، منَ الرَّكضِ العَبثيِّ، الذي كانَتْ تُفرَضُ عليهِ مِنْ قَبْلُ. كَأنَّ العقلَ، في هذهِ الحالَةِ السّامِيةِ، يُصبِحُ أشبهَ بِبُحَيرةٍ جَبَليّةٍ صافِيةٍ، نَقيّةِ المِياهِ، عَذبةِ المَذاقِ، لا تُحَرِّكُ سُكونَها رِياحُ الرَّغَباتِ العاتِيةِ أوْ عَواصِفُ القَلَقِ الهائِجَةِ، فَتَعكِسُ صَفحةُ وَجهِها الصَّقيلُ السَّماءَ كما هيَ، بِكُلِّ تَقَلُّباتِها وغُيومِها ونُجومِها، دونَ أنْ تُحاوِلَ تَغييرَها أوِ الحُكمَ عليها أوْ تَفسيرَها. وفي هذا السُّكونِ النَّقيِّ، يَتَجاوَزُ العقلُ تِلكَ الحَتميّةَ العقليّةَ

المَرَضيّةَ التي كانتْ تُلزِمُهُ بِالرَّكضِ اللَّاهِثِ وراءَ شَيءٍ مَفقودٍ لا يَعرِفُهُ، ويُدرِكُ بِبَداهةٍ ويَقينٍ داخليٍّ أنَّ ما كانَ يَبحَثُ عنهُ بِقَلَقٍ طَوالَ الوَقتِ لَمْ يَكُنْ شَيئًا خارِجًا عنهُ أَوْ بَعيدًا عنْ مُتَناولِ يَدِهِ، بلْ كانَ دائمًا هُنا، في صَميمِ اللّحظةِ الحاضِرةِ، في قَلبِ الكِيانِ، مَخفيًّا تَحتَ طَبَقاتٍ كَثيفةٍ منَ الأوهامِ والخَوفِ والرَّغبةِ التي ألقاها جانِبًا أخيرًا لِيَرى النُّورَ. فَالحَياةُ، حِينَ تَتَعَرّى منْ قَوالِبِ الفِكرِ وأغلالِ الشُّروطِ، تُصبِحُ مُجرَّدَ "حُضورٍ" نَقيٍّ، كَينونةٍ صافِيةٍ، لا تَحتاجُ إلى تَبريرٍ خارِجيٍّ أَوْ غايةٍ مُتَعاليةٍ تُعطيها قِيمةً. وكَأنَّ كُلَّ لَحْظَةٍ تُعاشُ بِكَمالِها، بِعُمْقِها، هيَ "كُلُّ شَيءٍ"، هيَ الكَونُ بِأسرِهِ، لا مُجَرَّدَ جُزءٍ صَغيرٍ مِنْ شَيءٍ أكبَرَ، أعظَمَ، يُنتَظَرُ في المُستقبَلِ الذي قَدْ لا يَأتي. وهذا التَّحَرُّرُ النِّهائيُّ ليسَ خَسارةً لِلوَعي أَوْ نُكوصًا عَنِ الإنسانيّةِ كَما قَدْ يَبدو لِأولئكَ الذينَ لا يَزالونَ أسرى لِدَربِ السَّعي والحَركَةِ الدّائِمَةِ، بلْ هوَ استِعادةٌ ثَمينةٌ، نَفيسةٌ، لِما كانَ العقلُ يُمزّقُهُ ويُبَدّدُهُ في سَعيِهِ الأعمى وضَياعِهِ المَريرِ. استِعادةٌ تَجعَلُهُ يَرى نَفسَهُ ويَرى العالَمَ مِنْ جَديدٍ، بِنَقاءٍ بَدائيٍّ وبَراءةٍ أُولى لَمْ يَعرِفْهُما منْ قَبلُ، في صَفاءٍ يُشبِهُ صَفاءَ السَّماءِ الزَّرقاءِ بَعدَ انقِشاعِ العاصِفةِ. وكَأنَّ إلغاءَ الدَّربِ الوَهميّ، في نِهايةِ المَطافِ، لَمْ يَكُنْ نِهايةً لِشَيءٍ ذي قِيمةٍ حَقيقيّةٍ، بلْ بِدايةً حَقيقيّةً لِكُلِّ شَيءٍ، بِدايةً لِحَياةٍ لا تُقاسُ بِعَقارِبِ الزَّمانِ المُميتَةِ، ولا تُحَدَّدُ بِأوهامِ الأهْدافِ المُقَيِّدَةِ، بلْ تُعاشُ فَقَطْ كَما هيَ في جَوهَرِها: خالِصةً، كامِلةً، حَيّةً، نابِضةً، دونَ أنْ يُمزّقَها قَلَقُ الوَعي أَوْ يُشَوِّهَ صَفاءَها شَبَحُ المُستقبَلِ أَوْ نَدَمُ الماضي.

الفصل السادس

عذاب الوعي

التّفكيرُ! آهٍ، أيُّ جَوهَرةٍ مَسمومةٍ هذهِ التي تَتلألأُ في تاجِ الوُجودِ الإنسانيّ، وتُلقي ظِلالَها القاتِمةَ على كُلِّ آنٍ؟! وأيُّ لَعنةٍ أبديّةٍ تَنبُعُ منْ نُورِها الخادِعِ الباهِتِ، فَتُحيلُ الحَياةَ إلى عُقبانٍ؟! هذا الذي نَتَغَنّى بهِ لَيلاً ونَهارًا، ونَرفَعُهُ فَوقَ مَراتِبِ الكَونِ والطَّبيعةِ، ونَعتبِرُهُ تِلكَ القُدرةَ المُعجِزةَ التي انتَشَلَتِ الإنسانَ، كَما تَزعُمُ الحِكاياتُ المُنمَّقةُ لِلأذهانِ، منْ وَحلِ الغَريزةِ البَهيميّةِ الصّمّاءِ إلى سَماءِ العقلِ المُتَوَهِّمِ الأرْجاءِ. تِلكَ الشُّعلةُ الوَهّاجةُ التي أضاءَتْ لَهُ، كَما قِيلَ في الأسفارِ، دُروبَ الحَضارةِ المُعتِمَةَ في لَيلِ الأدهارِ، ورَصَّعَتْ لَيالِيَ وَحشَتِهِ المُقفِرةِ بِفُنونِ الإبداعِ المُعَذَّبِ كَالنّارِ، وَبِعَجائِبِ العُلومِ القَلِقةِ كَالإعصارِ. لكِنَّهُ، ويا لَلمُفارَقةِ الدّاميةِ التي لا تَكفُّ عنْ نَزفِ المَرارةِ والأكدارِ، هوَ هوَ، في ذاتِ الألَقِ الذي يَعتَريهِ ويُزْهيهِ في الأنظارِ، مَنبَعُ عَذابِهِ السَّرمديّ الذي لا يَهدأُ لهُ قَرارٌ، وسِجنُهُ اللّامرئيُّ الذي لا تُحَطِّمُ قُضبانَهُ أيُّ قُوّةٍ أوْ إصرارٍ. إنّهُ الجُرحُ الأصليُّ، الجُرحُ المَفْتوحُ أبَدًا في كَبِدِ الكِيانِ لا يَعرِفُ انْدِمالاً أوْ سِتارًا، جُرحٌ لا يَنضُبُ قَيحُهُ إلا قَلَقًا يَغلي كَالقِدْرِ على النّارِ، ولا يَلتَئِمُ نَزيفُهُ إلا شَقاءً يَجري كَالأنهارِ. كَما تَكَشَّفَ لَنا بِمَرارةٍ في المَشهَدِ الأخيرِ لِذلكَ العقلِ وهوَ يُمزّقُ ذاتَهُ بِلا رَحمَةٍ، بِأنيابِ شَكِّهِ الحادّةِ وفَراغِهِ المُوحِشِ القَفّارِ، في احتضارٍ بَطيءٍ، مَريرٍ، لا يَشعُرُ بِأَلَمِهِ المُمِضِّ سِواهُ في الدّارِ.

فَلا يَقتَصِرُ فِعلُ التّفكيرِ هذا، اللّعينُ في جَوهَرِهِ والمُتَشِحُ بِرِداءِ النُّورِ، على مُجَرَّدِ وَعيٍّ هادِئٍ بارِدٍ يُسَجِّلُ الوُجودَ كَآلةٍ صَمّاءَ بِلا شُعورٍ، أوْ تَأمُّلٍ رائِقٍ في فَضاءِ الكَونِ الشّاسِعِ كَطَيفٍ يَعبُرُ في بُحورٍ، كَما قَدْ يَحسَبُ أولئكَ الواهِمونَ المُستَكينونَ في جَنّةِ غَفْلَتِهِمُ المُغلَقةِ كَالقُبورِ، أوْ كَما قدْ تُصَوِّرُهُ الفَلسَفاتُ المُخَدِّرةُ التي تَهرُبُ منْ لَهيبِ الصِّراعِ إلى بُرودةِ السُّطورِ. لا، وألفُ لا! بَلْ إنَّ هذا الفِعلَ الخَطِرَ، هذا الانفِتاحَ القَسريَّ على لُجَجِ المَجهولِ وشُعورِ الدُّحورِ، يُورِّطُ الكائِنَ البَشريَّ المِسكينَ في صَفْقَةٍ خاسِرةٍ مُنذُ البُكورِ، يُلقي بِهِ بِلا رَحمَةٍ أوْ شَفَقةٍ أوْ حُبورٍ، كَمَنْ يُلقي بِهِ في أتونِ فُرنٍ لا يَنطَفِئُ على مَرِّ الدُّهورِ، في مَتاهاتٍ مُفرِغةٍ منَ التّناقُضاتِ المُستَعصِيةِ على الفَهمِ كَاللُّغزِ المَستورِ، وفي دَوّاماتٍ سَحيقةٍ لا قَرارَ لَها منَ

التّساؤُلاتِ الحارِقةِ كَنارِ التَّنُّورِ، تِلكَ الدَّوّاماتُ العَبَثيّةُ المُظلِمةُ التي تُشبِهُ، بِشَكلٍ مُفزِعٍ، تِلكَ التي ابتلَعَتْ وَعيَ العقلِ النّافي، الذي رأيناهُ يَتَخَبَّطُ مُنْفَرِدًا في لُجّةِ سَلْبِهِ المُطلَقِ المُنافي، يَنسِفُ كُلَّ أرضٍ يَقِفُ عليها بِلا تَجافي، حتّى أفضَتْ بهِ تِلكَ الدَّوّامةُ إلى شَفيرِ العَدَمِ المُطْبِقِ الصّافي، حَيثُ لا صَوتَ إلا صَدى الفَراغِ الشّافي مِنْ كُلِّ الأضْعافِ. ولَرُبّما كانتِ الفَلسفةُ نَفسُها، مُنذُ أنْ وَجَدَ الإنسانُ نَفسَهُ يُحَدِّقُ في مِرآةِ ذاتِهِ المُتَشظّيةِ بِلا إنصافٍ، ويَسأَلُ في حَيرةٍ مُظلمةٍ بِلا إسعافٍ: "مَنْ أنا؟ وما قِصّتي في هذا التَّطوافِ؟"، لَمْ تَكُنْ في جَوهَرِها العَميقِ، رُغمَ كُلِّ ادِّعاءاتِها بِالحِكمةِ والإنصافِ، سِوى مَعركةٍ مَريرةٍ طَويلةٍ، وصِراعٍ يَائسٍ أزَليٍّ ذي أهْدافٍ، ضِدَّ هذا التّفكيرِ المُفرِطِ الذي لا يَكتَفي ولا يُكافي، ضِدَّ هذا التَّضخُّمِ السَّرَطانيِّ لِلوَعي الذي يَأكُلُ صَاحِبَهُ منَ الدّاخِلِ كَديدانٍ بِلا إيقافٍ. ذلكَ التّفكيرُ المُغري، الذي يَعِدُ بِالحُرّيّةِ كَسَرابٍ في القِفارِ والأريافِ، ثُمَّ يُقيِّدُ العقلَ بِسَلاسِلَ حَديديّةٍ منَ الأسئلةِ التي لا تُجابُ إلا بِمَزيدٍ منَ الأخْلافِ، ويُحيطُهُ بِألغازٍ لا تُحَلُّ مَهما أجهَدَ نَفسَهُ في فَكِّ طَلاسِمِها بِلا إشرافٍ. وكَأنَّ كُلَّ مُحاوَلةٍ جادّةٍ لِلفَهمِ والإشرافِ، كُلَّ خُطوةٍ مُتَوَهِّمَةٍ يَخْطُوها نَحوَ مَرفَأِ النُّورِ المَنشودِ في الأطرافِ، لا تُوَلِّدُ في النِّهايةِ إلا سُؤالًا جَديدًا أشَدَّ ظُلمةً وقَسوَةً مِنْ سابِقِهِ بِلا خِلافٍ، كَمَنْ يَحفِرُ بِئْرًا في صَحراءِ الوَعي المُهلِكةِ بِلا إسرافٍ، لا يَبتَغي إلا قَطرةَ ماءٍ تَروي ظَمأَهُ لِلحَقيقةِ بِلا اجْتِفافٍ، فَلا يَجِدُ في قَعرِها، بَعدَ كُلِّ العَناءِ، سِوى مَزيدًا ومَزيدًا منْ عَطَشِ القَلَقِ المُحرِقِ، الذي يُشْعِلُ الأجوافَ، ويَجعلُهُ يُدرِكُ، بِمرارةٍ، أنَّ الحَقيقةَ ليستْ ماءً، بلْ هيَ العَطَشُ ذاتُهُ الذي يُخافُ.

فَالتّفكيرُ، في هذا السِّياقِ المَأساويِّ، لا يَعني الفَهمَ بالضّرورةِ ولا يَهَبُ، ولا يَقودُ حَتمًا إلى سَكينَةِ المَعرِفةِ التي تُحَبُّ، كَما قَدْ يُوهِمُ العقلُ نَفسَهُ في لَحَظاتِ غُرورِهِ الطُّفوليِّ الأجْدَبُ، حينَ يَظُنُّ أنّهُ قادِرٌ على احتِواءِ الكَونِ في جُمجُمَتِهِ ويَرْغَبُ. بلْ إنّهُ، في أغلبِ الأحوالِ، وفي تَجَلّياتِهِ الأكثَرِ شُيوعًا وتَغَلُّبُ، لا يَعني شَيئًا ذا بالٍ سِوى تَكثيفًا حادًّا لِتلكَ التَّوَتُّراتِ الدّاخليّةِ المُؤرِّقةِ التي تُعَذِّبُ، وتَعميقًا مُستمِرًّا لِذلكَ الجُرحِ الوُجوديِّ الأزَليِّ الذي لا يُطَبَّبُ، ومُواجهةً للعالَمِ ليسَ بِأدواتِ البَصيرةِ الصّافيةِ النّافذةِ التي تُجَرَّبُ، ولا بِحَدْسِ القَلبِ المُطمَئِنِّ الذي يُحَبَّبُ، بلْ عَبْرَ شَبَكةٍ مُعَقَّدةٍ، لَزِجَةٍ، منَ المَفاهيمِ المُجَرَّدةِ التي تُكَبِّبُ، تُحيطُ بالذّاتِ كَضَبابٍ كثيفٍ لا يُحْتَجَبُ، مَفاهيمَ تَتَجاوَزُ، بِشَكلٍ مُحْبِطٍ، قُدرةَ الإنسانِ المَحدودةَ كَهُويّتِهِ التي تُسْلَبُ، على احتوائِها بِكَمالٍ أوْ أنْ تُعْجَبُ، أو التّصالُحِ مَعَها في تَناغُمٍ يُريحُهُ منْ عَنائِها ويُحَبِّبُ. إنَّ حالَهُ في هذا التّفكيرِ المُنهِكِ لَكَحالِ ذلكَ المِسكينِ الذي يُقَطِّبُ، يُحاوِلُ، في جَهدٍ

عَبثيٌّ يُثيرُ الشَّفَقَةَ ويُعْجِبُ، أنْ يَحمِلَ بَحرًا لُجِّيًّا هائِجَ الأمواجِ ويَغْلِبُ، في كَفَّيْهِ الضَّعيفَتَيْنِ اللّتَيْنِ تَرتَعِشانِ وتُعَذِّبُ، فَلا يَجِدُ نَفسَهُ في النِّهايةِ إلا غَريقًا بائِسًا تَتَلاعَبُ بِهِ الأمواجُ، بدلاً منْ أنْ يَرتَوِيَ، وَلَوْ لِلَحظةٍ، بِقَطرةٍ واحِدةٍ منْ مائِهِ الذي يَنْضُبُ ويُعْذَبُ. إنَّ التَّفكيرَ، الذي انطَلَقَ في فَجرِ البَشريّةِ المُظلِمِ المُكَرْكَبُ، كَأداةٍ بَسيطةٍ لِلتَّمكينِ والبَقاءِ المُذَبْذَبُ، كَسِلاحٍ بَدائِيٍّ في وَجهِ طَبيعَةٍ لا تَرحَمُ وتُعَذِّبُ، وكَشُعلةٍ خافِتةٍ لِلتَّطوُّرِ والخُروجِ المُتَعَثِّرِ الذي يُصَعِّبُ، منْ ظُلُماتِ الغَريزةِ العَمياءِ إلى فَجرِ الوَعيِ المُرتَبِكِ الذي يُقَطِّبُ، قدْ تَحوَّلَ، في لَحظةٍ تاريخيّةٍ حاسِمةٍ، مُفارِقةٍ، ومُؤْسِفَةٍ تُسْتَغْرَبُ، بِفعلِ تَراكُمِهِ وتَعقيدِهِ وتَشَعُّبِهِ، إلى أداةٍ مُتَغطْرِسةٍ لِلتَّحكُّمِ والهَيمَنةِ، تُخْنِقُ وتُصَلِّبُ، وإلى قَيدٍ ثَقيلٍ، قَيدٍ ذِهنيٍّ لا يُرى بالعينِ، يُكَبِّلُ صاحِبَهُ ويَخنُقُ أنفاسَهُ ويُغَلِّبُ. بَلْ وتَجاوَزَ الأمرُ ذلكَ، لِيُصبِحَ أحيانًا، في أحلَكِ صُوَرِهِ وأقتَمِها، سَوطًا جَليديًّا حادًّا يَجلِدُ بِهِ العقلُ نَفسَهُ في غُرَفِ التَّعذيبِ الدّاخليّةِ ويَنْصُبُ، في طُقوسٍ مَازوخيّةٍ خَفيّةٍ مُؤلِمةٍ لا تُحْتَسَبُ، لا لِيُحرِّرَها منْ أسْرِها، بلْ لِيُثبِتَ لها أغلالَها أكثَرَ، ويُعمِّقَ إحساسَها المُرَّ بِالأَسْرِ الدّائِمِ، ويَجْلِبُ، في حَلقةٍ جُهَنَّمِيّةٍ منَ الوَعيِ والألَمِ، لا يُفْلِتُ مِنها إلا بِتَدميرِ ذاتِهِ ويُسْلَبُ.

فَالإنسانُ، بِحُكمِ استِعبادِهِ لِهذهِ القُدرةِ الفَريدةِ على التّفكيرِ، هذهِ المَوهِبةِ المَلعونةِ التي لا تَجلِبُ إلا الوَهنَ، يُعاني في صَميمِ كِيانِهِ مِنْ سِياطِ الوَعيِ الحارِقةِ، ومِنْ قَسوةِ الإدراكِ التي لا تَعرِفُ الوَسَنَ، تِلكَ القَسوةُ الجَليديّةُ التي لَمْ يَعرِفْ مَرارَتَها أولئكَ القِلّةُ النّادِرونَ الذينَ أفْلَتوا مِنْ قَبضَةِ الرَّغبةِ ونِيرانِ النَّفيِ وَوَثَنَ، ووَجَدوا سَكينَتَهُمْ في مَرفَأِ السُّكونِ الدّاخليِّ الأأمَنَ، ذاكَ الذي لا تَصِلُهُ أمواجُ العَبَثِ ولا فِتَنَ. لكِنَّ هذهِ القَسوةَ تَظلُّ تُلاحِقُ، كَطَيفٍ أسودَ مُرْتَهِنٍ، كُلَّ أولئكَ الذينَ بَقُوا أسرى لِأفكارِهِمُ التي لا تَسكُنُ، مُكَبَّلينَ بِسَلاسِلَ مِنْ وَهمٍ بَدَنَ، عالِقينَ في زِنزانةِ العقلِ التي لا قُضبانَ لَها إلا الفِكَرُ والمِحَنُ. هوَ كائِنٌ، ويا لَبؤسِ هذا الكَونِ الذي سَكَنَ في رأسِهِ، مَسكونٌ أبَدًا بِهاجِسِ المَوتِ الذي يَتَربَّصُ بِهِ ولا يُؤتَمَنُ، يَرى شَبَحَ نِهايَتِهِ تَقتَرِبُ مَعَ كُلِّ نَفَسٍ يُطلِقُهُ مُرْتَهَنٌ، مُدرِكٌ لِلزَّمنِ المُتَوحِّشِ الذي يَنهَشُهُ كَسكّينٍ لَمْ يُسَنَّ، مُدرِكٌ لِلفَراغِ المُطْبِقِ الذي يَكتَنِفُهُ كَظِلٍّ ثَقيلٍ لا يَزِنُ. هذا الوَعيُ الحادُّ بِحقائِقِ الوُجودِ القاسيةِ المُؤذِنُ، ذاكَ الذي كانَ يُفتَرَضُ أنْ يَكونَ هِبةً تُثَمَّنُ، أوْ نِعمةً تُعلِنُ وتُبَيِّنُ، يُصبِحُ في حَقيقةِ الأمْرِ لَعنةً مُستَديمةً تُدفَنُ، ويَنبوعَ شَقاءٍ لا يَنضُبُ ولا يُمَكَّنُ، مِطرَقةً تَطرُقُ على رُوحِهِ بِلا وَهَنٍ، تُجْلِبُ لهُ مُعاناةً مُستَمِرّةً كَالمَرَضِ المُزمِنِ. لِماذا؟ لأنَّهُ، بِبَساطةٍ مُرعِبةٍ، لا يَستَطيعُ أنْ

يُوقِفَ طُوفانَ الأفكارِ الذي يُجَنِّنُ، كَما لا يَستطيعُ سَدٌّ أنْ يُوقِفَ نَهرًا تَعَفَّنَ، ولا يَستطيعُ أنْ يُسكِتَ قَلَقَهُ الذي كَالجُنونِ تَفَنَّنَ، قَلَقٌ على مُستقبَلٍ لمْ يأتِ، ونَدَمٌ على ماضٍ لَنْ يُمْكِنَ. لهذا، لا يَكتَمِلُ الإنسانُ إلا بِمُعاناتِهِ التي تُعلِنُ، كَأنَّ كُلَّ فِكرةٍ تُضيءُ تُشعِلُ نارًا تُدْفِنُ، وكُلَّ انعِكاسٍ داخِلِيٍّ يُطِلُّ مِنْهُ شَبَحٌ يُحزِنُ، كَأنَّ الوَعي نَفسَهُ هوَ الثَّمَنُ الذي بِهِ يُدْيَنُ، ثَمَنٌ لا يُمكِنُ تَفاديهِ إلا بِالتَّخلّي، وَهو تَخَلٍّ لا يُدرِكُهُ إلا مَنْ تَجَلّى ووَصَلَ لِلسُّكونِ الذي يُسْكِنُ.

فَنَجِدُ أنفُسَنا، نحنُ سُلالةَ القَلَقِ المُعَنّى، في رِحلَةٍ أبديّةٍ لا تَهْنى، ليستْ لِلوُصولِ إلى هَدَفٍ أوْ مَعنى، بَلْ لِلوُصولِ إلى فِكرةٍ تُنْهي هذا العَنَا: هلْ يُمكِنُ الهُروبُ منْ فَخِّ التَّفكيرِ الذي لا يَنثَني؟ هلْ يُمكِنُ العَيشُ بِلا أسئلةٍ لا تَفنى، بِلا دَوّاماتٍ تُفضي إلى جُنونٍ أوْ فَنَى؟ إنَّ التَّفكيرَ، في طَبيعَتِهِ، يُعيدُ خَلقَ ذاتِهِ كَما تَلِدُ الأفعى، وكُلّما حاوَلَ الإنسانُ الفِرارَ، ازدادَ غَرَقًا في الخَطَرِ والأسَى، كَمَنْ يُحاوِلُ النَّجاةَ منَ الرِّمالِ المُتَحَرِّكةِ فَلا يَزْدادُ إلا تَعاسَةً وَأسى. في البِدايةِ، شُعلةُ ذَكاءٍ تُضيءُ الدُّجَى، لكِنّهُ سُرعانَ ما يَتحوَّلُ إلى نِيرانٍ تَلتَهِمُ المُرتَجى، حتّى يَنتَهيَ الأمرُ إلى عَجزٍ لا يُرْجى، تَتَساقَطُ الأجوبةُ كأوراقٍ في الرِّياحِ، وتَتعثَّرُ الأسئلةُ في الحَلْقِ بِلا إفصاحٍ، كَأنَّ الوَعي، في ذُروَتِهِ، عِبءٌ لا يُزاحُ، يُترَكُ الإنسانُ وَحيدًا مَعَ أفكارٍ كَالرِّماحِ، تُطارِدُهُ في لَيلٍ لا يَعرِفُ الصَّباحَ.

ومِنْ هُنا تَتَّضِحُ الفَجوةُ، وتَزدادُ الهُوّةُ، بينَ الوُجودِ الحَيوانِيِّ في سُكونِهِ وقُوَّتِهِ، والوُجودِ الإنسانِيِّ في عَذابِ فِكرَتِهِ. تِلكَ الفَجوةُ التي تَجاوَزْناها لِوَهلَةٍ، لكِنّها تُلاحِقُنا كَلَعنةٍ لا تَعرِفُ غَفلَةً. الحَيوانُ لا يَعي الوُجودَ بِمَعناهُ المُتْعِبِ، ولا يَعرِفُ هذا التَّوَتُّرَ المُذْهِبِ، بَينَ ما هوَ كائِنٌ وما هوَ أطيَبُ، يَعيشُ في لَحظَتِهِ كَنَهرٍ يَنسَكِبُ، نَقِيٌّ منَ الشَّقاءِ الذي الوَعي يَجْلِبُ. أمّا الإنسانُ، فقدْ أُلزِمَ بِالتّفكيرِ عِقابًا، حتّى وإنْ كانَ التّفكيرُ سَرابًا، كَأنّهُ حُكِمَ بِحَملِ مِرآةٍ تَكشِفُ الحِجابا، يَرى فيها كُلَّ شَيءٍ صَوابًا أوْ خَرابا، دونَ أنْ يَستطيعَ أنْ يُغلِقَ الأهدابا. هوَ مُعلَّقٌ بينَ يَقَظَةٍ تَكويهِ، ولا يَقَظَةٍ لا تَأويهِ، بينَ وَعيٍ يُمزِّقُهُ ولا يَحويهِ، ولا وَعيٍ لا يَستطيعُ البَقاءَ فيهِ. وهذا التَّمَزُّقُ شَقاءٌ لا يَنتهي، إلا في لَحظةٍ يَذوبُ فيها الوَعي ويَنْتَهي، لِيُصبِحَ جُزءًا منَ الواقِعِ كما هوَ ويَشتَهي، دونَ إضافاتٍ تُعْيي، أوْ تَفسيراتٍ تَلْوي. في تِلكَ اللَّحْظَةِ يَتوَقَّفُ عَذابُ الوَعي ويَرْتَخي، ليسَ لِأنَّ الأسئلةَ أُجيبَتْ بِوَحيٍ، بلْ لِأنّها أُلغِيَتْ بِالمَحي، كَأنَّ العقلَ

يُدرِكُ أنَّ الخلاصَ في التَّخلّي، لا في الفَهمِ والتَّجلّي، تارِكًا نَفسَهُ يَعيشُ دونَ أنْ يُحاكِمَ الوُجودَ بِنارِ الأفكارِ التي تُصْلي.

ويَصدَحُ صَوتُ شوبنهاورَ بِصَراحتِهِ الجارِحةِ: "إنَّ أسوأَ مَصيرٍ هوَ أنْ تكونَ بَشَرًا،" كأنّهُ يُلخِّصُ كُلَّ هذا التَّمزُّقِ والهَدَرا، وكُلَّ مُعاناةِ العقلِ أمامَ ذاتِهِ وما انْتَظَرَا. فَبينما تَشتَرِكُ الكائناتُ في الألَمِ والفَناءِ، يُضافُ لِلإنسانِ لَعنةُ الوَعيِ والبَلاءِ، ذلكَ الإدراكُ الذي يُفْتَرَضُ أنْ يُمَيِّزَهُ في السَّماءِ، لكِنّهُ يُحوِّلُهُ إلى أسيرٍ لِجَحيمِهِ بِلا عَزاءٍ. هذا الوَعي لا يَجعلُ الحَياةَ أكثَرَ احتِمالاً أوْ رَخاءً، بلْ يُضاعِفُ قَسوَتَها ويَزيدُها شَقاءً، يَفضَحُ هَشاشَةَ الوُجودِ بِلا غِطاءٍ، ويَكشِفُ عَبَثِيّتَهُ كَمِرآةٍ لا تَعرِفُ الرِّياءَ، تُظهِرُ لِلإنسانِ أنَّ كُلَّ سَعيٍ قَدْ يَكونُ هَباءً، وكُلَّ أَمَلٍ مُجرَّدَ سَرابٍ في الصَّحراءِ. العقلُ هُنا، أداةُ الرُّقِيِّ والبَهاءِ، هوَ ذاتُهُ قَيدُهُ الأبَديُّ في الفَناءِ، كَسِلاحٍ ذي حَدَّيْنِ لا يَعرِفُ الوَفاءَ: بهِ ابْتَكَرَ الفَلسفةَ والفَنَّ والعِلمَ والبِناءَ، لكِنّهُ بالمُقابِلِ أصْبَحَ مَهووسًا بِأسئلةٍ تَجلِبُ العَناءَ، كُلّما اقتَرَبَ منَ الفَهمِ ازدادَ عَماءً، كأنَّ كُلَّ خُطوةٍ نَحوَ المَعرِفةِ تُثقِلُ العِبْءَ، وتُعمِّقُ عَجْزَهُ أمامَ الوُجودِ الأقوى والأمْنَعِ.

وبِخِلافِ الحَيوانِ السَّجينِ في لَحظَتِهِ، يَملِكُ الإنسانُ قُدرةَ استِحضارِ الأمسِ بِحَسرَتِهِ، والتَّفكيرَ في الغَدِ بِرَهْبَتِهِ، لكِنّهُ لا يَستَخدِمُ هذهِ القُدرَةَ لِراحَتِهِ، بلْ يُحوِّلُها إلى أداةٍ لِتَعذيبِ ذاتِهِ، كَما كانَ الوَعيُ سَبَبَ شِقْوَتِهِ. الماضي يُصبِحُ سِلسِلةَ أخطاءٍ لا تَغتَفِرُ، يَندَمُ عليها ويُعاقِبُ نَفسَهُ بِما كانَ مُقَدَّرُ. والمُستقبَلُ يَتحوَّلُ إلى تَهديدٍ دائِمٍ يَسْتَعِرُ، يُلقي بِظِلالِهِ على الحاضِرِ فَيَضجَرُ، كأنّهُ شَبَحٌ يُذَكِّرُهُ بِأنَّ الفَناءَ مُنتَظِرُ. هذا الإدراكُ المُزدَوجُ يَضَعُهُ في اضطِرابٍ لا يَسْتَقِرُّ، كأنّهُ مُعلَّقٌ بينَ مِطرَقَتَي زَمَنٍ لا يَغْفِرُ: ماضٍ يُثقِلُهُ بِالذَّنبِ ويُحتَضَرُ، ومُستقبَلٍ يُرهِقُهُ بِالخَوفِ ويَنْكَسِرُ. فَيُصبِحُ الحاضِرُ سِجنًا لا يَسْتَمْتِعُ بهِ ويَصطَبِرُ، لأنّهُ مَسجونٌ بينَ نَدَمٍ وخَوفٍ لا يُنْتَصَرُ، كأنَّ الوَعيَ يُحرِمُهُ العَيشَ ويُحتَقَرُ، يُجبِرُهُ أنْ يَرى الهَشاشَةَ والعَبَثَ والقَدَرَ، دونَ أنْ يَملِكَ القُدرةَ على إغلاقِ النَّظَرِ.

العقلُ، الذي كانَ فَخْرَهُ وعِزَّهُ، يُصبِحُ هُنا جَلّادَهُ ورِجْزَهُ، كَما كانَ أداةَ نَفيٍ أوْ رَغبةٍ تَهُزُّهُ. كُلّما ازدادَتْ مَعرِفَتُهُ وتَبَصُّرُهُ، ازدادتْ مُعاناتُهُ وتَكَدُّرُهُ، لِأنَّ الوَعيَ لا يَمنَحُ إجاباتٍ تُريحُ وتَسُرُّهُ، بل يُكثِّفُ عَجْزَهُ ويَضُرُّهُ. كأنّهُ يَكتَشِفُ أنَّ كُلَّ ما بَناهُ – فَلسفاتُهُ، عُلومُهُ، آمالُهُ التي تَغُرُّهُ – لَيسَ سِوى قِلاعٍ منْ رِمالٍ تَجْرُفُها أمواجُ الوُجودِ وتَذُرُّهُ. الإنسانُ تَجاوَزَ غَريزَتَهُ، لكِنّهُ لَمْ يَتجاوَزْ شِقْوَتَهُ، بلْ جَعَلَها

أَشَدَّ حِدَّةً فِي لَوْعَتِهِ، كَأَنَّ الغَرِيزةَ كانَتْ دِرعًا فَقَدَ قُوَّتَهُ، تارِكًا إيّاهُ عَارِيًا أمامَ حقائِقَ تَفضَحُ ضَعْفَهُ. بِخِلافِ الحَيوانِ الذي يَعيشُ دونَ سُؤالٍ عنْ عِلَّتِهِ، يُصبِحُ الإنسانُ أسيرَ أسئلةٍ تُطارِدُهُ في خَلْوَتِهِ: لِماذا أعيشُ؟ ما غايَةُ آلآمي وَرَحْمَتي؟ هلْ هُناكَ مَعنًى أمْ أنَّ العَبَثَ هوَ قِصَّتي؟ وكُلّما حاوَلَ الإجابَةَ، ازدادَ غَرقُهُ في حيرَتِهِ، كَأَنَّ الوَعي يُعاقِبُهُ على جُرأتِهِ، بِأنْ يُظهِرَ لهُ الحَقيقةَ في عُرْيِ قَسوَتِهِ، حَقيقةٌ لا تُواسيهِ ولا تُسعِفُ ضَرُورَتَهُ، بلْ تُثبِتُ أنَّ لَعنَتَهُ ليستْ في الحَياةِ، بلْ في إدراكِهِ لَها ولِقِلَّتِهِ، ذلكَ الإدراكُ الذي يُحوِّلُ كُلَّ لَحْظَةٍ إلى مَعركةٍ داخليّةٍ في مُهجَتِهِ، تُترِكُهُ مُنهَكًا بينَ ماضٍ يُعَذِّبُهُ ومُستقبَلٍ يُرْعِبُهُ، دونَ أنْ يَجِدَ في الحاضِرِ إلا سِجنًا يُشَيِّدُهُ الوَعيُ بِعَظَمَتِهِ، كَأَنَّ أعظَمَ قُواهُ – العقلُ – هيَ أعمَقُ جُروحِهِ التي لا شِفاءَ لِعِلَّتِهِ.

واكتِسابُ اللُّغةِ، ذلكَ الإنجازُ المُبينُ، الذي رَفَعَ العقلَ إلى ذُروةِ التَّمكينِ، كَما رأيناهُ يُقَيِّدُ ويُعينُ، لكِنّهُ في ذاتِ الوَقتِ، ويا لَلمَصيرِ المَشينِ، أحدِ أكبَرِ أوهامِهِ في اليَقينِ، كَأَنَّ ما ظَنَّهُ الإنسانُ مِفتاحًا لِلحَقِّ المُبينِ، لَمْ يَكُنْ سِوى قِناعٍ يُخفي عَبَثَهُ الدَّفينَ. ففي نَظَرِهِ القاتِمِ، الكَلماتُ ليستْ وَسيلةً لِلفَهمِ الأمينِ، بقدْرِ ما هيَ أداةٌ لِلخِداعِ المَتينِ، ليسَ فَقطْ خِداعَ الآخَرينَ في هذا العَرينِ، بلْ خِداعَ الذّاتِ أيضًا في سَعيٍ حَزينٍ، لِلهُروبِ منْ قَسوةِ الوَعي والأنينِ. نحنُ لا نَتَحَدَّثُ لِنَقولَ الحَقيقةَ التي تَستَبينُ، بلْ لِنُبَرِّرَ وُجودَنا الهَشَّ المَهينَ، ولِنُفَسِّرَ ما لا يُفسَّرُ ويُستَبينَ، ولِنَنسِجَ أوهامًا تُريحُنا منْ عَبَثِ السِّنينَ. التَّواصُلُ البَشريُّ، بهذا المَعنى، يُصبِحُ ضَلالاً مُبينًا، يُضاعِفُ التَّشويشَ ولا يُظهِرُ يَقينًا، لِأَنّنا لا نُطارِدُ الحَقيقةَ، بلْ ما يُسكِتُ القَلَقَ الدَّفينَ، كَأَنَّ اللُّغةَ شَبَكَةٌ نَصطادُ بِها الطُّمأنينةَ، لكِنّها لا تَجلِبُ إلا فَراغًا وحُزنًا دَفينًا، تُعَمِّقُ عَذابَ الوَعي ولا تَكونُ لَهُ مُعينًا.

وقَدْ يَظُنُّ البَعضُ، في تَفاؤُلِهِمُ المُستَكينِ، أنَّ العقلَ يَمنَحُ حُرِّيّةَ الاختيارِ المَتينِ، تِلكَ الحُرِّيّةُ التي نُمَجِّدُها كَبُرهانٍ يَقينٍ، لكِنَّ شوبنهاورَ يُظهِرُ أنَّها وَهمٌ ظاهِريٌّ مُبينٌ، كَما كانَ الهَدَفُ وَهمًا في السَّعيِ المَشينِ. فَكُلُّ قَرارٍ يَظُنُّهُ الإنسانُ اختيارًا في الحينِ، ليسَ إلا حَصيلةَ سَلاسِلَ منَ العِلَلِ والتَّكوينِ، تُشَكِّلُهُ مُنذُ الطُّفولةِ بِلا تَبيينٍ – بِيئَتُهُ التي تُحاصِرُهُ، غَرائِزُهُ التي تَأسِرُهُ، تَجارِبُهُ التي تُسَيِّرُهُ كَخُيوطٍ لِلاعِبٍ ماكِرٍ لَعينٍ. يَعتَقِدُ أنَّهُ يَختارُ بِحُرِّيّةٍ، لكِنَّهُ مُسيَّرٌ بِقُوّةٍ قَهْرِيّةٍ، مَدفوعٌ بِرَغَباتٍ داخليّةٍ لا يُدرِكُ أصْلَها الأبَدِيَّ، وعَوامِلَ خارِجيّةٍ لا يَتَحَكَّمُ في قَدَرِها الأَزَلِيَّ. كَنَهرٍ يَظُنُّ أنَّهُ يَرسِمُ مَسارَهُ بِعَزمٍ قَويٍّ، بينما هوَ مُجَرَّدُ تَيّارٍ

يَتبَعُ انحدارَ الأرضِ بِلا وَعيٍ. وهكَذا، لا يَختَلِفُ الإنسانُ عنِ الحيَوانِ إلا في تَعقيدِ قَيدِهِ، كَما رَأَيْنا في الفَجوةِ الوُجوديّةِ وعَهْدِهِ: الحَيوانُ مُقَيَّدٌ بِغَريزَتِهِ، والإنسانُ مُقَيَّدٌ بِوَعيِهِ الذي يُضاعِفُ مِحْنَتَهُ، يُحَوِّلُهُ إلى سَجينٍ يُصنِعُ سِجنَهُ بِيَدِهِ وَهِمَّتِهِ، يَظُنُّ أنّهُ يَتَحَرَّرُ وهوَ يُشَدِّدُ أغلالَهُ بِكَلِمَتِهِ.

فَكُلّما زادَتْ مَعرِفَتُهُ، وأحاطَ بِالحَقائِقِ القاسيةِ التي تُرهِقُ فِطرَتَهُ، تِلكَ التي كانَ الوَعيُ يَفضَحُها بِلا شَفَقَةٍ أوْ رِقَّةٍ: أنَّ الألَمَ جُزءٌ منَ الحياةِ، لا مَفَرَّ مِنْهُ حتّى المَمَاتِ؛ وأنَّ العَدالَةَ وَهمٌ باهِتٌ في الظُّلُماتِ؛ وأنَّ المَوتَ حَتميٌّ كَالشَّمسِ في الغَدَواتِ. هذهِ الإدراكاتُ، التي قَدْ يَظُنُّها البَعضُ خَلاصًا في الحَياتِ، لا تَقودُ إلى تَحَرُّرٍ أوْ سَكَراتٍ، بلْ إلى استِنزافٍ داخليٍّ يَجلِبُ الآهاتِ، حَيثُ تُصبِحُ الحَياةُ عِبئًا لا يُطاقُ بِالثَّباتِ، صَخرَةً يَجرُّها على ظَهرِهِ في الفَلَواتِ. الكائناتُ الأقَلُّ وَعيًا، لا تَشعُرُ بِهذا الاستِنزافِ والهَبَواتِ، تَعيشُ دونَ أنْ تُثقِلَها الأسئلةُ والمُعْضِلاتِ، كَأنَّ غِيابَ الوَعيِ دِرعٌ منَ الشَّقاءِ والآفاتِ. بَينما الإنسانُ، بِكُلِّ مَعرِفَتِهِ، يَجِدُ نَفسَهُ عارِيًا أمامَ الحَقائِقِ والعَثَراتِ، مُحاصَرًا بينَ خِداعِ اللُّغةِ ووَهْمِ الحُرِّيّةِ والذّاتِ، دونَ أنْ يَستطيعَ الهُروبَ منَ الاستِنزافِ في كُلِّ الأوقاتِ، كَأنَّ كُلَّ كَلِمةٍ أو فِكرةٍ تُضيفُ إلى المُعاناةِ، وتُثبِتُ أنَّ وَعيَهُ لَعنَةٌ تُحَوِّلُ الحَياةَ إلى تَحَمُّلٍ وَسَكَراتٍ، تَترُكُهُ وَحيدًا مَعَ حَقائِقَ لا تَتَغَيَّرُ، وأوهامٍ لا تُنقِذُ منَ المَمَاتِ.

وهكَذا، تَكمُنُ مَأساةُ الإنسانِ، لا في مُعاناتِهِ التي تَجري كَنَهرٍ، بلْ في مَعرِفَتِهِ المُسبَقَةِ بِأنّهُ سَيُعاني في كُلِّ دَهرٍ، في إدراكِهِ المُرعِبِ أنَّ كُلَّ هُروبٍ ليسَ إلا مُسكِّنًا لِشَرٍّ، كَأدويَةٍ تُخَفِّفُ الوَجَعَ لِوَهلَةٍ ثُمَّ تَفِرُّ. يُمكِنُهُ أنْ يَخدَعَ نَفسَهُ بِالدِّينِ ويَتَستَّرَ، يُلقي بِثِقَلِ وُجودِهِ على وَعدٍ غَيبيٍّ يَنتَظِرُ، أوْ يَلجَأَ إلى الفَلسفةِ لِيَتَدَبَّرَ، يُحيطُ نَفسَهُ بِأفكارٍ تُبَرِّرُ العَبَثَ وتُصَبِّرُ، أوْ يَتَشَبَّثَ بِالعَلاقاتِ كَحَبلٍ لا يُبْتَرُ، لكِنّهُ في النِّهايةِ سَيَجِدُ الحَقيقةَ التي لا تَتَغَيَّرُ: أنَّ الحَياةَ تَستمِرُّ، لا لِأنّها ذاتُ مَعنًى أوْ غايةٍ تُستَظْهَرُ، بلْ لِأنّها آلَةٌ عَمياءُ لا تَعرِفُ أنْ تَتَوَقَّفَ أوْ تَتَأخَّرَ. يُحاوِلُ التَّعَلُّقَ بِشَيءٍ لِيَستَقِرَّ، أنْ يَبنِيَ جِدارًا منْ وَهْمٍ لِيَستَتِرَ، يَسعى نَحوَ الأمَلِ كَسَرابٍ يَفِرُّ، لكِنّهُ يَعرِفُ في الأعماقِ أنّ الأمَلَ خُدعةٌ تَغُرُّ، مُسَكِّنٌ واهٍ يُخَفِّفُ الحَقيقةَ الباردةَ التي تَضُرُّ، لكِنّها تَظَلُّ تَتَربَّصُ بِهِ وتَجُرُّ: أنْ لا شَيءَ يَستَحِقُّ السَّعيَ أوْ يَسُرُّ، لِأنَّ النِّهايةَ واحِدةٌ، مَحتومةٌ، كَما يَمُرُّ، كَأنَّ كُلَّ الطُّموحاتِ والأحلامِ جُسورٌ فَوقَ هاويةٍ تَغدُرُ، تَرفَعُهُ لِوَهلَةٍ ثُمَّ تَنهارُ فَيَخِرُّ، تُعيدُهُ إلى السُّقوطِ الذي مِنهُ يَفِرُّ، في دَورةٍ عَبثيّةٍ لا تَستَقِرُّ.

إنّهُ يَركُضُ، بِلا وِجهةٍ أوْ دَليلٍ، كَمَنْ يَركُضُ في اللّيلِ الطَّويلِ، كَأنَّ الحَرَكَةَ ذاتَها تكفي لِتُوهِمَهُ بالتَّحصيلِ، أنَّ لِلحَياةِ وَزنًا أوْ مَعنًى جَليلٍ، وأنَّ لِعَنائِهِ هذا سَبَبًا أَصيلٍ. لكنّهُ يَعرِفُ - وهُوَ يَركُضُ بينَ ماضٍ كَالجَبَلِ الثَّقيلِ، ومُستقبَلٍ كَالوَحشِ المُخيفِ الجَليلِ - أنَّ هذا الرَّكضَ لَيسَ إلا تَأجيلاً لِلرَّحيلِ، لِلحظَةِ الإدراكِ القاتِلَةِ كَالسَّيْفِ الصَّقيلِ، تِلكَ التي تتَكَشَّفُ فيها الحَقيقةُ بِلا تَجميلٍ: أنَّ كُلَّ طَريقٍ لا يَقودُ إلا إلى الحائطِ المُستَحيلِ، إلى الفَراغِ الذي يَبتَلِــعُ كُلَّ جيلٍ، كَأنَّ الحَياةَ تُصِرُّ على الاستمرارِ لِتُثبِتَ عَبثَ السَّبيلِ، تَترُكُ الإنسانَ يَتَخَبَّطُ في سُقوطِهِ الذَّليلِ، دونَ أنْ تُقَدِّمَ لَهُ يَدًا أوْ دَليلٍ، لِأنّها لا تَعرِفُ الرَّحمَةَ ولا تُبالي بِالعَويلِ. هذا الرَّكضُ، الذي يَظُنُّهُ حَرَكَةً، لَيسَ إلا هُروبًا مِنْ فَراغٍ يَسكُنُهُ ويُحدِثُ حَرَقَةً، لكِنّهُ يُدرِكُ أنَّ الفَراغَ لَيسَ خارِجًا بَلْ في الذّاتِ مُعْتَنَقًا، يَتَغذّى على كُلِّ أمَلٍ بَناهُ وتأَلَّقا، يُحطِّمُ كُلَّ جِسرٍ شادَهُ وتأنَّقا، كَأنَّ كُلَّ خُطوةٍ لِلأمامِ تُقَرِّبُهُ مِنَ الحَقيقةِ التي أُغلِقَ عَلَيها البابُ وأُطْبِقَا: أنَّ لا شَيءَ يَملأُ هذا الفَراغَ، لِأنّهُ الحَقيقةُ التي لا تُرتَقَى.

وكُلّما ازدادَ وَعيُهُ عُمْقًا ونُضْجًا، ازدادَتْ مُعاناتُهُ أَلَمًا وَعَجْزًا. أنْ تَعرِفَ أكثَرَ يَعني أنْ تَرى أكثَرَ، أنْ تُدرِكَ زَيفَ كُلِّ خِداعٍ لِلنَّفْسِ وَوَجْهًا أغبَرا، أنْ تَعيشَ مُثقَلاً بِالحَقيقةِ كَصَخرةٍ تَقصِمُ الظَّهْرا، دونَ أنْ تَملِكَ خِيارَ التَّراجُعِ أوْ أنْ تَعبُرا. الوَعيُ في جَوهَرِهِ سِجنٌ أيُّها القارِئُ، سِجنٌ بِلا أبوابٍ تَفتَحُ أوْ شارِعٍ، لا مَفَرَّ مِنهُ إلا بِالنِّسيانِ الواضِـعِ، لكِنْ كَيفَ يَنسى مَنْ أدرَكَ الواقِـعَ؟ كَيفَ يَعودُ إلى الوَهمِ مَنْ رأى الحَقيقةَ كَنَصْلٍ قاطِـعٍ؟ مَنْ عَرَفَ أنَّ الأمَلَ خُدعةٌ، وأنَّ الطُّمأنينةَ مُتعَةٌ مُخادِعَةٌ، وأنَّ الحَياةَ آلَةٌ لا تَسمَعُ ولا تُتابِـعُ، لا يَستطيعُ أنْ يُغمِضَ عَينَيهِ عنْ هذا المُصارِعِ، كَأنَّ الوَعي يُعاقِبُهُ على الجُرأةِ، ويُبقيهِ حَيًّا مَعَ الحَقيقةِ المُرَّةِ، يُجبِرُهُ أنْ يَعيشَها بِكُلِّ قُوَّةٍ، دونَ أنْ يَملِكَ الهُروبَ أوْ يَجِدَ ثُغْرَةً، كَأنَّ كُلَّ خَلاصٍ يُعيدُهُ إلى البِدايةِ المُرَّةِ، إلى سِجنٍ بُنِيَ مِنْ وَعيِهِ، لا يُهدَمُ إلا مَرّةً، سِجنٌ هوَ الإنسانُ نَفسُهُ، مُحاصَرٌ بِمَعرِفَتِهِ أنّهُ سَيُعاني، مُثقَلٌ بِإدراكِهِ أنْ لا شَيءَ يُنقِذُهُ سِوى لَحظةٍ قدْ تَأتي مِنْ زَمانٍ ثاني، لَحظةٍ يَذوبُ فيها الوَعي كَالدُّخانِ، تارِكًا الإنسانَ حُرًّا، لَيسَ بِالحَياةِ والأمانِ، بلْ بِالتَّخَلّي عَنْها بِلا امتِنانٍ، كَأنَّ النِّسيانَ النِّهائيَّ خَلاصٌ مِنْ سِجنٍ لا يُفارِقُ إلا بِالمَوتِ والفِقدانِ.

إنَّ الإنسانَ العالِقَ في هذا الصِّراعِ المُميتِ، كَما رأيناهُ يَركُضُ بِلا وِجهةٍ في طَريقٍ خَبيثٍ، ويُحاصَرُ بِسِجنِهِ الدّاخِليِّ المَقيتِ، لَيسَ سِوى غَريبٍ في عالَمٍ لا يَنتَمي إليهِ ولا يُجيبُ بِنَعيتٍ، مَحكومٌ بِحَتميّةِ

الوَعي التي تُثقِلُهُ كَقَيدٍ منْ حَديدٍ مَسبوتٍ، مَحكومٌ بِأنْ يَرى عَبثيّةَ كُلِّ شَيءٍ كَما فَضَحَها وَعيُهُ القاسي المَكبوتِ، أنْ يَتألّمَ بِصَمتٍ لِأنّهُ يَعرِفُ أنَّ تَفسيرَ وُجودِهِ مَحكومٌ بِالفَشلِ المَمقوتِ. الأسئلةُ الكُبرى التي يُطلِقُها عَقلُهُ في فَضاءِ السُّكوتِ – لِماذا أنا هُنا؟ ما الغايةُ منْ هذا التّابوتِ؟ – لا إجابةَ لَها، ليسَ لِأنّها مَخفيّةٌ في المَلَكوتِ، بلْ لِأنّها أسئلةٌ وَهميّةٌ، صَنَعَها العقلُ لِيَخدَعَ نَفسَهُ منَ المَوتِ، لِيُبقيَ نَفسَهُ واقِفًا أمامَ الفَراغِ المُخيفِ المَشْموتِ، كَما خَدَعَ نَفسَهُ بِاللُّغةِ والأمَلِ المَبْخوتِ. كُلُّ مُحاوَلةٍ لِصياغةِ مَعنًى، كُلُّ كَلمةٍ يَنطِقُها في الأتونِ، ليستْ سِوى تَأجيلٍ غَيرِ ضَروريٍّ لِلحَظةِ الجُنونِ، تِلكَ اللَّحْظَةُ التي يُواجِهُ فيها المَصيرَ المَسْنونَ، مَصيرٌ لا يُمكِنُ تَفاديهِ بِفِعلٍ أوْ بِكونٍ، كَأنَّ الاستمرارَ نَفسَهُ مَسرحيّةٌ هَزليّةٌ في السُّكونِ، يُؤَدّيها الإنسانُ لِيُثبِتَ أنّهُ ليسَ وَحيدًا في الكَونِ، بينما يَعرِفُ في أعماقِهِ أنَّ كُلَّ خُطوةٍ تُقَرِّبُهُ منَ الحائِطِ المَجنونِ الذي لا يُمكِنُ عُبورُهُ بِعَونٍ.

ولَوْ كانَ لِلكَونِ إرادَةٌ أوْ قَلبٌ يَتألّمُ، كَما قَدْ يَتَخَيَّلُ المُؤمِنونَ بِالمَعنى ويَتَكَلَّمُ، لَما سَمَحَ بِوِلادةِ الإنسانِ الذي يَتَظَلَّمُ، لِأنّنا خَطأٌ في النِّظامِ، انحرافٌ يُسْتَغْرَمُ، عنْ تَدفُّقِ الحَياةِ الأعمى الذي لا يَفهَمُ السؤالَ ولا يَعلَمُ الجَوابَ ويَتَرَنَّمُ. بَقيّةُ الكائناتِ، تُولَدُ، تَعيشُ، تَموتُ، دونَ أنْ تُثقِلَ نَفسَها بِـ "لِماذا؟" الذي يَصْمُتُ، دونَ أنْ تَحمِلَ عِبئًا لا تَحْتَمِلُهُ وتَمْقُتُ. أمّا نَحنُ، فقدْ أُصِبْنا بِلَعنةِ التَّفكيرِ التي تَثْبُتُ، انفتَحَ وَعيُنا على شَيءٍ لَمْ يَكُنْ يَنبَغي أنْ نُثْبِتَ: عَبثيّةُ الوُجودِ التي تُحَطِّمُ كُلَّ وَهْمٍ بَنَيناهُ ويَخْبُتُ. نحنُ كائناتٌ تَكْدَحُ، تُجاهِدُ لِإعطاءِ مَعنًى لِما لا مَعنى لهُ ويَكْبُتُ، مَدفوعةً بِوَهمِ الذّاتِ الذي يُوهِمُنا أنّنا مَركَزُ الكَونِ ونَكبُتُ، وبِوَهمِ الأهَمّيّةِ الذي يُقنِعُنا أنَّ لِوُجودِنا وَزنًا في ميزانٍ يَشْمُتُ. الطَّبيعَةُ لَمْ تَمنَحْنا هذا الوَعي لِنَستَخدِمَهُ ضِدَّها ونَشْمُتُ، لِنُحلِّلَها ونُشَكِّكَ فيها ونَمْقُتُ، لكِنّها أفْرَطَتْ في صُنعِهِ كَما تُفرِطُ في خَلقِ ما يَموتُ، فَجَعَلَتنا غُرباءَ عنْ أنفُسِنا، عنْ عالَمٍ لَمْ يُخلَقْ لِنُفكِّرَ فيهِ بَلْ لِنَقوتُ، نَعيشُهُ بِغَريزةٍ ثُمَّ نَموتُ، كَأنَّ الوَعي خَطيئةٌ لا تَفوتُ، نُعَذِّبُ أنفُسَنا بِأفكارٍ في التّابوتِ.

نَحنُ لا نَعيشُ لِأنّنا اختَرْنا الوُجودَ، كَما قَدْ يُوهِمُ الغُرورُ والجُحودُ، بلْ لِأنَّ سِلسِلةً مِنْ حَوادِثَ بيولوجيّةٍ بِلا حُدودٍ، فَرَضَتْ وُجودَنا كَحَقيقةٍ تَسودُ، كَأنّنا ضُيوفٌ بِلا وُفودٍ، على مَأدبةٍ لَمْ تُعَدَّ لَنا في العُهودِ. لَمْ يَسأَلْنا أحَدٌ، لَمْ نُمْنَحْ أيَّ مَردودٍ، فَقَطْ وُجِدْنا في لُعبةٍ بِلا قُيودٍ أوْ سُدودٍ، نُحاوِلُ إقناعَ أنفُسِنا أنَّ هذا يَستَحِقُّ الصُّمودَ، وأنَّ هُناكَ مَعنًى يُبَرِّرُ الشَّقاءَ والصُّعودَ. لكِنَّ الحَقيقةَ أقسى، وأعْتَى مِنَ الجُنودِ: نحنُ

هُنا لِأنَّ آباءَنا لَمْ يَكونوا أُسودًا، لَمْ يَقولوا "كَفى" ويَعودوا، لَمْ يُنهوا الدَّوامةَ ويَجودوا، فَتَرَكونا نُجبَرُ على الإيمانِ بِأنَّ لِحَياتِنا وُجودًا، وبِأنَّ هُناكَ قانُونًا أخلاقيًّا مَوجودًا، يَجعَلُ كُلَّ هذا مَنطِقيًّا مَعدودًا، كَأنَّ العالَمَ يَهتَمُّ بِنا ويُريدُنا خُلودًا. لكِنْ حِينَ تَنكَشِفُ الحَقيقةُ في الوُجودِ، حِينَ تَتَجَلّى هَشاشَةُ كُلِّ مَعهودٍ، لا يَبقى سِوى الأَلَمُ النَّقيُّ المَمدودُ، والتَّبريرُ اليائسُ المَردودُ، والبَحثُ المُستميتُ عنْ مُخَدِّرٍ مَفقودٍ – دينٌ، حُبٌّ، أَمَلٌ مَوعودٌ – كَذِبةٌ نَتَشَبَّثُ بِها كَغَريقٍ مَشدودٍ، نُؤَخِّرُ السُّقوطَ الحَتْميَّ المَمدودَ، لكِنّنا نَعرِفُ أنّهُ آتٍ بِلا وُعودٍ، كَأنَّ كُلَّ نَجاةٍ تُثبِتُ أنَّ الوَعيَ عَدُوٌّ لَدودٌ، يُجبِرُنا أنْ نَرى كُلَّ شَيءٍ في الوُجودِ، دونَ أنْ يَمنَحَنا القُدرةَ على تَغييرِ المَحدودِ، تارِكًا إيّانا غُرباءَ في عالَمٍ بِلا حُدودٍ، نَكدَحُ فيهِ بِلا مَعنًى مَوجودٍ، نَنتَظِرُ نِهايةً لَمْ نُخلَقْ لِنَفهَمَها، بَلْ لِنُعانيَها بِلا رُدودٍ.

وماذا يُمكِنُ فِعلُهُ، يا تُرى، أمامَ هذهِ الحَقيقةِ العاريةِ التي تُطاردُ الوُجودَ؟ الانتحارُ؟ قدْ يَبدو مَخرَجًا، كَمَلاذٍ بارِقٍ لا يَعودُ، لكِنّهُ ليسَ سِوى تَسريعٍ لِما هوَ آتٍ مَوعودٍ، كَقَفزَةٍ مِنْ سَفينةٍ غارِقةٍ في البُحورِ السودِ. ليسَ خَلاصًا حَقيقيًّا يَجودُ، بلْ انقطاعٌ لِوَعيِكَ عَنْ مَأساتِكَ والسُّجودِ، تارِكًا المَسرحَ يَستمِرُّ لِغَيرِكَ في الصُّعودِ، كَأنَّ المَوتَ سُخريّةٌ تُعيدُ الوُعودَ: تُنهي دَورَكَ، لكِنَّ العَرضَ باقٍ بِلا حُدودٍ، يَبتَلِعُ آخَرينَ في نَفسِ القُيودِ، دونَ أنْ تُغَيِّرَ شَيئًا في العُقودِ. لَنْ تَشهَدَ العالَمَ بَعدَ رَحيلِكَ، لكنْ هذا لا يُلغي وَجودَ تَرحيلِكَ، ولا يُنهي الحَقيقةَ في تَفصيلِكَ: أنَّ كُلَّ شَيءٍ سَيستمِرُّ في دَورَتِهِ وتَشكيلِكَ، بِلا رَحمَةٍ ولا مَعنىً في تَهويلِكَ، كَأنَّ مَوتَكَ ليسَ انتِصارًا، بلْ استِسلامٌ لِعَويلِكَ، تُثبِتُ أنَّ الوَعيَ عِبءٌ لا يُطاقُ في تَضليلِكَ، لكِنْ دونَ أنْ تُحَرِّرَ نَفسَكَ مِنْ تَكبيلِكَ.

الهُروبُ إلى المَلَذّاتِ؟ قَدْ يَبدو مَلجأً لِلَحَظاتٍ خاطِفاتٍ، كَما حاوَلَ البَعضُ أنْ يُخَدِّعوا بِالأَمَلِ والكَلِماتِ، لكِنّهُ خِداعٌ لا يَصمُدُ أمامَ الوَعيِ ذي الآهاتِ. يُمكِنُكَ أنْ تَغرَقَ في اللَّذّةِ والنَّشَواتِ، أنْ تُلهِيَ نَفسَكَ بِالضَّحِكِ والحُبِّ والمُتعاتِ العابِراتِ، التي تُشبِهُ رَذاذًا خَفيفًا في وَجهِ العاصِفاتِ، لكِنّها سَتَتَلاشى كَالأوهامِ والذِّكرياتِ، تَترُكُ الوَعيَ عارِيًا أمامَ رُعبِهِ ذي الظُّلُماتِ: أنّهُ مَوجودٌ بِلا سَبَبٍ في الفَلَواتِ، مَحكومٌ بِالتَّفكيرِ والأَلَمِ حتّى المَماتِ، يَبحَثُ عنْ مَعنًى في فَراغٍ لا يَملِكُهُ ولَنْ يَأتيَ بِهِباتٍ. المَلَذّاتُ مُسكِّناتٌ لِلَحَظاتٍ، لكِنّها لا تُعالِجُ جُرحَ الحَيواتِ، بلْ تُؤجِّلُ المُواجهةَ والسَّكَراتِ، وعِندَما تَعودُ

الحَقيقةُ، تَكونُ أقسى بِلا مُفاجآتٍ، كَأنَّ كُلَّ لَذّةٍ دَيْنٌ يُسَدَّدُ بِالمُعاناةِ، كَأنَّ الوَعي يُعاقِبُكَ على هُروبِكَ منَ المَتاهاتِ، يُذَكِّرُكَ أنْ لا شَيءَ يُخفي عَبَثَ الحَيواتِ، لا الحُبُّ، ولا الضَّحِكُ، ولا نِسيانُ المُتَغيِّراتِ.

العَبثُ بِالوَعي ذاتِهِ؟ أنْ تُحاوِلَ خِداعَ الذّاتِ في الخَلَواتِ، كَما حاوَلْتَ بِالتَّبريرِ والأُمنيّاتِ؟ أنْ تُجبِرَ نَفسَكَ على تَصديقِ ما لَمْ تَعُدْ تؤمِنُ بِهِ في الأوقاتِ، أنْ تَتَمَسَّكَ بِأيِّ فِكرةٍ تُبعِدُكَ عنِ الجُنونِ والمَماتِ، كَمَنْ يُمْسِكُ بِحَبلٍ بالٍ فَوقَ الهُوّاتِ؟ لكِنَّ الحَقيقةَ لا تَموتُ ولا تُؤاتي، تَعودُ كُلَّ مَرّةٍ أقسى، وأشدَّ قَسَواتٍ، كَظِلٍّ ثَقيلٍ يُطارِدُكَ حتّى الفَواتِ، لا يَترُكُ لَكَ مَهرَبًا منْ إدراكِ الآفاتِ. كُلُّ مُحاوَلةٍ لِلعَبَثِ بِالوَعي - بِإيمانٍ مُفتَعَلٍ أوْ فَلسَفاتٍ مُسَكِّناتٍ، أوْ بِأكاذيبَ تُرَدِّدُها بِلا ثَباتٍ - تُشبِهُ مُحاوَلةً لِإخفاءِ الشَّمسِ بِاليَدَيْنِ الخائِفاتِ، قَدْ تُغمِضُ عَينَيكَ، لكِنَّ الضَّوءَ باقٍ في كُلِّ الجِهاتِ، يُجبِرُكَ أنْ تُواجِهَ ما تَعرِفُهُ بِلا مُداهَناتٍ: أنَّ كُلَّ هذهِ الأفكارِ خُدَعٌ مُزَيَّفاتٌ، تُؤَخِّرُ الجُنونَ لكِنّها لا تُلغيهِ في الذّاتِ، تُبقيكَ في نَفسِ السِّجنِ بَعدَ المُحاوَلاتِ، كَأنَّ الوَعي يَرفُضُ أنْ يُخدَعَ، ويُصِرُّ على الحَقيقةِ حتّى في السَّكَراتِ.

نَحنُ عالِقونَ إذنْ، كَما كُنّا غُرباءَ في المَتاهاتِ، بينَ وَعيٍ يَصرُخُ بِلا جَدوى في الظُّلُماتِ، وغَرائِزَ تَدْفَعُنا لِلمُضيِّ رُغمَ الآهاتِ، كَآلَةٍ عَمياءَ لا تَعرِفُ السُّباتَ. نَحنُ مُمَزَّقونَ بينَ حَقيقةٍ نُدرِكُها في الخَلَواتِ - أنَّ اللُّعبةَ زائِفةٌ وأنَّ كُلَّ خَطوةٍ عَبَثٌ في الفَلَواتِ - وبينَ خَوفٍ فِطريٍّ منْ تَركِها يُثيرُ الشَّتاتَ، خَوفٍ ليسَ منَ المَوتِ، بلْ منَ الفَناءِ الذي يُنهي حتّى الصَّرَخاتِ. نَحيا لِأنَّ الجَسَدَ يُجبِرُنا على الحَيواتِ، لِأنَّ خَلايانا مُبرَمَجةٌ على المُقاوماتِ، لِأنّنا لسنا أحرارًا، بلْ سُجَناءُ لِذاتٍ تَخشى المَماتِ، أكثَرَ مِمّا تَخشى العَذابَ والسَّكَراتِ، تُجبِرُنا أنْ نُكمِلَ اللُّعبةَ رُغمَ فَهمِ الخُدَعاتِ. هذا الصِّراعُ بينَ الوَعي والغَريزةِ سِجنٌ بِلا نَجاةٍ، سِجنٌ لا نَملِكُ مِفتاحَهُ في الشَّدّاتِ، لِأنَّ الوَعي يُرينا الحَقيقةَ بِلا قُدراتٍ، والغَريزةُ تُجبِرُنا على الحَياةِ بِلا غاياتٍ، كَأنّنا مَحكومونَ بِصُراخٍ داخليٍّ ودَفْعٍ في السّاحاتِ، عالِقونَ حتّى النِّهايةِ بِلا مُفاجآتٍ، دونَ خَلاصٍ إلا في لَحظةٍ لا تَأتي بِالبَرَكاتِ، لَحظةٍ يَتوقَّفُ فيها الوَعي عنِ الصَّرَخاتِ، ليسَ لِأنَّهُ وَجَدَ إجابةً، بلْ لِأنَّهُ استَنفَدَ الصَّوتَ في الفَلَواتِ، تارِكًا الجَسَدَ يُكمِلُ مَسيرَتَهُ حتّى يأتيهِ الفَواتُ، دونَ أنْ يُدرِكَ لِماذا بَدأَ أصلاً بِالحَيواتِ.

ولكِنْ، ماذا لوْ أنَّ هُناكَ، في صَميمِ هذهِ العَتمَةِ القاتِلةِ التي لا تُطاقُ، ومِنْ قَلبِ هذا الجَحيمِ الوُجوديِّ الذي فيهِ نُساقُ، إمكانيّةً لِفعلٍ جَذريٍّ أخيرٍ لا يُعاقُ، لِشَجاعةٍ قُصوى لمْ نَعرِفْها في الآفاقُ؟ ماذا لوْ كُنّا نَملكُ القُدرةَ الحقَّةَ، ليسَ فقطْ على تَحمُّلِ عَذابِنا المُرِّ بِصَبرِ المَحكومِ الذي لا يُشْفَقُ، بلْ على أنْ نُغلِقَ الدّائِرَةَ اللّعينةَ بِأيدينا ونُطْلِقَ، تِلكَ الدَّوّامةُ التي رأيناها تُحاصِرُنا بِعِنادٍ مُطْبِقٍ، بينَ وَعينا الصّارِخِ الذي لا يَرحَمُ ولا يَعتِقُ، وغَرائِزِنا العَمياءِ التي لا تَفهَمُ ولا تَنْطِقُ؟ أنْ نَقولَ بِقُوّةِ الصّارِخِ، بِقَرارٍ واعٍ لا يَعرِفُ التَّراجُعَ ولا يَألَفُ: 'كَفى!'. لا أنْ نَقولَها لِأنفُسِنا الفانِيةِ فَحَسْبُ، كَما قَدْ يَفعَلُ المُنتَحِرُ في لَحظةِ يَأسِهِ الأخيرِ الأرَقِّ، مُنهِيًا مَأساتَهُ الفَرديّةَ في فَراغٍ صامِتٍ لا يَكتَرِثُ ولا يَشْرَقُ، بلْ أنْ نَقولَها لِمَنْ بَعدَنا، بِاسمِ مَنْ لمْ يَرَ النُّورَ بَعدُ، لِأولئكَ الأرواحِ البَريئةِ التي لمْ تُولَدْ ولمْ تُجبَرْ بَعدُ على أنْ تَحمِلَ على أكتافِها الهَشّةِ هذهِ اللّعنةَ المُتَجَدِّدَةَ، لَعنةَ الوَعي، التي أثقَلَتْنا حتّى كادَتْ تَسحَقُنا وتُغرِقُ. أنْ نَرفُضَ بِكُلِّ ما أوتينا مِنْ إدراكٍ مُؤلِمٍ، وبِكُلِّ ما تَبَقّى لَنا منْ إرادةٍ تَجْرُؤُ وتُحلّقُ، أنْ نَنقُلَ هذا العِبءَ الوُجوديَّ الثَّقيلَ كَإرْثٍ مَسمومٍ لا يُصَدَّقُ، إلى جِيلٍ آخَرَ، إلى أذهانٍ جَديدةٍ، بَريئةٍ، غَضّةٍ، سَتُلقى في العالَمِ فَقَطْ لِتَتَعذَّبَ بِذاتِ الطَّريقةِ المُحرِقةِ، فَقَطْ لِتُعيدَ نَفسَ الصُّراخِ الصّامِتِ الذي مَزَّقَ حَناجِرَنا وجَفَّفَ المَآقِيَ، ونَفسَ البَحثِ العَقيمِ عنْ مَعنًى في خَواءٍ لا يَملِكُهُ ولَنْ يَمنَحَهُ أوْ يُعْتِقَ. كَأنّنا، في تَكاثُرِنا الأعمى، نُكرِّرُ مَسرحيّةً عَبثيّةً بِلا نِهايةٍ، نُضيفُ إليها في كُلِّ مَرّةٍ شَخصيّاتٍ جَديدةً، ضَحايا جُدُدًا، دونَ أنْ نُغَيِّرَ حَرفًا واحِدًا في مَصيرِها المَحتومِ الأسْوَقِ، مَصيرِ الألَمِ والفَراغِ والفَناءِ المُحْدِقِ. هذهِ الشَّجاعةُ، شَجاعةُ قَولِ "لا" لِلاستمرارِ الأعمى الذي يُوبِقُ، ليستْ استِسلامًا لِليأسِ أوْ تَخَلّيًا عنِ الحَياةِ كَما قَدْ يُصَوِّرُها الواهِمونَ المُتَشَبِّثونَ بِوَهمِ الخُلودِ الأحْمَقِ، بلْ هيَ، في جَوهَرِها الأعمقِ، فَعلٌ جَذريٌّ، ثَورةٌ وُجوديّةٌ حَقيقيّةٌ، الفِعلُ الوَحيدُ الذي يَكْسِرُ تِلكَ السِّلسِلةَ اللّعينةَ التي بَدأتْ دونَ إرادَتِنا والتي سَتَستَمِرُّ إلى الأبَدِ إنْ لمْ نَتَدَخَّلْ ونُطْلِقُ. إنّهُ الفِعلُ الذي يُوقِفُ ذلكَ التِّكرارَ المَرَضيَّ الذي لا يُنتِجُ سِوى المَزيدَ منَ الشَّقاءِ ويُحْرِقُ، يُنهي ذلكَ المَطافَ العَبثيَّ الذي لا هَدَفَ لهُ إلا تَوريثَ العَذابِ الأبديِّ الذي يُغْرِقُ. كَأنّنا، بِهذا الرَّفضِ الواعي، نُعلِنُ لِأوّلِ مَرّةٍ في تاريخِنا، وبِصَوتٍ واضِحٍ لا يَرتَعِشُ ولا يَخْفَقُ: أنَّنا لسنا مُجَرَّدَ أدواتٍ صَمّاءَ في يَدِ الحَياةِ العَمياءِ، ولا حَطَبًا يُلقى في نارِها لِتَستَمِرَّ في الاشتِعالِ وتُشْرِقُ، بلْ كائِناتٌ تَملِكُ، رُغْمَ عَجْزِها، القُدرةَ على قَوْلِ 'لا' بِصِدقٍ، على كَسرِ الدّائِرةِ التي أسَرَتْنا وتُقْلِقُ، على وَضْعِ نُقطةِ النِّهايةِ لِقِصّةٍ لمْ نَكتُبْ فَصلَها الأوَّلَ ولَمْ نُعْتَقْ.

وصَدِّقْني، أيُّها القارِئُ المُعَذَّبُ بِوَعيِكَ كَالجَريحِ، أنَّ التَّكاثُرَ، هذا الفِعلَ الذي يُقَدَّسُ في الثَّقافاتِ كَواجِبٍ مَليحٍ، وتُبارِكُهُ الأديانُ كَنِعمةٍ لِلنَّفسِ والرِّيحِ، هوَ، في حَقيقَتِهِ العاريةِ التي تَكشِفُها مِرآةُ الوَعيِ المُؤلِمةِ كَالسَّيفِ الصَّريحِ، مُجَرَّدُ امتدادٍ لِلعَذابِ القَبيحِ، وتَكرارٌ مَأساويٌّ لِنَفسِ المَأساةِ التي رأيناها تُحاصِرُ الإنسانَ الغَريبَ في سِجنِ وَعيِهِ وتَجتَرِحُ. كُلُّ طِفلٍ يُولَدُ في هذا العالَمِ المَشؤومِ ليسَ شُعلةَ أمَلٍ جَديدةٍ تَلُوحُ، بلْ هوَ وَعيٌ جَديدٌ، بَريءٌ، هَشٌّ، يَنوحُ، يُلقى بِهِ بِلا رَحمَةٍ في مَحرَقَةِ الوُجودِ تَفوحُ، في أتونِ الأَلَمِ الذي لا يَنطفِئُ لَهُ نُوحُ. كائِنٌ صَغيرٌ، بَريءٌ، يُرْغَمُ على أنْ يُوجَدَ دونَ أنْ يُسألَ عنْ رَغبَتِهِ أوْ يُتاحُ، يُجبَرُ على أنْ يَفتَحَ عَينَيهِ على عالَمٍ لمْ يَطلُبْهُ ولَمْ يُباحُ، على أنْ يَبحَثَ بِقَلَقٍ مُتَزايِدٍ في فَراغٍ لا إجابةَ فيهِ ولا صَباحُ، على أنْ يَتأَلَّمَ بِذاتِ الطَّريقَةِ المُرَّةِ التي تَأَلَّمْنا بِها حينَ أدْرَكْنا بِقَسوةٍ عَبثِيَّةَ وُجودِنا بِلا ارتِياحٍ، وضَآلَةَ أحلامِنا التي طارَتْ بِلا جَناحٍ. الأبَوانِ، في لَحْظَةٍ غَرائِزِيّةٍ عَمياءَ أوْ عاطِفِيّةٍ مُخَدِّرةٍ حَمقاءَ، يَظُنّانِ أنّها لَحْظَةُ حُبٍّ خالِصٍ أوْ تَعبيرٌ عنِ البَقاءِ الفِطريِّ ذي الرَّجاءِ، لا يُنجِبانِ طِفلاً كَهَديةٍ لِلعالَمِ أوْ كَنَجْمٍ في السَّماءِ، بلْ يُنتِجانِ بِفِعلِهِما هذا مَأساةً جَديدةً، بَلْقاءَ، يُشَكِّلانِ كائِنًا آخَرَ سَيَقِفُ حَتمًا يَومًا ما أمامَ مِرآةِ الوَعيِ القاسِيةِ، شَقْراءَ، سَيُنْظُرُ في عَمْقِ عَينَيهِ ويَسألُ نَفسَهُ بِذاتِ الحُرقَةِ واليأسِ والبَأساءِ: 'لِماذا أنا هُنا؟ لِماذا كانَ عليَّ أنْ أُوجَدَ في هذا العَبَثِ والبَلاءِ؟'، ولَنْ يَجِدَ إجابةً مُقنِعةً سِوى الصَّمتِ الجَليديِّ ذاتِهِ الذي واجَهَناهُ، الصَّمتِ الذي لا يُخَفِّفُ الأَلَمَ بلْ يُضاعِفُ البَلاءَ. كَأنَّ كُلَّ وِلادةٍ في هذا العالَمِ ليستْ احتِفالاً مُفرِحًا بِالحَياةِ، بلْ حُكمٌ جَديدٌ قاسٍ بِالمُعاناةِ يُصدَرُ على نَفسٍ بَريئةٍ لا تَعرِفُ الإساءَةَ، تُضافُ حَلَقَةً جَديدةً إلى سِلسِلةِ الأحكامِ المُتَواصِلةِ التي بَدأتْ قَبلَنا بِزَمَنٍ طَويلٍ، والتي سَتَستَمِرُّ بَعدَنا إلى ما لا نِهايةَ إنْ لَمْ نَجْرُؤْ على قَطْعِها بِالجَسارةِ. لِماذا نُصِرُّ بِهذا العِنادِ الأعمى، بِهذِهِ الحَماقةِ، على إعادةِ كِتابةِ هذهِ المَسرحيّةِ المُحزِنةِ البائِسةِ؟ لِماذا نُدخِلُ آخَرينَ أبرياءَ إلى خَشبةِ مَسرَحٍ نَعرِفُ يَقينًا أنَّ سَتائِرَهُ لنْ تُغلَقَ في النِّهايةِ إلا على الفَراغِ المُطلَقِ، على السُّقوطِ ذاتِهِ في هاويةِ العَدَمِ التي حاوَلْنا، بِكُلِّ حِيَلِنا، أنْ نُؤَجِّلَ لَحْظَتَها القاضِيةَ؟

لَنْ نُغَيِّرَ العالَمَ بِقَرارِنا هذا، قَرارِ الرَّفضِ الجَذريِّ لِتَوريثِ اللّعنةِ والبَلاءِ. لَنْ نُعيدَ كِتابةَ قَوانينِ الطَّبيعَةِ الصُّلْبَةِ التي لا تَعرِفُ الأخلاقَ أوِ الشَّفَقَةَ أوِ الدُّعاءِ، ولَنْ نُوقِفَ تَدفُّقَها الأعمى الذي يَسيرُ بِلا وَعيٍّ أوِ انتِهاءٍ، كَما كانَ يَسيرُ قَبلَ أنْ نُدرِكَ عَذابَنا فيهِ ونُعانِي العَناءَ. لكِنّهُ، على الأقَلِّ، سَيَمضي هذا التَّيّارُ بِدونِنا، سَيَستَمِرُّ في دَورَتِهِ الأبَديّةِ بِلا آلامٍ جَديدةٍ نُضيفُها نَحنُ إلى كَومَةِ الشَّقاءِ البَشريِّ المُتَراكِمَةِ في

كُلِّ الأنحاءِ، بِلا وَعيٍ جَديدٍ يُبعَثُ لِيَذوقَ ذاتَ العَذابِ المُمِضِّ الذي أنهَكَنا حتّى أوصَلَنا إلى حافَةِ الفَناءِ. لَنْ يُحدِثَ قَرارُنا هذا أيَّ فَرقٍ يُذكَرُ في مَجرى التّاريخِ الكَونيِّ العَظيمِ، ذاكَ التّاريخُ اللّامُبالي، الأصَمُّ، الذي لا يَهتَمُّ بِنا ولا يَسمَعُ صُراخَنا في الخَفاءِ، كَمُحيطٍ هائِجٍ لا يَشعُرُ بِسُقوطِ قَطرةِ مَطَرٍ فيهِ أوْ بِحُزنِ البُكاءِ. لكِنّهُ، وَهُنا تَكمُنُ القُوّةُ الحَقيقيّةُ والنُّبلُ الوَضّاءُ، سَيُحدِثُ فَرقًا جَوهَريًّا، فَرقًا أبديًّا، في مَصيرِ أولئكَ الذينَ لَمْ يُجبَروا بَعدُ على أنْ يكونوا جُزءًا منْ هذهِ المَأساةِ البَلْهاءِ، أولئكَ الذينَ لنْ يُولَدوا لِيُحَمَّلوا على أكتافِهِمُ الغَضَّةِ عِبءَ الوَعيِ الذي لا يُطاقُ ويُسبِّبُ الإعياءَ، لنْ يُساقوا كَالخِرافِ الذَّليلةِ إلى نَفسِ السِّجنِ الذي حُبِسْنا فيهِ بينَ صُراخِ الوَعيِ الدّاخليِّ ودَفْعِ الغَريزةِ العَمياءِ. إنْ كانتِ الحَياةُ، كَما أدْرَكْناها بِأَلَمٍ مُبَرِّحٍ في مُواجَهَتِنا لِلفَراغِ، لَعنةً حَقيقيّةً لا رَجاءَ فيها، وشَقاءً مُلازِمًا لا مَفَرَّ مِنهُ ولا ارتِقاءَ، فَلِماذا نُصِرُّ بِغَباءٍ مُطْبِقٍ على تَوريثِها كَإِرْثٍ مَسمومٍ، كَكَأسٍ مُرَّةٍ نُجبِرُ الأجيالَ القادِمةَ على تَجَرُّعِها بِلا انتِهاءٍ؟ لِماذا لا نَمنَحُ المُستقبَلَ الذي لنْ نَشهَدَهُ، راحَةً أبَديّةً منْ صَخَبِنا المُزعِجِ، منْ أسئِلَتِنا الحارِقةِ التي لا تَجِدُ جَوابًا أوْ دَواءً، منْ هَلَعِنا الذي لا يَنتَهي إلا بِالفَناءِ؟ هذا الرَّفضُ النِّهائيُّ، هذا الإضرابُ الوُجوديُّ، ليسَ ضَعفًا أوْ هُروبًا جَبانًا كَما قَدْ يُصَوِّرُهُ الخائِفونَ منَ العَدَمِ، بلْ هوَ القُوّةُ القُصوى، الشَّجاعةُ الأندرُ، التي لَمْ نُدرِكْها بَعدُ كَأقوياءَ. قُوّةٌ لا تَكمُنُ في الاستمرارِ الأعمى والتَّكاثُرِ الغَبيِّ، بلْ في القُدرةِ على أنْ نُنهيَ بِوَعْيٍ ما بَدأناهُ دونَ إرادَتِنا، أنْ نُغلِقَ الدّائِرَةَ اللَّعينةَ ليسَ بِمَوتِنا الفَرديِّ فَحَسْبُ، بلْ بِمَنْعِ تَكرارِها في الآخَرينَ الأبرياءِ. كَأنّنا، بِهذا الفِعلِ الأخيرِ، نُعلِنُ لِلكَونِ الصّامِتِ، لِلمَرّةِ الأُولى والأخيرةِ، أنّنا قَدْ رَفَضْنا لُعبَتَهُ العَبثيّةَ، رَفَضْنا أنْ نَكونَ مُجَرَّدَ أدواتٍ طَيِّعةٍ في يَدِهِ تُعيدُ إنتاجَ العَذابِ بِلا نِهايةٍ أوْ نِداءٍ، تارِكينَ المُستقبَلَ، ولَوْ كانَ فَراغًا مُطْلَقًا، يَتَنَفَّسُ بِهُدوءٍ وسَلامٍ، دونَ أنْ يُثْقَلَ بِأنفاسِنا المُتعَبَةِ، دونَ أنْ يُجبَرَ على أنْ يُعيدَ صُراخَنا اليائِسَ في صَمتٍ لا يَسمَعُهُ أحَدٌ سِوى الفَراغِ ذاتِهِ بِلا انتِهاءٍ.

لكِنْ، كَمْ واحِدًا بَينَ مَلايينِ البَشَرِ المُستكينينَ كَالأغنامِ، يَمْلِكُ تِلكَ الجُرأةَ النّادِرةَ لِيَرفُضَ الآثامَ، تِلكَ الصَّلابةَ الفولاذيّةَ لِيُواجهَ الأيّامَ، لِمُواجهةِ هذا المَصيرِ المُوحِشِ المُظْلِمِ الدّامِسِ، مَصيرِ العُزلةِ القاتِلةِ والاغترابِ اليائِسِ؟ كَمْ واحِدًا يَستطيعُ الخُروجَ بِثَباتٍ مِنْ قَوقَعةِ الأُلفَةِ والدِّفءِ اللّاذِعِ، رُغمَ العُزلةِ التي تُحيطُ بِهِ كَظَلامٍ لا يُدافَعُ، ورُغمَ الرَّفضِ الاجتِماعيِّ الذي يُواجِهُهُ كَسَكاكينَ في الأضالِـعِ، ورُغمَ الحَربِ النَّفسيّةِ الشَّعواءِ التي تُعلِنُها الجَماعَةُ بِسُمومِ الأفاعي، على كُلِّ مَنْ تَجَرَّأَ على مُجَرَّدِ الشَّكِّ في

مُقَدَّساتِها الهَشّةِ كَالهَباءِ، أوِ السُّؤالِ عنْ حَقيقةِ أوهامِها الرّاسِخةِ في الغَباءِ؟ القَليلُ فَقطْ، كَالنُّجومِ في لَيلِ البَلاءِ، القَليلُ جِدًّا، كَذَرّاتِ الذَّهَبِ في صَحراءِ العَناءِ، أولئكَ الأرواحُ الصَّلْبَةُ، النّادِرةُ كَالجَواهِرِ، التي تَملِكُ شَجاعةً فِطريّةً تُزاهِرُ، أوْ مُكتَسَبةً بِالصِّراعِ تُكابِرُ، تَتَجاوَزُ بِها الخَوفَ الغَريزيَّ المُسافِرَ، منَ الوَحدةِ والنَّبذِ والتَّناحُرِ. شَجاعةٌ تُشبِهُ في نُدرَتِها وقُوَّتِها تِلكَ التي تَدفَعُ الإنسانَ الواعيَ لِإغلاقِ دائِرةِ العَذابِ بِحُكمٍ قاهِرٍ، بِرَفضِ تَوريثِ اللّعنةِ لِجيلٍ آخَرَ قاصِرٍ. أمّا الأغلبيّةُ السّاحِقةُ، جُمهورُ العُقولِ المُستأجَرةِ البائِسةِ، فَإنّها تَختارُ، بِوَعْيٍ زائِفٍ أوْ بِغَيرِ وَعيٍ، الحَلَّ الأسْهَلَ، الحَلَّ الأخَسَّ والأرذَلَ، والأكثَرَ راحَةً في الأجَلِ الأقصَرِ. كَما اختاروا مِنْ قَبلُ التَّخَدُّرَ بِالمَلذّاتِ العابِرةِ، أوِ التَّعَلُّقَ بِالتَّبريراتِ الواهيةِ الخاسِرةِ: أنْ يُطفِئوا بِأيديهِمْ شُعلةَ عُقولِهِمُ النّائِرةِ، أنْ يُضحّوا بِإمكانِ الفَهمِ والحَقيقةِ مُقابِلَ نِعمةِ الجَهلِ والسَّلامَةِ الظّاهِرةِ، أنْ يَرضَوْا بِدَورِ الأدواتِ الصّمّاءِ، البَكماءِ، في آلَةٍ اجتِماعيّةٍ جَبّارةٍ لا تَسألُ ولا تُجيبُ على الأصداءِ، أنْ يَدفِنوا بُذورَ الشَّكِّ في تُربةِ الخَوفِ القاحِلةِ قبلَ أنْ تُزهِرَ كَوَردةٍ تَكشِفُ عُريَ الأشياءِ، قَدْ تَفتَحُ عَينَيهِمْ على حَقيقةٍ مُرعِبةٍ تُشْقي الأنقياءَ. أنْ يُقنِعوا أنفُسَهُمْ، بِإصرارٍ مَرَضيٍّ، أنَّ الرّاحَةَ الحَقيقيّةَ تَكمُنُ في العَمى الاخْتياريِّ الذي يُخفي وَحشةَ الفَراغِ ويُنْهي الرَّجاءَ، وأنَّ الطُّمأنينةَ الأبديّةَ لا تُوجَدُ إلا في الاستِسلامِ الكامِلِ، الذَّليلِ، لِما يُقالُ لَهُمْ ويُملى على الضعفاءِ، وأنَّ القَطيعَ - بِكُلِّ ضِيقِ أُفُقِهِ المُخْزِنِ وأمانِهِ الزّائِفِ المُخَدِّرِ المُميتِ - أفضَلُ ألفَ مَرّةٍ منَ التّيهِ المُوحِشِ، المُقْفِرِ، الذي يُواجِهُهُ كُلُّ مَنْ يُفكّرُ وَحيدًا في صَحراءِ اللّايَقينِ بِلا عَزاءٍ. هكَذا، وبِهذِهِ الطَّريقةِ المُؤسِفةِ، المُخْزِيةِ، يُصبِحُ العقلُ المَأسورُ، الذي كانَ يُمكِنُ أنْ يكونَ قَدَرًا مَفروضًا لا حِيلةَ فيهِ، يُصبِحُ خِيارًا طَوعيًّا يُتَّبَعُ، يُختارُ لا لِجَمالِهِ أوْ صِحَّتِهِ أوْ نُبلِهِ، بلْ لِأنّهُ يُجَنِّبُ صَاحِبَهُ أَلَمَ المُواجهةِ القاسي، ويُعفيهِ منْ صِراعِ الشَّكِّ المُميتِ، ويُريحُهُ منْ عَذابِ الإدراكِ الذي لا يُطاقُ، ويَمنَحُهُ نِعمةَ النَّومِ الأبَديِّ في قَبرٍ دافِئٍ مِنْ أوهامٍ لا تُواسي.

وهكَذا، يَستَمِرُّ العقلُ المَأسورُ، هذا الوَهمُ المُتَجَسِّدُ كَالشَّبَحِ، في إنتاجِ المَزيدِ والمَزيدِ منَ الأسرى بِلا فَرَحٍ، في تَفريخِ نُسَخٍ باهِتةٍ، مَريضةٍ، منْ ذاتِهِ المُقَيَّدةِ التي تَنْتَحِبُ، جِيلاً بَعدَ جِيلٍ، كَما كانَ التَّكاثُرُ الأعمى، المُستَحَبُّ، يُنتِجُ مآسِيَ جَديدةً لِتُلقى في مَحرَقةِ الوُجودِ وتُعَذَّبُ. في دَورةٍ جُهَنَّميّةٍ لا تَنتَهي، حَلْقةٍ مُفرَغةٍ تُشبِهُ مَرَضًا وِراثيًّا خَبيثًا يُستَعْذَبُ، لا يُمكِنُ الفِكاكُ منْ قَبضَتِها المُميتةِ إلا بِذلكَ الرَّفضِ الجَذريِّ، الثّوريِّ، الذي يَجرُؤُ على قَطْعِ حَبلِ السُّرّةِ الذي يَرْبُطُنا بِهذا المِيراثِ المَسمومِ ويَجْتَذِبُ. فَكُلُّ

مَولودٍ جَديدٍ يُلقى بهِ في هذا العالَمِ البائسِ، لا يُمنَحُ عَقلاً حُرًّا، بِكْرًا، طاهِرًا، قادِرًا على استكشافِ الحَقيقةِ بِنَفسِهِ ويَطْرَبُ، بلْ يُسَلَّمُ، كَشاةٍ لِلذَّبْحِ، كَقَطيعةِ لَحمٍ تُرمى لِلوُحوشِ وتُغْلَبُ، نُسخةً قَديمةً، مُستهلَكةً، باليةً، منْ عُقولِ الذينَ سَبَقوهُ في الأَسْرِ الذي يُعَذِّبُ، نُسخةً مُحمَّلةً بِأثقالِ خَوفِهِمُ المَرَضيِّ وتَرَدُّدِهِمُ الذي لا يُغلَبُ. تُملأُ هذهِ العُقولُ الغَضّةُ، الطَّريّةُ، قَسرًا، بِذاتِ الخُرافاتِ العَتيقةِ التي هَدَّأَتْ يَومًا خَوفَ أجدادِهِمْ في ظُلُماتِ الكُهوفِ وتُقَرِّبُ، وبِذاتِ المَخاوفِ المَرَضيّةِ التي قَيَّدَتْ آباءَهُمْ وأفقَدَتْهُمْ شَجاعةَ السُّؤالِ وتُعَطِّبُ، وبِذاتِ المَوانِعِ الفِكريّةِ المَصنوعةِ التي جَعَلَتْهُمْ يَرَونَ التَّفكيرَ عَدُوًّا لَئيمًا لا صَديقًا يُحَبَّبُ، حتّى يَقْتَنِعَ هذا الوَعي الوَليدُ، بِشَكلٍ مُطلَقٍ لا يَقْبَلُ الجَدَلَ أوْ يُسْتَغْرَبُ، أنَّ ما وَرِثَهُ ليسَ مُجَرَّدَ رأيٍ أوْ احتِمالٍ يُجَرَّبُ، بلْ هوَ "الحَقيقةُ" الأزَليّةُ النّاصِعةُ التي لا تُمَسُّ ولا تُعْتَبُ، وأنَّ كُلَّ ما يَقَعُ خارِجَ أسوارِ هذا الإرثِ المُقَدَّسِ ليسَ إلا خَطَرًا داهِمًا يَستَحِقُّ الحَرقَ ويُعَذَّبُ، أوْ ضَلالاً مُبينًا يَستَوْجِبُ السُّخريّةَ والازدِراءَ ولا يُحْتَسَبُ. كَأنَّ العقلَ نَفسَهُ، الذي كانَ يَنبَغي أنْ يَكونَ فَضاءً لِلتَّحليقِ والتَّجريبِ، يُصبِحُ القَفَصَ ذاتَهُ، القَفَصَ الذي يُولَدُ الإنسانُ داخِلَهُ، ويُربّى داخِلَهُ، ويَموتُ داخِلَهُ، دونَ أنْ يَعرِفَ، ولَوْ لِلَحظةٍ واحِدةٍ، أنّهُ كانَ يَملِكُ مِفتاحًا صَدِئًا لِهذا القَفَصِ، مِفتاحَ الشَّكِّ والسُّؤالِ، لكِنّهُ لَمْ يَجْرُؤْ على استِخدامِهِ خَوفًا منَ الفَراغِ الذي يَكمُنُ خَلفَ البابِ ويُشْعِبُ. لكِنَّ هذهِ "الحَقيقةَ" المَوروثةَ، حينَ تَقتَحِمُ وَعيَهُ في لَحْظَةِ صَحْوٍ نادِرةٍ كَطَعنةِ نَجلاءَ لا تُخطِئُ هَدَفَها وتُصْلِبُ، كَما اقتَحَمَتْ وَعيَ مَنْ قَبْلَهُ بِشَكلٍ مُفاجِئٍ وتُغلِّبُ، ليستْ مَعرِفةً مُحايِدةً، بارِدةً، تُضافُ إلى رَصيدِ مَعارِفِهِ كَقِطعةِ نَقدٍ في صُندوقٍ وتُحَبَّبُ، بلْ هيَ عَذابٌ مُتَجَدِّدٌ، استِنزافٌ دائمٌ لِلرّوحِ لا يَنتَهي ولا يُغْرِبُ، احتِراقٌ أبَديٌّ في نارِ الإدراكِ التي لا تُطفَأُ ولا تَغْرُبُ، لِأنَّ العقلَ الذي يَعي أسْرَهُ، الذي يُبصِرُ قُضبانَهُ ويُعْجَبُ، لا يَعودُ عَقلًا مُستكينًا، مُطْمَئِنًّا، كَما كانَ في دِفءِ القَطيعِ الأعمى ويُطرِبُ، بلْ يَتَحَوَّلُ إلى ساحَةِ صِراعٍ مَريرٍ، مَسرحٍ لِحَربٍ أهليّةٍ لا تَنتَهي ولا تَغلِبُ، بينَ ما يُملى عليهِ لِيُصَدِّقَهُ بِخُضوعٍ ويَرْغَبُ، وما يُدرِكُهُ بِأَلَمٍ لِيَكفُرَ بهِ ويُجَرِّبُ. وبينَ هذَيْنِ النَّقيضَيْنِ المُتَصارِعَيْنِ، يُصبِحُ الوَعي ذاتُهُ عُقوبةً ماحِقةً، جَحيمًا لا يُحْتَجَبُ، ليسَ فَقَطْ لِأنّهُ يَرى الحَقيقةَ العاريةَ ويَتأَهَّبُ، بلْ لِأنّهُ، وهوَ الأسوأُ والأعجَبُ، لا يَستطيعُ أنْ يَتوقَّفَ عنْ رُؤيَتِها، لا يَملِكُ القُدرةَ على إغلاقِ عَينَيهِ أوْ أنْ يُحْجَبَ. كَأنَّ كُلَّ نَظْرةٍ إلى الواقِعِ الخارِجيِّ تُعيدُهُ بِعُنفٍ إلى سِجنِهِ الدّاخليِّ، إلى عَذابِهِ الذي لا يَبرَحُهُ ولا يُغْرَبُ.

ولِهذا، فَإنَّ عَذابَ الوَعي، في ذُروةِ تَجَلّيهِ القاتِلِ وأقسى صُوَرِهِ، يَكمُنُ في هذا الإدراكِ المُدَمِّرِ الهائِلِ، الذي يَأتيكَ كَوَحيٍ شَيطانيٍّ لا كَإلهامٍ فاضِلٍ، بِاستحالةِ التَّحَرُّرِ التّامِّ الكامِلِ، وبِعَدَمِ جَدوى الهُروبِ النِّهائيِّ الباطِلِ. تِلكَ الاستِحالةُ التي تُثقِلُ العقلَ المَأسورَ المُتَأَلِّمَ بِوَعيِهِ المُتَقاتِلِ، كَما أثقَلَتْهُ قُيودُ القَطيعِ الغافِلِ مِنْ قَبْلُ أيُّها العاقِلُ، لكِنّها الآنَ أغلالٌ داخليّةٌ، أغلالٌ نَسَجَها بِنَفسِهِ مِنْ خُيوطِ مَعرِفَتِهِ وحَبائِلِهِ. إذْ، كَيفَ يَهرُبُ مَنْ يَعرِفُ بِاليَقينِ المُرِّ أنّهُ مَسجونٌ لا يُطالُ، وَهُوَ يُدرِكُ أنَّ كُلَّ دَربٍ لِلْهُروبِ يَسلُكُهُ ليسَ سِوى انتِقالٍ خادِعٍ مِنْ سِجنٍ ضَيِّقٍ إلى سِجنٍ آخَرَ أكثَرَ اتِّساعًا ورُعبًا كَالأهوالِ، كَما انتَقَلَ منْ وَهمِ الطّاعَةِ المُريحَةِ إلى فَراغِ الشَّكِّ المُقْلِقِ في كُلِّ الأحوالِ؟ كَيفَ يَتَحَرَّرُ مَنْ يَعلَمُ أنَّ الحُرِّيَّةَ المُطلَقَةَ التي حَلُمَ بِها ليستْ إلا سَرابًا في صَحراءِ الوُجودِ كَالآلِ، يَتَلاشى كُلّما اقتَرَبَ مِنهُ في ارتِحالٍ، وأنَّ كُلَّ مُحاوَلةٍ للانفِكاكِ مِنْ شِباكِ الأوهامِ لا تُفضي في النِّهايةِ إلا إلى الغَرَقِ الأعمقِ في هاويةِ العَدَمِ التي تَبتَلِعُ كُلَّ مَعنًى ولا تُبالي بِالأقوالِ؟ ليسَ هذا الصِّراعُ الدّاخليُّ المُميتُ مُجَرَّدَ مَعركةٍ سَطحيّةٍ بينَ إيمانٍ مُتَزَعزِعٍ وشَكٍّ مُتَنامٍ كَالجِبالِ، كَما قَدْ يَبدو في لَحَظاتِ التَّفاؤُلِ السَّطحيِّ الذي يُبَسِّطُ الأهوالَ. ولا هوَ مُجَرَّدَ صِدامٍ بينَ طاعَةٍ مُتَوارَثةٍ وتَمَرُّدٍ وَليدٍ، كَما حاوَلَ أنْ يَكسِرَهُ حينَ خَرَجَ منْ قَوقَعةِ القَطيعِ الضّالِ. بلْ هوَ صِراعٌ أكثَرَ عُمقًا، أكثَرَ جوهَريّةً، صِراعٌ يَنشَأُ بينَ الإنسانِ ونَفسِهِ، بينَ حاجَتِهِ الفِطريّةِ المُتَجَذِّرَةِ لِمَعنًى يُريحُهُ ويُعطي لِوُجودِهِ قِيمةً في كُلِّ مَآلٍ، وبينَ إدراكِهِ المَريرِ، القاسي، بِأنَّ كُلَّ مَعنًى يَصنَعُهُ أو يَتَشَبَّثُ بِهِ ليسَ سِوى بِناءٍ هَشٍّ، قَصرٍ منْ رِمالٍ على شاطِئِ الوُجودِ بلا مِثالٍ، قابِلٍ لِلانهيارِ في أيِّ لَحْظَةٍ، تُجرِفُهُ أوّلُ مَوجةٍ منْ أمواجِ الحَقيقةِ العاتِيةِ التي لا تَرحَمُ الآمالَ. إنّهُ صِراعٌ لا يَنتَهي، لا يَعرِفُ الهُدنةَ، لِأنَّ الوَعي ذاتَهُ هوَ ساحَةُ المَعركةِ وسِلاحُها وضَحِيَّتُها في آنٍ واحِدٍ لا يُنالُ. كَأنَّ العقلَ يُحارِبُ نَفسَهُ في مَعركةٍ داخليّةٍ ضارِيةٍ، لا فائِزَ فيها سِوى الإرهاقِ المُطلَقِ والإذلالِ، مَعركةٌ تَترُكُهُ مُنهَكًا، مُمَزَّقًا، دونَ أنْ تُنهِيهِ بِالكَامِلِ، بَلْ تُبقيهِ حَيًّا لِيُواصِلَ عَذابَهُ بِاستِرسالٍ.

وكُلّما حاوَلَ، في يَأسِهِ العَميقِ، أنْ يُطفِئَ نِيرانَ وَعيِهِ المُستَعِرَةِ، كَما حاوَلَ بِالمَلَذّاتِ أوِ الأفكارِ المُبْتَدِرَةِ، اكتَشَفَ أنَّ العقلَ لا يَرحَمُ ولا يَعرِفُ المَقْدِرَةَ، إنّهُ آلَةٌ تَستمِرُّ في الطَّحْنِ حتّى القُشَعْرِرَةِ، كَما كانتْ تَطحَنُ الخُرافاتِ بِلا مَعْذِرَةٍ. تَحرِقُ كُلَّ يَقينٍ بَنَتْهُ الجَماعَةُ المُكْتَثِرَةِ، تُدَمِّرُ كُلَّ سُلوانٍ حاوَلَ أنْ يُخَفِّفَ الأَلَمَ وَلَوِ بِقَطْرَةٍ، ولا تَترُكُ لهُ سِوى التَّمَرُّدِ في الحُفْرَةِ - لكِنْ أيُّ تَمَرُّدٍ هذا، يا لَلْعَثْرَةِ؟ هَلْ هوَ قادِرٌ على الفِعلِ وتَرْكِ الأُثْرَةِ؟ أمْ أنّهُ تَمَرُّدٌ عاجِزٌ، كَاحتِضارٍ بَطيءٍ لِعَقلٍ يُدرِكُ المَصْرَعَةَ، لكِنّهُ لا يَملِكُ القُوّةَ

لِلفِرارِ مِنْ حَتْفِهِ أَوْ دَفْعَةً؟ هُنا تَكمُنُ المَأساةُ المُوجِعَةُ: في أنَّ هذا التَّمَرُّدَ ليسَ ثَورةً تُغَيِّرُ الرُّقْعَةَ، بلْ احتِراقٌ صامِتٌ في البُقْعَةِ، نارٌ تَلتَهِمُ نَفسَها دونَ أنْ تُحرقَ شَيئًا في الوُسْعَةِ، كَأنَّ العقلَ يُعاقِبُ نَفسَهُ على الجُرأةِ والرَّفْعَةِ، يُحرِقُ أحلامَهُ دونَ أنْ يُشعِلَ في الظَّلامِ شَمعَةً، تارِكًا الإنسانَ يَتَلَوّى في صِراعِهِ بِلا مُتْعَةٍ، دونَ أنْ يَجِدَ خَلاصًا أوْ يَشعُرَ بِسَعَةٍ، كَأنَّ كُلَّ فِعلٍ لِلتَّمَرُّدِ يُعيدُهُ إلى نُقطةِ البِدءِ ويُضَيِّعُ الرُّجْعَةَ، إلى ذلكَ السِّجنِ الذي لا يُهدَمُ لِأنَّهُ جُزءٌ مِنَ الضَّيْعَةِ.

ولِهذا، يَعيشُ الإنسانُ بينَ نَقيضَيْنِ لا فِكاكَ مِنْهُما ولا يُسْتَهانُ، كَما عاشَ بينَ الوَعي والغَريزةِ مُنْقَسِمًا بِلا أمانٍ: الحاجَةُ إلى الطُّمأنينةِ التي يَبحَثُ عَنْها كَلَجأٍ ويَتَّسِمُ بِها في الأزمانِ، والخَوفُ مِنَ الوَهْمِ الذي يُدرِكُهُ كَفَخٍّ ويَهْتَمُّ بِهِ في كُلِّ آنٍ. الرَّغبةُ في الانتِماءِ إلى شَيءٍ يُعطيهِ هُويّةً ويَتَكَرَّمُ في الحُسبانِ، والخَشيةُ مِنَ الذَّوَبانِ في القَطيعِ الذي يُلغي الذّاتَ ويُحَرِّمُ الإحسانَ. التَّوقُ إلى الحَقيقةِ كَنَجاةٍ مِنَ الزَّيفِ ويَتَرَحَّمُ لها في كُلِّ مكانٍ، والرُّعبُ مِمّا قَدْ تَجلِبُهُ مَعَها مِنْ فَراغٍ لا يُطاقُ ويُهَدِّمُ البُنيانَ. إنّهُ كائِنٌ مَجبولٌ على التَّرَدُّدِ والحِرمانِ، كَما كانَ مَجبولاً على التَّفكيرِ في الأكوانِ، مَحكومٌ بِمَعرِفةٍ لَمْ يَطلُبْها لكِنّها في كِيانِهِ تَزدانُ، كَجُرحٍ قَديمٍ لا يَلتَئِمُ بلْ يَنزِفُ في الشّريانِ، كَذاكِرةٍ مُؤلِمةٍ لا تُمْحى مَهما حاوَلَ النِّسيانُ. هذهِ المَعرِفةُ ليستْ مُجَرَّدَ وَعيٍ بِما هوَ زائِفٌ وبُهتانٌ، كَما كانَ يَظُنُّ حينَ كَسَرَ القَيدَ وكانَ فَرحانٌ، بلْ إدراكٌ مَريرٌ لِاستِحالةِ العُثورِ على بَديلٍ حَقيقيٍّ لَهُ بُرهانٌ، كَأنّهُ يَعرِفُ أنَّ النِّظامَ قائِمٌ على الوَهْمِ لكِنّهُ لا يَملِكُ نِظامًا آخَرَ لَهُ سُلطانٌ، فَتُصبِحُ الحَقيقةُ سِلاحًا يَجرَحُهُ ولا يُعانُ، تُظهِرُ لهُ الفَراغَ دونَ أنْ تُعطيَهُ جِسرًا لِلأمانِ.

وكُلّما حاوَلَ الهُروبَ بِفِعلٍ أوْ كَلامٍ وبَيانٍ، كَما حاوَلَ بِالتَّمَرُّدِ أوِ الرَّفضِ في كُلِّ زَمانٍ، وَجَدَ نَفسَهُ يَعودُ إلى نَفسِ النُّقطَةِ والآلامِ والهَوانِ، كَما عادَ إلى سِجنِهِ الدّاخِليِّ مِنْ بَينِ الخِلّانِ: أنَّ كُلَّ مُحاوَلةٍ لِإخمادِ السُّؤالِ ليستْ سِوى تَأجيلٍ لِلَحْظَةِ الخُذلانِ، وأنَّ كُلَّ مُحاوَلةٍ لِلنِّسيانِ ليستْ سِوى دَفْنٍ مُؤقَّتٍ لِما لا يُدفَنُ في النِّيرانِ، لِأنَّ الوَعي لا يَرحَمُ، لا يَعرِفُ الغُفرانَ، إنّهُ يَقَظَةٌ لا تَعرِفُ النَّومَ أوِ النِّسْيانَ، يَقينٌ مُؤلِمٌ بِأنَّ اللّايَقينَ هوَ الحَقيقةُ الوَحيدةُ بِالتَّبيانِ، كَأنَّ كُلَّ شَيءٍ يُشَكِّكُ فيهِ إلا هذا الشَّكَّ المُدانَ. كُلُّ مُحاوَلةٍ لِصِياغةِ مَعنًى بِإتقانٍ، كُلُّ فِكرةٍ لِلطُّمأنينةِ والانسِجامِ بِأمانٍ، ليستْ سِوى لُعبةٍ عَبثِيّةٍ يَلعَبُها مَعَ ذاتِهِ لِيَبقى على الدَّوامِ في الأكوانِ، كَطِفلٍ يَبني أبراجًا مِنْ رِمالٍ يَعرِفُ أنّها سَتَنهارُ أمامَ الطُّوفانِ،

لكِنّهُ يُعيدُ بِناءَها لِأنّهُ لا يَملِكُ شَيئًا آخَرَ في هذا الزَّمانِ. هذا هوَ عَذابُ الوَعي في أقسى تَجَلٍّ وبَيانٍ: أنْ تَعرِفَ أنّكَ لا تَستطيعُ التَّوقُّفَ عنِ المَعرِفةِ والاهتِمامِ والإذعانِ، أنْ تُدرِكَ أنَّ كُلَّ خُطوةٍ نَحوَ الحَقيقةِ تُقَرِّبُكَ منَ العَدَمِ والخُسْرانِ، وأنَّ كُلَّ تَمرُّدٍ هوَ احتِراقٌ لا يُغَيِّرُ الأكوانَ، تارِكًا الإنسانَ يَعيشُ في هذا التَّناقُضِ بِلا انفِصامٍ أوْ نُكرانٍ، يَحتَرِقُ فيهِ دونَ أنْ يَجِدَ مَخْرَجًا أوْ سَلامًا أوْ أمَانًا، كَأنَّ الوَعي نَفسَهُ هوَ النّارُ والرَّمادُ والضِّرامُ والنّيرانُ، السَّجّانُ والسِّجنُ، الحَياةُ والمَوتُ، بِلا أيِّ كَلامٍ أوْ بُرهانٍ، دونَ أنْ يُعطيهِ خِيارًا سِوى الاستمرارِ في العَيشِ داخِلَهُ والأوهامِ والأحزانِ، يُحارِبُ نَفسَهُ حتّى النِّهايةِ، بِلا مَرامٍ أوْ عُنوانٍ، دونَ أمَلٍ في السَّلامِ إلا في صَمتٍ قَدْ لا يَأتي أبَدَ الدَّوامِ والزَّمانِ، حَيثُ يَتوقَّفُ العقلُ عنِ الطَّحنِ والإيلامِ والهَذَيانِ، ليسَ لِأنّهُ وَجَدَ الرّاحَةَ، بلْ لِأنّهُ استَنفَدَ نَفسَهُ في عَبثِهِ الخاصِّ والأحلامِ والهَوَانِ.

الفصل السابع

أصل المعاناة العقلية

فالمُعاناةُ العَقليّةُ، ويا لَقَسوةِ هذهِ الحَقيقةِ، الشَّرطُ الأساسيُّ، الجَوهَرُ المُكوِّنُ، لِلوَعي ذاتِهِ، كَما كانتْ مَأساةُ هذا الوَعي في الفَصلِ السّابِقِ هيَ الثَّمَنَ الباهِظَ، الدَّمَ المَسكوبَ، الذي دَفَعَهُ الإنسانُ مُقابِلَ نِعمةِ الإدراكِ المَلعونةِ. فَمُنذُ تِلكَ اللّحظةِ الأُولى، المُشِعّةِ والمُظلِمةِ في آنٍ، التي استَطاعَ فيها هذا الكائِنُ الهَشُّ أنْ يُفكِّرَ في ذاتِهِ، أنْ يَنظُرَ في مِرآةِ الوُجودِ لِيَرى نَفسَهُ كَكِيانٍ مُنفَصِلٍ، مَعزولٍ، عنِ العالَمِ الطَّبيعيِّ الصّامِتِ الذي يُحيطُ بِهِ كَبَحرٍ لا يَفهَمُهُ، مُنذُ تِلكَ اللّحظةِ الفاصِلةِ التي انتَقَلَ فيها، بِقَفزَةٍ تَطوُّريّةٍ مُربِكةٍ، منْ كائنٍ ساذَجٍ، هادِئٍ، خاضِعٍ بِسَلاسَةٍ لِغَريزَتِهِ الحَيوانيّةِ العَمياءِ التي لا تَعرِفُ القَلَقَ، إلى كائنٍ مُعَقَّدٍ، مُضطَرِبٍ، يُدرِكُ حَتميّةَ مَوتِهِ كَظِلٍّ يُرافِقُهُ، ويَتأمَّلُ في مَعنى وُجودِهِ القَصيرِ كَلُغزٍ لا يُحَلُّ، ويَرتَطِمُ بِجُدرانِ عَجزِهِ الدّائِمِ عنِ الوُصولِ إلى يَقينٍ مُطلَقٍ يُريحُهُ منْ عَناءِ السُّؤالِ، مُنذُ تِلكَ اللّحظةِ بالتَّحديدِ، بَدأتِ المَأساةُ الكُبرى التي أُشِرْنا إليها في الفَصولِ السّابِقةِ كَتَمَرُّدٍ صامِتٍ، كَانْهِيارٍ داخِليٍّ. إنّها مَأساةُ الوَعي المَشحونِ أبَدًا بِالقَلَقِ، ذلكَ الشُّعورُ الثَّقيلُ، اللّزِجُ، الذي يُلازِمُهُ كَظِلٍّ أسوَدَ لا يُفارِقُهُ ولا يَرحَمُ، الإحساسُ المُستمِرُّ، المُنهِكُ، بأنَّ الوُجودَ نَفسَهُ عِبءٌ لا يُمكنُ التَّخَلُّصُ منهُ، حِملٌ يَزدادُ ثِقلاً مَعَ كُلِّ لَحْظَةِ وَعيٍ جَديدةٍ. كَأنَّ كُلَّ فِكرةٍ تُولَدُ في ذِهنِهِ، كُلَّ تَأمُّلٍ يَخْطُرُ بِبالِهِ، ليسَتْ نُورًا يُضيءُ، بلْ حَجَرًا ثَقيلاً جَديدًا يُضافُ إلى كاهِلِهِ المُتَقَوِّسِ، تُثقِلُ خُطُواتِهِ المُتَعَثِّرَةَ في صَحراءَ الوُجودِ القاحِلةِ التي لا نِهايةَ لَها، كَما رأيناهُ يَنجو بِصُعوبةٍ دونَ أنْ يَعيشَ حَقًّا. هذا الوَعي الحادُّ، المُتَوَهِّجُ، ليسَ نِعمةً تُرفرِفُ فَوقَ الرُّؤوسِ كَما قَدْ يُتوهَّمُ في لَحَظاتِ السَّذاجةِ المُطَمْئِنةِ أو في خِطاباتِ الغُرورِ البَشريِّ، بلْ هوَ نارٌ مُستَعِرةٌ تَشتَعِلُ في أعماقِهِ، تُضيءُ لهُ حَقيقةَ العالَمِ المُظلِمةَ وتُحرِقُهُ بِلَهيبِها في الوَقتِ ذاتِهِ. كَأنَّ كُلَّ إدراكٍ جَديدٍ يَصِلُ إليهِ ليسَ اكتِشافًا مُبهِجًا، بلْ جُرحٌ جَديدٌ، غائِرٌ، يُفتَحُ في صَميمِ رُوحِهِ الهَشّةِ، جُرحٌ لا يَلتَئِمُ أبَدًا مَهما طالَ الزَّمَنُ ومَهما تَعَدَّدَتْ مُحاوَلاتُ تَضميدِهِ بِأوهامِ المَعنى أو بِبَلسَمِ النِّسيانِ.

ولَمْ تَكُنْ هذهِ المُعاناةُ المُرَّةُ، النّابعةُ منْ صَميمِ الوَعي، مُجرَّدَ حادِثةٍ عابِرةٍ، طارِئةٍ، في تاريخِ الإنسانِ الطّويلِ والمُضني، كَزَلزالٍ يَهُزُّ الأرضَ ثُمَّ تَهدأُ، بلْ كانتْ، ومَا زالَتْ، الجَوهَرَ الدّامِيَ لِتَجرِبَتِهِ الذّاتيّةِ، القَلبَ النّابِضَ لِمَأساتِهِ، كَما كانَ التَّمَرُّدُ الذي لا يَنتهي مَصيرَهُ المَحْتومَ لا خِيارَهُ الطّوعيَّ. واللّافِتُ لِلنَّظَرِ، في هذا التّاريخِ المُشحونِ بِالألَمِ والسُّؤالِ، أنَّ كُلَّ عَصرٍ، كُلَّ حَضارةٍ، كُلَّ ثَقافةٍ، قدْ واجَهَتْ هذا الشَّبحَ المُخيفَ بِطَريقَتِها الخاصّةِ، حاوَلَتْ بِجُهدٍ يَائسٍ أنْ تُخَفِّفَ منْ وَطأتِهِ الجارِحةِ بِاستخدامِ أدَواتِها المَحدودةِ، سَواءٌ كانَ ذلكَ عَبرَ الدِّينِ الذي نَسَجَ قِصَصَ الخَلاصِ الأبديِّ في عَوالِمَ ما وَراءَ الحَياةِ، مُحاوِلاً تَحويلَ المَوتِ منْ نِهايةٍ مُطلَقةٍ إلى مُجرَّدِ مَعبَرٍ، أو عَبرَ الفَلسفةِ التي جَاهَدَتْ لِتَفسيرِ العَبَثِ الكَونيِّ وإعطائِهِ شَكلاً مَنطقيًّا يُمكنُ لِلعقلِ أنْ يَحتَمِلَهُ أو يَتَصالحَ مَعَهُ، أو عَبرَ الفَنِّ الذي حَوَّلَ الألَمَ الصّارِخَ إلى جَمالٍ صامِتٍ يُمكنُ تَأمُّلُهُ عنْ بُعدٍ دُونَ أنْ يَحرِقَ المُتَأمِّلَ، أو حتّى عَبرَ الإنكارِ المُتَعَمَّدِ والهَرَبِ الجَبانِ إلى حَياةٍ أقَلَّ وَعيًا، أقَلَّ قَلَقًا، كَما فَعَلَ أولئكَ الذينَ انغَمَسوا في مُستنقَعِ المَلذّاتِ الزّائِلةِ أو استَسلَموا لِدِفءِ القَطيعِ المُخَدِّرِ. لكِنْ، ومَهما اختَلَفَتْ هذهِ الطُّرُقُ في أشكالِها ومَظاهِرِها، ومَهما بَدَتْ مُتَباعِدَةً أو مُتَناقِضةً، ظَلَّ جَوهَرُ المُشكِلةِ الأزلِيّةِ واحِدًا، ثابِتًا، كَما ظَلَّ الوَعي سِجنًا لا مَفَرَّ منهُ ولا نَجاةَ. فَلا شَيءَ في هذا الوُجودِ، لا قُوّةٌ خارِقةٌ ولا حِكمةٌ بَشريّةٌ، قادِرٌ على إخمادِ نارِ الإدراكِ المُستَعِرةِ بِالكَاملِ. لا إيمانٌ، مَهما بَلَغَتْ قُوَّتُهُ، يَستطيعُ أنْ يُسكِتَ صَوتَ الشَّكِّ المُوَسْوِسِ في الأعماقِ، ولا فَلسفةٌ، مَهما بَدَتْ مُحكَمةً، تُنهي سِلسِلةَ الأسئلةِ التي لا تَنتَهي، ولا فَنٌّ، مَهما كانَ ساميًا، يَشفي الجُرحَ الوُجوديَّ الغائِرَ، ولا هُروبٌ، مَهما كانَ مُتْقَنًا، يُلغي الفَراغَ المُطْبِقَ الذي يَسكُنُ في قَلبِ الوَعي.

فالمُعاناةُ العَقليّةُ ليستْ نِتاجَ ظَرْفٍ خارِجيٍّ سَيّءٍ يُمكنُ تَغييرُهُ أو تَحسينُهُ، كَما يُغَيِّرُ المَرْءُ مَلابِسَهُ البالِيةَ أو مَكانَ إقامَتِهِ، ولا هيَ مُجرَّدَ استِجابةٍ عابِرةٍ لِمَواقِفَ صَعْبةٍ يُمكنُ تَجاوُزُها بِقُوّةِ النِّسيانِ أو بِتَعاقُبِ الأيّامِ. بلْ هيَ، في حَقيقَتِها القاسيةِ، جُزءٌ أصيلٌ منْ تَكوينِ الإنسانِ ذاتِهِ، عُنصُرٌ مُؤَسِّسٌ لِكِيانِهِ، مَحفورةٌ في أعمَقِ أعماقِهِ كَوَشْمٍ أبديٍّ لا يُمْحى، مُنذُ أنْ بَدأَ يُدرِكُ انفِصالَهُ المَأساويَّ عنِ العالَمِ الطَّبيعيِّ الذي جاءَ مِنهُ، مُنذُ أنْ رأى نَفسَهُ، لِأوّلِ مَرّةٍ، كَكِيانٍ مُستَقِلٍّ، وَحيدٍ، مَحكومٍ بِالفَناءِ الحَتْميِّ. كَأنَّ هذا الانفِصالَ نَفسَهُ، هذا الخُروجَ منْ جَنّةِ اللّاوَعي، هوَ الخَطيئةُ الأُولى التي أنتَجَتْ كُلَّ هذا الشَّقاءِ المُتَواصِلِ، خَلَلٌ جَوْهَريٌّ في مُعادَلةِ الوُجودِ، شَرْخٌ عَميقٌ في مِرآةِ الكَونِ، لا يُمكنُ إصلاحُهُ أو تَرميمُهُ، لأنّهُ ليسَ شَيْئًا طارِئًا، بلْ هوَ الوُجودُ الإنسانيُّ ذاتُهُ في حَقيقَتِهِ المُجَرَّدةِ والمُؤلِمةِ.

وكُلُّ مُحاوَلةٍ لِلهُروبِ منْ هذهِ المُعاناةِ المُستَعصِيةِ، كُلُّ طَريقٍ يَسلُكُهُ الإنسانُ لِتَجَنُّبِ مُواجَهةِ عَذابِ وَعيِهِ، سَواءٌ كانَتْ عَبْرَ الإيمانِ الأعمى الذي يُعانِقُ الغَيْبَ ويَتَشَبَّثُ بِوُعودِهِ المُتَخَيَّلَةِ، أوْ عَبْرَ الفَلسفةِ المُجَرَّدَةِ التي تُصارِعُ العقلَ وتُحاوِلُ تَرويضَهُ بِمَفاهيمَ بارِدةٍ، أوْ عَبْرَ الفَنِّ الخلّاقِ الذي يُجَمِّلُ الألَمَ ويُحَوِّلُهُ إلى تَجرِبةٍ جَماليّةٍ قابِلةٍ لِلتَّأمُّلِ، أوْ حتّى عَبْرَ ذلكَ الانغماسِ المُبتَذَلِ في مُستَنقَعِ مَلذّاتِ الحَياةِ العابِرةِ كَما حاوَلَ الهارِبونَ منْ قَبْلِهِ، ليستْ، في نِهايةِ المَطافِ، إلا مُحاوَلةً يائِسةً لِتَخفيفِ حِدّةِ هذا الإدراكِ المُؤلِمِ، لِتَخديرِ وَعْيِ الوَعي بِذاتِهِ، لكِنّها لا تُميتُهُ أبَدًا، لا تَستطيعُ اقتلاعَ جُذورِهِ الضّارِبةِ في أعماقِ الكِيانِ، كَما لَمْ تُمتْ نارُ الوَعي في تَمرُّدِهِ الصّامِتِ الذي لَمْ يَعرِفِ الانطفاءَ. بلْ على العَكسِ تمامًا، وفي مُفارَقةٍ أُخرى تُظهِرُ مَدى عُمقِ المَأزَقِ، يُعيدُ الوَعي في كَثيرٍ منَ الأحيانِ إنتاجَ المُعاناةِ ذاتِها في صُوَرٍ أكثَرَ تَعقيدًا، أكثَرَ خَفاءً ودَهاءً، كَأنّهُ يُعاقِبُ الإنسانَ على جُرأتِهِ على الهُروبِ بِأنْ يُواجِهَهُ بِأشكالٍ جَديدةٍ منَ الألَمِ لَمْ يَكُنْ يَتَوقَّعُها. فالمُؤمِنُ، الذي لَجَأَ إلى اللهِ لِيَجِدَ الطُّمأنينةَ، يَجِدُ نَفسَهُ مُمَزَّقًا بينَ إيمانِهِ المُعلَنِ وشُكوكِهِ الخَفيّةِ التي تُطارِدُهُ كَأشباحٍ في الظّلامِ، يُحاوِلُ أنْ يُسكِتَها بِصَخبِ الصَّلاةِ أو بِانغماسِهِ في الطُّقوسِ، لكِنّها تَعودُ لِتُؤَرِّقَهُ مَعَ كُلِّ لَحْظَةِ صَمتٍ أو تَأمُّلٍ. والفَيلسوفُ، الذي ظَنَّ أنَّ المَنطِقَ سَيُحرِّرُهُ، يَضيعُ في مَتاهةٍ لا قَرارَ لَها منَ الأسئلةِ التي لا إجابةَ مُطلَقةً لَها، كُلُّ فِكرةٍ جَديدةٍ يَصِلُ إليها لا تَفعَلُ شَيئًا سِوى أنْ تُولِّدَ أسئلةً أُخرى، أكثَرَ تَعقيدًا، تُضاعِفُ حَيرَتَهُ وقَلَقَهُ، كَأنّهُ يَحفِرُ في أرْضٍ لا قاعَ لَها، أو يَصعَدُ سُلَّمًا لا نِهايةَ لَهُ. والفَنّانُ، الذي حَوَّلَ أَلَمَهُ إلى إبداعٍ خالِدٍ، يَرسُمُ عَذابَهُ، أو يَكتُبُ حُرْقَتَهُ، أو يُغنّي وَحْدَتَهُ، لا يَجِدُ في ذلكَ عَزاءً حَقيقيًّا يُشفيهِ، بلْ مُجَرَّدَ مِرآةٍ جَميلةٍ، لكِنّها قاسِيةٌ، تُظهِرُ لهُ جُرحَهُ الأصليَّ في شَكلٍ آخَرَ، أكثَرَ وُضوحًا ورُبّما أكثَرَ إيلامًا. والمُستهلِكُ في عالَمِ الحَداثةِ الفارِغِ، الذي يُلْهي نَفسَهُ بِالمُتَعِ الزّائِلةِ كَمَنْ يَلْعَبُ بالنّارِ، ويَغرَقُ في بَحرِ التَّفاهةِ، يَكتَشِفُ بِصَدْمَةٍ، بَعدَ كُلِّ نَشوةٍ عابِرةٍ، أنَّ الفَراغَ المُوحِشَ ما زالَ قائِمًا في داخِلِهِ، كَحُفرَةٍ سَوداءَ تَتَّسِعُ مَعَ كُلِّ مُحاوَلةٍ يائِسةٍ لِمَلْئِها بِالمَزيدِ منَ الأشياءِ أوِ التَّجارِبِ. وأنَّ كُلَّ ما فَعَلَهُ ليسَ سِوى تَأجيلٍ قَصيرٍ لِلَحظَةِ المُواجهةِ الحَتْميّةِ، اللّحظَةِ التي سَيَقِفُ فيها وَجهًا لِوَجهٍ، بِلا أقنِعةٍ، أمامَ الحَقيقةِ التي لا تَرحَمُ، تِلكَ الحَقيقةُ التي تُثبِتُ بِصَلابةٍ لا تَلينُ، أنَّ المُعاناةَ العَقليّةَ ليستْ عَرَضًا جانِبيًّا يُمكِنُ عِلاجُهُ أو إزالَتُهُ، بلْ هيَ الجَوهَرُ ذاتُهُ، الشَّرطُ الأوَّلُ، الذي يُولَدُ مَعَ الوَعي ويَموتُ مَعَهُ. كَأنَّ كُلَّ إنسانٍ، بِمُجَرَّدِ وُجودِهِ كَكائِنٍ واعٍ، مَحكومٌ بِأنْ يَحمِلَ هذا الصَّليبَ الثَّقيلَ، صَليبَ الإدراكِ، مُنذُ لَحْظَةِ الوِلادةِ، ويَسيرَ بِهِ مُتَعثِّرًا في صَحراءِ

وُجودِهِ القاحِلةِ، يُحاوِلُ بِكُلِّ قُواهُ أنْ يُخَفِّفَ منْ ثِقَلِهِ بِكُلِّ الطُّرُقِ المُمكنةِ والمُستَحيلةِ، لكِنّهُ يَعرِفُ في أعمَقِ أعماقِهِ، يَقينًا لا يَتَزَعزَعُ، أنْ لا خَلاصَ حَقيقيًّا مِنهُ إلا بِتَوقُّفِ الوَعي ذاتِهِ، وأنَّ هذا التَّوقُّفَ ليسَ انتِصارًا أو نَجاةً، بلْ هوَ مُجَرَّدُ نِهايةٍ لِلمَعرَكةِ الطَّويلةِ والمُؤلِمةِ التي لمْ يَكُنْ لَها فائزٌ أصلاً.

وهكَذا، فَإنَّ الإنسانَ، رُغْمَ كُلِّ ما تَوَهَّمَهُ منْ تَقَدُّمٍ عِلميٍّ وفِكريٍّ عَبرَ مَسيرَتِهِ الطَّويلةِ والدّامِيةِ، ورُغمَ كُلِّ مُحاوَلاتِهِ المُستميتةِ لِفَهمِ ألغازِ العالَمِ والسَّيطَرَةِ على قُواهُ العَمياءِ، كَما حاوَلَ مِنْ قَبلُ أنْ يُطفِئَ نارَ وَعيِهِ أو أنْ يَجِدَ مَعنًى في العَبَثِ، لا يَزالُ يَقِفُ عاجِزًا، حائِرًا، أمامَ مُعضلَتِهِ الكُبرى، تِلكَ التي رأيناها تُولَدُ مَعَ إدراكِهِ الأوَّلِ وتُلازِمُهُ كَلَعنةٍ أبديّةٍ: ماذا يَفعَلُ بِهذا الوَعي اللّعينِ الذي يُثقِلُ كاهِلَهُ كَصَخرةٍ ويُحرِقُ رُوحَهُ كَنارٍ؟ كَيفَ يَتَعايَشُ، أو حتّى يَنجو، مَعَ تِلكَ الحَقيقةِ المُزلزِلةِ بِأنَّ وُجودَهُ ليسَ فَقطْ مَحدودًا بِجِدارِ المَوتِ الحَتْميِّ الذي يُطْبِقُ عليهِ كَما أدرَكَ في صَحراءِ نَجاتِهِ المُرَّةِ، بلْ هوَ أيْضًا مَشحونٌ بِتَناقُضٍ جَوهَريٍّ، صِراعٍ داخِليٍّ لا يُمكنُ حَلُّهُ أو تَجاوُزُهُ، تَناقُضٌ مُميتٌ بينَ رَغبَتِهِ الفِطريّةِ المُلِحّةِ في المَعنى والنِّظامِ والطُّمأنينةِ، وبينَ إدراكِهِ القاسي، الحادِّ، بأنَّ كُلَّ مَعنًى يَجِدُهُ ليسَ إلا سَرابًا يَتَلاشى كُلّما اقتَرَبَ مِنهُ، بِأنَّ كُلَّ نِظامٍ يُشَيِّدُهُ سَيُحَطِّمُهُ عَبَثُ الكَونِ، وبِأنَّ كُلَّ طُمأنينةٍ يَجِدُها ليستْ إلا وَهمًا سَيُبَدِّدُهُ وَعيُهُ اليَقِظُ؟ إنّهُ سُؤالٌ مُوَجِّعٌ، سُؤالٌ لمْ يَجِدْ لهُ الإنسانُ، عَبرَ آلافِ السِّنينَ منَ التَّأمُّلِ والصِّراعِ، أيَّ إجابةٍ نِهائيّةٍ تُسكِتُ أَلَمَهُ أو تُطفِئُ لَهيبَ قَلَقِهِ. ليسَ لأنَّ الإجابةَ صَعبةُ المَنالِ أو مُعقَّدةٌ فَحَسْبُ، بلْ لأنَّ السُّؤالَ نَفسَهُ ليسَ مُجَرَّدَ لُغزٍ عَقليٍّ يُمكنُ حَلُّهُ بِالمَنطِقِ أوِ البُرهانِ، بلْ هوَ الشَّرطُ الوُجوديُّ ذاتُهُ الذي يُشَكِّلُ كِيانَهُ ويُحَدِّدُ مَصيرَهُ، كَأنَّ كُلَّ خُطوةٍ خَطاها في تاريخِهِ الطّويلِ، كُلَّ فَلسفةٍ ابْتَكَرَها، كُلَّ دِينٍ اعْتَنَقَهُ، لمْ تَكُنْ سِوى مُحاوَلةٍ يَائِسةٍ لِلإفلاتِ منْ قَبضَةِ هذا التّناقُضِ المُستَحكِمِ، لكِنّهُ يَظَلُّ يُعيدُهُ بِعِنادٍ إلى نُقطةِ البِدايةِ، إلى تِلكَ النّارِ الدّاخليّةِ التي تَحتَرِقُ في أعماقِهِ دونَ أنْ تُطفَأَ، تَلتَهِمُهُ ولا تَكتَفي.

ومَعَ بِدايةِ تَشَكُّلِ المُجتَمَعاتِ البَشريّةِ الأُولى، في فَجرِ التّاريخِ الضَّبابِيِّ، كانتِ الآلِهةُ، تِلكَ الكائناتُ الخيالِيّةُ التي نَسَجَها الخَوفُ والرَّجاءُ، أوّلَ مَلجأٍ حَقيقيٍّ لِلإنسانِ في مُواجَهَتِهِ المُرعِبةِ لِمُعاناتِهِ العَقليّةِ التي لا تَرحَمُ، كَما كانتْ أوّلَ مُحاوَلةٍ جَماعيّةٍ لِتَخفيفِ عِبءِ الوَعي المَشحونِ بِالقَلَقِ الوُجوديِّ الذي يُحاصِرُهُ. لَقَدْ قَدَّمَتِ الأديانُ الكُبرى، بِأساطيرِها المُحكَمةِ وطُقوسِها المُعَقَّدةِ، تَفسيرًا شامِلاً لِلعالَمِ،

أعْطَتْ لِفَوضاهُ نِظامًا، ولِظُلمَتِهِ نُورًا وَهميًّا. رَسَمَتْ هَدَفًا ساميًا لِلحَياةِ البَشريّةِ القَصيرةِ والعَبثيّةِ، وأشعَلَتْ شَمعةَ الأمَلِ بِالخَلاصِ الأبديّ، سَواءٌ كانَ هذا الخَلاصُ في جَنّةٍ مَوعودةٍ تَنتَظِرُ الصّابِرينَ وَراءَ سِتارِ المَوتِ، كَما وَعَدَتْ بِذلِكَ الأديانُ التَّوحيديّةُ، أو في ذلكَ الانْدِماجِ الصُّوفيّ الغامِضِ في المُطْلَقِ الإلهيّ حيثُ تَذوبُ الذّاتُ الفَرديّةُ وتَتَلاشى المُعاناةُ، كَما رَأينا في تَطلُّعاتِ التَّصَوُّفِ الشَّرقيّ والغَربيّ. فالمُعاناةُ، في هذا الإطارِ الدّينيّ المُحكَمِ، لَمْ تَكُنْ عَبَثًا لا مَعنى لهُ كما بَدَتْ لِلوَعي العاري، بلْ اكتَسَبَتْ، بِقُدرةِ الوَهمِ الخلّاقِ، مَغزًى ودَورًا: تَارَةً تَكونُ اختِبارًا إلهيًّا يُصْقِلُ الرّوحَ ويُعِدُّها لِلخُلودِ، وتَارَةً تَطهيرًا لِلخَطايا المَوروثةِ أوِ المُكتَسَبةِ، وتَارَةً أُخرى عِقابًا عادِلاً، مُستَحَقًّا، على عِصيانِ الأوامِرِ الإلهيّةِ أوِ الخُروجِ عنْ طَريقِ الصَّوابِ. هذا التَّأويلُ الميتافيزيقيُّ لِلألَمِ مَنَحَ الإنسانَ نَوعًا منَ العَزاءِ المُؤقّتِ، شُعورًا بِالرِّضا المَشروطِ، حَيثُ لَمْ يَعُدْ يَشعُرُ بأنّهُ وَحيدٌ، مَتروكٌ، في مُواجَهةٍ عَبثيّةِ العالَمِ القاسيةِ، كَما شَعَرَ حينَ أصْبَحَ كائنًا مُنفَصِلاً بينَ عالَمَينِ لا يَنتَمي لِأيٍّ مِنْهُما، بلْ صَارَ، في تَصوُّرِهِ، جُزءًا حَيَويًّا منْ قِصّةٍ كَونيّةٍ كُبرى، مَسرحيّةٍ إلهيّةٍ عَظيمَةٍ تُبَرِّرُ شَقاءَهُ وتُعطي لِتَضحيّاتِهِ قِيمةً أسمى. لكِنَّ الإنسانَ، بِطَبيعَتِهِ المُتقلّبَةِ، القَلِقةِ، التي لا تَرضَخُ لِلقُيودِ طَويلاً، لَمْ يَكُنْ قادِرًا على الاكتِفاءِ التّامّ بِهذهِ الحُلولِ الغَيبيّةِ، كَما لَمْ يَكُنْ قادِرًا على إخمادِ بُركانِ شُكوكِهِ المُتأجّجِ في تَمَرُّدِهِ الصّامِتِ الذي لا يَهجَعُ. كانَ هُناكَ دائمًا شَيءٌ في الأعماقِ يُقاوِمُ هذا التَّسليمَ المُطْلَقَ، شَيءٌ يَرْفُضُ الخُضوعَ النّهائيَّ لِفِكرةٍ، أيّ فِكرةٍ، تُسكِتُ السُّؤالَ الأبديَّ بَدلاً منْ أنْ تُجيبَ عليهِ بِشَجاعةٍ، سَواءٌ كانَتْ هذهِ الفِكرةُ دينيّةً تَعِدُ بِالجَنّةِ، أو فَلسفيّةً تَعِدُ بِالحِكمةِ. فَحتّى في أعمَقِ العَقائِدِ روحانيّةً وأكثَرِها تَساميًا، ظَلَّ السُّؤالُ الجَوهَريُّ، السُّؤالُ المَلعونُ، قائِمًا كَجُرحٍ مَفتوحٍ لا يَندَمِلُ في جَسَدِ الفِكرِ الإنسانيّ: لِماذا يَجِبُ أنْ يَكونَ العالَمُ هكَذا، مَشحونًا بِالألَمِ والظُّلْمِ والمَوتِ؟ لِماذا يُولَدُ الإنسانُ في مُعاناةٍ مُتَوارَثةٍ، لِيُمْضِيَ حَياتَهُ القَصيرةَ يَبحَثُ عنْ خَلاصٍ غامِضٍ قَدْ لا يَجِدُهُ أبَدًا؟ هذا السُّؤالُ، الذي ظَنَّ الكَهَنَةُ والفُقَهاءُ أنَّهُ يُمكِنُ تَجاوُزُهُ بِقُوّةِ الإيمانِ الأعمى أو بِحَلاوةِ التَّأمُّلِ الصُّوفيّ، ظَلَّ يَنزِفُ بِألَمٍ مَعَ كُلِّ مُحاوَلةٍ لِلإجابةِ عليهِ، يَزدادُ عُمقًا واتّساعًا كُلّما حاوَلَ الإنسانُ أنْ يُداويَهُ بِوَهمِ وُعودٍ غَيبيّةٍ زائِفةٍ أو بِطُمأنينةٍ مُفتَعَلةٍ لا تَصمُدُ أمامَ وَعيِ الوَعي.

وحينَ بَدأَ العقلُ البَشريُّ، في لَحَظاتِ نُضجٍ نادرةٍ أو تَمَرُّدٍ جَريءٍ، يُواجِهُ نَفسَهُ بِصِدقٍ قاسٍ، بَعيدًا عنِ الرِّواياتِ المُطَمْئِنةِ التي نَسَجَها الدّينُ كَشِباكٍ لِاصطيادِ الأرواحِ الخائِفةِ، وُلِدَتِ الفَلسفةُ، لا كَبَديلٍ لِلإلهِ، بلْ كَمُحاوَلةٍ شُجاعةٍ لِفَهمِ الألَمِ وتَشريحِ جُذورِهِ، لا لِمُجَرَّدِ التَّخفيفِ منْ وَطأتِهِ بِوُعودٍ مُؤجَّلةٍ كَما

فَعَلَتِ الآلِهةُ ورُسُلُها. سُقراطُ، ذلكَ الشَّيخُ الأثينيُّ المُزعِجُ الذي جابَ الأسواقَ لا لِيَبيعَ بَضاعةً بلْ لِيَزرَعَ الشَّكَّ، لمْ يُقَدِّمْ حُلولاً جاهِزةً كَعقاقيرَ تُهدِّئُ القَلَقَ كَما فَعَلَ الكَهَنَةُ في هَياكِلِهِمُ المُظلِمةِ. بلْ على العَكسِ، زادَ مِنْ حِدّةِ السُّؤالِ، كَشَفَ عنْ عُمْقِ الجَهْلِ المُتَخَفّي وَراءَ اليَقينِ المُتَوَهَّمِ، مُظهِرًا، بِسُخريّتِهِ اللاذِعةِ، أنَّ الجَهْلَ المُعتَرَفَ بِجَهلِهِ أفضَلُ ألفَ مَرّةٍ منَ المَعرِفةِ القَلِقةِ التي تُثيرُ المَزيدَ منَ الحَيرَةِ وتُفقِدُ الرّاحَةَ. كَأنّهُ، بِفِعلِهِ هذا، يُعيدُ الإنسانَ بِقَسوةٍ إلى تَناقُضِ وَعيِهِ الأوَّلِ، إلى صَميمِ مَأزَقِهِ، بَدلاً منْ أنْ يُنقِذَهُ مِنهُ بِوَهمٍ جَديدٍ. ثُمَّ جاءَ الرِّواقيّونَ، أولئكَ الفَلاسِفةُ الصُّلْبُ كَالصُّخورِ، لِيَقولوا إنَّ الحَلَّ الوَحيدَ المُمْكِنَ في هذا العالَمِ الذي لا يَتَغيَّرُ هوَ القَبولُ، قَبولُ القَدَرِ بِشَجاعةٍ وصَمتٍ، أنْ يَتَحَرَّرَ الإنسانُ منْ أغلالِ انفعالاتِهِ العاصِفةِ، ليسَ لأنَّ العالَمَ سَيُصبِحُ أكثَرَ رَحمَةً، بَلْ لأنَّ العقلَ الوَاعيَ وَحدَهُ يُمكِنُهُ أنْ يَكونَ سَيِّدًا على نَفسِهِ حتّى في قَلبِ العاصِفةِ. كَأنّهُمْ يُحوِّلونَ المُعاناةَ المُرَّةَ إلى مادّةٍ خامٍ، طينٍ لَزِجٍ، يُمكِنُ تَشكيلُهُ بِأدواتِ المَنطِقِ البارِدةِ والصَّبرِ الجَميلِ. لكِنَّ المَأساةَ استَمَرَّتْ، كَنَهرٍ لا يَتوقَّفُ عنِ الجَرَيانِ، كَما استَمَرَّ الوَعيُ يُحرِقُ صَاحِبَهُ بِلا رَحمَةٍ. فالفِكرُ، مَهما بَلَغَ منْ قُوّةٍ، قَدْ يُرَوِّضُ الإحساسَ الجامِحَ لكِنّهُ لا يُمكِنُهُ قَتلَهُ، والمَنطِقُ قَدْ يُهَدِّئُ النَّفسَ المُضطَرِبةَ لكِنّهُ لا يَستطيعُ إخمادَ نارِ القَلَقِ الوُجوديِّ التي تَشتَعِلُ في أعماقِ العقلِ الواعي. تَساءَلَ الفَلاسِفةُ الأوائلُ، في بَحثِهِمُ المُضني عنِ الحَقيقةِ، عنْ سَبَبِ هذا العالَمِ القاسي، عنْ جَدوى تِلكَ الطّاعَةِ العَمياءِ التي تُطالِبُ بِها الآلِهةُ المُتَقلِّبَةُ، عنْ مَعنى الأَلَمِ إذا كانَ الخالِقُ عادِلاً وكامِلاً كَما يُزعَمُ. لكِنَّ أسئِلَتَهُمْ، رُغمَ عُمقِها، لمْ تُنتِجْ يَقينًا مُريحًا، بلْ أعادَتْ إنتاجَ المُعاناةِ ذاتِها في شَكلٍ أكثَرَ تَجريدًا، أكثَرَ بُرودةً، وربّما أكثَرَ إيلامًا. وفي أقاصي الشَّرقِ، بَزَغَ حَلٌّ مُختلِفٌ، الحَلُّ البوذيُّ، الذي لمْ يَعِدْ بِخَلاصٍ في سَماءٍ بَعيدةٍ أو بِجَنّةٍ مَوعودةٍ، بلْ بِتَحريرِ العقلِ نَفسِهِ منْ أغلالِ أوهامِهِ ورَغَباتِهِ التي تُشعِلُ نارَ المُعاناةِ، وذلكَ عَبرَ الزُّهدِ والتَّأمُّلِ العَميقِ ومُراقَبَةِ الأنفاسِ. كَأنَّ الحَلَّ يَكمُنُ في تَرويضِ الوَعيِ ذاتِهِ، في إطفاءِ شُعلَتِهِ القَلِقةِ، بَدلاً منْ إشباعِهِ بِأجوبةٍ مُطلَقةٍ أو بِمَعانٍ مُتَعاليةٍ. لكِنْ، حتّى هذا الطَّريقُ الشّاقُّ لِلتَّحَرُّرِ الدّاخليِّ ظَلَّ بَعيدًا عسيرَ المَنالِ على مُعظَمِ البَشَرِ، مَحصورًا في قِلّةٍ قَليلةٍ منَ النُّسّاكِ والمُتَصَوِّفةِ استَطاعَتْ، بِجُهدٍ خارِقٍ أو بِتَوفيقٍ نادِرٍ، أنْ تُطفِئَ نارَ رَغَباتِها وأنْ تَتَذَوَّقَ طَعمَ النِّيرفانا. بَينما بَقِيَ الآخَرونَ، جَماهيرُ القَلَقِ، يَتَخَبَّطونَ في تَناقُضِهِمُ الأزَليِّ، عالِقينَ بينَ السَّماءِ والأرضِ، بينَ الوَعيِ والأَلَمِ، دونَ أنْ يَجِدوا مَرفأَ راحَةٍ أو شاطِئَ سَلامٍ.

ومَعَ تَطوُّرِ الفِكرِ الغَربيِّ العَاصِفِ، وانفِجارِ بُركانِ الشَّكِّ في وَجهِ اليَقينيّاتِ المُتَهالِكةِ، وظُهورِ تِلكَ التَّيّاراتِ العَقلانيّةِ والماديّةِ التي جَرَّدَتِ الكَونَ منْ أساطيرِهِ المُخَدِّرةِ، تَحوَّلَتْ هذهِ الأسئلةُ الوُجوديّةُ القَديمةُ إلى نَزعةٍ أكثَرَ حِدّةً، أكثَرَ وَحشيّةً، شَكٌّ لا يَعرِفُ الرَّحمَةَ ولا يَتوقَّفُ أمامَ المُقَدَّسِ، كَما تَحوَّلَ التَّمَرُّدُ في الفَصلِ السّابِقِ إلى مَصيرٍ لا مَفرَّ منهُ للعقلِ اليَقِظِ. لَمْ يَعُدِ السُّؤالُ عنِ المُعاناةِ مُرتَبِطًا بِخَلاصٍ رُوحيٍّ تَسعى إليهِ النُّفوسُ التّائِقةُ للسَّماءِ، بلْ أصْبَحَ يَتَعَلَّقُ ببُنيَةِ الوُجودِ ذاتِها، بِصَميمِ الحَقيقةِ العاريةِ التي لا تَكتَرِثُ بِآمالِنا. كَأنَّ الإنسانَ، في لَحْظَةِ صَحْوٍ مُرعِبةٍ، بَدأَ يُفَكِّكُ بِأصابِعَ مُرتَعِشةٍ أُسُسَ الطُّمأنينةِ القَديمةِ التي بَناها على رِمالِ الإيمانِ بِالآلِهةِ الغائِبةِ وبِالمُطلَقِ المُتَوَهَّمِ. بَدأَ الفَلاسِفةُ، بِشَجاعةٍ أو بِيأسٍ، في كَشفِ النِّقابِ عنْ حَقيقةٍ أشدَّ قَتامةً: أنَّ المُعاناةَ ليستْ مُجَرَّدَ ابتلاءٍ خارِجيٍّ يُمكِنُ تَحَمُّلُهُ بِالصَّبرِ، أو وَهمًا ذِهنيًّا يُمكِنُ تَجاوُزُهُ بِالتَّأمُّلِ كَما زَعَمَ البوذيونَ في هُدوئِهِمُ المُنفَصِلِ. لا، بلْ هيَ حَقيقةٌ بُنيويّةٌ، جَوهَرٌ مُتَأصِّلٌ، في صَميمِ الوَعيِ البَشريِّ ذاتِهِ، كَما كانتْ جُزءًا لا يَتَجَزَّأُ منْ تكوينِهِ مُنذُ تِلكَ اللَّحظةِ المَأساويّةِ التي انفَصَلَ فيها عنْ رَحِمِ الطَّبيعَةِ الأُمِّ. ومَعَ شوبنهاورَ، ذلكَ النَّبيِّ المُتَشائِمِ الذي حَطَّمَ المَرايا المُزَيَّفةَ، أصْبَحَتِ الحَياةُ نَفسُها مُعضِلةً لا حَلَّ لَها على الإطلاقِ، مَأزَقًا وُجوديًّا لا مَخرَجَ منهُ، وأصْبَحَتِ الرَّغبةُ، تِلكَ الشُّعلةُ التي تَحسَبُها تُنيرُ، هيَ أصْلَ كُلِّ ألَمٍ وشَقاءٍ، كَما كانتْ نارُ الوَعيِ أصْلَ الجَحيمِ الدّاخِليِّ. والخَلاصُ، في نَظَرِهِ القاتِمِ، ليسَ في الأمَلِ الكاذِبِ الذي يُطيلُ العَذابَ، بلْ في كَبحِ جِماحِ الإرادةِ العَمياءِ التي تُحرِّكُنا كَدُمًى، وفي إخمادِ جَذْوَةِ التَّوقِ اللّامَحدودِ الذي يَجعَلُ الإنسانَ عَبدًا أبديًّا لِرَغَباتِهِ التي لا تَشبَعُ. كَأنَّهُ يَدعو بِشَكلٍ صارِخٍ، لا إلى تَرويضِ الوَعيِ، بلْ إلى إطفائِهِ كُلِّيًّا لِتَنْتَهيَ المُعاناةُ والعَذابُ. ثُمَّ جاءَ نيتشهُ، ذاكَ المُحَطِّمُ لِلأصنامِ، المُعلِنُ عنْ مَوتِ الإلهِ، فَانقَلَبَتِ المُعادَلةُ رأسًا على عَقِبٍ، كَما انقلَبَتْ مُحاوَلاتُ الهُروبِ مِنْ قَبْلُ إلى دَوّاماتٍ جَديدةٍ. فلمْ يَعُدِ الهُروبُ منَ الألَمِ فَضيلةً كما صَوَّرَهُ الضُّعفاءُ، بلْ أصْبَحَ اعترافًا مُخْجِلاً بِالهَزيمةِ أمامَ قُوى الحَياةِ. وأصْبَحَتِ المُعاناةُ نَفسُها، بِكُلِّ قَسوَتِها، ضَرورةً قاسيةً، مِطرَقةً إلهيّةً، لِصِياغةِ الإنسانِ الأعْلى (الأوبرمنش)، ذاكَ الذي لا يَهرُبُ منْ أمَلِهِ كَجُرذٍ خائِفٍ، بلْ يَحتَضِنُهُ بِشَجاعةٍ، يُعانِقُهُ كَحَبيبٍ قاسٍ، يَرقُصُ مَعَهُ على حافّةِ الهاويةِ. كَأنَّهُ يُحوِّلُ صَليبَ العَذابِ إلى تاجٍ منْ نارٍ يُتَوِّجُ بِهِ إرادَتَهُ المُتَفَجِّرَةَ. لكِنْ، حتّى هذا العِناقُ البُطوليُّ لِلألَمِ لَمْ يُنهِ التّناقُضَ الوُجوديَّ، بلْ جَعَلَهُ أكثَرَ حِدّةً، أكثَرَ تَوَتُّرًا. لأنَّ الإنسانَ ظَلَّ، رُغمَ كُلِّ شَيءٍ، عاجِزًا عنِ الإجابةِ على السُّؤالِ المُلِحِّ: إذا كانَتِ المُعاناةُ حَتميّةً وضَروريّةً لِلخَلقِ، فَلِماذا نُواصِلُ البَحثَ عنْ

مَعنًى لَها يُخَفِّفُ منْ وَطأتِها؟ هذا السُّؤالُ، الذي بَدأَ هَامِسًا مَعَ الآلِهةِ الأُولى، وتَطَوَّرَ صاخِبًا مَعَ الفَلاسِفةِ المُتَمَرِّدينَ، ظَلَّ كَالجُرْحِ المَفْتُوحِ، يُعيدُ الإنسانَ بِاستمرارٍ إلى نُقطةِ الصِّفرِ، إلى ذلكَ الفَراغِ المُؤلِمِ الذي لا يَلتَئِمُ أَبَدًا. كَأَنَّ كُلَّ تَقَدُّمٍ في الفِكرِ البَشريِّ لَمْ يَكُنْ سِوى مُحاوَلةٍ جَديدةٍ، أكثَرَ تَعقيدًا، لِتَزيينِ قُضبانِ سِجنِ المُعاناةِ، لا لِكَسرِها، تارِكًا الإنسانَ يُصارِعُ وَعيَهُ المُتَأَجِّجَ في مَعركةٍ لا تَنتَهي، يَحتَرِقُ فيها بِنارِ أسئِلَتِهِ دونَ أنْ يَجِدَ سَلامًا أو راحَةً، كَما احتَرَقَ في تَمَرُّدِهِ الصّامِتِ الذي لَمْ يُطفِئْ شُعلَتَهُ إلا العَدَمُ.

لكِنْ، رُغمَ كُلِّ هذهِ المُحاوَلاتِ الفَلسفيّةِ الجبّارةِ، المُتَنَوِّعةِ، التي امتَدَّتْ عَبرَ العُصورِ كَسلسِلةٍ منَ الصَّرَخاتِ في وَجهِ الصَّمتِ، كَما رأيناها تَتَطَوَّرُ منْ هَمْهَماتِ الإيمانِ الأوَّلِ إلى تَصريحاتِ نيتشهَ النّاريّةِ، لَمْ يَستَطِعِ الإنسانُ، هذا الكائِنُ المَلعونُ بِوَعيِهِ، أنْ يَتَجاوَزَ مَأزَقَهُ الأزَليَّ، أنْ يُفلِتَ منْ قَبضَةِ الأفعى التي تَلتَفُّ حَولَ عُنُقِهِ مُنذُ أنْ فَتَحَ عَينَيهِ على الوُجودِ، ذلكَ المَأزَقُ الذي ظَلَّ يُثقِلُ كاهِلَهُ كَجُرْحٍ مُتَقَيِّحٍ لا يَشْفى. ففي كُلِّ عَصرٍ ظَهَرَ مَذهَبٌ جَديدٌ، قِناعٌ آخَرُ، يُفَسِّرُ المُعاناةَ بِطَريقَةٍ مُختَلِفةٍ، يُحاوِلُ أنْ يُخَفِّفَ منْ وَطأتِها الكاسِحةِ كَما حاوَلَ الرِّواقيّونَ بِبُرودَتِهِمْ، أو أنْ يُعانِقَها بِشَغَفٍ مَرَضيٍّ كَما دَعا نيتشه في تَمَرُّدِهِ العاصِفِ. لكِنْ لا شَيءَ على الإطلاقِ استَطاعَ أنْ يَقتَلِعَ جُذورَها العَميقةَ بِالكامِلِ، أنْ يَقتُلَ الدُّودَةَ التي تَنخُرُ في قَلبِ التُّفّاحَةِ. كَأَنّها شَجَرَةٌ شَيطانيّةٌ تَنْمُو في أعماقِ الوَعي نَفسِهِ، لا في تُربةِ العالَمِ الخارِجيِّ، شَجَرَةٌ تَتَغذّى على إدراكِنا ذاتِهِ، وتَزدادُ قُوّةً كُلّما حاوَلْنا بِجَهلٍ أنْ نَقطَعَ أغصانَها الظّاهِرةَ. حتّى مَعَ صُعودِ العِلمِ الجبّارِ وسَيطَرَتِهِ المُطلَقةِ على العالَمِ الحَديثِ، مَعَ انتِصاراتِهِ المُبهِرةِ على الطَّبيعَةِ وتَقَدُّمِهِ التِّقنيِّ المُذهِلِ، لَمْ يُفلِحْ هذا التَّقَدُّمُ العَقلانيُّ البارِدُ، الذي جَرَّدَ الكَونَ منْ آلِهَتِهِ وأسرارِهِ، في إنهاءِ هذهِ المُعضِلةِ الوُجوديّةِ العَصيّةِ التي رأيناها تَتَفاقَمُ مَعَ كُلِّ انتِصارٍ لِلوَعي. بلْ رُبّما، ويا لَسُخريّةِ القَدَرِ، قَدْ زادَها تَعقيدًا وخُبثًا، بِإزاحَتِهِ القاسيةِ لِكُلِّ مَلجأٍ رُوحيٍّ قَديمٍ، لِكُلِّ عَزاءٍ ميتافيزيقيٍّ، دونَ أنْ يُقَدِّمَ في المُقابِلِ أيَّ بَديلٍ حَقيقيٍّ يُشبِعُ جُوعَ الرّوحِ لِلمَعنى أو يُطفِئُ ظَمأَها لِليَقينِ. فَبدلاً منْ أنْ يَجِدَ الإنسانُ المُعاصِرُ، المُحاصَرُ بِآلاتِهِ وأرقامِهِ، عَزاءَهُ في دِفءِ الدِّينِ كَما فَعَلَ أسلافُهُ المُتَوَكِّلونَ، أوْ خَلاصَهُ في عُمْقِ الفَلسفةِ كَما حاوَلَ الفَلاسِفةُ المُتَأَمِّلونَ، وَجَدَ نَفسَهُ تائِهًا، ضائِعًا، في فَراغٍ جَليديٍّ منَ العَقلانيّةِ الصّمّاءِ، في عالَمٍ ماديٍّ، مُسطَّحٍ، أزاحَ المُقَدَّساتِ منْ طَريقِهِ ولَمْ يَترُكْ لِلإنسانِ سِوى حُطامِ الاستِهلاكِ الجُنونيِّ والمُتعةِ العابِرةِ التي لا تَروي عَطَشًا، كَما فَعَلَ أولئكَ الذينَ

هَرَبوا إلى اللّذّةِ مِنْ قَبْلُ ظَنًّا مِنْهُمْ أنّها الخَلاصُ. عالَمٌ يُغرِقُهُ بِطُوفانٍ منَ المَعلوماتِ التّافِهةِ كَالطُّوفانِ الذي لا يُبقي ولا يَذَرُ، لكِنّهُ لا يَمنَحُهُ ذَرّةً واحِدةً منَ الحِكمةِ التي تُضيءُ طَريقَهُ المُعتِمَ. عالَمٌ يُضاعِفُ وَعيَهُ بِالتّفاصيلِ الصَّغيرةِ المُرهِقةِ، لكِنّهُ لا يُقَدِّمُ لهُ أيَّ مَعنًى حَقيقيّ، أيَّ إطارٍ شامِلٍ، لِهذا الوَعي المُتَضخِّمِ الذي أصْبَحَ عِبئًا لا يُطاقُ. كَأنَّ كُلَّ اختِراعٍ جَديدٍ يَبهَرُ العُيونَ، وكُلَّ اكتِشافٍ عِلميّ يَفتَحُ آفاقًا، ليسَ في النِّهايةِ سِوى مِرآةٍ أكبَرَ، أكثَرَ صَقلاً، تَعكِسُ فَراغَهُ الدّاخليَّ المُتَعاظِمَ بِصُورةٍ أوضَحَ، تُظهِرُ لهُ بِلا رَحمةٍ أنَّ تَقَدُّمَهُ المَاديَّ الهائِلَ لَمْ يُحَرِّرْهُ مِنْ مُعاناتِهِ الوُجوديّةِ، بلْ، ويا لَلكارِثةِ، جَعَلَهُ أكثَرَ وَعيًا بِها، أكثَرَ إحساسًا بِثِقَلِها، دونَ أنْ يُعطيَهُ أيَّ مِفتاحٍ حَقيقيٍّ لِلخُروجِ مِنْ هذا السِّجنِ الذي لا جُدرانَ لهُ سِوى حُدودِ وَعيِهِ.

وحينَ عَجَزَ العقلُ المُحاصَرُ عنِ الفِكاكِ مِنْ أغلالِ هذهِ المُعاناةِ المُستَحكِمةِ، كَما عَجَزَ مِنْ قَبْلُ حينَ حاوَلَ إخمادَ بُركانِ أسئِلَتِهِ أو تَرويضَ قَلَقِهِ المُتَوَحِّشِ، وحينَ لَمْ تَعُدْ مَسالِكُ الفَلسفةِ المُجَرَّدةِ كافيةً لِاحتواءِ نيرانِ القَلَقِ الوُجوديِّ التي تَشتَعِلُ في أحشائِهِ وتَلتَهِمُ هُدوءَهُ، ظَهَرَ الفَنُّ، ذلكَ الابنُ الشَّرعيُّ لِلألَمِ والإبداعِ، كَأحَدِ أعظَمِ وأجْمَلِ، ولكِنْ أيْضًا أكثَرَ، حُلولِ الإنسانِ خِداعًا ومُراوَغَةً. ليسَ كَكُلِّ نِهائِيٍّ يُنهي المَأساةَ كَما وَعَدَتِ الأديانُ بِجَنّاتِها الوَهميّةِ، ولا كَفَهمٍ شامِلٍ يُبَدِّدُ الظَّلامَ كَما ادَّعَتِ الفَلسفاتُ بِغُرورِها، بلْ كَمَلاذٍ أخيرٍ، كَمُسَكِّنٍ فَعّالٍ، كَبَلسَمٍ جَميلٍ يُوضَعُ على الجُرحِ النّازِفِ، لا لِيُشفِيَهُ، بلْ لِيُشَكِّلَهُ، لِيُحوِّلَهُ، لِيُعطِيَهُ بُعدًا آخَرَ يُصبِحُ بِهِ الأَلَمُ قابِلاً لِلتَّأمُّلِ، لا فَقَطْ لِلاحتمالِ. فَمُنذُ أنْ نَقَشَ الإنسانُ الأوّلُ، بِيَدٍ مُرتَعِشةٍ وقلبٍ مُضطَرِبٍ، صُوَرَ الوُحوشِ وظِلالَ المَوتِ على جُدرانِ كُهوفِهِ المُعتِمةِ، كانَ يُحاوِلُ، في فِعلٍ بَدائِيٍّ ويائِسٍ، أنْ يَمنَحَ شَيئًا منَ الخُلودِ، ولوْ كانَ وَهميًّا، لِعَذابِهِ العابِرِ، لِوُجودِهِ الهَشِّ. كَأنَّهُ يُدرِكُ، بِحَدْسٍ غامِضٍ، أنَّ الفَناءَ المُطلَقَ هوَ مَصيرُهُ المَحْتومُ، لكِنّهُ يَرفُضُ بِعِنادِ الطِّفلِ أنْ يُسَلِّمَ ذاتَهُ لِصَمتِ العَدَمِ دونَ أنْ يَترُكَ أثَرًا، دونَ أنْ يَصرُخَ صَرخَتَهُ الأخيرَةَ ضِدَّ هذا الصَّمتِ. كانَ الفَنُّ، مُنذُ بِدايَتِهِ، نَوعًا منَ التَّمَرُّدِ الوُجوديِّ ضِدَّ الفَناءِ الذي لا يُقاوَمُ، صَرخةً مُلوَّنةً أو مُنَغَّمةً ضِدَّ الصَّمتِ الكَونيِّ المُطبِقِ الذي يُحيطُ بِالوُجودِ ويُهَدِّدُ بِابتِلاعِ كُلِّ مَعنًى، كَما كانَ التَّمَرُّدُ الصّامِتُ في الفَصلِ السّابِقِ صَرخةً بُكاءَ ضِدَّ عَبَثِيّةِ الوَعي. لكِنّهُ تَمَرُّدٌ، يا لَلأسَفِ، لا يُغَيِّرُ شيئًا منَ الواقِعِ القاسي، بلْ يَكتَفي بِأنْ يُعيدَ صِياغَتَهُ في شَكلٍ جَماليٍّ، بِقِناعٍ فَنِّيٍّ، يُصبِحُ بِهِ قُبْحُ العَذابِ قابِلاً لِلنَّظَرِ، ووَحشةُ الفَراغِ قابِلةً لِلتَّأمُّلِ. الأدَبُ، المُوسيقى، الرَّسمُ، النَّحتُ - كُلُّ هذهِ التَّجَلّياتِ العَبقَريّةِ

لِلرّوح البَشريّةِ المُعَذَّبَةِ – لَمْ تَكُنْ يَومًا مُجَرَّدَ تَرَفٍ بُرجوازيٍّ أو تَسليةٍ لِقَتلِ الوَقتِ الفارِغ، كَما قَدْ يُظَنُّ في لَحَظاتِ السَّطحيّةِ المُبتَذَلةِ. بلْ كانتْ دائمًا، وفي أعمَقِ جَوهَرِها، مُحاوَلاتٍ مُستميتةً، شُجاعةً في يأسِها، لِمَنحِ شَكلٍ جَماليٍّ، لِباسٍ أنيقٍ، لِما هوَ في حَقيقتِهِ لا يُحتَمَلُ، لِما هوَ قَبيحٌ ومُؤلِمٌ ومُدَمِّرٌ. كَأنَّ الإنسانَ، في فَنِّه، يَقولُ بِصَوتٍ خافِتٍ أو عالٍ: 'إذا كُنتُ مَحكومًا بِالمُعاناةِ الأبديّةِ، فَلأجْعَلْها على الأقَلِّ جَديرةً بِالتَّأمُّلِ، عَمَلاً فَنِّيًّا يَشهَدُ على عَذابي ويُخَلِّدُ صُراخي!'. ويَقولُ دوستويفسكي، ذاكَ الذي غاصَ في أعمَقِ أغوارِ النَّفسِ المُعَذَّبَةِ: 'أحيانًا أعتقدُ أنَّ الإنسانَ يُحِبُّ الأَلَمَ فَقَطْ مِنْ أجلِ أنْ يُحَوِّلَهُ إلى قِصّةٍ'. وهذا، بِالفِعلِ، هوَ ما فَعَلَهُ الفَنُّ بِبَراعةٍ وشَجاعةٍ: فهوَ لَمْ يُزِلِ الأَلَمَ كَما وَعَدَتْ بِذلكَ فَلسفاتُ النِّيرفانا الشَّرقيّةِ، ولَمْ يُلْغِ العَذابَ كَما ادَّعَتْ أديانُ الخَلاصِ السَّماويّ، لكِنّهُ مَنَحَهُ بُعدًا مُختلِفًا، لَونًا آخَرَ، جَعَلَهُ مِرآةً سِحريّةً تُظهِرُ العَذابَ في صُورةٍ أقَلَّ قُبحًا، أكثَرَ إثارةً لِلتَّعاطُفِ أوِ التَّأمُّلِ. كَأنَّ الوَعيَ، حينَ يَعجِزُ عنِ التَّخَلُّصِ منْ مُعاناتِهِ المُتَجذِّرةِ، يُحاوِلُ، في حِيلةٍ أخيرةٍ، أنْ يُجَمِّلَها، أنْ يُزَخرِفَ قُضبانَ سِجنِهِ، أنْ يُحَوِّلَها إلى شَيءٍ يُمكِنُ النَّظَرُ إليهِ دونَ أنْ تُمزِّقَ الرُّوحَ إرْبًا إرْبًا.

لكِنَّ الفَنَّ، في جَوهَرِهِ الخادِعِ، كانَ دائمًا مُجَرَّدَ إعادةِ تَشكيلٍ، لُعبةِ مَرايا بارِعةٍ، لِلمُعاناةِ الأصليّةِ، لا إلغاءً حَقيقيًّا لَها أو تَجاوُزًا لِجُذورِها العَميقةِ. كانَ مُحاوَلةً لِمَنحِها مَعنًى، ولَوْ كانَ هذا المَعنى وَهميًّا، مُصطَنَعًا، كَما كانتِ الأساطيرُ القَديمةُ وَهمًا يُخَفِّفُ منْ وَطأةِ الخَوفِ ويُعطي لِلفَوضى نِظامًا. فَعِندَما رَسَمَ الإنسانُ البَدائيُّ مُعاناتَهُ اليَوميّةَ وخَوفَهُ منَ المَوتِ على جُدرانِ الكُهوفِ المُظلِمةِ، لَمْ يَكُنْ يَرْسُمُ فَقَطْ ما تَراهُ عَينُهُ منْ مَشاهِدِ الصَّيدِ أوِ الحُروبِ أوِ الكَوارِثِ الطَّبيعيّةِ، بلْ كانَ يَرْسُمُ، بِرَمزيّةٍ بَدائيّةٍ، ما يَشعُرُ بِهِ في أعماقِ كِيانِهِ الهَشِّ، ما يَخشى زَوالَهُ كَحَياتِهِ ذاتِها، وما يُريدُ أنْ يُخَلِّدَهُ في ذاكِرةِ العالَمِ كَدَليلٍ بائِسٍ على أنَّهُ كانَ هُنا، يَومًا ما، يُعاني ويُقاوِمُ ويَحلُمُ في وَجهِ العَدَمِ. وحينَ كَتَبَ الشُّعَراءُ العِظامُ مَلاحِمَهُمْ الخالِدةَ، منْ بُطولاتِ هوميروسَ المُلَطَّخةِ بِالدِّماءِ إلى تَراجيديّاتِ شِكسبيرَ المُفعَمةِ بِالقَلَقِ والجُنونِ، لَمْ يَكونوا يَسرُدونَ مُجَرَّدَ أحداثٍ بُطوليّةٍ أو قِصَصٍ مُسلّيةٍ تُلهي السّامِعينَ عنْ هُمومِهِمْ. بلْ كانوا، في حَقيقةِ الأمرِ، يُحَوِّلونَ الأَلَمَ البَشريَّ المُتَجَذِّرَ إلى أُسطورةٍ خالِدةٍ، إلى شَيءٍ يَسمو، ولَوْ في الخَيالِ، على الوُجودِ الزّائِلِ والعَبَثيِّ، كَما حاوَلَ المُتَصَوِّفةُ أنْ يَسموا على العالَمِ المادّيِّ بِالتَّأمُّلِ. كَأنَّ كُلَّ بَيتٍ شِعريٍّ مُشحونٍ بِالأَلَمِ، وكُلَّ مَقطوعةٍ مُوسيقيّةٍ مُثقَلةٍ بِالحُزنِ، هيَ مُحاوَلةٌ يائِسةٌ لِتَثبيتِ لَحْظةٍ هارِبةٍ منَ العَذابِ في صَميمِ الزَّمنِ، لِجَعلِها أبديّةً، ولَوْ كانَ ذلكَ في عالَمِ الخَيالِ الهَشِّ. لكِنْ، حتّى هذا الجَمالُ

الحَزينُ، هذا الإبداعُ النّابِعُ منَ الجُرحِ، لمْ يَكُنْ كافيًا لإخمادِ نارِ الإدراكِ المُستَعِرةِ، لإطفاءِ حَرائِقِ الوَعي التي لا تَهدأُ. فَكُلُّ لَوحةٍ تُرسَمُ بِأَلَمٍ، وكُلُّ نَغمةٍ تُعزَفُ بِحُرقةٍ، تُعيدُ الإنسانَ بِقَسوةٍ إلى وَعيِهِ بِما يُحاوِلُ أنْ يُشَكِّلَهُ ويُجَمِّلَهُ، تُذَكِّرُهُ بِتِلكَ الحَقيقةِ البُنيويّةِ، الصُّلْبَةِ كَالجِدارِ، التي لا تُفارِقُهُ ولا تَرحَمُهُ: حَقيقةُ أنَّ المُعاناةَ ليستْ مُجَرَّدَ مادّةٍ خامٍ لِلفَنِّ، بلْ هيَ أَصْلُ الفَنِّ ذاتُهُ، يَنبوعُهُ الأَوَّلُ، ووَقودُهُ الذي لا يَنضُبُ، كَما كانتْ أَصْلَ الوَعي مِنْ قَبْلُ ومَحْضَنَهُ الأَوّلَ. إنَّ الفَنَّ، في أعمَقِ تَجَلّياتِهِ وأكثَرِها صِدقًا، لمْ يَكُنْ سِوى مِرآةٍ أُخرى، رُبّما أكثَرَ صَقلاً وتَزيينًا، لِلفَراغِ المُطْبِقِ الذي نَحيا فيهِ. مِرآةٌ تُظهِرُ لِلإنسانِ جَمالَ مُعاناتِهِ وأناقةَ حُزنِهِ، لكِنّها لا تَستطيعُ أنْ تُخفيَ قُبْحَها الأَبَديَّ أو تَنتَزِعَ شَوكَتَها منْ قَلبِهِ. تَمْنَحُهُ أَمَلاً وَهميًّا بِأنْ يُخَلِّدَ أَلَمَهُ في عَمَلٍ خالِدٍ، لكِنّها لا تُنقِذُهُ مِنهُ في حَياتِهِ الزّائِلةِ. كَأنَّ كُلَّ عَمَلٍ فَنِّيٍّ عَظيمٍ ليسَ سِوى صَرخةٍ مُتَفَرِّدَةٍ، مُؤَثِّرةٍ، تَتَرَدَّدُ في فَراغِ الكَونِ اللّامُبالي، صَرخةٌ تُسمَعُ بِوُضوحٍ وتُحَرِّكُ المَشاعِرَ، لكِنّها لا تُغَيِّرُ شَيئًا في مَجرى النَّهرِ، لا تُعيدُ المَوتى، ولا تَملأُ الفَراغَ. صَرخةٌ تُعَبِّرُ عنِ الإنسانِ في عُمْقِ مَأساتِهِ، دونَ أنْ تُحَرِّرَهُ منْ مَأزَقِهِ الوُجوديِّ المُستَحكِمِ. تارِكةً إيّاهُ يُواصِلُ مَسيرَتَهُ الوَحيدةَ في صَحراءِ وُجودِهِ التي لا تَنتَهي، يَحمِلُ أدواتِهِ الفَنّيّةَ الثَّمينةَ كَما حَمَلَ مِنْ قَبْلُ صَليبَ شُكوكِهِ وقَلَقِهِ، يَحتَرِقُ بِها ويُضيءُ بِها في آنٍ، دونَ أنْ يَجِدَ مَخرَجًا حَقيقيًّا منْ تِلكَ النّارِ الدّاخليّةِ التي تُشَكِّلُ كِيانَهُ مُنذُ أنْ بَدأَ يُدرِكُ ويَتَأَلَّمُ

وهكَذا، صَارَ الفَنُّ، بَعدَ فَشَلِ الدِّينِ في تَقديمِ الخَلاصِ المُطلَقِ وفَشَلِ الفَلسفةِ في تَقديمِ الفَهمِ الشّامِلِ، المَلجأَ الأخيرَ، المُتَنَفَّسَ الأنيقَ، لِلعقلِ البَشريِّ العاجِزِ عنِ الفِكاكِ منْ عِبئِهِ الوُجوديِّ الثَّقيلِ، كَما كانَ مَلجأً لِلإنسانِ الأَوَّلِ حينَ عَجَزَ عنْ إخمادِ نيرانِ إدراكِهِ المُخيفةِ. صَارَ نَوعًا منَ التَّرويضِ الذّاتيِّ لِلوَعي المُتَوَحِّشِ، الذي رأيناهُ يَحتَرِقُ في تَمَرُّدِهِ الصّامِتِ العَقيمِ، حَيثُ يُحَوِّلُ الأَلَمَ الخامَ، البَدائيَّ، المُدَمِّرَ، إلى تَجرِبةٍ جَماليّةٍ مُعقَّدةٍ، يُمكِنُ احتِمالُها، بلْ وربّما، في لَحَظاتٍ منَ الإيثارِ المَرَضيِّ أوِ التَّسامي المُتَكَلِّفِ، يُمكِنُ تَقديرُها والإعجابُ بِها، كَما اقتَرَحَ نيتشهُ في دَعوَتِهِ المُتَطَرِّفةِ لِعِناقِ المُعاناةِ لا الهُروبِ مِنْها.
فالإنسانُ، حينَ يَعجِزُ بِشَكلٍ نِهائيٍّ عنِ الهُروبِ منْ مُعاناتِهِ المُتَجذِّرةِ، كَما عَجَزَ في مُواجَهةِ فَراغِ العَقلانيّةِ البارِدِ، يُحاوِلُ بِجُهدٍ إبداعيٍّ يَائِسٍ أنْ يَمنَحَها بُعدًا جَديدًا، لَونًا آخَرَ، قِناعًا جَميلاً يُخفي قُبحَها الأصليَّ. كَأنَّهُ يَقولُ في صَمتِ إبداعِهِ: 'إذا كُنتُ لا أستطيعُ التَّخَلُّصَ منْ هذا العِبءِ المَلعونِ، فَلأَجْعَلْهُ على الأقَلِّ جَديرًا بِالتَّأَمُّلِ، لَوحةً تُعَلَّقُ، قَصيدةً تُغَنّى، سُيمفونيّةً تُعزَفُ، شَيئًا يُمكِنُ أنْ أنظُرَ إليهِ دونَ أنْ

يُمزّقَني إرْبًا إرْبًا". لكِنَّ المُعضِلةَ الكُبرى، تِلكَ التي ظَلَّتْ تُلازِمُ الوَعي كَظِلٍّ لا يُفارِقُهُ، كَلَعنةٍ تَحِلُّ على كُلِّ حَلٍّ، تَكمُنُ في أنَّ هذا الحَلَّ الجَماليَّ لَمْ يَكُنْ نِهائيًّا أبَدًا، كَما لَمْ تَكُنِ الفَلسفةُ أوِ الدِّينُ نِهائيَّيْنِ مِنْ قَبلُ. فالفَنُّ، رُغمَ قُدرَتِهِ الفائِقةِ، السِّحريّةِ أحيانًا، على تَحويلِ الألَمِ إلى صُورةٍ أكثَرَ احتِمالاً، إلى مَشهَدٍ يُمكِنُ تَحَمُّلُهُ، لَمْ يَستَطِعْ أنْ يُلغيَ المُعاناةَ ذاتَها، أنْ يَقتَلِعَ جُذورَها العَميقةَ. بلْ كانَ، في كَثيرٍ منَ الأحيانِ، تَأكيدًا صارِخًا لَها، إعلانًا صَريحًا عنْ عُمقِها وسَيطَرَتِها، كَأنَّهُ يُعيدُ إنتاجَها في شَكلٍ أكثَرَ وُضوحًا، أكثَرَ حِدّةً، أكثَرَ إيلامًا. فَمَنْ يَتأمَّلُ بِصِدقٍ لَوحاتِ فان جوخَ المُضطَرِبةَ، بِألوانِها الصّارِخةِ التي تَكادُ تَصرُخُ بِجُنونِ صاحِبِها، أوْ يَقْرَأُ رِواياتِ كافكا الخانِقةَ بِقَلَقِها الذي لا يَنتَهي، أوْ يَسمَعُ سِيمفونيّاتِ بيتهوفنَ العاصِفةَ بِتَوَتُّرِها الذي يَكادُ يُفَجِّرُ الصُّدورَ، لنْ يَجِدَ في كُلِّ هذا الجَمالِ المُعَذَّبِ عَزاءً كامِلاً يُطفِئُ نارَهُ الدّاخليّةَ، أو سَكينَةً تُريحُ رُوحَهُ القَلِقةَ. بلْ سَيَجِدُ، على الأغْلَبِ، أنَّ الجَمالَ هُنا ليسَ في تَجاوُزِ الألَمِ واقتِلاعِهِ كَما وَعَدَتِ الأديانُ بِفِردَوْسِها المُتَخَيَّلِ، بلْ في تَعميقِهِ، في جَعلِهِ أكثَرَ حُضورًا، أكثَرَ حَياةً، أكثَرَ وَخْزًا. كَأنَّ الفَنَّ ليسَ مَلاذًا منَ المَأساةِ، بلْ هوَ المِرآةُ الأكثَرُ صِدقًا لَها، المِرآةُ التي تُظهِرُ الوُجودَ بِكُلِّ قَسوَتِهِ وعَبَثِهِ، لكِنّها، في ذاتِ الوَقتِ، تَجعلُهُ قابِلاً لِلإدراكِ، قابِلاً لِلصّياغةِ، بَدلاً منْ أنْ يَبقى فَوضى صامِتةً، عَمياءَ، تَنهَشُ الإنسانَ منَ الدّاخِلِ كَوحشٍ خَفيٍّ، كَما فَعَلَ الفَراغُ المُطْبِقُ في الحَداثةِ التي جَرَّدَتِ الكَونَ منْ كُلِّ عَزاءٍ.

وهكَذا، كَما فَشِلَتِ الفَلسفةُ في إيجادِ مَنطِقٍ يُرَوِّضُ العَبَثَ، وكَما عَجَزَ الدِّينُ عنْ تَقديمِ يَقينٍ يُخمِدُ نارَ الشَّكِّ، وكَما لَمْ يَستَطِعِ الفَنُّ سِوى أنْ يُجَمِّلَ الجُرحَ دونَ أنْ يُشفيَهُ، فَإنَّ المُعاناةَ ظَلَّتْ تَحْكُمُ الوَعيَ البَشريَّ كَقَدَرٍ لا مَفَرَّ مِنهُ، مُثبِتةً أنّ كُلَّ مُحاوَلاتِ الهُروبِ الكُبرى لَمْ تَكُنْ إلا مُناوَراتٍ يائِسةً في مَتاهةٍ لا نِهايةَ لَها. والسُّؤالُ الذي طارَدَ الإنسانَ مُنذُ وَعيِهِ الأوَّلِ – هلْ هُناكَ خَلاصٌ حَقيقيٌّ منْ هذا العَذابِ؟ – ظَلَّ مُعلَّقًا في فَضاءِ الوُجودِ الصّامِتِ، سُؤالاً يَنزِفُ قَلَقًا دونَ أنْ يَجِدَ إجابةً تُوقِفُ نَزيفَهُ. ثُمَّ جاءَتِ الحَداثَةُ، بِبَريقِها الخادِعِ وضَجيجِها الأصَمِّ، لا لِتُقَدِّمَ حَلاًّ جَديدًا، بلْ لِتُقَدِّمَ خُدعةً أكثَرَ دَهاءً، إلهاءً أكثَرَ فَعاليّةً. فَمَعَ تَسارُعِ إيقاعِ الحَياةِ، ودُخولِ الإنسانِ في دَوّامةِ الاستِهلاكِ الجُنونيِّ والبَحثِ المُستَمِرِّ عنِ الجَديدِ، لَمْ يَعُدْ الإنسانُ المُعاصِرُ بِحاجةٍ، أو رُبّما لَمْ يَعُدْ يَملِكُ الوَقتَ أوَ القُدرةَ، لِلغَوْصِ في فَلسفةٍ عَميقةٍ تُحاوِلُ تَجاوُزَ مُعاناتِهِ كَما فَعَلَ الفَلاسِفةُ الأوائِلُ في صَبرِهِمْ وتَأمُّلِهِمْ، بلْ صارَ بِإمكانِهِ، بِسُهولةٍ ويُسرٍ، أنْ "يُلهيَ نَفسَهُ" عَنْها، أنْ يَهرُبَ مِنْها لا إلى عُمْقِ الفِكرِ، بلْ إلى سَطْحِ التَّفاهةِ،

كَما أَلْهاهُ الاستِهلاكُ مِنْ قَبْلُ بِوُعودِ السَّعادةِ المادّيّةِ. لَقَدْ تَطَوَّرَ الاقتِصادُ بِشَكلٍ مُذهِلٍ، ظَهَرَتْ وَسائِلُ التَّرفيهِ بِأشكالِها التي لا حَصرَ لَها كَفُقّاعاتِ صابونٍ تَلمَعُ ثُمَّ تَنفَجِرُ، صَارَتِ الحَياةُ أَسْرَعَ، أكثَرَ ازدِحامًا، أكثَرَ صَخَبًا، كَأنّها سِباقٌ مَحمومٌ، ليسَ نَحوَ هَدَفٍ، بلْ لِلهُروبِ منْ لَحْظَةِ التَّأمُّلِ الهادِئِ، لِتَجنُّبِ تِلكَ الوَقْفَةِ الخَطِرَةِ أمامَ مِرآةِ الذّاتِ، لِلهُروبِ منْ مُواجَهةِ المَأساةِ الأصليّةِ التي رأيناها تُولَدُ مَعَ الوَعي وتُلازِمُهُ كَلَعنةٍ. وفي هذا الجوِّ المُشحونِ بِالتَّشَتُّتِ المُتَعَمَّدِ، تَحوَّلَتِ المُعاناةُ الوُجوديّةُ العَميقةُ إلى مُجرَّدِ قَلَقٍ مَكبوتٍ، ضَبابٍ نَفسيٍّ خانِقٍ، شُعورٍ دائِمٍ غامِضٍ بِالفَراغِ واللّاجَدوى، يُحاوِلُ الإنسانُ أنْ يَملأَهُ مُؤقّتًا بِأيِّ شَكلٍ منْ أشكالِ التَّشَتُّتِ المُتاحَةِ: بِالسَّفَرِ الذي يُنسيهِ ذاتَهُ لِلَحَظاتٍ قَليلةٍ، بِالمُوسيقى الصّاخِبةِ التي تُغَطّي صَوتَ الأسئلةِ الدّاخليّةِ المُؤرِقةِ، بِمُسكِّناتٍ لا تَدومُ طَويلاً كَالتَّرفيهِ العابِرِ أوِ الإنجازاتِ السَّطحيّةِ التي لا تُشبِعُ جُوعَ الرّوحِ. لكِنْ كُلَّ هذهِ المُحاوَلاتِ المُتكاثِرةِ لِلهُروبِ، كَما كانتْ مُحاوَلاتُ الفَنِّ مُجرَّدَ تَشكيلٍ لا حَلاًّ جَذريًّا، ما هيَ إلا تَأجيلٌ مُستَمِرٌّ، لِعبةُ إخفاءٍ فاشِلةٌ، لِلَحظةِ المُواجهةِ الحَتْميّةِ، اللّحظةِ التي يَتَوقَّفُ فيها الضَّجيجُ فَجأةً، ويَهدأُ الصَّخَبُ، ويُدرِكُ الإنسانُ بِصَدْمَةٍ، وَسطَ كُلِّ هذا الزَّحامِ المُصطَنَعِ، أنّهُ ما زالَ وَحيدًا، تمامًا كَما كانَ في صَحراءِ وُجودِهِ الأُولى، وأنَّ الأسئلةَ الكُبرى التي حاوَلَ أنْ يَدفِنَها تَحتَ رُكامِ الإلهاءِ لَمْ تُحَلَّ أبَدًا، بلْ فَقَطْ تَمَّ الهُروبُ مِنْها بِسُرعةٍ أعْلى وصَخَبٍ أكبَرَ. كَأنَّ الحَداثَةَ، بِكُلِّ بَريقِها وتَقَدُّمِها، لَمْ تُغَيِّرْ جوهَرَ المُعاناةِ البَشريّةِ قَيْدَ أُنْمُلَةٍ، بلْ غَيَّرَتْ شَكلَها فَقَطْ، جَعلَتْها أكثَرَ تَخَفّيًا، وأكثَرَ خُبثًا.

لكِنَّ الحَداثَةَ، في مَكْرِها الخَفيِّ وسَطوَتِها الشّامِلةِ، لَمْ تَكتَفِ بِتَوفيرِ وَسائِلَ جَديدةٍ لِلإلهاءِ والهَرَبِ كَما فَعَلَ الاستِهلاكُ بِإغراءاتِهِ، بلْ أعادَتْ تَشكيلَ بُنيةِ الوَعي البَشريِّ نَفسِها، أعادَتْ بَرمَجَتَهُ بِشَكلٍ جَذريٍّ، بِحَيثُ لَمْ يَعُدْ يَبحَثُ، في الغالِبِ، عنِ "الحَقيقةِ" المُجَرَّدَةِ والمُؤلِمةِ كَما فَعَلَ سُقراطُ في تَساؤُلِهِ أوِ البوذيّونَ في زُهدِهِمْ، بلْ أصْبَحَ يَلهَثُ وراءَ "الشُّعورِ المُؤقَّتِ بِالرِّضا"، تِلكَ اللّذّةُ السَّطحيّةُ، النّشوةُ العابِرةُ، التي تُخَفِّفُ وَطأةَ القَلَقِ الوُجوديِّ لِلَحظاتٍ دونَ أنْ تُواجِهَهُ أو تُعالِجَ جُذورَهُ العَميقةَ. في الأزْمِنةِ القَديمةِ، كانتِ المُعاناةُ واضِحةً كَالشَّمسِ في رائِعةِ النَّهارِ، تَحدّيًا مُباشِرًا يُواجِهُهُ الإنسانُ بِشَجاعةٍ أو بِيأسٍ، سَواءٌ تَجَلّى ذلكَ في صُورةِ خَوفٍ مُتأصِّلٍ منْ إلهٍ قاسٍ يُعاقِبُ بِقَسوَةٍ كَما في الأديانِ الأُولى، أو في صُورةِ تَأمُّلٍ فَلسفيٍّ مُرٍّ في العَدَمِ المُطْبِقِ كَما فَعَلَ الفَلاسِفةُ الوُجوديّونَ، أو حتّى في صُورةِ كِفاحٍ وُجوديٍّ ضارٍ منْ أجلِ البَقاءِ في وَجهِ طَبيعَةٍ لا تَرحَمُ كَما في الكُهوفِ المُظلِمةِ. أمّا اليَومَ، في عَصْرِ الحَداثةِ

السّائِلَةِ والمُشَتّتَةِ، فقدْ تمَّ استبدالُ هذهِ المُعاناةِ الواضِحَةِ بنوعٍ جَديدٍ، أكثرَ خفاءً ودَهاءً، منَ الألَمِ: ألَمُ "اللاّجدوى الصّامتِ" الذي يُلازمُ الإنسانَ المُعاصرَ كَشَبَحٍ لا يُرى ولا يُلمَسُ، القَلَقُ غيرُ المُحَدَّدِ، المُبهَمُ، الذي يُطارِدُهُ في كُلِّ لَحْظَةِ هُدوءٍ دونَ أنْ يَستطيعَ أنْ يُسَمّيَهُ أو يُشَخّصَهُ بِدِقّةٍ، الإحساسُ المُراوِغُ، المُقْلِقُ، بأنَّ هُناكَ شَيئًا جَوهَريًّا، أساسيًّا، ناقِصًا في كُلِّ هذا الزَّخَمِ المُتَسارِعِ، في كُلِّ هذا الصَّخَبِ الذي لا يَهدأُ، لكنّهُ لا يَعرِفُ بالضَّبطِ ما هوَ. كأنَّ الحَداثَةَ، بأضوائِها الباهِرةِ وضَجيجِها المُستَمِرِّ، قدْ حَوَّلَتِ المُعاناةَ منْ نارٍ واضِحةٍ تَحرِقُ بِقُوّةٍ وتَدفَعُ لِلمُواجَهةِ، إلى ضَبابٍ خانِقٍ، سَميكٍ، يَخْنُقُ الرُّوحَ بِهُدوءٍ وبُطءٍ، يُبقي الإنسانَ حَيًّا على قَيدِ الحَياةِ البَيولوجيّةِ، لكنّهُ لا يُعطيهِ أيَّ سَبَبٍ حَقيقيٍّ لِهذهِ الحَياةِ، يُشْغِلُهُ بالتَّفاهاتِ دونَ أنْ يُشبِعَ جُوعَهُ لِلمَعنى، يُلهيهِ بالألعابِ دونَ أنْ يُنقِذَهُ منْ مَأزِقِهِ الوُجوديِّ. إنَّ هذا التَّحَوُّلَ الخَبيثَ لمْ يُنهِ المَأساةَ الأصليّةَ التي بَدأتْ مَعَ الوَعيِ، بلْ جَعَلَها أكثَرَ خَفاءً، أكثَرَ دَهاءً، أكثَرَ صُعوبةً في التَّشخيصِ والمُواجَهةِ. كأنَّ الإنسانَ لمْ يَعُدْ يُواجِهُ مُعاناتَهُ وَجهًا لِوَجهٍ، بِصِدقٍ وشَجاعةٍ، كَما فَعَلَ أسلافُهُ في الماضي، بلْ صارَ يَعيشُها في صَمتٍ مَكبوتٍ، يُحاوِلُ أنْ يُغَطّيَها بأكوامٍ منَ الضَّجيجِ والسُّرعةِ واللَّهْوِ، لكنّهُ يَعرِفُ في أعماقِهِ، في لَحَظاتِ الهُدوءِ النّادِرةِ، أنّها ما زالَتْ هُناكَ، تَختَبِئُ تَحتَ السَّطحِ، تَنتَظِرُهُ في لَحْظَةِ ضَعفٍ أو فَراغٍ، حَيثُ يَتَوَقَّفُ الإلهاءُ وتَعودُ الأسئِلةُ الكُبرى لِتُطارِدَهُ بِلا رَحمَةٍ كَما طارَدَتْهُ مُنذُ البِدايةِ، تُذَكّرُهُ بأنَّ كُلَّ ما فَعَلَهُ في حَياتِهِ المُشَتَّتَةِ – منَ الفَنِّ الرّاقي إلى الحَداثةِ الصّاخِبةِ – لمْ يَكُنْ سِوى قِناعٍ جَديدٍ لِنَفسِ الوَجهِ القَديمِ الذي لا يَتَغَيَّرُ: وَجهُ المُعاناةِ الأبديّةِ التي لا تُفارِقُ الوَعيَ مَهما حاوَلَ أنْ يُجَمِّلَها أو يَهرُبَ مِنها.

ولَقَدْ أصْبَحَ الإنسانُ الحَديثُ، في هُروبِهِ المُستمِرِّ منْ مُواجَهةِ عَذابِ وَعيِهِ، لا يَبحَثُ عنْ حُلولٍ كُبرى أو مَعانٍ شامِلةٍ كَما حاوَلَ أسلافُهُ عَبْرَ مَلاحِمِ الدّينِ أوْ صُروحِ الفَلسفةِ، بلْ يُمارِسُ الهُروبَ عَبرَ إدماناتٍ صَغيرةٍ، تافِهةٍ، لكنّها فَعّالةٌ في تَخديرِ الألَمِ المُؤقَّتِ، تُشبِهُ جُرعاتٍ مُتكَرّرةً منْ مُسكّناتٍ رَخيصةٍ لا تُشفي الدّاءَ بَلْ تُخفي أعراضَهُ فَقَط: تَصفُّحٌ لا نِهائيٌّ، مَرَضيٌّ، لِشاشاتِ الهَواتِفِ والحَواسيبِ يُغرِقُ العقلَ في بَحرٍ لُجّيٍّ منَ التَّفاهةِ والبَلاهةِ المُصَوَّرةِ، يَسرِقُ منهُ وَقتَهُ وقُدرَتَهُ على التَّركيزِ والتَّأمُّلِ. ساعاتٌ طَويلةٌ تُقضى ضائعةً بينَ فيديوهاتٍ سَطحيّةٍ، مُبتَذَلةٍ، تُلهيهِ لِلَحَظاتٍ عنْ سَماعِ ذلكَ الصَّوتِ الدّاخليِّ الخافِتِ والمُقلِقِ الذي يُطارِدُهُ كَشَبَحٍ في كُلِّ زاويةٍ صامِتةٍ. مُشتَرَياتٌ لا حاجةَ حَقيقيّةً لَهُ بِها، يُكدّسُها في بَيتِهِ كأنّها تَعويذاتٌ سِحريّةٌ، تُعطيهِ وَهْمًا كاذِبًا بالسَّيطَرةِ على عالَمٍ يَفْلِتُ منْ بينِ أصابِعِهِ. خِطَطُ سَفَرٍ

جَديدةً تُرسَمُ بِحُمّى، ليسَ لِاستِكشافِ العالَمِ أوِ الذّاتِ، بلْ لِمُجَرَّدِ الشُّعورِ بِالتَّغييرِ الذي يَتَلاشى بِسُرعةِ البَرقِ بِمُجرَّدِ العَوْدَةِ إلى الرّوتينِ القاتِلِ. عَلاقاتٌ عاطِفيّةٌ عابِرةٌ، سَطحيّةٌ، تَخفي هَشاشَتَها المُتَأَصِّلةَ خَلفَ وُعودٍ زائِفةٍ بِالحُبِّ الأبديِّ أوِ السَّعادةِ الدّائِمةِ، وُعودٌ تَذوبُ كَالثَّلجِ تَحتَ شَمسِ الواقِعِ القاسي مَعَ أوّلِ اختِبارٍ حَقيقيٍّ لِلصَّبرِ أوِ التَّضْحيةِ. لمْ يَعُدْ يُواجِهُ مُعاناتَهُ بِصَراحَةِ الفَنّانِ الذي يُشَكِّلُ أَلَمَهُ، بلْ أَصْبَحَ يُذيبُها، يُخْفيها، في ضَجيجِ العالَمِ المُصطَنَعِ الذي صُنِعَ خِصّيصًا في الحَداثةِ لِهذا الغَرَضِ، لِتَخديرِ الوَعي وتَرويضِ القَلَقِ. كَأَنّما، وبِشَكلٍ لا واعٍ، كُلّما زادَ الضَّجيجُ الخارِجيُّ والصَّخَبُ المُحيطُ، كُلّما قَلَّ احتِمالُ سَماعِ ذلكَ الصَّوتِ الدّاخِليِّ المُرعِبِ الذي يُطارِدُهُ كَشَبَحٍ في الظَّلامِ: صَوتُ 'إلى أيْنَ؟ ولِماذا؟'. ذلكَ الصَّوتُ الذي كانَ يَتَرَدَّدُ في وَعيِهِ مُنذُ لَحْظَةِ الانفِصالِ الأُولى، لكِنّهُ الآنَ يُغطّى بِطَبَقاتٍ سَميكةٍ منَ الإلهاءِ والتَّشَتُّتِ والانغِماسِ في السَّطْحِ. كَأَنَّ الإنسانَ المُعاصِرَ يُحاوِلُ بِكُلِّ قُواهُ أَنْ يَخدَعَ نَفسَهُ، أَنْ يُقنِعَها بِأَنَّ الفَراغَ الوُجوديَّ ليسَ مَوجودًا طالَما بَقِيَ مَشغولاً، طالَما ظلَّ يَركُضُ في عَجَلَةِ الهامستَرِ الخاصّةِ بِهِ. لكِنَّ هذا الإلهاءَ المُمَنهَجَ، كَما كانَ الفَنُّ مُجَرَّدَ تَرويضٍ لا حَلاًّ، لا يُزيلُ المُعاناةَ أو يَقتَلِعُ جُذورَها، بلْ فَقَطْ يُؤَجِّلُها، يُخْفيها تَحتَ قِشرةٍ رَقيقةٍ، زُجاجيّةٍ، تَتَشَقَّقُ وتَنهارُ مَعَ أوّلِ لَحْظَةٍ هادِئةٍ، مَعَ أوّلِ نَظْرةٍ صادِقةٍ في المِرآةِ

ويُمكِنُنا القَوْلُ، بِقَدرٍ كَبيرٍ منَ اليَقينِ المُرِّ، أَنَّ المُعاناةَ، بِكُلِّ أشكالِها المُتَلَوِّنةِ وأقنِعَتِها المُتَعدِّدةِ، هيَ جُزءٌ أصيلٌ، بُنيويٌّ، منَ التَّجرِبةِ البَشريّةِ المُمَزَّقةِ، مُتَجذِّرةٌ في طَبيعَةِ الوَعي ذاتِهِ كَما رأيناها تُولَدُ مَعَ إدراكِ الانفِصالِ المَأساويِّ عنِ العالَمِ. ليستْ مُجَرَّدَ حالةٍ عابِرةٍ يُمكِنُ تَجاوُزُها بِقُوّةِ الإرادةِ أو بِفِعلِ النِّسيانِ، بلْ هيَ الشَّرطُ الدّائِمُ الذي يُشَكِّلُ الإنسانَ مُنذُ أَنْ بَدأَ يُفَكِّرُ ويَحلُمُ ويَخافُ. هُناكَ أشياءُ جَوْهَريّةٌ في بُنيةِ الوُجودِ الإنسانيِّ تُجبِرُهُ، قَسرًا، على العَيشِ في حالةٍ دائِمةٍ، مُزمِنةٍ، منَ الأَلَمِ، سَواءٌ كانَ هذا الأَلَمُ واضِحًا، حادًّا كَنَصلِ السِّكّينِ، أو خَفيًّا، لَزِجًا، كَسُمٍّ بَطيءِ المَفعولِ يَتَسَلَّلُ بِبُطءٍ إلى وُجودِهِ، يُسَمِّمُ كُلَّ لَحْظَةِ فَرحٍ دونَ أَنْ يُلاحِظَ مَصدَرَهُ الحَقيقيَّ. وَعيُهُ بِالمَوتِ، على سَبيلِ المِثالِ، هذهِ الحَقيقةُ التي لا تَرحَمُ، هوَ أَحَدُ أَعْمَقِ هذهِ الجُروحِ الوُجوديّةِ وأكثَرِها نَزيفًا. فَمُنذُ اللّحظةِ الأُولى التي يُدرِكُ فيها، بِصَدمةٍ باردةٍ، أَنّهُ كائِنٌ فانٍ، أَنَّ حَياتَهُ مُجَرَّدُ وَمضةٍ خاطِفةٍ في لَيلِ الأَبَديّةِ، يُصبِحُ وُجودُهُ كُلُّهُ مَسكونًا بِهذا الإدراكِ القاتِلِ، مُطارَدًا بِهاجِسِ النِّهايةِ الحَتْميّةِ الذي يُلازِمُهُ كَظِلٍّ ثَقيلٍ لا يُفارِقُهُ ولا يَمنَحُهُ راحَةً. هذا الهاجِسُ يُحَوِّلُ كُلَّ لَحْظَةِ فَرحٍ يَعيشُها إلى مُجَرَّدِ لَحْظَةٍ مُؤَقَّتةٍ، هَشّةٍ، تُنتَظَرُ نِهايَتُها بِقَلَقٍ

مُستتِرٍ، وكَأنَّ السَّعادةَ نَفسَها تُصبِحُ نَذيرَ شُؤمٍ. لا شَيءَ على الإطلاقِ يَقِفُ بِوَجهِ المَوتِ، هذا الغولِ الأعمى الذي يَلتَهِمُ كُلَّ شَيءٍ: لا عِلمٌ يُطيلُ العُمرَ إلى ما لا نِهايةَ، ولا فَلسفةٌ تُبَرِّرُ الفَناءَ وتُعطيهِ مَعنًى، ولا ثَروةٌ طائِلَةٌ تَشتري الخُلودَ أو تُؤجِّلُ المَصيرَ، ولا حُبٌّ عارِمٌ يَستطيعُ أنْ يُوقِفَ عَجَلَةَ الزَّمنِ المُتوَحِّشَةَ. وكُلُّ مُحاوَلةٍ يائِسةٍ لِلهُروبِ مِنهُ – سَواءٌ كانَتْ بِالإنكارِ المُتَعَمَّدِ كَما فَعَلَ المُستهلِكونَ في غَفلَتِهِمْ، أو بِالتَّشَبُّثِ المَرَضِيِّ بِالحَياةِ كَما فَعَلَ الفَنّانونَ في إبداعِهِمُ المُعَذَّبِ – لا تُغَيِّرُ شَيئًا مِنْ حَتميَّتِهِ القاسيةِ، بلْ، ويا لَسُخريَّةِ الوُجودِ، تُضاعِفُ ثِقَلَهُ في العقلِ وتَجعَلُهُ أكثَرَ حُضورًا وإيلامًا. هذهِ المَعرِفةُ المُطْلَقَةُ بِالفَناءِ تُثقِلُ الرُّوحَ، تَجعَلُها مَسكونةً بِقَلَقٍ لا يَهدأُ، تَدْفَعُ الإنسانَ بِعُنفٍ إلى البَحثِ عنْ مَعنًى، أيِّ مَعنًى، في عالَمٍ صامِتٍ لا مَعقولٍ. لكِنَّ الكَونَ، كَما رأينا في صَمتِهِ الجَليديِّ، لا يُجيبُ، لا يَكتَرِثُ. وهذا الصَّمتُ المُطْلَقُ، هذا الفَراغُ المُتَعاظِمُ الذي رأيناهُ يُعَمِّقُ أزمةَ الحَداثةِ، هوَ ما يُحوِّلُ السُّؤالَ نَفسَهُ إلى نَوعٍ منَ العَذابِ الذّاتيِّ، إلى طَعنةٍ يَغرِزُها العقلُ في قَلبِهِ، تُجَدِّدُ الجُرحَ وتُوَسِّعُهُ بَدلاً منْ أنْ تُداويَهُ أو تُغلِقَهُ.

والإنسانُ، في جَوهَرِهِ المُتَناقِضِ، كائِنٌ يَسألُ بِطَبيعَتِهِ، لا يَكتَفي بِالكَونِ كَما هوَ، بلْ يُريدُ فَهمَهُ، تَفكيكَهُ، كَما كانَ يَتَمَرَّدُ بِطَبيعَتِهِ على القُيودِ، لكِنَّ الكَونَ الأصَمَّ لا يَملِكُ أجوبةً شافيةً لِعَطَشِهِ المَرَضِيِّ لِلمَعنى، فَتَظَلُّ أسئِلَتُهُ الوُجوديّةُ الكُبرى مُعلَّقةً في فَراغِ اللّامُبالاةِ الكَونيّةِ: 'لِماذا نحنُ هُنا، في هذا التّيهِ العَظيمِ؟ هلْ هُناكَ هَدَفٌ خَفيٌّ لِكُلِّ هذا الشَّقاءِ الذي نُعانيهِ؟ أمْ أنَّنا مُجَرَّدُ تَفاعُلٍ عشوائيٍّ، ذَرّاتٍ تائِهةٍ، في كَونٍ لا يَهتَمُّ بِمَصيرِنا ولا يَسمَعُ صُراخَنا؟'. الأديانُ، في مَكرِها المُتَوارَثِ، حاوَلَتْ أنْ تُجيبَ بِوُعودِ الخَلاصِ في عَوالِمَ غَيبيّةٍ لا نَعرِفُ عَنْها شَيئًا. والفَلسفاتُ، في جُهدِها المُضني، حاوَلَتْ أنْ تُفَسِّرَ بِأدواتِ المَنطِقِ البارِدِ الذي لا يُدفِئُ قَلبًا. والفُنونُ، في يَأسِها الجَميلِ، حاوَلَتْ أنْ تُشَكِّلَ الألَمَ بِإبداعٍ يُخَفِّفُ منْ وَحشَتِهِ. لكِنْ لا إجابةً واحِدةً، مَهما بَدَتْ مُقنِعةً أو مُريحَةً، اسْتَطاعَتْ أنْ تَقضيَ تَمامًا على جُرثومةِ الشَّكِّ التي تَسكُنُ العقلَ الواعي، والشَّكُّ ذاتُهُ يُصبِحُ حِمْلاً جَديدًا، عِبئًا آخَرَ لا يُمكِنُ التَّخَلُّصُ مِنهُ، كَصَليبٍ ثَقيلٍ يَحمِلُهُ الإنسانُ في مَسيرَتِهِ المُتعَثِّرَةِ، يُثقِلُ خُطُواتِهِ مَعَ كُلِّ نَظرةٍ إلى السَّماءِ الصّامِتةِ، يُذَكِّرُهُ بِأنَّ وَعيَهُ هوَ مَصدَرُ سُؤالِهِ المُلِحِّ وعَذابِهِ المُلازِمِ في آنٍ واحِدٍ. هذا الشُّعورُ المُسْتَديمُ بِالعَجْزِ أمامَ الأسئلةِ الكُبرى، يَقتَضي بِالضَّرورةِ مُعاناةً حَتميّةً لا فِكاكَ مِنْها. فَهُناكَ شَيءٌ قاسٍ، مُدمِّرٌ لِلرّوحِ، في أنْ يكونَ الإنسانُ واعيًا بِكُلِّ ما يَجري حَولَهُ، لكِنّهُ عاجِزٌ كُلِّيًّا عنْ تَغييرِهِ، كَما رأيناهُ في تَمَرُّدِهِ الفاشِلِ الذي لَمْ يُحَطِّمْ سِوى ذاتِهِ. يَرى الظُّلْمَ يَسودُ، والحُروبَ تَشتَعِلُ، والفَقرَ يَنهَشُ الأجسادَ، والخَرابَ يَعُمُّ

الأرضَ. يُدرِكُ بِحِدّةٍ مَدى بَشاعَةِ العالَمِ وقَسوَتِه، كَما أدرَكَ مِنْ قَبْلُ عَبَثَهُ المُطلَقَ. لكِنّهُ لا يَملِكُ في النِّهايةِ سِوى دَوْرِ المُتَفَرِّجِ البائسِ، المُشاهِدِ المُقيَّدِ في مَقعَدِه، عَيناهُ تُشاهِدانِ بِألَمٍ، لكِنَّ يَدَيه تَظَلّانِ مُكَبَّلَتَيْنِ بِسَلاسِلِ العَجزِ. حتّى على مُستوى حَياتِهِ الشَّخصيّةِ الضَّيِّقةِ، قَدْ يَشعُرُ، في كَثيرٍ مِنَ الأحيانِ، أنّهُ سَجينُ ظُروفِهِ التي لَمْ يَختَرْها، كَما كانَ سَجينَ وَعيِهِ الذي فُرِضَ عليهِ، عَاجِزٌ عَنْ تَغييرِ ما يُحيطُ بِهِ مِنْ قُيودٍ وإحباطاتٍ، مُسيَّرٌ كَدُميةٍ لا مُخيِّرٌ يَصنَعُ قَدَرَهُ، في مَسرَحٍ كَبيرٍ للوُجودِ لا يَملِكُ فيهِ أيَّ إرادةٍ حَقيقيّةٍ. وهذا الشُّعورُ الدَّفينُ، المُستمِرُّ، بِالعَجْزِ والقَهْرِ، هوَ ما يُولِّدُ إحساسًا غائِرًا بِالظُّلْمِ الكَونيِّ، كَأنَّ الحَياةَ ساحَةُ لَعِبٍ لِقُوًى عَمياءَ، أكبَرَ مِنهُ بِكَثيرٍ، وهوَ مُجرَّدُ دُميةٍ صَغيرةٍ تَتحرَّكُ بِخُيوطٍ لا يَراها ولا يَتحكَّمُ فيها.

لكِنَّ العَجْزَ، هذا الوَحشَ الخَفيَّ الذي يَنخُرُ في عَظْمِ الوُجودِ البَشريِّ، لا يَكونُ دائمًا خارِجيًّا فَحَسْبُ، لا يَتَجلّى فَقطْ في الحُروبِ الدّاميةِ أوِ الظُّروفِ القاسيةِ أوِ القُوى التي تَفوقُنا، بلْ إنّهُ، بِخُبثٍ أشَدَّ، يَتَسَلَّلُ أيْضًا إلى داخِلِ الإنسانِ، إلى أغوارِ ذاتِهِ العَميقةِ المُظلِمةِ، كَما تَسَلَّلَ الفَراغُ إلى قَلبِ الحَداثةِ وأفرَغَها منْ مَعناها. حَيثُ يُصبِحُ الإنسانُ عَاجِزًا، لا عَنِ السَّيطَرةِ على العالَمِ فَقطْ، بلْ حتّى عنْ فَهمِ نَفسِهِ المُتَقلِّبةِ، أوِ السَّيطَرةِ على أفكارِهِ المُتَمرِّدةِ التي تُطارِدُهُ كَجَيشٍ منَ الأعداءِ الخَفيّينَ الذينَ لا يُهزَمونَ. إنَّ أقسى وأمَرَّ أشكالِ العَجْزِ هيَ تِلكَ التي تَتَجَذَّرُ في أعماقِ النَّفسِ، حينَ يَشعُرُ الإنسانُ بأنّهُ غَريبٌ عنْ ذاتِهِ التي يَسكُنُها، كَما كانَ غَريبًا بينَ عالَمَي الوَعيِ واللّاوَعي، مُنفَصِلاً عنْ جَوهَرِهِ الحَقيقيِّ، غَيرَ قادرٍ على تَجاوُزِ مَخاوِفِهِ المَرَضيّةِ التي تُلازِمُهُ كَظِلٍّ أسوَدَ لا يَنْجَلي، أو حتّى على تَحديدِ ما يُريدُهُ حَقًّا، ما تَصبو إليهِ رُوحُهُ، وَسطَ هذا الضَّجيجِ الصّاخِبِ لِرَغَباتِهِ المُتَضارِبةِ التي تَجذِبُهُ في اتِّجاهاتٍ مُختلِفةٍ كَأحصِنةٍ جامِحةٍ. فَيُصبِحُ عالِقًا، مَصلوبًا، في دَوّامةٍ لا نِهايةَ لَها منَ التّناقُضاتِ الدّاخليّةِ المُميتةِ، كَما كانَ عالِقًا بينَ نَقيضَي الوَعيِ والغَريزةِ مِنْ قَبْلُ. يُريدُ الحُرِّيّةَ بِكُلِّ شَغَفِه، لكِنّهُ يَخشى مَسؤوليّتَها الثَّقيلةَ كَما خافَ الفَراغَ الذي تَرَكَهُ تَمَرُّدُهُ. يَحلُمُ بِالتَّحَرُّرِ الكامِلِ منْ كُلِّ قُيودِهِ المَوروثةِ والمُكتَسَبةِ، لكِنّهُ لا يَستطيعُ تَحَمُّلَ ذلكَ الفَراغِ المُخيفِ، تِلكَ الوَحدةِ القاتِلةِ، التي قَدْ يَخلُفُها هذا التَّحَرُّرُ وَراءَهُ. كَأنَّ كُلَّ خُطوةٍ يَخْطوها ظاهِريًّا نَحوَ نَفسِهِ، لا تَفعَلُ شَيئًا سِوى أنْ تُبعِدَهُ عَنْها أكثَرَ، وكُلَّ مُحاوَلةٍ لِفَهمِ ذاتِهِ المُعَقَّدةِ لا تُؤدّي إلا إلى مُضاعَفةِ حَيرَتِهِ وشُعورِهِ بِالضَّياعِ. إنَّ هذا العَجْزَ الدّاخليَّ، المَمزوجَ بِالشَّكِّ الدّائِمِ ووَعْيِ الفَناءِ المُستَمِرِّ، هوَ ما يَجعلُ المُعاناةَ ليستْ مُجرَّدَ رَدِّ فِعلٍ سَطحيٍّ على أحداثِ العالَمِ الخارِجيِّ، بلْ حالةً وُجوديّةً مُتأصِّلةً

في صَميمِ الوَعي ذاتِهِ، لا تَنفصِلُ عَنهُ كما لا يَنفصِلُ الظِّلُّ عنِ الجَسَدِ. كَأَنَّ الإنسانَ لا يُعاني فَقَطْ لأَنّهُ يَعيشُ في عالَمٍ قاسٍ، بلْ لأَنّهُ يَعرِفُ أَنّهُ يَعيشُ، ويَعرِفُ أَنّهُ لا يَملِكُ القُدرةَ على تَغييرِ هذهِ المَعرِفةِ أَوِ الفِرارِ مِنْها، تارِكًا إيّاهُ في مُواجَهةٍ دائِمةٍ مَعَ ذاتِهِ كَعَدُوٍّ لا يُهزَمُ ولا يَستَسلِمُ، يَحتَرِقُ في صِراعِهِ الدّاخِليِّ العَقيمِ كَما احتَرَقَ في صَمتِهِ الذي لا يُجْدي، دونَ أَنْ يَجِدَ أَيَّ مَخْرَجٍ أَوْ أَيَّ خَلاصٍ سِوى الاستمرارِ الأَبديِّ في السُّؤالِ الذي لا يُجابُ، أَوِ الاستسلامِ النِّهائِيِّ لِتِلكَ الإدماناتِ المُخَدِّرةِ التي تُؤجِّلُ لَحْظَةَ المُواجهةِ الكُبرى لكِنّها لا تُنهيها أَبَدًا.

وما يَجعلُ هذا العَجْزَ، الذي يَنخُرُ في صَميمِ الكِيانِ البَشريِّ، أَكثَرَ قَسوةً وإيلامًا، أَنّهُ ليسَ مُطلَقًا، ثابِتًا، يُمكنُ التَّعايُشُ مَعَهُ كَحَقيقةٍ مُستَقِرّةٍ كَما قَدْ يُتَخَيَّلُ في لَحَظاتِ اليأسِ المُستَسْلِمِ، بلْ هوَ، على العَكسِ، مُتَذَبْذِبٌ بِشَكلٍ مُقْلِقٍ، مُتَغيِّرٌ كَألوانِ الحِرباءِ، مُتقلِّبٌ كَموجٍ هائِجٍ يَرتَفِعُ ويَنخفِضُ دونَ تَوقُّفٍ أو سابِقِ إنذارٍ، يُعَذِّبُ الإنسانَ بِتَقَلُّباتِهِ الخادِعةِ أَكثَرَ مِمّا قَدْ يُعَذِّبُهُ بِثَباتِهِ المُميتِ. فَهُناكَ لَحَظاتٌ، خاطِفةٌ كَالبَرقِ، يَظُنُّ فيها الإنسانُ، في غَمرةِ وَهمٍ عابِرٍ، أَنّهُ قدِ اقتَرَبَ منْ شاطِئِ الفَهمِ، منْ لَمسِ الحَلِّ النِّهائِيِّ الذي طالَما بَحَثَ عنهُ بِحُمّى في أَسئِلَتِهِ الكُبرى التي لا تُجابُ. لَحَظاتٌ يَشعُرُ فيها بِقُوّةٍ وَهميّةٍ مُفاجِئةٍ، بِزَهوٍ مُتَعالٍ، تُوهِمُهُ بِأَنّهُ قدْ أَصْبَحَ أَخيرًا سَيِّدَ مَصيرِهِ، مُتَحكِّمًا بِخُيوطِ حَياتِهِ. لكِنّهُ، وَبِسُرعةِ انهيارِ قَصرٍ منْ رِمالٍ أَمامَ مَوجةٍ عاتِيةٍ، يَسقُطُ مُجَدَّدًا، بِشَكلٍ أَشَدَّ إيلامًا، في إدراكِ هَشاشَتِهِ المُتَأَصِّلةِ، في وَعيِ عَجْزِهِ الذي لا يُمكنُ تَجاوُزُهُ، كَما سَقَطَ مِنْ قَبْلُ حينَ حاوَلَ الهُروبَ إلى أَحضانِ إدماناتِهِ الصَّغيرةِ التي لَمْ تُنقِذْهُ. إنّهُ ذلكَ التَّوَتُّرُ الدّائِمُ، المُميتُ، بينَ الإحساسِ العابِرِ بِالقُوّةِ الخادِعةِ، والإحساسِ المُلازِمِ بِالعَجْزِ الحَقيقيِّ، بينَ لَحَظاتِ الوُضوحِ النّادِرةِ التي تُضيءُ عَقلَهُ كَشُعلةٍ تُضرِمُها الرِّيحُ فَسُرعانَ ما تَنطفِئُ، ولَحَظاتِ الضَّياعِ المُستَمِرّةِ التي تُغرِقُهُ في ظَلامٍ دامِسٍ لا قَرارَ لهُ ولا نِهايةَ. هذا التَّوَتُّرُ هوَ ما يُبقي الإنسانَ في صِراعٍ أَبديٍّ مُستمِرٍّ مَعَ ذاتِهِ، في حَربٍ أَهليّةٍ لا تَعرِفُ الهُدنةَ، كَما كانَ في دَوّامةِ تَناقُضاتِهِ التي لا تُحَلُّ مِنْ قَبْلُ. وكَأَنَّ العقلَ، مَهما حاوَلَ جاهِدًا أَنْ يَتَحَرَّرَ منْ قُيودِهِ المَوروثةِ أَو المُكتَسَبةِ، كَما حاوَلَ بِواسِطةِ الفَنِّ أَوِ الفَلسفةِ أَو حتّى الإلهاءِ، يَظَلُّ دائِمًا، وفي كُلِّ لَحْظَةٍ، مُكَبَّلاً بِثِقَلِ وَعيِهِ، مُثقَلاً بِذلكَ الإدراكِ المَريرِ الذي رأيناهُ يُثقِلُ كاهِلَهُ كَهاجِسِ النِّهايةِ الذي لا يَرحَمُ. إدراكُ أَنّهُ لا يَملِكُ أَكثَرَ منْ دَورِ المُتَفَرِّجِ البائِسِ في مَسرحيّةٍ كَونيّةٍ كَتَبَها كَونٌ أَصَمُّ لا يَهتَمُّ بِأَحداثِها أَو بِمَصيرِ شُخوصِها، لكِنّهُ في الوَقتِ ذاتِهِ، وبِسَبَبِ لَعنةِ وَعيِهِ، لا يَستَطيعُ إيقافَ العَرْضِ أَو مُغادَرةَ المَسرَحِ قَبلَ النِّهايةِ المَحْتومةِ.

كَأَنَّ وَعيَهُ نَفسَهُ هوَ السَّجّانُ الذي لا يَرحَمُ، يُجبِرُهُ على المُشاهَدةِ المُؤلِمةِ، يُجبِرُهُ على أنْ يَرى نهايَتَهُ تَقتَرِبُ مِنهُ ببُطءٍ وثَباتٍ، دونَ أنْ يَملِكَ أيَّ يَدٍ أو إرادةٍ تُوقِفُها أو تُؤَجِّلُها.

وحتّى في أكثَرِ اللَّحَظاتِ التي يَبدو فيها الإنسانُ مُحاطًا بِالآخَرينَ، غارِقًا في صَخَبِ الجَماعَةِ أو دِفءِ العَلاقاتِ، يَظَلُّ، في جَوهَرِهِ العَميقِ والمُظلِمِ، وَحيدًا، مُنعَزِلاً كَجَزيرةٍ نائيةٍ في مُحيطٍ لا نِهايةَ لهُ، كَما كانَ وَحيدًا وَسطَ ضَجيجِ الحَداثةِ الذي لمْ يَملأْ فَراغَهُ. لا أحَدَ، مَهما بَلَغَتْ قُربَهُ أو حِدّةَ بَصيرَتِهِ، يَستطيعُ أنْ يَتَسَلَّلَ إلى داخِلِهِ بِالكَاملِ، إلى تِلكَ الأغوارِ السَّحيقةِ التي تُخفي كُنوزَ أفكارِهِ المَجنونةَ وجَحيمَ مَخاوِفِهِ التي لا تُوصَفُ. لا أحَدَ يَفهَمُهُ تَمامًا كَما يَفهَمُ هوَ نَفسَهُ (أوْ كَما يَتَوهَّمُ أنّهُ يَفهَمُها). لا أحَدَ يُشارِكُهُ إحساسَهُ الخاصَّ، الفَريدَ، بِثِقَلِ الحَياةِ وخِفَّتِها في آنٍ، بِنَفسِ الدَّرَجةِ التي يَعيشُها هوَ في صَميمِ كِيانِهِ. لأنَّ الوَعيَ، بِطَبيعَتِهِ المُتَفَرِّدَةِ والمُغلَقةِ، سِجنٌ فَرديٌّ لا يُمكِنُ مُشارَكَتُهُ، قَلعَةٌ داخليّةٌ لا تُفتَحُ أبوابُها لِأحَدٍ، كُلُّ واحِدٍ مِنّا يَقبعُ في زِنزانَتِهِ الخاصّةِ، يَرى العالَمَ منْ خِلالِ نافِذَتِها الضَّيِّقةِ. هذهِ العُزلةُ الوُجوديّةُ القاتِلةُ، التي رأيناها تَتَفاقَمُ مَعَ وَعيِهِ بِحَتميّةِ المَوتِ، ليستْ مُجَرَّدَ نَتيجةٍ لِظُروفٍ خارِجيّةٍ كَالوَحدةِ الاجتِماعيّةِ، بلْ هيَ نَتيجةٌ مُباشِرةٌ لِعَجْزِهِ الدّائِمِ، إحساسٌ مُرٌّ بأنَّ كُلَّ فَردٍ مَحكومٌ بِأنْ يَختَبِرَ الحَياةَ وَحيدًا، أنْ يَتَحَمَّلَ وَحدَهُ عِبءَ أفكارِهِ التي لا تُطاقُ، ومَخاوِفِهِ التي تُشبِهُ الأشباحَ ولا تُرى، وقَراراتِهِ التي تُشْبِهُ أحكامًا نِهائيّةً يُصدِرُها على نَفسِهِ دونَ دَليلٍ أو بُرهانٍ، دونَ أنْ يَستطيعَ نَقلَ هذهِ التَّجرِبةِ الدّاخليّةِ المُعقَّدةِ كَما هيَ إلى أيِّ كائِنٍ آخَرَ، مَهما كانَ قَريبًا أو مُحِبًّا. كَأنَّ كُلَّ مُحاوَلةٍ لِلتَّواصُلِ الحَقيقيِّ، لِلتَّعبيرِ الصّادِقِ، هيَ مُجَرَّدُ تَرجَمةٍ فاشِلةٍ، مُشوَّهةٍ، لِما يَعتَمِلُ في داخِلِهِ منْ فَوضى، تَترُكُ الآخَرينَ دائِمًا خارِجَ جُدرانِ وَعيِهِ المَنيعةِ، يَرونَهُ منْ بَعيدٍ، يَسمَعونَ صَدى صَوتِهِ، لكِنَّهُمْ لا يُدرِكونَهُ حَقًّا، لا يَلمِسونَ جَوهَرَ عَذابِهِ. إنَّ هذهِ العُزلةَ القاسيةَ ليستْ مُجَرَّدَ حالةٍ عاطِفيّةٍ عابِرةٍ، بلْ هيَ جُزءٌ أصيلٌ منْ مُعاناتِهِ الأصليّةِ، كَما كانَ الشَّكُّ والعَجْزُ جُزءًا مِنْها، لأنّها تُضاعِفُ شُعورَهُ المُؤلِمَ بِالغُربةِ في هذا الكَونِ الفَسيحِ، تُحيلُهُ إلى جَزيرةٍ مَهجورةٍ، مُنعَزِلةٍ، وَسطَ بَحرٍ هائِجٍ منَ البَشَرِ، يَراهُمْ يَمرّونَ كَالسُّفُنِ البَعيدةِ لكِنّهُ لا يَصِلُ إليهِمْ أبَدًا، يَسمَعُ ضَجيجَهُمْ لكِنّهُ لا يَستطيعُ أنْ يُسمِعَهُمْ صُراخَهُ الصّامِتَ كَما يُريدُ.

وأصْلُ مُعاناةِ الإنسانِ، في تَجَلّيها الأكثَرِ بُدائيّةً وحِسيّةً، كَما رأيناهُ يَتَجَذَّرُ في صَميمِ وَعيِهِ مُنذُ البِدايةِ، هوَ عَجْزُهُ المُطْلَقُ، المُذِلُّ، عنِ الهُروبِ منْ قَبضَةِ الألَمِ، سَواءٌ كانَ هذا الألَمُ جَسديًّا حادًّا يُنهِكُ جَسَدَهُ

الفاني ويُمزّقُ أعصابَهُ، أوْ نفسيًّا غائرًا، خَفيًّا، يُمزّقُ رُوحَهُ ببُطءٍ ويُسمّمُ مَنابِعَ فَرحِهِ. حتّى لوْ عاشَ حَياةً مُرَفَّهةً، مُنَعَّمةً، خاليةً ظاهِريًّا منَ الحُروبِ الدّاميةِ أوِ الفَقرِ المُدْقِعِ أوِ الكَوارِثِ الطبيعيّةِ، سَتَظَلُّ هُناكَ دائمًا، كَوَشْمٍ لا يُمْحى، لَحَظاتٌ منَ الفَقدِ المُوجِعِ تَسرِقُ مِنهُ أحبّاءَهُ كَلِصٍّ في الظّلامِ، لَحَظاتٌ منَ الخيبةِ المُرّةِ تُحطّمُ أحلامَهُ التي بَناها بِصُعوبةٍ، لَحَظاتٌ منَ الانكسارِ المُذِلِّ تُذَكّرُهُ بِهَشاشَتِهِ المُتأصّلةِ وعَجزِهِ أمامَ قُوى الوُجودِ العَمياءِ، لَحَظاتٌ منَ الخَوفِ الغامِضِ تُلازِمُهُ كَظِلٍّ أسودَ لا يُفارِقُهُ ولا يَنقَشِعُ. الألَمُ ليسَ خِيارًا يُمكِنُ رَفضُهُ أو تَجَنُّبُهُ، كَما رَفَضَ الإنسانُ الواعي تَوريثَ عَذابِهِ لِلآخَرينَ، بلْ هوَ جُزءٌ لا يَتَجَزَّأُ منَ التَّجرِبةِ البَشريّةِ، قَدَرٌ مَحْتومٌ كَالمَوتِ، كَما كانَ الوَعي ذاتُهُ جُزءًا مِنْها لا يُمكِنُ الفِكاكُ مِنهُ. ومُجَرَّدُ الإدراكِ المُسبَقِ بِأنَّ الألَمَ قادِمٌ لا مَحالةَ، كَما أدْرَكَ حَتميّةَ المَوتِ مِنْ قَبْلُ، يُجعلُ الإنسانَ يَعيشُ في تَوَتُّرٍ دائِمٍ، في قَلَقٍ مُستَمِرٍّ، كَأنّهُ يَنتَظِرُ ضَربةً قاسِيةً لا يَعرِفُ مَتى سَتَأتي أو مِنْ أيْنَ، لكِنّهُ يَعرِفُ يَقينًا أنّها لنْ تُخطِئَهُ، أنّها سَتُصيبُهُ في الصَّميمِ. الزَّمَنُ، الذي كانَ في الأزْمِنةِ القَديمةِ مُجَرَّدَ سِياقٍ مُحايِدٍ تَتَحَرَّكُ فيهِ الأحداثُ كَسُفُنٍ على بَحرٍ هادِئٍ، يَتَحَوَّلُ، مَعَ الوَعي الحَديثِ المُتَزايِدِ، إلى عَدُوٍّ خَفيٍّ، لَعينٍ، يَسْلُبُ مِنهُ كُلَّ ما يُحِبُّهُ ويَتَعَلَّقُ بِهِ ببُطءٍ شَديدٍ ومَكْرٍ لا يُوصَفُ، كَاللِّصِّ المُحتَرِفِ الذي يُفرِغُ البَيتَ الغالي منْ كُنوزِهِ دونَ أنْ يُلاحِظَهُ أحَدٌ إلا بَعدَ فَواتِ الأوانِ: شَبابُهُ النّاضِرُ يَذوي كَزَهرةٍ قُطِفَتْ، أحلامُهُ البَرّاقةُ تَتَلاشى كَسَرابٍ في الصَّحراءِ، أحباؤُهُ الأعزّاءُ يَرحَلونَ واحِدًا تِلوَ الآخَرِ كَأوراقٍ خَريفٍ مُتَساقِطةٍ، كُلُّ شَيءٍ يَتَغَيَّرُ بِلا تَوقُّفٍ، ولا يُمكِنُ استِعادَةُ أيِّ شَيءٍ مِمّا فُقِدَ. كَأنَّ كُلَّ لَحْظَةٍ تَمُرُّ ليستْ مُجَرَّدَ لَحْظَةٍ، بلْ هيَ خَسارةٌ صَغيرةٌ تُضافُ بِصَمتٍ إلى جَبَلِ الخَساراتِ الهائِلِ الذي يَحمِلُهُ على ظَهرِهِ، لا يُدرِكُ الإنسانُ مَدى حَجمِهِ أو ثِقَلِهِ إلا في لَحْظَةِ الوَعي المُتَأخِّرَةِ، حينَ يَنظُرُ إلى الوَراءِ فَيَرى بِصَدمَةٍ أنَّ الزَّمَنَ لَمْ يَكُنْ حَليفًا وَفِيًّا كَما تَوَهَّمَ، بلْ كانَ جَلّادًا صامِتًا، بارِدًا، يُنفِّذُ حُكمَهُ القاسي بِلا رَحمَةٍ أو شَفَقةٍ، يُحَوِّلُ كُلَّ فَرحَةٍ غامِرةٍ إلى مُجَرَّدِ ذِكرى باهِتةٍ تَعتَصِرُ القَلبَ، وكُلَّ ذِكرى جَميلةٍ إلى وَخْزةٍ مُؤلِمةٍ في صَميمِ الرُّوحِ

وهكَذا، يَظَلُّ الإنسانُ، هذا الكائِنُ المُمَزَّقُ بِالتّناقُضِ، مُحاصَرًا، مَسجونًا، في نَفَقٍ وُجوديٍّ لا مَفَرَّ مِنهُ، بينَ هذا العَجْزِ المُتَذَبْذِبِ الذي يُفقِدُهُ الثِّقةَ بِذاتِهِ، وبَينَ عُزلَتِهِ القاسيةِ التي تَقطَعُ حِبالَ الوِصالِ مَعَ الآخَرينَ، وبَينَ وَعيِهِ الحادِّ بِالألَمِ كَحَقيقةٍ لا تَرحَمُ، وبَينَ حَتميّةِ الزَّمنِ الجارِفِ الذي يَسْلُبُهُ كُلَّ شَيءٍ. كَما كانَ مُحاصَرًا مِنْ قَبْلُ بينَ إدماناتِهِ الصَّغيرةِ التي تُخَدِّرُهُ وأسئِلَتِهِ الكُبرى التي تُؤَرِّقُهُ. إنَّ هذا الصِّراعَ

المُتعدّدَ الأوجهِ ليسَ مُجرَّدَ حالةٍ طارِئةٍ أو أزمةٍ نَفسيّةٍ عابِرةٍ يُمكِنُ تَجاوُزُها بِالعِلاجِ أوِ الوَقتِ، بلْ هوَ، كَما أَكَّدْنا مِرارًا، جَوهَرُ مُعاناتِهِ الأصلِيّةِ، نَسيجُ مَأساتِهِ، لأنّهُ يُولَدُ مُباشَرةً منْ صَميمِ الوَعي ذاتِهِ، ذلكَ الوَعي المُزدَوَجُ الذي يُعطيهِ الحَياةَ بِيدٍ ويُحكِمُ عليهِ بِالأَلَمِ بِاليَدِ الأُخرى. كُلُّ مُحاوَلةٍ لِلهُروبِ منْ هذا الحِصارِ – سَواءٌ كانَتْ بِاللُّجوءِ إلى ضَجيجِ الحَداثةِ الصّاخِبِ أوْ إلى صَمتِ التَّأمُّلِ العَميقِ – تُعيدُهُ في النِّهايةِ إلى نُقطةِ البِدايةِ ذاتِها، إلى ذلكَ الإدراكِ المَريرِ، القاتِلِ لِلرّاحَةِ، بِأنَّ لا خَلاصَ حَقيقيًّا منَ الأَلَمِ طالَما بَقِيَ واعيًا، وأنَّ الزَّمَنَ، بِكُلِّ ما يَحمِلُهُ منْ تَغييرٍ وفَقدانٍ وحَتميّةٍ، لنْ يَتَوقَّفَ عنْ فِعلِ السَّلبِ والنَّهبِ حتّى يُسلِبَهُ نَفسَهُ في النِّهايةِ، تارِكًا إيّاهُ يُواجِهُ هذا العَدُوَّ الخَفيَّ، هذا الطّاغيةَ الصّامِتَ، وَحيدًا، أعزَلَ، كَما واجَهَ ذاتَهُ المُتَشظّيةَ في كُلِّ لَحْظَةٍ منْ مَسيرَتِهِ الدّاميةِ، يَحتَرِقُ في هذا الصِّراعِ الدّائِمِ دونَ أنْ يَجِدَ أيَّ نِهايةٍ لَهُ، سِوى تِلكَ النِّهايةِ الأبديّةِ التي يَخشاها ويَهرُبُ مِنْها بِكُلِّ قُواهُ، لكِنّها الوَحيدةُ التي تَعِدُهُ بِالرّاحَةِ الحَقيقيّةِ، راحَةٌ ليستْ انتِصارًا أو نَجاةً، بلْ مُجرَّدَ تَوقُّفٍ لِلعَرْضِ الذي لَمْ يَستَطِعْ إيقافَهُ أو حتّى فَهْمَ مَغزاهُ.

يُصبِحُ الزَّمَنُ، في هذا الوَعي المُعَذَّبِ، عَدُوًّا حَقيقيًّا، جَلادًا لا يَرحَمُ، يَأخُذُ بِلا تَوقُّفٍ ولا يَعرِفُ الشَّفَقَةَ، سَجّانًا بارِدًا يَفرِضُ قُيودَهُ القاسيةَ على الإنسانِ كَما فَرَضَها وَعيُهُ مِنْ قَبْلُ. يُحاصِرُهُ بينَ ماضٍ مُثقَلٍ بِالنُّدوبِ لا يُمكِنُ استِعادَتُهُ أو تَغييرُهُ، كَما كانَ يُحاصِرُهُ بِذِكرياتٍ تُؤلِمُهُ وتُذَكِّرُهُ بِفَشَلِهِ، ومُستقبَلٍ مُظلِمٍ لا يُمكِنُ التَّنَبُّؤُ بِهِ إلا مِنْ خِلالِ نِهايَتِهِ الحَتْميّةِ التي تَلوحُ في الأُفُقِ كَشَبَحٍ أسوَدَ. العَجْزُ الحَقيقيُّ هُنا، العَجْزُ الذي يَكسِرُ الظَّهرَ، يَكمُنُ في استحالةِ الإمساكِ بِاللّحظَةِ الآنيّةِ الهارِبةِ، في عَجْزِهِ التّامِّ عنْ إيقافِ هذا التَّزيفِ المُستمِرِّ لِلْوُجودِ، التَّزيفِ الذي يَمتَصُّ حَياتَهُ شَيئًا فَشَيئًا، كَأنَّ كُلَّ ثانيةٍ تَمُرُّ هيَ قَطرةُ دَمٍ جَديدةٍ تُسقَطُ منْ كَأسِ عُمرِهِ المَحدودِ، تُفرِغُهُ بِبُطءٍ قاسٍ حتّى لا يَبقى مِنهُ شَيءٌ يُذكَرُ، حتّى يَجِفَّ تمامًا. يُحاوِلُ الإنسانُ، في يَأسِهِ المُتَزايِدِ، أنْ يُقاوِمَ هذا الطُّوفانَ الزَّمَنيَّ بِكُلِّ ما أوتيَ مِنْ أدواتٍ هَشّةٍ: يُوَثِّقُ ذِكرياتِهِ المُتَلاشِيةَ في كَلِماتٍ مُنمَّقةٍ أو صُوَرٍ باهِتةٍ، كَما وَثَّقَ مُعاناتَهُ في الفَنِّ ظَنًّا أنّهُ يُخَلِّدُها. يَلتَقِطُ اللَّحَظاتِ بِآلاتِ التَّصويرِ كَأنّهُ يُمكِنُهُ بِذلكَ تَجميدُ الزَّمَنِ أو إيقافُ جَريانِهِ. يَكتُبُ، يَرسُمُ، يُغَنّي، لِيُخَلِّدَ شَيئًا منْ ذاتِهِ الفانيةِ، لِيَترُكَ أثرًا يَشهَدُ على وُجودِهِ. يُحاوِلُ أنْ يَمنَحَ حَياتَهُ القَصيرةَ مَعنًى يَستمِرُّ حتّى بَعدَ زَوالِهِ النِّهائِيِّ، كَما حاوَلَ بِالأساطيرِ والمَلاحِمِ أنْ يَهزِمَ المَوتَ. لكِنّهُ في النِّهايةِ، وبِكُلِّ أسَفٍ، يُدرِكُ، كَما أدرَكَ عَجزَهُ أمامَ المَوتِ الذي لا يُرَدُّ، أنَّ كُلَّ هذهِ المُحاوَلاتِ البائِسةِ ليستْ سِوى هُتافاتٍ

يَائسةٍ، صَرَخاتٍ مُختَنِقةٍ، في وَجهِ عاصِفةٍ كَونيّةٍ لا تُبالي بِصَوتِهِ ولا تَسمَعُ نَحيبَهُ. مُحاوَلاتٌ لِإقناعِ نَفسِهِ بِأنّهُ يَملِكُ السَّيطَرةَ على شَيءٍ لا يُمكِنُ التَّحكُّمُ بِهِ أبَدًا. الزَّمَنُ لا يَتوقَّفُ، يَجري كَنَهرٍ جارفٍ يَبتَلِعُ كُلَّ شَيءٍ. وكُلُّ مُحاوَلةٍ لِإيقافِهِ – سَواءٌ كانَتْ بِالكِتابةِ أوِ التَّذكُّرِ أوِ الإبداعِ – هيَ في ذاتِها، اعتِرافٌ مُؤلِمٌ بِضَعفِهِ، بِعَجزِهِ، بِأنّهُ لا يَملِكُ سِوى أنْ يُشاهِدَ نَفسَهُ تَتلاشى وتَذوبُ في هذا التَّيّارِ، كَمُتَفَرِّجٍ عَاجِزٍ في مَسرَحٍ يَعرِفُ نِهايَتَهُ المُحزِنةَ لكِنّهُ لا يَملِكُ إلا أنْ يُكمِلَ المُشاهَدَةَ حتّى يَسدَلَ السِّتارُ الأخيرُ.

وفي ظِلِّ هذا الإدراكِ المُدمِّرِ لِطُغيانِ الزَّمَنِ وعَجزِ الذّاتِ، يُصبِحُ العَيشُ نَفسُهُ، في حَقيقَتِهِ المُرَّةِ، نَوعًا منَ المُساوَمةِ المُستمِرّةِ، مُفاوَضةً يَائسةً لا تَنتَهي، كَما كانتْ حِيَلُ الإلهاءِ مُساوَمةً مَعَ الفَراغِ في قَلبِ الحَداثةِ الخاويةِ. يَسعى الإنسانُ بِجُهدٍ مُضنٍ إلى التَّكَيُّفِ مَعَ هذا العَدُوِّ الخَفيِّ الذي يَسكُنُ أيّامَهُ ويُشَكِّلُ مَصيرَهُ، إلى بِناءِ قِصصٍ وَهميّةٍ تَمنَحُهُ الوَهمَ بِأنّهُ ليسَ مُجرَّدَ كائِنٍ فانٍ يَنجَرِفُ مَعَ تَيّارٍ لا يَرحَمُ ولا يَتوقَّفُ، كَما حاوَلَ أنْ يُوهِمَ نَفسَهُ مِنْ قَبْلُ بِإدماناتِهِ الصَّغيرةِ التي تَمنَحُهُ نَشوةً زائِلةً. يَخلُقُ أهدافًا قَصيرةَ الأمَدِ يُراهِنُ عليها كَأنّها الخَلاصُ، يَبحَثُ عنِ الحُبِّ كَمَلجأٍ أخيرٍ، كَحِصنٍ دافِئٍ يُخَفِّفُ منْ بُرودةِ العُزلةِ، عنِ النَّجاحِ كَدَليلٍ باهِتٍ على وُجودِهِ، عنْ لَحَظاتٍ خاطِفةٍ منَ الشُّعورِ الكَثيفِ تَجعَلُهُ يَشعُرُ بِأنّهُ مَوجودٌ حَقًّا، بِأنّهُ لَيسَ مُجَرَّدَ ظِلٍّ عابِرٍ في مَسرَحِ الوُجودِ العَبثِيِّ. لكِنّهُ، في أعماقِهِ المُظلِمةِ، يَعلَمُ يَقينًا، كَما عَلِمَ مِنْ قَبْلُ حَتميّةَ المَوتِ، أنَّ الزَّمَنَ، هذا اللِّصَّ الذي لا يَنامُ، سَيأتي حَتمًا لِيَأخُذَ كُلَّ شَيءٍ، لِيَسلُبَهُ كُلَّ ما بَناهُ، كَما سَلَبَ مِنْ قَبْلِهِ كُلَّ أولئكَ الذينَ حاوَلوا مُقاوَمَتَهُ بِالفَنِّ الخالِدِ أوِ الفَلسفةِ العَميقةِ. كَأنَّ كُلَّ قِصّةٍ يَبنيها لِيُعَزّيَ بِها نَفسَهُ هيَ مُجَرَّدُ قَلعةٍ منْ رِمالٍ شَيَّدَها على شاطِئِ الزَّمانِ، لا تَلبَثُ أنْ تَجرِفَها أوّلُ مَوجةٍ منْ أمواجِ الحَقيقةِ القاسيةِ. هذهِ الحَقيقةُ، التي رأيناها تُثقِلُ وَعيَهُ كَهاجِسِ النِّهايةِ المُفزِعِ، تُجعلُ كُلَّ فَرحٍ يَعيشُهُ مَشوبًا بِغِلالةٍ رَقيقةٍ منَ الحُزنِ، كَما كانَ مَشوبًا بِالخَوفِ منَ الفَقدِ الذي لا مَفَرَّ مِنهُ. وكُلَّ إنجازٍ يُحَقِّقُهُ مُهَدَّدًا بِرِياحِ النِّسيانِ العاتِيةِ كَما كانَ مُهَدَّدًا بِالتَّلاشي في الفَراغِ. فَلا شَيءَ يَبقى، لا شَيءَ يَصمُدُ أمامَ طاحونةِ الزَّمانِ الجَبّارةِ. وهذا الإدراكُ المُلازِمُ، هذا الوَخزُ الدّائِمُ في القَلبِ، يُحَوِّلُ كُلَّ لَحْظَةٍ سَعيدةٍ، مَهما بَدَتْ مُكتَمِلةً، إلى مُقَدِّمةٍ حَتميّةٍ لِلحُزنِ القادِمِ، كَأنَّ الإنسانَ يَعيشُ كُلَّ فَرحةٍ وَهو يَعلَمُ أنّها مُؤقَّتةٌ، هَشّةٌ، زائِلةٌ، يَحتَضِنُها بِحَرارةٍ وَهو يُوَدِّعُها في الوَقتِ ذاتِهِ بِأَلَمٍ صامِتٍ.

وهُنا، في قَلبِ هذا الحِصارِ، في عُمقِ هذهِ المُساوَمةِ اليائسةِ مَعَ الزّمنِ والألَمِ والفَناءِ، تَظهَرُ المُعضِلةُ الكُبرى لِلوَعيِ البَشريِّ، تلكَ التي تُلَخِّصُ كُلَّ مُعاناتِهِ مُنذُ بِدايتِهِ الأُولى وحتّى لَحْظَتِهِ الأخيرةِ: كَيفَ يُمكِنُ لِلإنسانِ، هذا الكائِنِ المُعَذَّبِ بِإدراكِهِ، أنْ يَتَصالَحَ مَعَ شَيءٍ لا يَستطيعُ تَغييرَهُ بِأيِّ شَكلٍ مِنَ الأشكالِ، كَما عَجَزَ مِنْ قَبْلُ عَنْ تَغييرِ حَتميّةِ المَوتِ أو عَبَثيّةِ الكَونِ؟ كَيفَ يُمكِنُهُ أنْ يَعيشَ، أنْ يَجِدَ أيَّ نَوعٍ مِنَ السَّلامِ الدّاخليِّ، رُغمَ مَعرِفَتِهِ القاطِعةِ بأنَّ كُلَّ شَيءٍ يَتّجِه حَتمًا نَحوَ الزَّوالِ، بأنَّ كُلَّ ما يُحِبُّهُ بِشَغَفٍ ويُحَقِّقُهُ بِجُهدٍ ويَتَشَبَّثُ بهِ بِأمَلٍ سَيُصبِحُ يومًا ما مُجرَّدَ ذِكرى باهِتةٍ، ظِلاًّ هارِبًا، ثُمَّ لا شَيءَ على الإطلاقِ؟ البَعضُ، في هَلَعِهِمْ مِنْ هذهِ الحَقيقةِ المُفزِعةِ، يَهرُبونَ بِجُبنٍ إلى الانغماسِ الكامِلِ في اللَّذّةِ الآنيّةِ العابِرةِ، كَما فَعَلوا في غَمرةِ الاستهلاكِ المُفرِطِ، في التَّرفيهِ المُستَمِرِّ الذي رأيناهُ يُغَطّي صَوتَ القَلَقِ بِضَجيجِهِ الأجوفِ. يُحاوِلونَ، بِشَكلٍ يائسٍ، أنْ يَجعَلوا الحَياةَ سَطحيّةً بِما يَكفي لِتَجنُّبِ الغَرَقِ في ثِقَلِها الوُجوديِّ، كَأنَّ الضَّحِكَ العابِرَ، أوِ النَّشوةَ اللّحظيّةَ، أوِ الانشغالَ الدّائمَ، يُمكِنُهُ أنْ يُنسيهِمُ الزَّمَنَ وتَزيفَهُ لِثَوانٍ قَليلةٍ. والبَعضُ الآخَرُ، الأكثَرُ مَيلاً لِلتَّأمُّلِ أوِ الوَهمِ، يُحاوِلُ أنْ يَجِدَ عَزاءً في أحضانِ الفَلسفةِ المُجرَّدةِ كَما فَعَلَ الرّواقيّونَ في قَبولِهِمُ الصّامِتِ، أو في ظِلالِ الدّينِ المُطَمْئِنِ كَما فَعلَ المُؤمنونَ في تَسليمِهِمُ الأعمى، في مُحاوَلةٍ لِتَحويلِ هذا الإدراكِ القاتِلِ لِلزَّوالِ إلى مَعنًى يَفوقُهُ، إلى نَوعٍ مِنَ الجَمالِ الحَزينِ الذي يَجعَلُ النِّهايةَ أقَلَّ وَحشةً وقُبحًا، كَما حاوَلَ الفَنُّ أنْ يَفعَلَ مِنْ قَبْلُ. لكِنْ، حتّى هذهِ المُحاوَلاتِ المُتَبايِنةِ، سواءٌ كانَتْ هُروبًا إلى السَّطحِ أو غَوْصًا في الوَهمِ، لا تُنهي الصِّراعَ الدّاخليَّ، بلْ تُعطيهِ شَكلاً آخَرَ، قِناعًا مُختلِفًا لِنَفسِ المَأساةِ. في النِّهايةِ، يَظَلُّ الجَميعُ، مَهما اختَلَفَتْ طُرُقُهُمْ في مُواجَهةِ الوَعيِ أوِ الهُروبِ مِنهُ – سَواءٌ كانُوا غارِقينَ في اللَّذّةِ أوْ مُعتكِفينَ في التَّأمُّلِ – مَسجونينَ في نَفسِ الدَّوّامةِ الجَهَنَّميّةِ، دَوّامةِ الفَناءِ الحَتْميِّ التي رأيناها تُحيطُ بِالوَعيِ مُنذُ أنْ بَدأَ يَسألُ ويُدرِكُ. في ذلكَ الصِّراعِ الأزَليِّ، المُميتِ، بينَ الرَّغبةِ المُتَأصِّلةِ في الاستمرارِ والبَقاءِ كَما كانَ يَتَمَرَّدُ مِنْ قَبْلُ، وإدراكِ حَتميّةِ الفَقدِ والزَّوالِ كَما أدرَكَ حَتميّةَ المَوتِ. كَأنَّ كُلَّ خُطوةٍ يَخطوها ظاهِريًّا لِلأمامِ في مَسرحِ الحَياةِ، هيَ في حَقيقَتِها خُطوةٌ نَحوَ النِّهايةِ، وكُلَّ مُحاوَلةٍ لِلبَقاءِ أوِ التَّشَبُّثِ، هيَ تَأكيدٌ مُؤلِمٌ لِحَتميّةِ الزَّوالِ الذي لا يَرحَمُ.

إنَّ هذهِ المُعضِلةَ الوُجوديّةَ، هذا الصِّراعَ المَريرَ مَعَ الزَّمنِ والفَناءِ، هيَ الحالةُ النّازِفةُ، الدّائمةُ، التي يَعيشُها الإنسانُ الواعي يَوميًّا، في كُلِّ نَبْضةٍ مِنْ نَبَضاتِ قَلبِهِ القَلِقِ، كَما عاشَها في عُزلَتِهِ القاسيةِ وعَجزِهِ

المُتَذَبْذِبِ. حالةٌ تجعلهُ يُصارِعُ الزَّمَنَ بِلا هَوادةٍ، كَما صَارَعَ ذاتهُ المُتَشظّيةَ مِنْ قَبْلُ، يُحاوِلُ أنْ يُثْبِتَ وُجودَهُ الهَشَّ في وَجهِ عَدُوٍّ لا يُرى، عَدُوٍّ صامتٍ، جَبّارٍ، لكنّهُ يَعرِفُ في صَميمِ عَظْمِهِ أنَّ المعركةَ خاسِرةٌ مُنذُ البِدايةِ، أنَّ النِّهايةَ مَحْتومةٌ. كُلُّ هَدَفٍ يَسعى إليهِ بِجُهدٍ مُضنٍ، كُلُّ حُبٍّ يَتَشَبَّثُ بِهِ بِأَمَلٍ يائسٍ، كُلَّ ذِكرى يُحاوِلُ تخليدَها في صَفحاتِ كِتابٍ أو إطارِ صُورةٍ، ليستْ في حَقيقتِها سِوى أسلِحةٍ هَشّةٍ، صَدِئةٍ، في مُواجَهةِ جَبَروتِ الزَّمنِ الذي لا يُقْهَرُ، أسلحةٌ تتكسرُ وتَتَناثَرُ بِمُجرَّدِ أنْ يُلوِّحَ الزَّمَنُ بِسَيفِهِ الصّامِتِ القاطِعِ. ومَعَ ذلكَ، رُغمَ اليَقينِ بِالهَزيمةِ، يُواصِلُ الإنسانُ هذهِ المُساوَمةَ العَبَثيّةَ، لا لأنّهُ يأمَلُ في الانتِصارِ، بلْ لأنّهُ لا يَملِكُ خِيارًا آخَرَ، كَما لمْ يَملِكْ خِيارًا في وَعيِهِ الأوَّلِ أوْ في تَمرُّدِهِ اليائسِ. يَعيشُ وَهو يَعرِفُ أنَّ كُلَّ شَيءٍ غالٍ على قَلبِهِ سَيُؤخَذُ منهُ حَتمًا. يُحِبُّ بِعُمقٍ وَهو يعرِفُ أنَّ الفِراقَ قادِمٌ لا مَحالةَ، كَشَبَحٍ يَنتَظِرُ عندَ مُنْعَطَفِ الطَّريقِ. يُحَقِّقُ ويَبني وَهو يَعرِفُ أنَّ النِّسيانَ يَتربَّصُ بِكُلِّ إنجازاتِهِ لِيَلتَهِمَها كَوَحشٍ جائعٍ. في دَورةٍ مُستمِرّةٍ، لا تَنتَهي، مِنَ الأمَلِ الذي يَخْبو والخَسارةِ التي تَتَجَدَّدُ، دَورةٌ تُبقيهِ حَيًّا وتُعَذِّبُهُ في الوَقتِ ذاتِهِ، تُعطيهِ سَبَبًا لِلاستمرارِ وتَسلُبُهُ أيَّ راحةٍ في هذا الاستمرارِ. كأنَّ الزَّمَنَ ليسَ فَقطْ عَدُوًّا قاسيًا يَسلُبُ ويأخُذُ، بلْ هوَ أيضًا تلكَ المِرآةُ المُخيفةُ التي تُظهِرُ لِلإنسانِ عَجْزَهُ المُطلَقَ في أوضَحِ صُوَرِهِ، تُجبِرُهُ على أنْ يَرى نَفسَهُ تَتلاشى شَيئًا فَشَيئًا، تَذوبُ في تَيّارِهِ الجارِفِ، دونَ أنْ يَملِكَ سِوى أنْ يُواصِلَ المَسيرَ، يَحتَرِقُ في هذا الصِّراعِ الأبَدِيِّ كَما احتَرَقَ في نارِ وَعيِهِ مُنذُ البِدايةِ، دونَ أمَلٍ في الخَلاصِ إلا في تلكَ اللَّحظةِ النِّهائيّةِ التي يَتوَقَّفُ فيها كُلُّ شَيءٍ، لا كَانتِصارٍ مُظَفَّرٍ، بلْ كَاستِسلامٍ مُطلَقٍ، مُنهَكٍ، لِما لا يُمكِنُ تَغييرُهُ أو مُقاوَمَتُهُ.

ونُدرِكُ الآنَ، بِوُضوحٍ قاسٍ لا يَقبَلُ الشَّكَّ، أنَّ كُلَّ أشكالِ المُعاناةِ هذهِ - مِنْ نَزيفِ الزَّمنِ الذي لا يَتوَقَّفُ، إلى الرَّتابةِ الكابوسيّةِ التي تَخنُقُ الرُّوحَ، إلى العَجزِ المُتَذَبْذِبِ والعُزلةِ القاتلةِ - هيَ النَّتيجةُ الحَتميّةُ، القَدَرُ المَحتومُ، لِكَونِ الإنسانِ كائنًا واعيًا، كَما كانتْ النَّتيجةَ الحَتميّةَ لانفصالِهِ الأوَّلِ عنْ رَحِمِ الطَّبيعةِ وعنْ سَكينَةِ الغَريزةِ. الوَعيُ، هذا النُّورُ الأسوَدُ، هوَ هديَّتُهُ المَسمومةُ ونِقْمَتُهُ الأبديّةُ في آنٍ واحِدٍ. هوَ ما يَجعَلُهُ قادِرًا على إدراكِ عَظَمَةِ الكَونِ وعَجْزِهِ المُطْلَقِ، كَما أدرَكَ حَتميّةَ المَوتِ وألَمَ الفَقدِ، لكنّهُ في الوَقتِ ذاتِهِ، وبِذاتِ القُدرةِ، يَجعَلُهُ عاجِزًا عنْ إيجادِ أيِّ إجاباتٍ شافيةٍ تُطفِئُ نيرانَ القَلَقِ المُستَعِرةِ التي رأيناها تَشتَعِلُ في داخِلِهِ مُنذُ أنْ بَدأَ يَسأَلُ ويُدرِكُ. إذْ، وبِمُفارَقةٍ تُدمي القَلبَ، كُلّما ازدادَ وَعيُ الإنسانِ عُمقًا، كَما ازدادَ في عَصرِ الحَداثةِ المُقْلِقِ، ازدادَتْ مَعَهُ احتِمالاتُ مُعاناتِهِ تَشَعُّبًا وتَعقيدًا.

لأنَّ كُلَّ إدراكٍ جَديدٍ يَصِلُ إليهِ هوَ في جوهَرِهِ كَشفٌ مُؤلِمٌ لِنَقصٍ ما، لِضَعفٍ أصيلٍ، لِعَجزٍ بُنيويٍّ لا يُمكِنُ إصلاحُهُ، كَما كانَ الشَّكُّ عَجزًا لا يُمكِنُ التَّخَلُّصُ منهُ إلا بِإنكارِ الوَعي. لَمْ يَكُنِ الإنسانُ لِيَشعُرَ بِأَلَمِ الغُربةِ في هذا الكَونِ الفَسيحِ لوْ لَمْ يَكُنْ لَدَيهِ تَصَوُّرٌ مُسبَقٌ، حُلُمٌ غامِضٌ، عنِ الانتماءِ المَفقودِ، عنْ ذلكَ الوِصالِ الأوَّلِ الذي يُشْبِهُ جَنَّةً طُرِدَ مِنْها. ولَمْ يَكُنْ لِيَرتَعِشَ منْ رُعبِ الفَناءِ لوْ لَمْ يَكُنْ لَدَيهِ تَوقٌ دَفينٌ، مَرَضيٌّ، إلى الخُلودِ الأبديِّ، تِلكَ الرَّغبةُ المُستَحيلةُ التي تُعَذِّبُهُ لأنَّها لا تُحَقَّقُ أبَدًا. هُنا تَكمُنُ مُفارَقةُ الوَعي القاتِلةُ: كُلُّ ما يَجعَلُهُ قادِرًا على إدراكِ العالَمِ بِعُمْقٍ وتَعقيدٍ - إدراكُ الزَّمَنِ، والمَوتِ، والآخَرينَ، والذّاتِ - يَجعَلُهُ أيْضًا، وبِشَكلٍ حَتْميٍّ، غَيرَ قادِرٍ على التَّكَيُّفِ مَعَهُ بِالكَاملِ، على إيجادِ راحَةٍ فيهِ. كَأنَّ كُلَّ فِكرةٍ تُضيءُ لهُ طَريقًا في ظَلامِ الوُجودِ، تُظهِرُ لهُ في الوَقتِ ذاتِهِ جِدارًا صَلْدًا آخَرَ لا يُمكِنُ عُبورُهُ أو تَجاوُزُهُ. إنَّهُ ليسَ مُجَرَّدَ كائِنٍ يَعيشُ كَالحَيواناتِ في انسِجامٍ غَريزيٍّ ساذَجٍ مَعَ مُحيطِهِ، بلْ كائِنٌ يُعاني منَ الحَياةِ نَفسِها، لا منْ ظُروفِها فَقَطْ، لأنَّ عَقلَهُ، الذي يَعتَزُّ بِهِ، يَقِفُ بينَهُ وبينَ الطَّبيعَةِ كَحاجِزٍ زُجاجيٍّ لا يُمكِنُ كَسرُهُ، يُبعِدُهُ عَنْها بينما يُجبِرُهُ على التَّفكيرِ فيها، يُعطيهِ القُدرةَ اللَّعينةَ على السُّؤالِ دونَ أنْ يَمنَحَهُ أبَدًا القُدرةَ المُريحَةَ على الإجابةِ

ومَعَ ذلكَ، أنَّ هذهِ المُعاناةَ نَفسَها، التي رأيناها تُثقِلُ الوَعي كَجُرحٍ لا يَلتَئِمُ وتَدفَعُهُ إلى حافّةِ اليَأسِ أوِ الجُنونِ، هيَ أيْضًا، وبِشَكلٍ غَريبٍ ومُحيِّرٍ، المُحَرِّكُ الأساسيُّ، الشُّعلةُ الخَفيّةُ، لِكُلِّ تَقَدُّمٍ بَشريٍّ نَعرِفُهُ، كَما كانتْ نارُ القَلَقِ الوُجوديِّ هيَ المُحَرِّكَ لِسُؤالِهِ الأوَّلِ الذي مَيَّزَهُ عنِ الحَيوانِ. نَعَمْ، الإنسانُ صاغَتْهُ المُعاناةُ، جَبَلَتْهُ آلامُهُ مُنذُ أنْ بَدأَ يُدرِكُ نَقصَهُ وعَجزَهُ في كُهوفِ الزَّمَنِ السّحيقِ. ورُبّما، ويا لَلسُّخريّةِ، لَولا وُجودُ هذهِ المُعاناةِ القاسيةِ، لَما تَطَوَّرَتِ الحَياةُ الإنسانيّةُ كَما نَعرِفُها اليَومَ، لَظَلَّ الإنسانُ كائِنًا راكِدًا، بَليدًا، غارِقًا في طُمأنينةٍ غَريزيّةٍ عَقيمةٍ لا تُنتِجُ شَيئًا ذا قيمةٍ، كَبُحَيرةٍ آسِنةٍ لا حَياةَ فيها. فَكُلُّ ما نَراهُ مِنْ حَولِنا مِنْ آثارِ التَّقَدُّمِ البَشريِّ - منْ أبسَطِ الأدواتِ الحَجَريّةِ التي نَقَشَها الإنسانُ الأوَّلُ بِصَبرٍ، إلى أعقَدِ النَّظَريّاتِ العِلميّةِ والفَلسفيّةِ التي تُحاوِلُ فَكَّ ألغازِ الكَونِ - لَمْ يَكُنْ وليدَ الرّاحَةِ أوِ الرِّضا أوِ الاكتِفاءِ كَما قَدْ يَتَوهَّمُ أصحابُ النَّظَريّاتِ المُتفائِلةِ، بلْ كانَ نِتاجًا مُباشِرًا لِلألَمِ، لِلصِّراعِ المَريرِ، لِلسَّعيِ المُستَمِرِّ لِلخُروجِ منْ ضِيقِ الواقِعِ نَحوَ أُفُقٍ أرْحَبَ، كَما كانَ سَعيُهُ لِلخُروجِ منْ رَتابَةِ الكابوسِ اليَوميِّ سَعيًا يائِسًا نَحوَ المَعنى. لَو لَمْ يَشعُرِ الإنسانُ بِالنَّقصِ المُلازِمِ لِكَينونَتِهِ، كَما شَعَرَ بِالغُربةِ والوَحدةِ، لَما حاوَلَ أنْ يُعَوِّضَهُ بِالاختِراعِ والإبداعِ. ولو لَمْ يُواجِهِ القُيودَ القاسيةَ، قُيودَ الطَّبيعَةِ والمُجتَمَعِ والذّاتِ،

كَما واجَهَ حَتميّةَ الفَناءِ وعَبثيّةَ الوُجودِ، لَما سَعى بِعِنادٍ لِتَحطيمِها بِقُوَّةِ الفِكرِ وجُرأةِ الإرادةِ. كانتْ كُلُّ خُطوةٍ خَطاها نَحوَ ما يُسمّى بِالحَضارةِ مُشتَعِلةً بِنارِ الحاجةِ المُحرِقةِ، تِلكَ النّارُ ذاتُها التي رأيناها تَحرِقُ وَعيَهُ وتُضيءُ طَريقَهُ المُعتِمَ في آنٍ واحِدٍ: الحاجةُ المُلِحّةُ لِلبَقاءِ في وَجهِ طَبيعَةٍ قاسِيةٍ لا تَرحَمُ، الحاجةُ القَلِقةُ لِلفَهمِ في وَجهِ مَجهولِ الوُجودِ الذي لا يُجيبُ، الحاجةُ المُستميتةُ لِلتَّجاوُزِ في وَجهِ عَجزِهِ المُتَذَبْذِبِ الذي يُحطِّمُهُ. فَلَوْ كانَ الإنسانُ قادِرًا على التَّكَيُّفِ الكامِلِ مَعَ العالَمِ بِسَلاسَةٍ وبَساطةٍ، كَما تَكَيَّفَتِ الكائناتُ الأُخرى في غَفْلَتِها، لَما كانَتْ هُناكَ فَلسفةٌ تُفَسِّرُ وتُعَقِّدُ، ولا فَنٌّ يُشَكِّلُ ويُجَمِّلُ الألَمَ، ولا عِلمٌ يَكتَشِفُ ويُسَيطِرُ، ولا حتّى حَضارةٌ بِكُلِّ تَعقيداتِها ومَآسيها تُبنى. لأنَّ الاكتِفاءَ يُوقِفُ الحَرَكةَ ويؤدّي إلى الرُّكودِ، بَينما النَّقصُ، الألَمُ، المُعاناةُ، هيَ وَحدَها التي تُحَرِّكُ عَجَلَةَ التّاريخِ وتَدفَعُ الإنسانَ إلى الأمامِ، حتّى لو كانَ هذا الأمامُ مُجَرَّدَ وَهمٍ آخَرَ.

إنَّ إحساسَهُ الدّائِمَ، المُؤرِّقَ، بِعَدَمِ الاكتِمالِ، بِأنَّ هُناكَ شَيئًا ما جَوهَريًّا ناقِصًا في وُجودِهِ، ذاكَ الإحساسُ الذي رأيناهُ يُولِّدُ القَلَقَ والشَّكَّ ويَفتَحُ أبوابَ الجَحيمِ الدّاخِليِّ، هوَ ذاتُهُ، بِشَكلٍ مُفارِقٍ ومُحيِّرٍ، ما يَدفَعُهُ بِلا تَوقُّفٍ إلى السَّعيِ، إلى البَحثِ، إلى التَّنقيبِ، إلى التَّجريبِ المُستمِرِّ في مُحاوَلةٍ لا تَهدأُ لِسَدِّ تِلكَ الفَجوةِ الهائِلةِ، تِلكَ الهُوّةِ السّحيقةِ، التي تَفصِلُ بينَ واقِعِهِ الهَشِّ والمُتَشظّي، وبينَ تِلكَ الطُّمأنينةِ المُطلَقةِ، ذلِكَ التّناغُمِ الكامِلِ، الذي يَتوقُ إليهِ بِكُلِّ كِيانِهِ، كَما يَتوقُ العَطشانُ في الصَّحراءِ إلى نَبعِ ماءٍ لا يَعرِفُ إنْ كانَ مَوجودًا أمْ مُجَرَّدَ سَرابٍ. فَكِّرْ مَعي، أيُّها القارِئُ المُتعَبُ، في كُلِّ اختِراعٍ بَشريٍّ غيَّرَ وَجهَ التّاريخِ: النّارُ التي اكتَشَفَها الإنسانُ البَدائيُّ لِيُدافِعَ بِها عنْ نَفسِهِ الهَشّةِ منْ بُرودةِ اللَّيلِ القارِسِ ومنْ أنيابِ الوُحوشِ المُفتَرِسةِ، الزِّراعةُ التي أسَّسَها بِصَبرٍ لِيَهرُبَ منْ ذُلِّ الجُوعِ وعَشوائيّةِ الصَّيدِ والالتِقاطِ. فَكِّرْ في كُلِّ نَظَريّةٍ فَلسفيّةٍ أو عِلميّةٍ كُبرى، في كُلِّ عَمَلٍ فَنِّيٍّ خالِدٍ، في كُلِّ ثَورةٍ فِكريّةٍ أو اجتِماعيّةٍ هَزَّتْ أركانَ العالَمِ: منْ جَدَلِ أفلاطونَ الباحِثِ عنِ المُثُلِ الكامِلةِ، إلى نِسبيّةِ آينشتاينَ التي حَطَّمَتِ اليَقينَ النّيوتونيَّ، منْ صُخورِ الكُهوفِ المَنقوشةِ بِالرُّعبِ والأمَلِ، إلى زُجاجِ الكاتِدرائيّاتِ الشّاهِقةِ المُلَوَّنِ بِألوانِ الإيمانِ والقَلَقِ. تَجِدُ دائمًا خَلفَ كُلِّ هذهِ الإنجازاتِ، وفي جُذورِها العَميقةِ، مُعاناةً ما، ألَمًا ما، نَقصًا ما، هوَ الذي دَفَعَ أصحابَها بِقُوّةٍ إلى إعادةِ تَشكيلِ الواقِعِ، إلى تَجاوُزِ الحُدودِ، كَما دَفَعَتِ الفَنّانينَ إلى تَشكيلِ الألَمِ وتحويلِهِ إلى جَمالٍ. منَ الفَلسفاتِ الكُبرى التي وُلِدَتْ منْ صَميمِ قَلَقِ الإنسانِ المُفزِعِ أمامَ الصَّمتِ الكَونيِّ المُطبِقِ، إلى الثَّوراتِ الاجتِماعيّةِ التي انْدَلَعَتْ كَالبُركانِ منْ قَهرِ

العَجْزِ البَشريّ أمامَ الظُّلْمِ والطُّغيانِ، كانتِ المُعاناةُ دائمًا هيَ الدّافِعَ الخَفيَّ، القُوّةَ الجبّارةَ التي تُحرّكُ عَجَلَةَ التّاريخِ المُتعَثّرَةَ، كما حَرَّكَتْ عَجَلَةَ وَعيِهِ القَلِقِ. حتّى في أكثَرِ الأوقاتِ التي تَبدو فيها الحَياةُ فارِغةً، خاليةً منْ أيّ مَعنًى واضِحٍ، حينَ يَعجزُ الإنسانُ عنْ إيجادِ إجابةٍ واحِدةٍ تُريحُهُ كما عَجَزَ أمامَ الفَراغِ الكَونيّ، يكونُ سُؤالُهُ نَفسُهُ، هذا السُّؤالُ المُلِحُّ الذي لا يَكُفُّ عنْ طَرْحِهِ، دَليلاً قاطِعًا على استمراريّةِ بَحثِهِ، على رَفضِهِ العَنيدِ لأنْ يكونَ مُجرَّدَ كائنٍ سَلبيٍّ، قِطعةَ طينٍ، يَتقَبَّلُ بِخُضوعٍ ما يُفرَضُ عليهِ منْ قَدَرٍ أوْ ظُروفٍ كما تَتقَبَّلُ الحَيواناتُ مَصيرَها بِغَريزةٍ عَمياءَ. بلْ يُصِرُّ، بِشَكلٍ مَأساويٍّ ورائِعٍ في آنٍ، على أنْ يُواجِهَ، أنْ يُحاوِلَ، أنْ يُشَكِّلَ، أنْ يَصْرُخَ في وَجهِ الرّيحِ، حتّى لو كانَ ذلكَ في مُواجَهةِ عَدُوٍّ لا يُهزَمُ كالزَّمنِ أوِ المَوتِ، حتّى لوْ كانتْ مُحاوَلاتُهُ لا تُؤدّي إلا إلى المَزيدِ منَ الأَلَمِ.

وهكَذا، فَإنَّ أصْلَ المُعاناةِ العَقليّةِ، يَنبوعَها الأوَّلَ الذي لا يَنضُبُ، لا يَكمُنُ في شَيءٍ خارِجيٍّ تَمامًا، ليسَ في المَوتِ كَحَدَثٍ بيولوجيٍّ، ولا في الظُّروفِ القاسيةِ كَتَحدٍّ ماديٍّ، بلْ يَكمُنُ، بِشَكلٍ جوهَريٍّ ومُقْلِقٍ، في طَبيعَةِ الإنسانِ نَفسِهِ، في ازدواجيّتِهِ المُتَأصّلةِ والمُؤلِمةِ، تِلكَ الازدواجيّةُ التي رأيناها تُمزّقُهُ مُنذُ أنْ بَدأَ يُدرِكُ ويَسألُ ويَحلُمُ. تِلكَ الازدواجيّةُ القاتِلةُ التي تَجعلُهُ دائمًا مَشطورًا، مُمَزَّقًا، بينَ ما هوَ كائنٌ فِعلاً - كائنٌ مَحدودٌ بِالزَّمنِ، عَاجِزٌ أمامَ القَدَرِ، فانٍ لا مَحالةَ، مُجرَّدُ وَمضةٍ في لَيلِ الكَونِ - وبينَ ما يُريدُ أنْ يكونَهُ، ما يَتوقُ إليهِ بِكُلِّ كِيانِهِ - كائنٌ كاملٌ، مُطلَقُ الحُرّيّةِ، أبَديٌّ، خالِدٌ، محورُ الكَونِ وسَيِّدُ المَصيرِ. بينَ حاجَتِهِ المُلِحّةِ إلى الوُضوحِ والنِّظامِ واليَقينِ، كَما كانَ يَحتاجُ إلى المَعنى لِيُواجِهَ العَبَثَ، وبينَ واقِعِهِ الفِعليِّ الذي لا يَمنَحُهُ سِوى الغُموضِ والفَوضى والاحتمالاتِ المُتَضارِبةِ كَما مَنَحَهُ الشَّكُّ بَدلاً منَ اليَقينِ. هذهِ المُعاناةُ النّاتِجةُ عنْ هذا الشَّرخِ الدّاخليِّ، عنْ هذهِ الهُوّةِ بينَ الحُلمِ والواقِعِ، ليستْ مُجرَّدَ حالةٍ نَفسيّةٍ يُمكِنُ تَجاوُزُها، بلْ هيَ الحَياةُ البَشريّةُ نَفسُها، في جَوهَرِها الأعمقِ، كَما كانتْ مُفارَقةُ الوَعيِ هيَ أساسَ وُجودِهِ. وكُلُّ مُحاوَلةٍ لِلهُروبِ مِنْها - سَواءٌ كانَتْ بِالإلهاءِ السَّطحيِّ أوِ الاستِهلاكِ الجُنونيِّ أو حتّى بِالتَّسامي الفَنّيِّ أوِ الرُّوحيِّ - ليستْ في النِّهايةِ إلا شَكلاً آخَرَ مِنْ أشكالِها، وَجهًا مُقَنَّعًا لِنَفسِ الأَلَمِ. كَأنَّ الإنسانَ يُحاوِلُ أنْ يَهرُبَ منْ ظِلِّهِ الذي يُلازِمُهُ، لكِنّهُ يَكتَشِفُ بِأَلَمٍ أنّهُ يَحمِلُهُ مَعَهُ أيْنَما ذَهَبَ. ورُبّما يَكونُ الحَلُّ الوَحيدُ المُمْكِنُ، إنْ كانَ هُناكَ حَلٌّ أصلاً، هوَ القَبولُ، هذا القَبولُ الصَّعبُ، المُرُّ. ليسَ بِمَعنى الاستِسلامِ السَّلبيِّ الخانِعِ كَما قَدْ يُفهَمُ، ليسَ بِالرِّضا البَليدِ بِالقَدَرِ المَحْتومِ، بلْ بِمَعنى الاعترافِ العَميقِ، الشُّجاعِ، بأنَّ العقلَ البَشريَّ، مَهما حاوَلَ، مَهما جاهَدَ، مَهما أبدَعَ كَما أبدَعَ في

الفِكرِ والفَنّ، سَيَظَلُّ دائمًا، وإلى الأبَدِ، يُطارِدُ سَرابَ الإجابةِ النّهائيّةِ، تلكَ الإجابةُ المُستَحيلةُ التي تُنهي القَلَقَ وتُطفِئُ نارَ الشَّكّ وتَمنَحُ السَّلامَ الأبَديَّ. لكِنّهُ لنْ يَصِلَ إليها أبَدًا، ليسَ لأنَّ الطَّريقَ طَويلٌ، بلْ لأنّها بِبَساطةٍ ليستْ مَوجودةً في الواقِعِ، بلْ تَكمُنُ فَقطْ في تَوقُّعاتِهِ الوَاهِمةِ، في أحلامِهِ الطُّفوليّةِ. وأنَّ هذهِ المُطارَدَةَ الأبديّةَ نَفسَها، بِكُلِّ ما فيها منْ قَلَقٍ وشَقاءٍ وألَمٍ كَما رأيناهُ في تاريخِهِ الدّامي، هيَ أيضًا، وبِذاتِ المُفارَقةِ المُحيِّرةِ، ما يَجعَلُ الإنسانَ إنسانًا، ما يُميِّزُهُ عنْ باقي الكَونِ الصّامِتِ، لأنّها تُظهِرُ قُدرَتَهُ العَجيبةَ على السُّؤالِ حتّى في وَجهِ الصَّمتِ، على المُقاوَمةِ حتّى في وَجهِ الهَزيمةِ، على خَلقِ المَعنى حتّى منْ صَميمِ العَبَثِ، حتّى لو كانَ هذا المَعنى مُؤقّتًا، هَشًّا، زائِلاً، كَنارٍ صَغيرةٍ تُضيءُ لِلَحَظاتٍ في ظَلامٍ مُطْبِقٍ ثُمَّ تَنطفِئُ إلى الأبَدِ.

إنَّ هذا القَبولَ الوُجوديَّ العَميقَ لِحَتميّةِ المُعاناةِ كَجُزءٍ منَ الشَّرطِ الإنسانيِّ، لا يُلغي المُعاناةَ بِالسِّحرِ كَما لَمْ تُفلِحْ الاديان في إلغائِها مِنْ قَبْلُ، ولا يَجعَلُ الحَياةَ جَنّةً، بَلْ يُحوِّلُها، يُعيدُ صِياغَتَها، يُعطيها وَجهًا آخَرَ، يُحوِّلُها إلى جُزءٍ منَ الهُويّةِ البَشريّةِ ذاتِها، كَما حَوَّلَها الفَنُّ إلى جَمالٍ، تَجعلُها ليستْ فَقطْ عِبئًا ثَقيلاً يُحمَلُ بِألَمٍ، بلْ رُبّما أيْضًا، وفي لَحَظاتِ تَجَلٍّ نادِرةٍ، قُوّةً خَفيّةً تُشَكِّلُنا وتُصْقِلُنا وتَمنَحُنا عُمقًا لَمْ نَكُنْ لِنَعرِفَهُ لَولاها. ففي كُلِّ مَرّةٍ يَسألُ فيها الإنسانُ 'لِماذا؟' دونَ أنْ يَجِدَ جَوابًا، ويَظَلُّ واقِفًا رُغمَ ذلِكَ، وفي كُلِّ مَرّةٍ يُواجِهُ عَجزَهُ المُتأصِّلَ أمامَ قُوى الكَونِ العَمياءِ ويُواصِلُ المُحاوَلةَ رُغمَ اليأسِ، يَكونُ قَدْ أثبَتَ، لا لِلآخَرينَ، بلْ لِنَفسِهِ أوَّلاً، أنَّ مُعاناتَهُ ليستْ مُجرَّدَ نِقمةٍ تَستَحِقُّ اللَّعنَةَ، أو عُقوبةً يَجِبُ الهُروبُ مِنْها، بلْ هيَ أيْضًا السِّرُّ الغامِضُ الذي يُحرِّكُهُ منَ الدّاخِلِ، الوَقودُ الذي يُغذّي شُعلَةَ وَعيِهِ، الدّافِعُ الذي يَدفَعُهُ لأنْ يُبدِعَ حتّى في قَلبِ الخَرابِ، لأنْ يَحلُمَ حتّى في وَجهِ الكابوسِ، لأنْ يُحاوِلَ أنْ يَترُكَ بَصمةً، ولوْ كانَتْ صَغيرةً، في عالَمٍ لا يَهتَمُّ بِوُجودِهِ أو غِيابِهِ. كَأنَّ المُعاناةَ، في مُفارَقَتِها القُصوى، ليستْ فَقطْ ما يُعَذِّبُهُ ويُمزِّقُهُ، بلْ هيَ أيْضًا ما يُعطيهِ الحَياةَ، ما يَمنَحُهُ فَرادَتَهُ، ما يَجعلُهُ مُختلِفًا عنْ كُلِّ ما حَولَهُ منْ كائِناتٍ مُستَكينةٍ أو مادّةٍ صَمّاءَ. كائنٌ لا يَستَسلِمُ لِلرَّتابةِ المُميتةِ أو لِحَتميّةِ الفَناءِ المُظْلِمِ، بلْ يُواجِهُهُما بِنارٍ داخليّةٍ مُتأجِّجَةٍ، نارٍ تُحرِقُهُ وتُضيئُهُ في آنٍ واحِدٍ، تُبقيهِ يَسعى، يَبحَثُ، يُقاوِمُ، حتّى النِّهايةِ، ليسَ لأنّهُ يَأمَلُ بِالوُصولِ إلى شاطِئِ أمانٍ قَدْ لا يُوجَدُ، بلْ لأنَّ السَّعيَ نَفسَهُ، هذهِ المُطارَدَةَ اليائِسةَ لِلْمُستَحيلِ، هيَ الدَّليلُ الوَحيدُ على وُجودِهِ الحَيِّ، هيَ جَوهَرُ إنسانيّتِهِ المُتمرِّدةِ التي لا تُطفَأُ شُعلَتُها إلا حينَ يَتوقَّفُ الوَعي نَفسُهُ عنِ التَّفكيرِ وعنِ الألَمِ. وحِينَها فَقطْ، في ذلكَ الصَّمتِ المُطْلَقِ، تَنتَهي المُعاناةُ، ليسَ

بِانتِصارٍ لِأيِّ طَرَفٍ، بلْ بِصَمتٍ أبَديٍّ يُنهي القِصّةَ بِلا كَلماتٍ، يُغلِقُ الكِتابَ دونَ أنْ يكتُبَ لهُ خاتِمةً.

لأنَّ العقلَ البَشريَّ، في مُواجَهَتِهِ المُباشِرةِ لِلفَراغِ المُطْلَقِ الذي رأيناهُ يُثقِلُ كاهِلَهُ كَهاجِسِ النِّهايةِ الذي لا يَغيبُ، يُفَضِّلُ دِفءَ الوَهمِ، مَهما كانَ زائِفًا، على صَقيعِ الحَقيقةِ الصّامِتةِ. ولِهذا السَّبَبِ بالذّاتِ، نَجِدُ أنَّ المُجتَمَعاتِ الأكثَرَ هَوَسًا بِالمَوتِ وخَوفًا مِنهُ – تِلكَ التي تُدرِكُ حَتميّتَهُ القاسيةَ دونَ أنْ تَستطيعَ تَقبُّلَها بِشَجاعةٍ – هيَ ذاتُها الأكثَرَ تَعلُّقًا بِالأيديولوجيّاتِ المُغلَقةِ، الأكثَرَ تَشبُّثًا بِالعَقائِدِ الجامِدةِ، سَواءٌ كانتْ دينيّةً تَعِدُ بِجَنّةٍ، أو قَوميّةً تُمَجِّدُ أُمّةً، أو حتّى مادّيّةً تُنكِرُ كُلَّ ما هُوَ خارِجَ الحَواسِّ. لِماذا؟ لأنّها تَحتاجُ بِشَكلٍ مَرَضيٍّ إلى دِرعٍ نَفسيٍّ سَميكٍ، إلى حِمايةٍ وَهميّةٍ، ضِدَّ ذلكَ الفَراغِ المُخيفِ الذي يَترُكُهُ المَوتُ كَفُتحةٍ سَوداءَ في جِدارِ العقلِ البَشريِّ، كَما احتاجَتْ مِنْ قَبْلُ إلى الفَلسفةِ والأساطيرِ لِتُخَفِّفَ منْ قَلَقِها الوُجوديِّ. هذا الإدراكُ العَميقُ، المُتَجذِّرُ، لِحَتميّةِ المَوتِ، الذي بَدأَ رُبّما مَعَ أوّلِ قَبرٍ حَفَرَهُ الإنسانُ لِيُوارِيَ جُثّةَ قَريبٍ، يَدفَعُ الإنسانَ إلى التّفكيرِ بِجِدّيّةٍ أكبَرَ، بِقَلَقٍ أشَدَّ، في اختياراتِهِ في هذهِ الحَياةِ القَصيرةِ. ليسَ لأنّهُ يَملِكُ الإجاباتِ النّهائيّةَ، فَلا إجاباتَ هُنا، بلْ لأنّهُ يَعرِفُ بِوُضوحٍ مُؤلِمٍ أنَّ الوَقتَ مَحدودٌ، وأنَّ الفُرصَةَ لنْ تَتكرَّرَ، كَما عَرَفَ أنَّ الزَّمَنَ عَدُوٌّ لا يَرحَمُ. في عالَمٍ رَأيناهُ مَليئًا بِالفَراغِ الوُجوديِّ والعَشوائيّةِ العَمياءِ التي تُحيطُ بِوَعيِهِ منْ كُلِّ جانِبٍ، يُصبِحُ المَوتُ، بِحُضورِهِ الطّاغي حتّى في غِيابِهِ، هوَ المُحَرِّكَ الوَحيدَ الذي يَمنَحُ الحَياةَ، رُغمَ عَبثِها، شَيئًا منَ الهَدَفِ والمَعنى. ليسَ لأنّهُ يُقَدِّمُهُما فِعلاً مِنْ خارِجٍ، بلْ لأنّهُ، بِقَسْوَةِ حَتميّتِهِ، يُجبِرُ الإنسانَ على خَلقِهِما منْ داخِلِهِ، على إيجادِهِما في لَحَظاتِ وُجودِهِ العابِرةِ. فَكُلُّ قَرارٍ يَتَّخِذُهُ، كُلُّ فِكرةٍ يُفكِّرُ فيها، كُلُّ عَلاقةٍ يُقيمُها، كُلُّ فِعلٍ يَقومُ بِهِ، تُصبِحُ بِشَكلٍ لا واعٍ مُرتَبِطةً بِهذا السِّياقِ الوُجوديِّ المُشحونِ بِالفَناءِ. كَأنَّ المَوتَ هوَ المِرآةُ الأخيرةُ، المِرآةُ الصّادِقةُ، التي يَرى فيها الإنسانُ نَفسَهُ على حَقيقَتِها، يُقيسُ بِها قِيمةَ ما يَفعَلُهُ وقُصرَ ما يَتَبَقّى لهُ. فإذا كانَ المَوتُ حَتميًّا لا مَفَرَّ مِنهُ، كَما كانَ الزَّمَنُ حَتميًّا لا يَتَوقَّفُ، فَإنَّ الحُرّيّةَ الحَقيقيّةَ، النُّبلَ الوَحيدَ المُمْكِنَ، تَكمُنُ في كَيفيّةِ استِغلالِ هذا الوَقتِ المَحدودِ، في قُدرَتِهِ على أنْ يُضفيَ مَعنًى، ولوْ كانَ شَخصيًّا ومُؤقّتًا، على وُجودِهِ القَصيرِ، بَدلاً منْ أنْ يَنتَظِرَ مَعنًى خارِجيًّا أو سَماويًّا يُمنَحُ لهُ كَهِبةٍ أو كَفَضلٍ.

ولكِنْ، ما هوَ المَوتُ حقًّا في جوهَرِهِ العاري، المُجَرَّدِ منْ كُلِّ أقنِعةِ الخوَفِ وأثوابِ الأساطيرِ؟ إنّهُ السُّؤالُ الذي يَنزَلِقُ مِنهُ الجَميعُ كالأفاعي، يَهرُبونَ منْ مُواجَهَتِهِ كَما انزَلَقوا مِنْ قَبلُ منْ مُواجَهةِ أسئلةِ "لِماذا؟" التي فَضَحَتْ فَراغَ وَعيِهِمُ الأوَّلِ. كَأنَّ مُجَرَّدَ نُطقِهِ، مُجَرَّدَ التَّفكيرِ فيهِ، يَفتَحُ بَوّابةَ العَدَمِ المُظلِمَةَ على مِصْراعيها، تِلكَ البَوّابةُ التي حاوَلَ الإنسانُ بِكُلِّ حِيَلِهِ أنْ يَسُدَّها بِأكوامٍ منَ الأساطيرِ المُتَهافِتَةِ والطُّقوسِ الجَوفاءِ. لكِنْ، أيُّ عَبثٍ سَخيفٍ هذا الذي نُضفيهِ على مُجَرَّدِ تَوقُّفٍ؟ أيُّ رُعبٍ مُصطَنَعٍ نَنسِجُهُ حَولَ غِيابٍ بَسيطٍ؟ تَأمَّلْ، إنْ كُنتَ تَجْرُؤُ: بَعدَ وَفاتِكَ، بَعدَ أنْ يَصْمُتَ قَلبُكَ وتَبرُدَ أطرافُكَ، سَتَعودُ تَمامًا، بِلا نُقصانٍ أو زِيادةٍ، إلى ما كُنتَ عليهِ قَبلَ أنْ تُلقيَ بِكَ الصُّدفةُ العَمياءُ في مَحرَقةِ الوُجودِ: لا وَعيٌ يُؤَرِّقُكَ بِأسئِلَتِهِ، لا زَمَنٌ يَنهَشُكَ بِمُرورِهِ، لا شُعورٌ يُمَزِّقُكَ بِأَلَمِهِ أو يُخَدِّرُكَ بِلَذَّتِهِ. مُجَرَّدَ غِيابٍ مُطلَقٍ، صَمتٍ كامِلٍ، عَدَمٍ نَقيٍّ. كَما أنَّكَ لَمْ تَتَأَلَّمْ يَومًا لِعَدَمِ وُجودِكَ في الأزلِ السّحيقِ قَبلَ أنْ تُولَدَ، لَنْ يَكونَ لِلمَوتِ أيُّ أثَرٍ حَقيقيٍّ عليكَ سِوى اختفاءِ كُلِّ ما كُنتَ تَظُنُّهُ، بِغُرورِكَ، "ذاتَكَ".

المَوتُ ليسَ تَهديدًا مُرعِبًا كَما يُصَوِّرُهُ الخوَفُ المَرَضيُّ، وليسَ لَعنةً أبديّةً كَما تُصَنِّفُهُ الأديانُ لِتُحكِمَ قَبضَتَها عليكَ. كَما لَمْ تَتَأَلَّمْ يَومًا لِعَدَمِكَ السّابِقِ قَبلَ أنْ تُكتَبَ سُطورُكَ المُضطَرِبةُ في كِتابِ الحَياةِ، لَنْ يَكونَ لِلمَوتِ أيُّ أثَرٍ عليكَ سِوى مَحْوِ تِلكَ الصَّفحاتِ المُهتَرِئةِ، المُلَطَّخةِ بِالأوهامِ، التي صَنَعْتَ مِنْها هُويَّتَكَ الزّائِفةَ. تِلكَ الأوهامُ المُحَصَّنةُ التي دافَعْتَ عَنْها بِتَعصُّبٍ أعمى، كَما دافَعَ العقلُ الهَشُّ عنْ خَوفِهِ المُقَنَّعِ بِاليَقينِ. تِلكَ الأصداءُ المُستَعارةُ، الباهِتةُ، التي رَدَّدْتَها بِلا وَعيٍ، كَما رَدَّدَتِ العُقولُ المُستأجَرةُ أوامِرَ أسيادِها دونَ سُؤالٍ. لَنْ تُدرِكَ لَحْظَةَ الاختفاءِ، لَنْ تَشعُرَ بِالتَّلاشي، لأنَّ الإدراكَ نَفسَهُ، هذا النُّورَ المُزعِجَ، سَيَنْهارُ كَجِسرٍ مُتَصَدِّعٍ منْ رِمالٍ تَجرِفُهُ مَوجةٌ صامِتةٌ منَ العَدَمِ. ولَنْ يَبقى مِنْكَ، مِنْ كُلِّ قَلَقِكَ وصُراخِكَ وأحلامِكَ، سِوى تِلكَ الفَجوةِ ذاتِها، ذلِكَ الفَراغِ، الذي كُنتَ تُحاوِلُ بِبَلاهةٍ أنْ تَملأَهُ بِتَفكيرِكَ المُفرِطِ، بِقَلَقِكَ الذي نَسَجْتَ مِنهُ قَفَصًا ذَهبيًّا لِرُوحِكَ، بِمُعاناتِكَ التي ظَنَنْتَها دَليلاً على عُمْقِ كَينونَتِكَ. فأيُّ "ما بَعدَ" هذا الذي تَنتَظِرُهُ بِرُعبٍ في خَيالِكَ المَريضِ؟ أنا لا أراهُ فاجِعةً مُروِّعةً كَما رآها أولئكَ الذينَ دَفَنوا مَوتاهُمْ في قُبورٍ مُظلِمةٍ، ولا خَلاصًا مُشْرِقًا كَما وَعَدَتِ الأديانُ بِجَنّاتِها المُزَخرَفةِ، ولا لُغزًا ميتافيزيقيًّا مُعقَّدًا كَما حاوَلَتِ الفَلسفةُ أنْ تَحُلَّهُ بِكلماتِها الجَوفاءِ. بلْ هوَ، بِبَساطةٍ قاسيةٍ، جُزءٌ طَبيعيٌّ، بيولوجيٌّ، منَ الحَياةِ، بِقَدرِ ما هوَ التَّنَفُّسُ الذي يُبقينا على قَيدِ الأَلَمِ، بِقَدرِ ما هيَ الوِلادةُ التي أَلْقَتْ بِنا في هذا الجَحيمِ، بِقَدرِ ما هيَ كُلُّ لَحْظَةٍ نَعيشُها وتَمُرُّ كَسَرابٍ دونَ أنْ نُدرِكَ قيمَتَها حتّى تُغادِرَنا

إلى الأبَدِ. الفَرقُ الوَحيدُ، الفَرقُ القاتِلُ، بينَهُ وبينَ أيِّ حَدَثٍ آخَرَ، هوَ أنَّنا نُبَرمَجُ مُنذُ الصِّغَرِ، بِعُنفٍ ناعِمٍ، على الخَوفِ المَرَضيِّ مِنهُ، كَما نُبَرمَجُ على السُّؤالِ العَقيمِ الذي لا جَوابَ لهُ، على اعتِبارِهِ الفَراغَ المُخيفَ، الهاويةَ التي يَجِبُ مَلؤُها بِأيِّ شَيءٍ، بِأيِّ قُمامةٍ فِكريّةٍ: بِالأساطيرِ التي تَعِدُ بِالخُلودِ، بِالأوهامِ التي تُطَمْئِنُ القَلبَ الخائِفَ، بِالوُعودِ الفارِغةِ التي تُخبِرُنا كَذِبًا أنَّ هُناكَ استمرارًا، أنَّ المَسرحيّةَ الهَزليّةَ لا تَنتَهي أبَدًا كَما تَمَنّى جلجامِشُ في يَأسِهِ. لكِنَّ المَوتَ في ذاتِهِ، مُجَرَّدًا منْ كُلِّ زَخارِفِ الخَوفِ البَشريِّ، حَدَثٌ بَسيطٌ، بارِدٌ، طَبيعيٌّ: الحَياةُ تَتَوقَّفُ كَساعةٍ نَفِدَتْ بَطاريّتُها، والجَسَدُ، هذهِ الآلةُ البَيولوجيّةُ المُعَقَّدةُ، يَتَحَلَّلُ ويَعودُ إلى أصْلِهِ التُّرابيِّ. عَمليّةٌ حَتميّةٌ لا تَعرِفُ الاستثناءَ، تَخضَعُ بِصَرامَةٍ لِقَوانينِ الطَّبيعَةِ العَمياءِ، كَما تَخضَعُ الشَّمْسُ لِدَورَتِها اليَوميّةِ أوِ المِياهُ لِجَريانِها نَحوَ البَحرِ. انهِيارٌ كامِلٌ لِأنظمةِ الجَسَدِ المُعَقَّدةِ، تَعَطُّلٌ لِوَظائِفِ الخَلايا الحَيّةِ، استِسلامٌ مُطلَقٌ لِقانونِ الإنتروبيا الجَبّارِ الذي يَحكُمُ كُلَّ شَيءٍ في هذا الكَونِ، منَ النُّجومِ السّاحِقةِ في أعالي السَّماءِ، إلى أجسادِنا الهَشّةِ التي تَرتَعِشُ منْ مُجَرَّدِ فِكرَةِ فَنائِها. لكِنّهُ، ورُغمَ هذهِ البَساطةِ المادّيّةِ، يَظَلُّ، منَ النّاحيةِ الفَلسفيّةِ والنَّفسيّةِ، التَّحدّي الأكبَرَ، الكابوسَ الأعظَمَ، الذي واجَهَهُ العقلُ البَشريُّ مُنذُ لَحْظَةِ وَعيِهِ الأُولى بِانفِصالِهِ. إنّهُ القَيدُ الذي صاغَ، بِشَكلٍ مُباشِرٍ أو غَيرِ مُباشِرٍ، كُلَّ ما نَعرِفُهُ منْ مَفاهيمَ عنِ المَعنى، الإيمانِ، الزَّمَنِ، الخُلودِ، والأخلاقِ، كَما صاغَتِ المُعاناةُ القاسيةُ مَلامِحَ حَضارَتِهِ المُتَناقِضةِ.

فَجَسَدُ الإنسانِ، هذا الوِعاءُ اللَّحميُّ الهَشُّ، ليسَ سِوى تَركيبةٍ بَيولوجيّةٍ مُعقَّدةٍ، آلةٍ عُضويّةٍ مُتَطوِّرةٍ، تَعمَلُ وَفقَ تَفاعُلاتٍ كيميائيّةٍ دَقيقةٍ وطاقَةٍ كَهرُبائيّةٍ ضَعيفةٍ، كَما كانَ وَعيُهُ مُجَرَّدَ تَركيبةٍ منْ أفكارٍ مُستَعارةٍ وقَلَقٍ مُتَأصِّلٍ. وحينَ يَنطفِئُ الدِّماغُ، هذا الحاسوبُ البَيولوجيُّ المُعَقَّدُ، وتَتَوقَّفُ دَورةُ الدَّمِ، وتَخْمُدُ شُعلَةُ الحَياةِ، يَنهارُ هذا النِّظامُ بِالكَاملِ، كَأيِّ آلَةٍ مُعطَّلةٍ تَتَوقَّفُ عنِ العَمَلِ ويَأكُلُها الصَّدأُ. تَتَلاشى أنظِمَتُهُ المُعَقَّدةُ في تِلكَ الإنتروبيا الكَونيّةِ الشّامِلةِ، إنتروبيا الوَعي ذاتِهِ، التي تُعيدُ كُلَّ شَيءٍ مُنظَّمٍ إلى حالَتِهِ الأوَّلِيّةِ، إلى العَدَمِ، إلى الفَوضى التي لا شَكلَ لَها. لا يُوجَدُ أيُّ شَيءٍ خارِقٌ أو سِرّيٌّ خارِجَ هذهِ العَمَليّةِ المادّيّةِ الباردةِ. لا "روحٌ" مُقَدَّسةٌ تَطيرُ إلى السَّماءِ أو تَنفصِلُ عَنِ الجَسَدِ كَما تَخيَّلَتِ الأديانُ في أساطيرِها الطُّفوليّةِ، ولا وَعيٌ خالِدٌ يَنجو بِأعجوبةٍ منْ تَحَلُّلِ الخَلايا ويَسبَحُ في الأثيرِ كَما أمِلَتِ الفَلسفاتُ الرُّوحيّةُ في تَأمُّلاتِها المُخَدِّرةِ. حتّى ما يُطلَقُ عليهِ بِتَهويلٍ "تَجارِبَ الاقترابِ منَ المَوتِ"، بِكُلِّ ما يُحكى عَنْها منْ أنوارٍ وأنفاقٍ ولِقاءاتٍ، ليستْ في حَقيقَتِها العِلميّةِ سِوى وَمَضاتٍ عَصبيّةٍ أخيرةٍ،

هَلْوَساتٍ كيميائيّةٍ، في دِماغٍ مُحتضِرٍ يفقدُ وَظائفَهُ شَيئًا فَشَيئًا. هَلْوَساتٌ تُنتجُها خلايا تفقدُ تَماسُكَها، تَعيشُ لَحَظاتِها الأخيرَةَ مِنَ النَّشاطِ العَشوائيِّ، حَيثُ تَتَلاشى الحُدودُ الوَهْمِيّةُ بينَ الواقِعِ والخيالِ في لَحْظَةِ الاحتِضارِ المؤلِمَةِ، كَما تَلاشَتْ في لَحَظاتِ الرَّتابةِ الكابوسيّةِ التي جَرَّدَتِ الحَياةَ مِنْ مَعناها. لكِنَّ العِلمَ، رُغمَ دِقَّتِهِ البارِدةِ في تَفكيكِ هذهِ العَمَليّةِ البيولوجيّةِ وتَشريحِ آليّاتِ المَوتِ، يَظَلُّ عاجِزًا، أَصَمَّ، عنِ الإجابةِ على سُؤالٍ أبسَطَ، أكثَرَ إلحاحًا، كَما كانَ عاجِزًا عنْ إنهاءِ الشَّكِّ الوُجوديِّ: لِماذا يَخشى الإنسانُ المَوتَ بِهذا الرُّعبِ المَرَضِيِّ إذا كانَ مُجَرَّدَ انقطاعٍ طَبيعِيٍّ، حَدَثٍ لا يَشعُرُ بهِ؟ لِماذا تَملأُ فِكرَةُ الفَناءِ المُطْلَقِ حَياتَهُ بِالقَلَقِ والاضطرابِ والتَّوَتُّرِ، رُغمَ أنّها حَتميّةٌ كَحَتميّةِ شُروقِ الشَّمسِ أوْ سُقوطِ المَطَرِ؟ هُنا، يَأتي دَورُ عِلمِ النَّفسِ، أوْ رُبّما الشِّعرُ والفَنُّ، لِيكشِفَ عنِ الوَجهِ الآخَرِ لِلمَوتِ، ليسَ كَحَدَثٍ بيولوجيٍّ يُدْرَسُ في المُختَبَرِ، بلْ كَكابوسٍ وُجوديٍّ عَميقٍ، شَبَحٍ أسوَدَ، يُهيمِنُ على اللاوَعيِ البَشريِّ بِقُوّةٍ لا تُقاوَمُ، كَما هيمَنَ الفَراغُ على وَعيِهِ في عَصرِ الحَداثةِ وأفقَدَهُ كُلَّ عَزاءٍ. عبرَ التّاريخِ البَشرِيِّ الطّويلِ، لمْ يكُنْ بِالإمكانِ تَقبُّلُ هذهِ البَساطةِ القاتِلةِ – أنَّ المَوتَ هوَ مُجرَّدُ تَوَقُّفٍ تَوقُّفٍ كامِلٍ لِلوُجودِ – فَتَمَّ تَغليفُهُ، تَلبيسُهُ، بِطَبَقاتٍ سَميكةٍ مِنَ الطُّقوسِ المُعقَّدةِ والأَوهامِ المُطَمْئِنةِ التي تُخفِّفُ مِنْ وَقعِهِ الصّادِمِ على النَّفسِ الهَشّةِ، كَما كانتِ الأساطيرُ تُخفِّفُ مِنْ وَقعِ المَجهولِ وتُعطيهِ اسمًا وصُورَةً. الطُّقوسُ الجَنائزيّةُ التي تُحيطُ المَيّتَ بِالرُّموزِ والتَّعازي والبُكاءِ، الأساطيرُ الخالِدةُ عنِ العَوالِمِ الأُخرى التي تَعِدُ بِالاستمرارِ إمّا في جَنّةٍ أو جَحيمٍ، كُلُّها تعمَلُ كَأدواتِ بَرمجةٍ نَفسيّةٍ مُتقَنةٍ لإعادةِ تَشكيلِ العقلِ، لإقناعِهِ بِرَفضِ فِكرةِ الفَناءِ المُطْلَقِ، لأنَّ هذا الرَّفضَ الوَهميَّ هوَ ما يُبقي الإنسانَ خاضِعًا، قابِلاً لِلسَّيطَرةِ والتَّوجيهِ، كَما كانَ رَفضُهُ لِلعبَثِ هوَ الدّافِعَ الخَفيَّ لِسَعيِهِ الأعمى الذي استُغِلَّ ضِدَّهُ.

هوَ، بِبَساطةٍ مُرعِبةٍ، اختفاءٌ كامِلٌ، مُفاجِئٌ أو مُتوقَّعٌ، لِلوَعي ذاتِهِ، تَلاشٍ نِهائيٌّ لِتلكَ "الأنا" المُتَوَهَّمَةِ التي نَتَشَبَّثُ بِها، عَودَةٌ قَسريّةٌ إلى ما كُنّا عليهِ قبلَ أنْ نُلقى بِنا في هذا الجَحيمِ: إلى العَدَمِ، إلى اللّاشَيءِ المُطْلَقِ، كَما كانَ الفَراغُ يَسكُنُنا قبلَ أنْ يُوقِظَنا الوَعي لِيُعَذِّبَنا. هلْ كُنتَ خائِفًا، أيُّها الكائنُ الهَشُّ، قبلَ وِلادَتِكَ؟ هلْ كُنتَ تَرتَعِشُ في العَدَمِ الذي لا تَتَذَكَّرُهُ، كَما سَألَ أبيقورُ بِبَساطةٍ ثاقِبةٍ في تَأمُّلِهِ الهادِئِ؟ هلْ شَعَرتَ بِاللّاشَيءِ الذي كُنتَ فيهِ قبلَ أنْ يُدرِكَ وَعيُكَ وُجودَكَ المُتعَبَ؟ بالطَّبعِ لا! لأنَّ الخوفَ، هذا الوَحشَ الذي يلتَهِمُنا، يَحتاجُ إلى وَعيٍ حَيٍّ يُدرِكُهُ ويَشعُرُ بهِ، والمَوتُ، هذا النِّسيانُ الكامِلُ، يُنهي ذلكَ الوَعيَ بِضَربةٍ واحِدةٍ قَبلَ أنْ يُمكِنَهُ الشُّعورُ بِأيِّ شَيءٍ، حتّى بِرُعبِ الفَناءِ نَفسِهِ. إذَنْ، لِماذا، بِحَقِّ

الجَحيمِ، يَفزَعُ الإنسانُ مِنْ فِكرةِ أنّهُ سَيعودُ إلى نَفسِ الحالَةِ الهادِئةِ، السّاكِنةِ، التي لَمْ تُزعِجْهُ يومًا ولَمْ تُقلِقْهُ قَطُّ؟ لِماذا هذا الرُّعبُ المَرَضيُّ منَ الصَّمتِ الأبَديِّ؟ لأنَّ الخَوفَ الحَقيقيَّ، الخَوفَ الذي يَنخُرُ في العِظامِ، ليسَ منَ المَوتِ نَفسِهِ كَغِيابٍ، بلْ منْ فِقدانِ ما نَعرِفُهُ الآنَ، منْ انتِهاءِ هذهِ الذّاتِ الهَشّةِ التي بَناها الإنسانُ بِجُهدٍ وألَمٍ، بِكُلِّ ما فيها منْ أسئِلةٍ ومُعاناةٍ وأحلامٍ مُحَطَّمةٍ، كَما كانَ الخَوفُ منَ الفَراغِ هوَ في جَوهَرِهِ خَوفٌ منْ فِقدانِ المَعنى الذي لَمْ يَكُنْ مَوجودًا أصلاً. إنَّ هذا الكابوسَ الوُجوديَّ ليسَ في النِّهايةِ المَحْتومةِ، بلْ في الطَّريقِ المُؤدّي إليها، في تِلكَ اللَّحَظاتِ الطَّويلةِ منَ الوَعيِ الحادِّ التي يُدرِكُ فيها الإنسانُ أنَّ كُلَّ ما سَعى إليهِ بِجُنونٍ سَيَتَلاشى كَالدُّخانِ، أنَّ كُلَّ ما أبْدَعَهُ بِعَبقَريّةٍ لنْ يُنقِذَهُ منَ التُّرابِ، أنَّ وَعيَهُ ذاتَهُ، الذي جَعَلَهُ إنسانًا مُتَفَرِّدًا، هوَ نَفسُهُ الذي يُعَذِّبُهُ بِتَصَوُّرِ النِّهايةِ الباردةِ قَبلَ أنْ تَحدُثَ. كَأنَّ المَوتَ ليسَ فَقَطْ انقطاعًا لِلنَّفَسِ، بلْ هوَ المِرآةُ الأكثَرُ قَسوةً، المِرآةُ التي تُظهِرُ لِلإنسانِ عَجزَهُ المُطلَقَ في أوضَحِ صُوَرِهِ، تُجبِرُهُ على أنْ يَرى نَفسَهُ يَحتَرِقُ بِنارِ إدراكِهِ لِلفَناءِ، كَما احتَرَقَ بِنارِ مُطارَدَةِ السَّرابِ في صَحراءِ الوُجودِ مُنذُ البِدايةِ، دونَ أنْ يَملِكَ سِوى أنْ يُواصِلَ السَّيْرَ المُتعَثِّرَ نَحوَ تِلكَ النُّقطةِ التي لا يُمكِنُهُ اختيارُها، بلْ تَنتَظِرُهُ بِصَمتٍ لِتُنهِيَ السُّؤالَ الأبَديَّ دونَ أنْ تُجيبَ عليهِ.

فالخَوفُ منَ المَوتِ، إذنْ، ليسَ خَوفًا منَ العَدَمِ النَّقيِّ، بلْ هوَ خَوفٌ أنانيٌّ، مَرَضيٌّ، منْ فُقدانِ هذهِ الـ "أنا" المُتَضَخِّمةِ، المُتَوَهَّمَةِ، تِلكَ الذّاتُ الهَشّةُ التي بَناها الإنسانُ بِصُعوبةٍ بالِغةٍ، طوبةً فَوقَ طوبةٍ، منْ حُطامِ أحلامِهِ المُحَطَّمةِ وأوجاعِهِ التي لا تُنسى. خَوفٌ منْ أنَّ كُلَّ شَيءٍ ثَمينٍ يَحمِلُهُ في صَدرِهِ كَكَنزٍ سِرّيٍّ – كُلَّ الذِّكرياتِ الحيّةِ التي شَكَّلَتْ وَعيَهُ المُعَذَّبَ، كُلَّ الحُبِّ الذي مَنَحَ وُجودَهُ مَعنًى عابِرًا، كُلَّ الألَمِ الذي صاغَهُ بِعُمْقٍ كَما صاغَتْهُ المُعاناةُ مِنْ قَبلُ – سَيَتَلاشى بِلَمْحِ البَصَرِ وكَأنّهُ لَمْ يَكُنْ يومًا، كَدُخانٍ يَتَبَدَّدُ في الهواءِ، كَما تَلاشَتْ ذِكرياتُهُ الباهِتةُ في رَتابَةِ الأيّامِ الكابوسيّةِ. هذا هوَ رُعبُ الإنسانِ الحَقيقيُّ الذي يَشُلُّ أطرافَهُ: أنْ يَكونَ كُلُّ شَيءٍ في النِّهايةِ بِلا أثَرٍ باقٍ، بِلا استمراريّةٍ مُتَوَهَّمَةٍ، أنْ يُصبِحَ وُجودُهُ مُجَرَّدَ وَمضةٍ تافِهةٍ، حادِثةٍ عَرَضيّةٍ، في كَونٍ لا يَكتَرِثُ بِهِ أصلاً. كَأنَّ كُلَّ سَعيِهِ المَحمومِ، كُلَّ جُهدِهِ المُضني، كانَ عَبثًا كامِلاً لا يُسَجِّلُهُ أحَدٌ في دَفترِ الوُجودِ. وهذا الرُّعبُ الغَريزيُّ منَ المَحْوِ الكامِلِ هوَ ما يَدفَعُهُ بِشَكلٍ لا واعٍ إلى صِناعةِ قِصصِ الخُلودِ المُخَدِّرةِ، كَما صَنَعَ الأساطيرَ لِيُواجِهَ المَجهولَ. هوَ ما يَدفَعُهُ إلى تَقديسِ الأسلافِ والأبطالِ كَأنّهُمْ آلِهةٌ، وإلى بِناءِ الحَضاراتِ الشّامِخةِ كَأنّها سَتَصمُدُ إلى الأبَدِ، رُغمَ أنّهُ يَعرِفُ في أعماقِهِ، كَما عَرَفَ حَتميّةَ الزَّمَنِ الذي لا يَرحَمُ، أنّها، مِثلَ الأفرادِ، سَتَنتَهي

يَومًا ما، سَتَتَحوَّلُ إلى رُكامٍ منَ النِّسيانِ، كَما انتَهَتْ أطلالُ بابِلَ ورُوما وكُلُّ إمبراطوريّاتِ الوَهْمِ البَشريِّ. لكِنْ، ماذا لوْ قَلَبْنا المِرآةَ؟ ماذا لوْ لمْ يَكُنِ المَوتُ هذا السِّجنَ المُظلِمَ كَما صَوَّرَهُ الخَوفُ المَرَضيُّ، بلْ هوَ في حَقيقتِهِ تَحَرُّرٌ نِهائيٌّ، انْعِتاقٌ كامِلٌ، كَما قَدْ نُدرِكُ في تَأمُّلٍ أعمَقَ، أكثَرَ شَجاعةً؟ ماذا لوْ كانَ عَدَمُ وُجودِ حَياةٍ أُخرى بَعدَهُ ليسَ لَعنةً تَستَوْجِبُ البُكاءَ كَما تَخيَّلَتِ الأديانُ في حُزنِها المُصطَنَعِ، بلْ هوَ هِديّةٌ لا تُقَدَّرُ بِثَمَنٍ، هِديّةٌ تُنهي العِبءَ الثَّقيلَ، تُطفِئُ نارَ الوَعي المُحرِقةَ؟ تَأمَّلْ في هذا: لَوْ كانَ هُناكَ خُلودٌ أبديٌّ كَما تَحلُمُ بِهِ، لَكانَتِ الحَياةُ عُبوديّةً أبديّةً لا تَنتَهي، دائِرةً مُغلَقةً لا مَخرَجَ مِنْها منَ التِّكرارِ المُمِلِّ والمَلَلِ القاتِلِ، كَما تَخيَّلَها نيتشه بِرُعبٍ في فِكرةِ العَوْدِ الأبَديِّ. لَكانَتْ سِجنًا أبديًّا منَ الوَعي المُستمِرِّ الذي لا يَتوقَّفُ عنِ السُّؤالِ دونَ جَوابٍ، وعنِ الألَمِ دونَ خَلاصٍ. لكِنّنا، يا لَحُسْنِ حَظِّنا نَحنُ الفانينَ، نَملِكُ امتيازًا لا تَعرِفُهُ الآلِهةُ المُتَخيَّلَةُ: امتيازَ النِّهايةِ، تِلكَ النِّهايةُ التي تُحَرِّرُنا منْ نارِ الحاجَةِ التي لا تَشبَعُ، منْ لَعنةِ الرَّغبةِ التي رأيناها تُحَرِّكُنا كَدُمًى مُنذُ البِدايةِ، وتُعيدُنا إلى الصَّمتِ الأوَّلِ الذي جِئنا مِنهُ.

الفصل الثامن

العقل المستأجر

هُناكَ، في أغوارِنا السّحيقةِ، في قَرارِ اللاوَعي المُظلِمِ، تكمُنُ مَخاوِفُ لَعينةٌ لَمْ نَخْتَرْها يَومًا، كَما لَمْ نَختَرْ أسماءَنا التي نُدعى بِها أوْ مَلامِحَ وُجوهِنا التي نَرى بِها العالَمَ. وأحاسيسُ عَميقةٌ، مُتَجذِّرةٌ، لَمْ نَصنَعْها بِوَعْينا، كَما لَمْ نَصنَعْ لُغاتِنا التي نُفَكِّرُ ونَحلُمُ فيها. وانفعالاتٌ جامِحةٌ، بَدائيّةٌ، تَنفَجِرُ فينا فَجأةً وتَبدو وكَأنّها وليدةُ اللَّحْظَةِ الآنيّةِ الهارِبةِ، لكِنّها في حَقيقتِها المُظلِمَةِ قَديمةٌ قِدَمَ الزَّمَنِ نَفسِهِ، ضارِبةٌ بِجُذورِها في تُربةِ التّاريخِ البَيولوجيِّ لِجِنسِنا البائسِ، كَما كانتِ المُحرَّماتُ الأُولى قَديمةً، نابِعةً منْ صَميمِ صِراعِ البَقاءِ الأعمى. إنّنا، في كَثيرٍ منْ رُدودِ أفعالِنا الغَريزيّةِ، لا نَهرُبُ منْ أخطارٍ راهِنةٍ، حَقيقيّةٍ، تُهدِّدُنا الآنَ، كَما قَدْ يُظَنُّ في لَحْظَةٍ واعِيةٍ زائِفةٍ، بلْ نَهرُبُ مِنْ صَدَى أخطارٍ قَديمةٍ غابِرةٍ، كَما هَرَبْنا مِنْ صَدَى الفَراغِ المُحيطِ. أصداءٌ مَحفورةٌ بِعُمْقٍ لا يُسْبَرُ غَوْرُهُ في لا وَعينا الجَمْعِيِّ المُتَوارَثِ، كَما حُفِرَتِ الغَرائِزُ في جِيناتِنا الأُولى. أصداءٌ تَنتَقِلُ بِخَفاءٍ عَبرَ الأجيالِ المُتعاقِبةِ، كَما تَنتَقِلُ الجِيناتُ المَرَضيّةُ، كَما انتَقَلَتِ الأساطيرُ المُخَدِّرةُ عَبرَ أصواتِ الرُّواةِ. لِماذا تَخافُ، بِرُعبٍ لا تُبَرِّرُهُ التَّجرِبةُ، منَ العَناكِبِ السَّمْراءِ أوِ الثَّعابينِ المُلتَوِيةِ، حتّى لوْ لَمْ تُؤْذِكَ أيٌّ مِنْهُما يَومًا في حَياتِكَ، كَما لَمْ تُؤْذِكَ فِكرةُ المَوتِ كَعَدَمٍ قبلَ أنْ تَبدأَ بِالتّفكيرِ فيها؟ لأنَّ أسلافَكَ البُؤساءَ، في غاباتِ العُصورِ السّحيقةِ، تَعامَلوا مَعَها كَتَهديدٍ مُميتٍ، كَرَمزٍ لِلخَطَرِ الدّاهِمِ، كَما تَعامَلوا مَعَ الفَوضى الكَونيّةِ كَتَهديدٍ لِنِظامِهِمُ الهَشِّ. الإنسانُ البَدائيُّ الذي لَمْ يَخشَ الأفعى السّامّةَ الكامِنةَ في العُشبِ، كَما لَمْ يَخشَ الخائِنَ المُتَرَبِّصَ في الجَماعَةِ، لَمْ يَعِشْ طَويلاً بِما يَكفي لِيَنْقُلَ جِيناتِ غَفْلَتِهِ القاتِلةِ، كَما لَمْ يَعِشْ طَويلاً لِيَنْقُلَ قِيَمَ تَسامُحِهِ السّاذِجِ. أمّا ذلكَ الذي قَفَزَ مِنْ رُعبٍ غَريزيٍّ عِندَ رُؤيَتِها، كَما قَفَزَ عِندَ سَماعِ صَوتِ الرَّعدِ أوْ رُؤيَةِ الظَّلامِ المُخيفِ، فَقَدْ حَظِيَ بِفُرصةٍ أكبَرَ لِلبَقاءِ، لِلنَّجاةِ، لِلتَّكاثُرِ، كَما حَظِيَ بِفُرصةٍ لِبِناءِ نِظامٍ يُحاوِلُ أنْ يَحْميهِ. وهكَذا، تَمَّ تَوريثُ هذا الخَوفِ الأوَّليِّ، هذا الرُّعبِ الغَريزيِّ، ليسَ عَبرَ القِصَصِ الشَّفَهيّةِ كَما وُرِّثَتِ الأساطيرُ والخُرافاتُ، بلْ عَبرَ الدَّمِ والجِيناتِ، كَما وُرِّثَتِ الغَرائِزُ العَمياءُ. عَبرَ تَركيبةِ الخَلايا العَصَبيّةِ المُعقَّدةِ، كَما وُرِّثَتِ الانفعالاتُ البَدائيّةُ. عَبرَ ذلكَ اللّاوَعي المَوروثِ، القَديمِ، الذي يَتَفاعَلُ في الظَّلامِ دونَ أنْ يَمُرَّ عَبرَ

بَوّابَةِ العقلِ الواعي المُتَرَدِّدِ، كَما تفاعَلَ الخوفُ الغَريزيُّ دونَ أنْ يَحتاجَ إلى سُؤالٍ أو تبريرٍ. هذا اللّاوعي، الذي رأيناهُ يَتَجَلّى في أحلامِنا وكَوابيسِنا وفي أصْلِ مُعاناتِنا النَّفسيّةِ، ليسَ مُجَرَّدَ خَزّانٍ سُفليٍّ لِلغَرائِزِ الحيَوانيّةِ كَما قَدْ يُظَنُّ في تَحليلٍ نَفسيٍّ سَطحيٍّ ومُبَسِّطٍ، بلْ هوَ، في حَقيقتِهِ، مُالِكٌ آخَرُ، سَيِّدٌ خَفيٌّ، لِهذا العقلِ المُستأجَرِ الذي نَتوهَّمُ أنّنا نَملِكُهُ، كَما كانتِ السُّلطةُ الخَفيّةُ لِلمُجتَمَعِ والثَّقافةِ مُالِكًا آخَرَ لِأخلاقِنا وقِيَمِنا. يُملي هذا اللّاوعي انفعالاتِنا اللّامَنطِقيّةَ كَما أمْلَتِ النُّصوصُ المُقَدَّسةُ أوامِرَها الصّارِمةَ، يُشَكِّلُ رُدودَ أفعالِنا العَنيدةَ كَما شَكَّلَتِ الثَّقافةُ المَوروثةُ قِيَمَنا المُتَحَجِّرَةَ، ويَتْرُكُنا نَعتَقِدُ بِغُرورٍ أنّنا نَحنُ مَنْ يَختارُ ويُقَرِّرُ، كَما تَرَكَتْنا الأوهامُ نَعتَقِدُ أنّنا كُنّا أحرارًا في سِجنِنا. لكِنَّ الحَقيقةَ، تِلكَ التي انكَشَفَتْ بِأَلَمٍ في مِرآةِ التَّحَوُّلاتِ الأخلاقيّةِ، أنَّنا لا نَملِكُ حَقًّا إلا ما سُمِحَ لَنا بِامتلاكِهِ ضِمنيًّا، كَما لَمْ نَملِكْ مِنَ المَعرِفةِ إلا ما سُمِحَ لَنا بِمَعرِفَتِهِ داخِلَ القَفَصِ. العقلُ المُستأجَرُ ليسَ حَبيسَ الثَّقافةِ والتَّلقينِ فَحَسْبُ، كَما كانَ حَبيسَ النُّصوصِ والأوامِرِ، بلْ هوَ أيْضًا، وبِشَكلٍ أعمَقَ، حَبيسُ الجَسَدِ الذي وُلِدَ فيهِ، حَبيسُ التّاريخِ البَيولوجيِّ لِجِنسِهِ، كَما كانَ حَبيسَ الفَراغِ الوُجوديِّ الذي وُجِدَ فيهِ بِلا اختيارٍ. إنّهُ مَزيجٌ مُعَقَّدٌ، مُضطَرِبٌ، منْ وِراثةٍ بيولوجيّةٍ عَمياءَ وتَلقينٍ اجتِماعيٍّ قاهِرٍ، كَما كانَ مَزيجًا منَ الخَوفِ الفِطريِّ والطّاعَةِ المُكتَسَبةِ. يَتحرَّكُ هذا العقلُ الهَجينُ بِفِعلِ سُلطةٍ خَفيّةٍ مُزدَوَجةٍ لا نَراها، كَما تُحرِّكُنا الغَرائِزُ والجَماعَةُ بِسُلطَتِهِما التي لَمْ نُدرِكْها في غَفلَتِنا. لكِنّهُ، يا لَسُخريّتِهِ، يَظَلُّ مُقتَنِعًا حتّى العَظْمِ بِأنّهُ هوَ المالِكُ الأوحدُ، السَّيِّدُ المُطْلَقُ، الصّانِعُ لِذاتِهِ، كَما ظَلَّ مُقتَنِعًا مِنْ قَبْلُ بِأنّهُ صانِعُ قِيَمِهِ ومَصدَرُ أخلاقِهِ.

فالطِّفلُ الذي يَرى ثُعبانًا يَلْتَوي أمامَهُ لِأوّلِ مَرّةٍ في حَياتِهِ، لا يَحتاجُ إلى دَرسٍ نَظَريٍّ مُفصَّلٍ في عِلمِ الزَّواحِفِ أو إلى تَحذيرٍ شَفَهيٍّ منْ والِدَيْهِ لِيَشعُرَ بِالخَطَرِ المُفاجِئِ ويَقفِزَ إلى الوَراءِ، كَما لَمْ يَحتَجِ الأوَّلونَ إلى نُصوصٍ مُقَدَّسةٍ أوْ أوامِرَ سَماويّةٍ لِيَخافوا الفَراغَ المُحيطَ بِهِمْ أوْ لِيَرتَعِشوا أمامَ ظُلمَةِ المَجهولِ. الدِّماغُ البَدائِيُّ، المُبرمَجُ عَبرَ مَلايينِ السِّنينَ منَ التَّطوُّرِ والصِّراعِ، يَعرِفُهُ بِالفِعلِ، يَعرِفُ هذا الشَّكلَ المُلتَوِيَ، هذا الرَّمزَ الغَريزيَّ لِلخَطَرِ، كَما عَرَفَ المَوتَ قَبلَ أنْ يُطلِقَ عليهِ اسمًا ويَنسِجَ حَولَهُ الأساطيرَ. الطِّفلُ لَمْ يَرَهُ مِنْ قَبْلُ بِعَينَيهِ، كَما لَمْ يَرَ الفَوضى الكَونيّةَ أوْ يَختَبِرْ قَسوةَ العَدَمِ، لكِنّهُ "يَعرِفُ" بِحَدْسٍ غَريزيٍّ، بِذاكِرةٍ جينيّةٍ عَميقةٍ، أنَّ عليهِ أنْ يَخافَ، أنْ يَبتَعِدَ، أنْ يَهرُبَ، كَما عَرَفَ أنَّ عليهِ أنْ يَهرُبَ منَ النّارِ أوِ الظَّلامِ. هذهِ ليستْ مُجَرَّدَ تَجرِبةٍ فَرديّةٍ عابِرةٍ كَما قَدْ يُظَنُّ في لَحْظَةِ تَفكيرٍ واعٍ، بلْ هيَ استِجابةٌ عُصابيّةٌ عَميقةٌ، عُمرُها آلافُ، بَلْ مَلايينُ، السِّنينَ، كَما كانتِ الطّاعَةُ لِلقائِدِ استِجابةً لِحاجَةِ الجَماعَةِ لِلنِّظامِ.

استجابةٌ مَوروثةٌ منْ أجدادِهِ البُؤساءِ الذينَ عاشوا في عالَمٍ لمْ يَكُنْ وَدودًا أوْ آمِنًا، عالَمٍ كانَتْ فيهِ الأفاعي السّامّةُ والوُحوشُ المُفترِسةُ والظَّلامُ الحالِكُ جُزءًا منَ الواقِعِ اليَوميِّ المُرعِبِ، كَما عاشوا في عالَمٍ اجتِماعيٍّ لمْ يَكُنْ آمِنًا دونَ قَواعِدَ ومُحرَّماتٍ. لِماذا تَرتَعِشُ مِنْ مُجرَّدِ فِكرةِ الظَّلامِ، رُغمَ أنّكَ تَعلَمُ بِعَقلِكَ الرّاشِدِ أنّهُ لا يَحتَوي في ذاتِهِ على أيِّ شَيءٍ ماديٍّ مُخيفٍ، كَما تَعلَمُ أنَّ المَوتَ كَغِيابٍ ليسَ تَهديدًا فِعليًّا؟ لأنَّ الظَّلامَ، بِكُلِّ ما يَحمِلُهُ منْ مَجهولٍ وخَفاءٍ، كانَ يَعني المَوتَ المُحَقَّقَ لِأسلافِكَ المُرتَعِدينَ، كَما كانَ يَعني لَهُمْ فَراغُ المَعنى سُقوطًا في هاويةِ العَبَثِ. اللَّيلُ لمْ يَكُنْ في تَجرِبَتِهِمُ البَدائيّةِ مُجرَّدَ غِيابٍ لِضوءِ الشَّمسِ، كَما لمْ يَكُنِ الفَراغُ مُجرَّدَ غِيابٍ لِلمَعنى، بلْ كانَ زَمَنَ هُجومِ الحَيواناتِ المُفتَرِسةِ التي لا تَرى في الظّلامِ، زَمَنَ سَطوَةِ المَجهولِ الذي لا يُدرَكُ، زَمَنَ ظُهورِ القُوى الخَفيّةِ التي لا تُرى ولا يُمكِنُ السَّيطَرةُ عليها، كَالآلِهةِ والأرواحِ والشَّياطينِ التي تَسكُنُ الظّلامَ في أساطيرِهِمْ. أولئكَ الذينَ لمْ يَحتَرِسوا منَ الظَّلامِ، الذينَ تَجَرَّؤوا على الخُروجِ في اللَّيلِ بِلا حِمايةٍ، كَما لمْ يَحتَرِسوا منَ الخائِنِ أوِ المُختَلِفِ في الجَماعَةِ، لمْ يَعُودوا في الصَّباحِ لِيُخبِروا قِصَّتَهُمْ أوْ لِيُحَذِّروا الآخَرينَ، كَما لمْ يَعُدِ المُرتَدُّونَ لِيُخبِروا عنْ حَقيقةِ شُكوكِهِمْ. أمّا أولئكَ الذينَ شَعَروا بِالخَوفِ الفِطريِّ منَ العَتمَةِ، ولَجَؤوا إلى دِفءِ الكَهفِ ونُورِ النّارِ، كَما شَعَروا بِالخَوفِ منَ المَجهولِ فَلَجَؤوا إلى حِمايةِ الأساطيرِ، فَقَدْ نَجَوْا، وأنجَبوا، ونَقَلوا إلينا، عَبرَ الدِّماءِ والجِينَاتِ، هذا الإحساسَ الغَريزيَّ بِالرُّعبِ منَ الظَّلامِ، كَما نَقَلوا إلينا غَرائِزَ البَقاءِ والتَّكاثُرِ والخُضوعِ لِلجَماعَةِ. ولِماذا نَحلُمُ أحيانًا، في نَومِنا المُضطَرِبِ، بِالسُّقوطِ الحُرِّ منْ أماكِنَ شاهِقةٍ، أوْ بِالمُطارَدَةِ اللّاهِثةِ منْ قِبَلِ وَحشٍ لا نَرى وَجهَهُ، أوْ بِالهَرَبِ اليائِسِ منْ شَيءٍ مَجهولٍ لا نَعرِفُ كُنهَهُ، كَما حَلُمَ الأوَّلونَ بِالفِرارِ منَ الطُّوفانِ أوِ الجَحيمِ؟ لأنَّ هذهِ ليستْ مُجرَّدَ أحلامٍ عَشوائيّةٍ، نِتاجَ عَقلٍ مُتعَبٍ كَما قَدْ نُظُنُّ في سَطحيّةِ تَفكيرِنا، بلْ هيَ أنماطٌ نَفسيّةٌ، نَماذِجُ أوَّليّةٌ (Archetypes) مُتَكَرِّرةٌ في اللاوَعي الجَمعيِّ، كَما كانتِ المُحَرَّماتُ أنماطًا اجتِماعيّةً مُتَكَرِّرةً. قادِمةٌ منْ ماضٍ جَمْعيٍّ سَحيقٍ، منْ تَجارِبِ البَشريّةِ الأُولى، كَما جاءَتْ منْ ماضٍ غَريزيٍّ أكثَرَ عُمْقًا. أحلامُ السُّقوطِ؟ رُبّما لأنَّ أجدادَكَ الأوَّلينَ، الذينَ تَسَلَّقوا الأشجارَ أو سَكَنوا الكُهوفَ في أعالي الجِبالِ لِحمايةِ أنفُسِهِمْ منْ وَحشيّةِ الأرضِ، كَما سَكَنوا في جَماعاتٍ مُتَراصّةٍ لِحمايةِ أنفُسِهِمْ منْ فَوضى الآخَرينَ، كانَ السُّقُوطُ بِالنِّسبةِ لَهُمْ خَطَرًا مُميتًا، دائِمًا، لا يُغتَفَرُ، كَما كانَ الغَدْرُ أوِ الخِيانَةُ خَطَرًا مُميتًا على الجَماعَةِ. أحلامُ المُطارَدَةِ؟ لأنَّ أسلافَكَ، عَبرَ مَلايينِ السِّنينَ، عاشوا في عالَمٍ قاسٍ حيثُ كانَ الهُروبُ منَ المُفتَرِسِ أوِ العَدُوِّ مَسألَةَ

حَياةٍ أو مَوتٍ، كَما كانَ التَّعاوُنُ واليَقَظَةُ مَسألةَ بَقاءٍ. أحلامُ الغَرَقِ؟ لأنَّ الإنسانَ، رُغمَ كُلِّ تَطَوُّرِهِ الظّاهِريِّ كَما تَطَوَّرَتْ أخلاقُهُ وقِيَمُهُ، لَمْ يَكُنْ يَومًا كائِنًا مائِيًّا بِفِطرَتِهِ، كَما لَمْ يَكُنْ كائِنًا مُتَجاوِزًا لِخَوفِهِ وغَرائِزِهِ، وظَلَّتِ المِياهُ العَميقةُ والمُظلِمةُ تُمَثِّلُ لهُ تَهْديدًا غامِضًا، دائِمًا، كَما ظَلَّ المَجهولُ والفَراغُ يُثيرانِ فيهِ الرُّعبَ. هذهِ الغَريزةُ المُكتَسَبةُ، هذهِ الذاكِرةُ الجَماعيّةُ المَدفونةُ، التي رأيناها تَسكُنُ اللاوَعي المَوروثَ وتُوَجِّهُهُ، ليستْ مُجَرَّدَ بَقايا بيولوجيّةٍ عَتيقةٍ، أو آثارٍ لا قِيمةَ لَها كَما قَدْ يُظَنُّ، بلْ هيَ جُزءٌ حَيٌّ، فاعِلٌ، مِنَ الذاكِرةِ الجَمعيّةِ التي تُشَكِّلُ، بِقُوّةٍ خَفيّةٍ، هذا العقلَ المُستأجَرَ الذي نَحمِلُهُ، كَما شَكَّلَتِ الثَّقافةُ المَوروثةُ قِيَمَهُ وأخلاقَهُ.

ومِنْ هُنا نَفهَمُ، بِوُضوحٍ يُشْبِهُ وَخزَ الإبرِ الباردةِ في العَصَبِ الحَيِّ، كَما فَهِمْنا أصْلَ المُعاناةِ في تَجذُّرِها بالوَعي، أنَّ الإنسانَ في حَقيقتِهِ العَميقةِ، ضَعيفٍ، في نَسيجٍ جَماعيٍّ هائِلٍ، مُعقَّدٍ، يَمتَدُّ عَبرَ الزَّمَنِ والمَكانِ كَشَبَكةٍ عَنكَبوتيّةٍ لا نِهايةَ لَها، كُلُّ فِكرةٍ، مَهما بَدَتْ شَخصيّةً أوْ مُبتَكَرةً، تَخطُرُ في بالِكَ المُضطَرِبِ كَوَميضٍ، كُلُّ مَوقِفٍ تَبدو لكَ أنّهُ "طَبيعيٌّ" أوْ "بَديهيٌّ"، كَما بَدَتْ لكَ الطّاعَةُ أوِ الخُضوعُ طَبيعيًّا في سِياقِكَ. كُلُّ إحساسٍ تَجِدُهُ في أعماقِكَ بِديهيًّا، مُتأصّلاً، كَما وَجَدْتَ الخَوفَ مِنَ الظّلامِ أوِ المَوتِ بِديهيًّا ولا يَحتاجُ إلى تَفسيرٍ. كُلُّ هذا، في حَقيقتِهِ، ليسَ نِتاجَ ذاتِكَ الفَريدةِ، هوَ جُزءٌ لا يَتَجَزَّأُ مِنْ تُراثٍ نَفسيٍّ جَمعيٍّ، ثَقيلٍ، مُظلِمٍ، كَما كانَ جُزءًا مِنْ تُراثٍ غَريزيٍّ أعمى. تُراثٌ تَراكَمَ عَبرَ العُصورِ المُتعاقِبةِ، طَبَقةً فَوقَ طَبَقةٍ، كَالرَّمادِ البُركانيِّ، حتّى صارَ غَيرَ مَرئيٍّ، يَسكُنُنا دونَ أنْ نَراهُ، كَما تَراكَمَ الخَوفُ في اللاوَعي حتّى صارَ لا يُرى ولا يُعرَفُ مَصدَرُهُ. نَحنُ لسنا فَقَطْ أفرادًا مُستَقِلّينَ كَما نُحِبُّ أنْ نَتوهَّمَ، ولسنا فَقَطْ أجسادًا بيولوجيّةً تَتَحَرَّكُ، بلْ نَحنُ، بِشَكلٍ مُقْلِقٍ، ظِلالُ الأمواتِ الباهِتةُ، كَما كُنّا ظِلالَ الطَّبيعَةِ في بِدايَتِنا. نَحنُ امتدادٌ حَيٌّ لِقَلَقِهِمُ الذي لَمْ يَهدأْ، كَما كُنّا امتدادًا لِفَراغِ الكَونِ الذي ابْتَلَعَنا. امتدادٌ لِرَغَباتِهِمُ التي لَمْ تَشبَعْ، كَما كُنّا امتدادًا لِغَرائِزِنا التي لا تَكتَفي. امتدادٌ لِمَخاوِفِهِمُ المَرَضيّةِ التي أصْبَحَتْ تُعَرِّفُ وَعيَنا وتُشَكِّلُ حُدودَ عالَمِنا دونَ أنْ نَشعُرَ بِسُلطَتِها الخَفيّةِ، كَما عَرَّفَتْ أفعالَنا الغَريزيّةُ دونَ أنْ نُدرِكَ مَصدَرَها. لا أحَدَ يُفكِّرُ وَحدَهُ في هذا العالَمِ المُتَشابِكِ، كَما لَمْ يَعِشْ أحَدٌ وَحدَهُ في الغابَةِ الأُولى. حتّى عِندَما نَعتَقِدُ أنّنا نَلتَجِئُ إلى صَمْتِنا الخاصِّ، إلى عُزلَتِنا الدّاخليّةِ، كَما اعتَقَدْنا أنّنا نَملِكُ أخلاقَنا أوْ قِيَمَنا بِشَكلٍ مُطلَقٍ، هُناكَ أصواتٌ قَديمةٌ لا تُحصى تَتَحَدَّثُ في أعماقِنا بِلا تَوقُّفٍ، كَما تَحَدَّثَ الخَوفُ في دَواخِلِنا بِمَهْماتٍ مُستَمِرّةٍ. تَهمِسُ لَنا بِإغراءٍ أوْ بِتَهديدٍ، كَما هَمَسَتِ الأساطيرُ

بِوُعودِها وخُرافاتِها. تَدْفَعُنا في اتِّجاهاتٍ لَمْ نَخترْها، كَما دَفَعَتْنا الغَرائِزُ بِعُنفٍ. تُرَدِّدُ في آذانِنا الدّاخليّةِ الكَلماتِ ذاتَها التي قيلَتْ قَبلَ أنْ نُولَدَ بِقُرونٍ طَويلةٍ، كَما رَدَّدَتِ المَعانيَ المُتَوارَثةَ قَبلَ أنْ نُسمّيَها أوْ نُفَكّكَها. الأصواتُ التي تَملأُ فَضاءَ وَعينا ليستْ مِلكًا لَنا بِالكَاملِ، كَما لَمْ تَكُنِ القِيَمُ والأخلاقُ مِلكًا لَنا. بلْ هيَ، في الغالبِ، مُجَرَّدُ صَدًى قَديمٍ، باهِتٍ، مُشوَّهٍ، كَما كانَ الخَوفُ صَدًى لِخَطَرٍ زالَ. هيَ مِيراثٌ غَيرُ مَرئِيٍّ، ثَقيلٌ، يَحيا ويَتَنَفَّسُ في كُلِّ فِكرةٍ نَظُنُّها جَديدةً ومُبتَكَرةً، كَما عاشَ في كُلِّ مُحرِّمٍ ظَنَنّاهُ أَبَديًّا ومُقَدَّسًا. في كُلِّ خِيارٍ نَعتَقِدُ أنّهُ شَخصيٌّ وحُرٌّ، كَما اعتَقَدْنا أنَّ الطّاعَةَ خِيارٌ وليستْ قَسرًا. حينَ تُقَرِّرُ، بِما تَظُنُّهُ كامِلَ وَعيِكَ، أنْ تَسيرَ في طَريقٍ مُعيَّنٍ في الحَياةِ، أوْ أنْ تَعتَنِقَ عَقيدةً ما، كَما قَرَّرْتَ أنْ تُؤمِنَ بِإلهٍ أوْ بِفَلسفةٍ، هلْ هوَ اختيارُكَ الحَقيقيُّ، النّابِعُ منْ صَميمِ ذاتِكَ، كَما كانَ إيمانُكَ بِالأخلاقِ اختيارًا؟ أمْ أنَّ هُناكَ صَوتًا مُتَسَلِّطًا في رأسِكَ، صَوتًا لا تَتَذَكَّرُ حتّى مَتى سَمِعتَهُ لِأوّلِ مَرّةٍ، كَما لا تَتَذَكَّرُ أوّلَ خَوفٍ في طُفولَتِكَ، يُخبِرُكَ بِسُلطَةٍ لا تُقاوَمُ أنَّ هذا هوَ "الطَّريقُ الصَّحيحُ" الوَحيدُ، وأنَّ ما عَداهُ ضَلالٌ وخُسرانٌ، كَما أخبَرَكَ مِنْ قَبْلُ أنَّ هذا هوَ "الحَقُّ" المُبينُ وأنَّ ما عَداهُ باطِلٌ؟ حينَ تُحِبُّ شَخصًا بِشَغَفٍ أوْ تَعتَنِقُ قِيمةً بِحَماسَةٍ، هلْ تُحِبُّهُ كَما هوَ في حَقيقَتِهِ المُعَقَّدةِ، وتَعتَنِقُها كَما هيَ في نِسبيّتِها، أمْ أنَّكَ تُحِبُّهُ وتَعتَنِقُها كَما تَعَلَّمْتَ مِنْ مُجتَمَعِكَ أنَّ الحُبَّ أوِ القيمةَ يَجِبُ أنْ يَكونا، كَما تَعَلَّمْتَ أنَّ الأخلاقَ يَجِبُ أنْ تَكونَ مُطلَقةً وثابِتةً؟ وعِندَما تَكرَهُ، تَحْقِدُ، تَرفُضُ، كَما كَرِهْتَ المُختلِفَ ورَفَضْتَ النّاقِدَ، هلْ هوَ كُرهُكَ الصّافي، النّابِعُ منْ تَجرِبَتِكَ، كَما كانَ خَوفُكَ الأوَّلُ صافيًا وغَريزيًّا؟ أمْ أنَّ هُناكَ ضَغينَةً قَديمةً، مَوروثةً، تَتَحَدَّثُ عَبرَ لِسانِكَ وتُحرِّكُ مَشاعِرَكَ، كَما تَحَدَّثَتْ غَريزةُ البَقاءِ والانتقامِ عَبرَ أسلافِكَ؟

ونَحنُ، في خِضَمِّ هذا الوُجودِ المُثقَلِ، لا نَسكُنُ فَقَطْ أجسادَنا الفانيةَ، هذهِ الأوعيةَ الطِّينيّةَ المَحدودةَ الآنيّةَ، بلْ تَسكنُ عُقولَنا، تِلكَ المَدائِنَ المُحاصَرةَ، جُموعٌ لا تُحصى منَ الآخَرينَ، منْ أصواتِهِمِ الخافِتةِ أوِ الصّاخِبةِ، وأفكارِهِمِ البالِيةِ أوِ السّائِدةِ، وتَوَقُّعاتِهِمِ الثَّقيلةِ الخانِقةِ. فالأمرُ ليسَ مُقتَصِرًا على سُلطانِ الأمواتِ البائِدَةِ، على أشباحِ الماضي السَّحيقِ التي لا تَغادِرُ الحاضِرَ، بلْ يَتَجاوَزُ ذلكَ إلى حُضورٍ طاغٍ، خانِقٍ، لِلأحياءِ المُحيطينَ بِنا في لَيلِنا ونَهارِنا. أنتَ لا تُفكِّرُ بِمُفرَدِكَ في صَومَعَتِكَ، لأنَّ المُجتَمَعَ كُلَّهُ، بِضَجيجِهِ الذي لا يَهدأُ وأعرافِهِ التي لا تَرحَمُ وقَوانينِهِ الخَفيّةِ التي تَحْكُمُ، يَتَحَدَّثُ بِصَوتٍ مُرتَفِعٍ في دَواخِلِكَ، يَتَغَلْغَلُ في نَسيجِ أفكارِكَ كَالماءِ في الرَّملِ، ويُشَكِّلُ مَشاعِرَكَ كَما تُشَكِّلُ الرِّيحُ الكُثبانَ. حينَ تُقَرِّرُ أنْ تَرتَديَ ثَوبًا يُسايِرُ أهواءَ العَصرِ، أوْ تَنطِقَ بِلَهجةٍ تُناسِبُ أهلَ الحَضرِ، أوْ تَتَبَنّى رأيًا يُوافِقُ مَنْ

حَولَكَ منَ البَشَرِ، هلْ أنتَ الفاعِلُ الحرُّ، أمْ صَدًى يَتَرَدَّدُ لِأصواتِ الغيرِ؟ هلْ هيَ إرادَتُكَ الخالِصةُ تَتَجَلّى، أمْ أنَّ ألفَ عَينٍ رَقيبةٍ تَتَمَلّى، وألفَ لِسانٍ ناقِدٍ يَتَسَلّى، وألفَ يَدٍ خَفيّةٍ تُوَجّهُكَ فَلا تَتَوَلّى؟ كُلُّ مُجتَمَعٍ هوَ مَصنَعٌ لا يَكِلُّ، يُنتِجُ الأصواتَ والأفكارَ والقِيَمَ التي تَحتَلُّ العُقولَ ولا تَمَلُّ. المَدرَسةُ، بِسُلطَتِها، تُعَلِّمُكَ الانصياعَ قَبلَ الإبداعِ، وتُلَقِّنُكَ الإجاباتِ الجاهِزةَ وتَمنَعُ الاستِطلاعَ. الإعلامُ، بِطوفانِهِ، يَزرَعُ فيكَ الأوهامَ ويُغَذّي سُلطانَهُ، ويُملي عليكَ الأحلامَ ويُحَدِّدُ بُنيانَهُ. حتّى أعمَقُ المَشاعِرِ، كالحُبِّ الذي يَأسِرُ والكُرهِ الذي يَدمُرُ، تَخضَعُ لِقَوالِبَ تُؤَطِّرُ وتُقَرِّرُ. هذا الصَّوتُ المُستَعمِرُ، القادِمُ منَ الماضي ومِنَ الحاضِرِ المُستَمِرِّ، يُشَكِّلُ هذا العقلَ المُستأجَرَ ويُسَيِّرُ، يُوَجِّهُ خياراتِهِ ويُكَبِّلُ تَحليقاتِهِ، ويَترُكُهُ، في وَهمِهِ الكَبيرِ، يَظُنُّ أنّهُ حُرٌّ، أنّهُ يَملِكُ نَفسَهُ ويُقَدِّرُ. لكِنَّ هذا "الاختيارَ" المُوَجَّهَ ليسَ إلا سَرابًا، قِناعًا مُزَخرَفًا على عَذابٍ، يَتَمَزَّقُ أمامَ الوَعيِ الحَقيقيِّ ويَنجابُ، لِيَكشِفَ عنْ أسْرٍ أعمَقَ، أسْرِ العقلِ لِنَفسِهِ في الغُيّابِ

فَأنتَ إذنْ، تُحِبُّ على طَريقةِ المُجتَمَعِ الذي تَعاهَدَ،وتَحلُمُ ضِمنَ الأسوارِ التي رُسِمَتْ. وتَغضَبُ بِمِقدارِ ما يُرتَضى ويُقبَلُ، لا بِقَدْرِ ما يَثورُ فيكَ العَدلُ ويَتَململُ. وحتّى في تَمَرُّدِكَ على القُيودِ، فَإنّكَ تَدورُ، في الغالِبِ، في ذاتِ الحُدودِ، لا تَخرُجُ حَقًّا مِنْ سِجنِ الوُجودِ. إنَّ أسوأَ أنواعِ العُبوديّةِ، وأخْفاها مَكْرًا، ليسَ قَيدَ الحَديدِ البادِيَ أمْرًا، بلْ ذلكَ القَيدَ النّاعِمَ الوِتْرَا، الذي يُقنِعُكَ أنّهُ أنتَ، وأنّهُ حُرّيّتُكَ السَّمْحا. فالعقلُ المُستأجَرُ لا يُدرِكُ إيجارَهُ، ويُحِبُّ بِجَهلِهِ أسوارَهُ، لأنّهُ يَعيشُ داخِلَ إطارٍ لَمْ يُبصِرْ جِدارَهُ، ولَمْ يُسائِلْ يَومًا مَنِ اختارَهُ. مِنْ أيْنَ تَأتيكَ قَناعاتُكَ الصُّلْبُ؟ هلْ كانَتْ منْ تَفكيرِ قَلبٍ يُحِبُّ؟ أمْ أنّها زُرِعَتْ فيكَ كَنَبتِ شائكٍ، دونَ أنْ تَسألَ إنْ كانَ نَبتُها مُبارَكًا؟ ما الحَلالُ وما الحَرامُ في دُنياكَ؟ أتَسألُ فَتَجِدُ لِسُؤالِكَ إدراكًا؟ أمْ أنّ الجَوابَ يَأتيكَ مُعلّبًا، مُكرَّرًا، مُقَولَبًا، مَصوغًا مِنْ أزمانٍ غابِرةٍ، مُرَدَّدًا حتّى صارَ لِعَقلِكَ طابِعًا؟ أنتَ لا تُفكِّرُ بِذاتِكَ، بلْ يُفَكَّرُ لَكَ في حَياتِكَ. لستَ صاحِبَ العقلِ الذي تَسوقُ، بلْ مُستأجِرُهُ الذي بِالخُضوعِ يَتَوقُ. تَدْفَعُ الإيجارَ بِالطّاعَةِ، وتُرَدِّدُ ما قيلَ وكَأنّهُ ذو بِضاعَةٍ، وتَخشى السُّؤالَ والتَّفكيرَ، حتّى لا تُتَّهَمَ بِالكُفْرِ والتَّكفيرِ، أوْ بِالفَسادِ والتَّقصيرِ، أوْ بِالخُروجِ عنْ خَطِّ السَّيرِ. مُنذُ المِيلادِ، يُصنَعُ لكَ قَفَصٌ بَديعٌ كَأنّهُ المُرادُ، يُعطى لكَ اسمٌ وهويةٌ ودينٌ ومُعتَقَدٌ سَديدٌ، كُلُّها تُنقَشُ في الذِّهنِ الوَليدِ، قَبلَ أنْ تُدرِكَ أنّكَ لَمْ تَختَرْ منها مَا تُريدُ، كَطِفلٍ لا يَسألُ عنِ المَنعِ والمَزيدِ: لِماذا هذا مُحرَّمٌ وذاكَ جائِزٌ؟ لِماذا هذا صَوابٌ وذاكَ عاجِزٌ؟ لِماذا الإيمانُ فَرْضٌ؟ أنتَ فَقَطْ

تُلَقَّنُ وتَقبِضُ، تَتَعَلَّمُ الخُضوعَ قَبلَ الوُضوحِ، وتَتَعَلَّمُ الامتِثالَ قَبلَ النُّزوحِ، وحينَ تَكبُرُ، تَصيرُ القُيودُ جُزءًا مِنْ روحِكَ، تُدافِعُ عنها وتُفديها بِجُروحِكَ، كَالأسيرِ يَذودُ عنْ زِنزانَتِهِ، وكَالعبدِ يَفْخَرُ بِسَيِّدِهِ ومَكانَتِهِ.

إنَّ العقلَ الذي لا يَجرُؤُ على الشَّكِّ والنَّبشِ، كَما لَمْ يَجرُؤْ على السُّؤالِ والخَرْشِ، هوَ عقلٌ ماتَ قبلَ الأوانِ، وإنْ ظلَّ صاحِبُهُ يَمشي بينَ الأحياءِ كإنسانٍ. العقلُ الذي لا يَسألُ عنْ قُيودِهِ، ولا يَبحثُ عنْ مَفاتيحِ سُدودِهِ، هوَ عقلٌ لا يَملِكُ نَفسَهُ في وُجودِهِ، بلْ هوَ مِلكٌ لِمَنْ صاغَ حُدودَهُ، لِمَنْ بَرْمَجَهُ في مَهدِهِ وصُعودِهِ، وأقنَعَهُ أنَّ العالَمَ ينتهي عِندَ أسوارِهِ المَمدودةِ، وأنَّ ما وَراءَها ظُلمَةٌ وجُحودٌ. إنَّ أسوأَ العُقولِ وأشَدَّها وَبالاً، ليستْ تِلكَ التي تَجهَلُ وتَستكينُ ضَلالاً، بلْ تِلكَ التي تَظُنُّ أنّها تَعلَمُ، وتَتَوَهَّمُ أنّها تَفهَمُ، فَتُغلِقُ أبوابَها بِإحكامٍ، وتَرفُضُ كُلَّ جَديدٍ مِنَ الأفكارِ والأحكامِ، كُلَّ ما لا يَتوافَقُ مَعَ قَوالِبِها المَصنوعةِ، أوْ يُخالِفُ قَناعاتِها المَزروعةِ. والخَوفُ، يا لَهولِ الخَوفِ، هوَ الحارِسُ الأمينُ لِهذا القَفَصِ المَهينِ، الخَوفُ منْ لَظى الجَحيمِ، ومنْ عَذابِ النَّبذِ الأليمِ، ومنْ وَحشةِ الوَحدةِ في دَياجيرِ الشَّكِّ، بينما الآخَرونَ في راحَةِ اليَقينِ يَتَفَكَّكونَ أوْ يَنْفَكُّونَ. الخَوفُ هوَ القَيدُ الذي لا يَحتاجُ إلى سِلسِلةٍ، ولا إلى سَجّانٍ ذي بَسالةٍ، القَيدُ الذي تَحمِلُهُ في صَميمِكَ، وتُحكِمُهُ على نَفسِكَ ورَميمِكَ، خَوفًا منَ السُّقوطِ في تِلكَ الهاويةِ السَّحيقةِ، التي لَطالَما حَذَّروكَ مِنْها بِقِصصٍ عَتيقةٍ. فَلَو سَألتَ شَخصًا عنْ سِرِّ إيمانِهِ بِفِكرةٍ مُعَيَّنةٍ، ما سَبَبُ اقتِناعِهِ ووَجدانِهِ، غالِبًا لنْ يَمْنَحَكَ جَوابًا نابِعًا منْ بِئرِ عقلِهِ، أوْ ثَمرةً ناضِجةً منْ حَقلِهِ، بلْ سَيُعطيكَ نُسخةً مَحفوظةً مُصَفّاةً، مُكرَّرةً بالِيةً مُنتقاةً، مُعلَّبةً كَما تَلَقّاها، موروثةً كَما ارتَضاها. والسَّبَبُ بَسيطٌ، جَليٌّ: لَمْ يَبنِ هذهِ الفِكرةَ بِجُهدِهِ، بلِ استأجَرَها بِعَهدِهِ، وَرِثَها كَما يُورَثُ الميراثُ المَفروضُ، لَمْ يَختَبِرْها بِوَعيِهِ المَنقوضُ، ولَمْ يَضَعْها أمامَ مَحكمةِ العقلِ والقَضاءِ المَرفوضُ، ولَمْ يُجَرِّبْ نَقْضَها لِيَعرِفَ إنْ كانتْ تَصمُدُ أمامَ الشَّكِّ المَفروضُ، بلْ قَبِلَها كَما قَبِلَ اسمَهُ عِندَ مِيلادِهِ، وكَما قَبِلَ الإلهَ في ارتِدادِهِ، دونَ مُساءَلةٍ أوْ نِقاشٍ، ودونَ مُقاوَمةٍ أوِ ارتِعاشٍ، بَلْ وبِقَناعَةٍ راسِخةٍ أنّها مِلكُ يَمينِهِ، وجُزءٌ منْ تَكوينِهِ ويَقينِهِ. لكِنّهُ في الحَقيقةِ ليسَ سِوى وَريثٍ لِأثقالٍ فِكريّةٍ وأغلالٍ، تَراكَمَتْ عَبرَ الزَّمَنِ كَالجِبالِ والأوحالِ، ومَعَ ذلكَ تَجِدُهُ يُدافِعُ عَنْها بِقُوّةٍ، كَأنّها امتدادٌ لِرُوحِهِ وذُرْوَتِهِ، وكَأنَّ التَّخَلّيَ عَنْها سَيُمزِّقُهُ منَ الدّاخِلِ ويُلقيهِ في حُفرَةِ مُصابِهِ الآجِلِ. لأنَّ التَّخَلّيَ عنْ فِكرةٍ مُتَجَذِّرَةٍ في العقلِ ليسَ هَدمًا لِفِكرةٍ فَرْدَةٍ، بلْ هوَ تَفكيكٌ لِبُنيةٍ فِكريّةٍ مُمتَدّةٍ. فالإنسانُ لا يُؤمِنُ بِمُعتَقَدٍ واحِدٍ مُنْفَرِدٍ، بلْ يَعيشُ داخِلَ شَبَكةٍ

مُتَشابِكةٍ منَ القِيَمِ والمَفاهيمِ لا تَنفَدُ، تُشَكِّلُ عالَمَهُ وتُحَدِّدُ مَقامَهُ المُمَهَّدُ. وعِندَ أوّلِ شَرخٍ يَظهَرُ في هذا البِناءِ المُشَيَّدِ، يَبْدَأُ كُلُّ شَيءٍ في الانهيارِ والتَّبَدُّدِ. ولِذلِكَ يُفَضِّلُ كَثيرونَ البَقاءَ داخِلَ القَلعَةِ الوَهميّةِ، حتّى لوْ كانَتْ مُتَداعيةً بالِيَةً، حتّى لوْ كانتْ جُدرانُها مُهتَرِئةً وَاهِيةً، حتّى لوْ كانَ سَقفُها على وَشْكِ السُّقوطِ في لَحظةٍ عاتِيةٍ. لأنَّ الخُروجَ مِنْها يَعني مُواجَهةَ العَراءِ المُوحِشِ، حيثُ لا شَيءَ مَألوفٌ يُؤْنِسُ، وحَيثُ لا يَقينَ سَهلٌ يُعانِسُ. والمُعتَقَداتُ الرّاسِخةُ تَمنَحُهُ وَهْمَ الأَمانِ، وتُوَفِّرُ لهُ شُعورًا بِالاستِقرارِ في وَجهِ النُّقصانِ. لِذا، فَإنَّ أوّلَ ما يَفعَلُهُ مَنْ يَبدأُ في تَشْكيكِ أفكارِهِ القَديمةِ، هوَ البَحثُ عنْ بَديلٍ جاهِزٍ، عنْ قَلعةٍ جَديدةٍ لِلاحتِماءِ عَزيزةٍ، بَدلاً منْ مُواجَهةِ الفَراغِ الذي يَتْبَعُ الهَدمَ بِشَجاعةٍ وَفيرةٍ. مِنْ هُنا، نَجِدُ أنَّ كَثيرًا مِمَّنْ يَهجُرونَ قَناعَةً دينيّةً أوْ فِكريّةً، يَقَعونَ فَورًا في فَخِّ قَناعَةٍ أُخرى بِذاتِ الصَّلابةِ الإكريّةِ، كَأنَّهُمْ يَستَبدِلونَ قَفَصًا بِآخَرَ بِلا رَويّةٍ، بَدلاً منْ أنْ يَتَعَلَّموا كَيفَ يَعيشونَ بِلا أقفاصٍ في حُرّيّةٍ قَويّةٍ. هذا اليَقينُ المُصنَّعُ، قَيدٌ آخَرُ لِلبَقيّةِ، يُصنِعُهُ العقلُ المُستأجَرُ لِيَهرُبَ منْ عَذابِ الوَعي وسَطْوَةِ المَنِيّةِ، لكِنّهُ يَبقى حَبيسًا، لا لِلآخَرينَ فَقطْ، بلْ لِوَهمِهِ الذي لا يُفارِقُهُ في البَقيّةِ

ولَوْ وُلِدتَ، يا صَاحِ، في بِيئةٍ أُخرى، أوْ عَاشَرْتَ قَومًا ذَوي صِبْغَةٍ حُمرى، هلْ كُنتَ سَتُؤمِنُ بِذاتِ الأفكارِ التي تَعتَنِقُ اليَومَ وتُعَظِّمُها قَدْرًا؟ خُذْ شَخصًا نَشأَ في مُجتَمَعٍ يُدينُ بِدينِ التَّسليمِ، وآخَرَ في بِيئةٍ تَعْبُدُ المَسيحَ الكَريمَ، وثالِثًا في أُسرةٍ تَتْبَعُ دَرْبَ بوذا الحَكيمَ. سَتَجِدُ أنَّ كُلاًّ مِنْهُمْ يُؤمِنُ إيمانًا مُطلَقًا بِأنَّ ما لَدَيهِ هوَ الحَقُّ المُستَقيمُ، وأنَّ ما عَداهُ هوَ الضَّلالُ الأثيمُ. لِماذا؟ لِأنَّ هذا ما فُطِمَ عليهِ، وما نَشَأَ في حِضنِهِ السَّقيمِ. لكِنْ، لوْ قُدِّرَ لَهُمْ أنْ يُولَدوا في أماكِنَ مُختلِفةٍ، أوْ يَعيشوا في أزمانٍ مُؤتَلِفةٍ، لَكانوا اليَومَ في ضِفّةٍ فِكريّةٍ أُخرى، مُعانِقينَ عَقيدةً كانتْ لَهُمْ نُكْرى، بِنَفسِ اليَقينِ الأعمى، وبِنَفسِ الاستماتَةِ العُظمى، في الدِّفاعِ عَنْها كَأنّها الحَقيقةُ الأسمى. هذا لا يَعني أنَّ الأفكارَ كُلَّها سَواءٌ، أوْ أنَّ الحَقَّ والباطِلَ في استِواءٍ. لكِنّهُ يَكشِفُ حَقيقةً مُرَّةً، حَقيقةً تُثيرُ العَبرَةَ: أنَّ مُعظَمَ النّاسِ لا يَختارونَ ما يَعتَقِدونَ، بلْ يَتَلَقّونَهُ كَإرثٍ مَدفونٍ، ويَعيشونَ الوَهمَ أنّهُمُ الذينَ يُفَكِّرونَ ويُقَرِّرونَ. اسألْ مُتَدَيِّنًا عنْ سِرِّ إيمانِهِ القَويِّ، قُلْ لَهُ: لِماذا أنتَ على هذا الدَّربِ السَّويِّ؟ سَيَقولُ لَكَ بِثِقةٍ: بَحَثْتُ واقتَنَعْتُ بِجُهدي النَّديِّ. لكِنِ اسألْهُ بِنَقدٍ عَلِيٍّ: هلْ بَحَثْتَ خارِجَ حُدودِ إرثِكَ البَهيِّ؟ هلْ تَعامَلْتَ مَعَ الأفكارِ الأُخرى بِحِيادِ القَاضِي الرَّضيِّ؟ أمْ أنَّكَ بَدأتَ الرِّحلَةَ منْ داخِلِ الإطارِ الذي فيهِ كُنتَ صَبيًّا؟ الجَوابُ غالِبًا: لا! فهوَ لَمْ يَبْحَثْ لِيَجِدَ، بلْ بَدأَ بِما وَرِثَ وعَمِدَ، لِيَجِدَ أدِلّةً تُؤَكِّدُ ما قيلَ لهُ وسَنَدَ، لا أدِلّةً تَختَبِرُ أوْ تَنتَقِدُ

أوْ تُفَنِّدُ. هُناكَ فَرقٌ كَالصُّبحِ إذْ بَزَغَ، بينَ البَحثِ الحُرِّ عنِ الحَقيقةِ الذي بَلَغَ، والبَحثِ المُوَجَّهِ عنْ تَبريرِ ما تَعتَقِدُهُ وقدْ نَزَغَ. هذا الإطارُ المَوروثُ، قَيدٌ يُشَكِّلُ العقلَ المُستأجَرَ بِقُوّةٍ خَفيّةٍ، يُحَدِّدُ نُقطةَ الانطلاقِ وَيُحكِمُ الغَلْقَ، ويُقنِعُهُ أنّها اختيارٌ حُرٌّ لِصاحِبِ الحَقِّ.

ولا يَقتَصِرُ هذا الأَسْرُ الخَفيُّ على الدِّينِ والعَقيدةِ، بَلْ يَتَجاوَزُها إلى كُلِّ مَناحي الوَعي الشَّديدةِ. خُذْ شَخصًا يَنتَمي لِأيديولوجيّةٍ سياسيّةٍ عَنيدةٍ، واسألْهُ بِرَويّةٍ: لِماذا تُؤمِنُ بِأنَّ مَذهَبَكَ هذا هوَ النَّجاةُ الوَحيدةُ؟ سَتَجِدُه، في الغالِبِ، ودونَ وَعيٍ مِنهُ بِالحَقيقةِ البَعيدةِ، يُعيدُ إنتاجَ خِطاباتٍ جاهِزةٍ مُفيدةٍ، ويُرَدِّدُ شِعاراتٍ امتَصَّها عَقلُهُ الغَضُّ مُنذُ سِنينَ مَديدةٍ. ولَوْ أنّهُ وُلِدَ في بِيئةٍ أُخرى مُضادّةٍ، أوْ عاشَ تَحتَ رايَةٍ للسُّلطَةِ سادّةٍ، لَتَبَنّى النَّقيضَ تَمامًا لِما هوَ عليهِ، بِنَفسِ الحَماسَةِ الجادّةِ، وبِنَفسِ التَّعَصُّبِ الأعمى الذي لا يَرى فيهِ نَدًّا، وبِنَفسِ الشُّعورِ المُطلَقِ بِأنّهُ على الحَقِّ وما عَداهُ قدْ تَعَدّى. تَخَيَّلْ شَخصًا وُلِدَ داخِلَ قَصرٍ قَديمٍ، مَوروثٍ، بَناهُ أجدادُهُ في زَمَنٍ أثيثٍ، أخبَروهُ أنَّ الخُروجَ مِنهُ خَطَرٌ حَثيثٌ، لأنَّ العالَمَ خارِجَ أسوارِهِ مَليءٌ بِالوَحشيّةِ واللَّغَثِ. كَبُرَ هذا الشَّخصُ في القَصرِ المُنيعِ، وأصْبَحَ مُقتَنِعًا أنّهُ المَكانُ الأجمَلُ والرَّفيعُ، رُغمَ أنّهُ لَمْ يَرَ في حَياتِهِ أيَّ مَكانٍ آخَرَ، لا جَميلاً ولا شَنيعًا. في يَومٍ ما، جاءَهُ زائرٌ فَضوليٌّ، وسَألَهُ بِسُؤالٍ قَويٍّ: 'لِماذا لا تَخرُجُ وتُجَرِّبُ رُؤيةَ العالَمِ بِعَينَيْكَ؟ فَلَعَلَّ فيهِ ما هوَ أبهى وأعْظَمُ وأزكى!' كانَتْ رِدّةُ فِعلِهِ الأُولى هيَ الغَضَبُ الشَّديدُ، والهجومُ العَنيدُ. كَيفَ يَجرُؤُ أحَدٌ على التَّشكيكِ في قَصرِهِ المَجيدِ؟ كَيفَ يُطلَبُ مِنهُ أنْ يَشُكَّ في شَيءٍ نَشَأَ عليهِ مُنذُ عُمرِهِ الوَليدِ؟ لا يُهِمُّ إنْ كانَ العالَمُ خارِجَ القَصرِ أكثَرَ جَمالاً وبَهاءً، لا يُهِمُّ إنْ كانَتْ هُناكَ قُصورٌ أُخرى أكثَرَ اتِّساعًا ورَخاءً، المُهِمُّ أنّهُ يَشعُرُ بِالأمانِ المُعتادِ، داخِلَ الجُدرانِ التي عَرفَها مُنذُ المِيلادِ. هذا هوَ، بِلا رَيبٍ، حالُ العقلِ المُستأجَرِ والمُنقادِ، لا يَرى القُيودَ لِأنّها مَألوفةٌ ومُعتادةٌ، لا يُدرِكُ أنّهُ يَعيشُ داخِلَ إطارٍ ضَيِّقٍ مُحَدَّدِ الأبعادِ، لِأنَّ هذا الإطارَ هوَ كُلُّ ما عَرفَهُ ومَا استَفادَ.

وهُناكَ شَيءٌ غَريبٌ، طَبيعةٌ مُقْلِقةٌ، في العقلِ البَشريِّ الأسيرِ، ذاكَ الخائِفُ المُتَرَدِّدُ الحَسيرُ. فعِندَما يَتَبَنّى الإنسانُ فِكرةً لَمْ يَختَرْها بِنَفسِهِ ولَمْ يَفْحَصْها، أوْ قَناعَةً وَرِثَها ولَمْ يَنقُضْها، غالِبًا ما يَكونُ أكثَرَ تَعَصُّبًا لَها، وأشَدَّ دِفاعًا عَنْها، مِمَّنْ فَكَّرَ فيها بِعُمْقٍ وتَفَحَّصَها. لِماذا هذا التَّعَصُّبُ الأعمى، وهذا التَّشَبُّثُ الأدهى؟ لأنَّ الإنسانَ يَشعُرُ بِالتَّهديدِ والخَطَرِ، حينَ يُسألُ عنْ قَناعاتِهِ ويُوضَعُ على المَحَكِّ الأكْبَرِ. لأنّهُ يُدرِكُ، في

أعماقِهِ السَّحيقةِ، أنّهُ لمْ يَبنِها بِنَفسِهِ، لمْ يُشَيِّدْها بِجُهدِهِ وعَقلِهِ، ولمْ يَختَبِرْها إلا مِنْ زاوِيةٍ واحِدةٍ قاصِرةٍ، الزّاويةِ التي وُضِعَ فيها ولمْ يَقْدِرْ أنْ يَتَحَرَّرَ. عِندَما تُخبِرُ شَخصًا بأنَّ دِينَهُ الذي يَعتَنِقُ، أوْ أيديولوجيَّتَهُ التي يُقَدِّسُ، أوْ حتّى عاداتِهِ اليَوميّةَ التي يُمارِسُ، ليستْ "حقائِقَ" أزَليّةً أوْ فِطرةً إلهيّةً، بلْ هيَ نَتائِجُ لِلبِيئةِ التي وُضِعَ فيها دونَ إرادةٍ، ولِلتَّلقينِ الذي خَضَعَ لهُ دونَ مُقاومةٍ، فإنّهُ، في الغالِبِ، سَيَشعُرُ بِالغَضَبِ الشَّديدِ، بالغَيرَةِ على مَا اعتَقَدَ. ليسَ لِأنّكَ مُخطِئٌ في قَولِكَ، بلْ لِأنّكَ جَعَلتَهُ يُدرِكُ، لِوَهلَةٍ خاطِفةٍ، أنّهُ لمْ يُفَكِّرْ يَومًا في الأمْرِ بِجِدّيّةٍ، أنّهُ تَقبَّلَ كُلَّ شَيءٍ كَمُسلَّماتٍ بَدَهيّةٍ. هذا التَّعَصُّبُ الدِّفاعيُّ، الذي يُغَلِّفُ اليَقينَ المُصَنَّعَ كَقِشرةٍ صُلبَةٍ، ليسَ مُجَرَّدَ رِدّةِ فِعلٍ عَاطِفيّةٍ عابِرةٍ، بلْ هوَ دِرعٌ واقٍ، حِصنٌ مَنيعٌ، يَحمي العقلَ المُستأجَرَ منْ عَذابِ الوَعي النّاقِدِ، ومِنْ ألَمِ الشَّكِّ القاتِلِ. يُقاوِمُ الشَّكَّ لِأنَّ الشَّكَّ يَعني تَفكيكَ الإطارِ المَوروثِ الآمِنِ، ويَرفُضُ السُّؤالَ لِأنَّ السُّؤالَ يَعني مُواجَهةَ الفَراغِ المُوحِشِ المُهينِ. ويُفَضِّلُ الدِّفاعَ عنِ القَصرِ القَديمِ حتّى لوْ كانَ مُتَداعيًا، حتّى لوْ كانَ مُتَهاوِيًا، لِأنَّ الخُروجَ مِنهُ يَعني التَّخَلّيَ عنِ الأمَانِ المَألوفِ والدِّفءِ المَعرُوفِ، يَعني الوُقوفَ عَاريًا، وَحيدًا، أمامَ عالَمٍ مَجهولٍ لا يَعرِفُهُ ولا يَثِقُ فيهِ. والعقلُ المُستأجَرُ، الأسيرُ في قَفَصِهِ الذَّهَبِيِّ، لا يَملِكُ الشَّجاعةَ لِيَخرُجَ، ولا القُوّةَ لِيَسألَ ويُبرِجَ، لأنّهُ لا يَملِكُ نَفسَهُ، بلْ هوَ مِلكٌ لِلإطارِ الذي صِيغَ فيهِ، وَلِلخَوفِ الذي شُكِّلَ بِهِ. يُدافِعُ عنْ قُيودِهِ بِتَعَصُّبٍ، ليسَ لِأنّها الحَقُّ المُبينُ، بلْ لِأنّها كُلُّ ما يَعرِفُ في هذا الحِينِ، ويَخشى أنْ يَفقِدَها، كَما يَخشى الغَريقُ أنْ يَفقِدَ القَشّةَ التي تُنجيهِ، لِأنَّ فِقدانَها يَعني فِقدانَ ذاتِهِ التي لمْ يَبنِها، ومَعناهُ الذي لمْ يَصْنَعْهُ ويَتَبَنَّاها.

والاستبدادُ، يا لَهَولِهِ، لا يَبدأُ فَقطْ مِنْ قُصورِ الحُكمِ العاليةِ، ولا مِنْ دَواوينِ السُّلطانِ الغاليةِ، بلْ يَتَسَلَّلُ إلى البُيوتِ الدّافِئةِ، وإلى المَدارِسِ الهادِئةِ، وإلى العَلاقاتِ اليَوميّةِ الشّائِكةِ. إنّهُ مَوجودٌ، كَظِلٍّ لا يُفارِقُ، في الأبِ الذي يُجبِرُ ابنَهُ على الانحناءِ والطّاعَةِ، بِحُجّةِ الاحترامِ الوَهميّةِ الجائِعَةِ. وفي الأُمِّ التي تُعَلِّمُ ابنَتَها الخُضوعَ الأعمى كَفَضيلةٍ، وتَزرَعُ فيها بَذْرةَ القَبولِ بِلا وعيٍ أوْ مَهيلةٍ. وفي المُعَلِّمِ الذي يُلَقِّنُ طُلّابَهُ الحِفظَ البَبَّغائِيَّ بَدَلَ التّفكيرِ النّاقِدِ، ويَقتُلُ فيهِمْ روحَ السُّؤالِ كَالعَدُوِّ الحاقِدِ. وفي الشَّيخِ الذي يُحَرِّمُ النِّقاشَ ويُجَرِّمُ الاختلافَ، وكَأنَّ السُّؤالَ جَريمةٌ واقتِرافٌ، وكَأنَّ الشَّكَّ كُفرٌ وخِلافٌ. وفي رَجُلِ الأمْنِ الذي يُخيفُكَ بِنَظَراتِهِ الصّارِمةِ، وبِوُجودِهِ المُتَجَهِّمِ في الأزمِنةِ القاتِمةِ، وكَأنَّ حُضورَهُ بِحَدِّ ذاتِهِ تَهديدٌ دائِمٌ، وخَطَرٌ قائِمٌ. يُمكِنُنا القَولُ، بِلا تَردُّدٍ أو مُواربَةٍ، أنَّ مَنظوماتِ الفِكرِ المُهيمِنةَ، سَواءٌ

كانَتْ دينيّةً أمْ سِياسيّةً أمْ اجتِماعيّةً ، هيَ التي تُعيدُ تَشكيلَ طَبيعَةِ الوَعي البَشريّ بِقَسرٍ، كَما ضَمِنَت الطّاعَةُ استمرارَ النّظامِ في قُوَّتِهِ الأعسرِ. قدْ تَتَجَلّى هذهِ المَنظوماتُ في صُورةِ عَقائِدَ تُقَدّسُ وتُبَجّلُ، أوْ نُظُمٍ سِياسيّةٍ تَقمَعُ وتُعَجّلُ، أوْ حتّى تَصَوُّراتٍ ثقافيّةٍ عنِ العالَمِ تُشَكّلُ وتُفَصّلُ. لكِنّها جَميعًا تَتَشارَكُ في آليّةٍ واحِدةٍ غادِرةٍ، كَما تَشارَكَتْ في نَشرِ الخَوفِ الحارِسِ بِآليّةٍ قادِرةٍ: إعادةُ تَعريفِ الواقِعِ بِطَريقَةٍ تَجعَلُ الإنسانَ يَرى قُيودَهُ التي تَكبِّلُهُ، كَحَقائِقَ ثابِتةٍ أزَليّةٍ لا جِدالَ فيها، وكَأمورٍ بَديهيّةٍ لا مَجالَ لِلشَّكّ فيها. هكَذا يُعادُ إنتاجُ الطُّغيانِ كُلَّ يَومٍ، مِنْ خِلالِ ثَقافةِ الخَوفِ المُستَشْرِيةِ، التي تَتَغَلْغَلُ في كُلّ شَيءٍ، كَالهَواءِ الذي نَتَنَفَّسُهُ بِلا تَفكيرٍ. في العَلاقاتِ اليَوميّةِ، في اللُّغةِ المُستَخدَمةِ، في شَكلِ السُّلطَةِ داخِلَ الأُسرةِ المُستَبِدَّةِ، في التَّعليمِ الذي يُلَقّنُ ولا يُحَرّرُ، في الدّينِ الذي يُهَدّدُ ولا يُبَشّرُ، في كُلّ ما يَجعَلُ الإنسانَ يَتَقَبَّلُ الاستبدادَ بِخُضوعٍ، كَأنّهُ قانونٌ طَبيعيٌّ مَشروعٌ، لا يُمكِنُ تَغييرُهُ أوِ الخُروجُ عَليهِ بِلا خُضوعٍ. وهُنا يَكمُنُ جَوهَرُ الاستِعبادِ العَقليّ الأخطَرِ، الاستعبادُ الذي يَجعَلُ الأسيرَ يَعتادُ قُيودَهُ ويُحِبُّها، أنْ يُصبِحَ الإنسانُ غَيرَ قادِرٍ حتّى على تَخَيُّلِ إمكانيّةِ التَّحَرُّرِ يَوْمًا، كَطائِرٍ وُلِدَ في قَفَصٍ فَلَمْ يَعرِفْ مَعنى السَّماءِ أوِ التَّحليقِ يَوْمًا.

وهذهِ المَنظوماتُ القاهِرةُ، لا تُقَدّمُ حُلولاً حَقيقيّةً نافِعةً، كَما لَمْ تُقَدّمْ مَعانيَ صُلْبَةً ساطِعةً، بِقَدْرِ ما تُقَدّمُ أوهامًا مُخَدّرةً، تُرضي الحاجَةَ النَّفسيّةَ العَميقةَ إلى الاستِقرارِ والهُدوءِ، كَما أرضَتْ حاجَتَهُ إلى يَقينٍ مَصنوعٍ يُنهي القَلَقَ ويُبعِدُ السُّوءَ. تُغَلّفُ القَهرَ والعُبوديّةَ بِمَفاهيمَ بَرّاقَةٍ، كَالحَقّ والواجِبِ والنِّظامِ الأوْفَقِ، كَما غُلّفَ الخَوفُ القَديمُ بِالقَداسَةِ المُطلَقةِ، والعِقابُ الإلهيُّ بِالعَدالَةِ المُحَقَّقةِ. وتَجعَلُ الاستِسلامَ الذَّليلَ يَبدو وكَأنّهُ اختِيارٌ واعٍ نَبيلٌ، وطاعَةً حُرّةً لِلسَّبيلِ الفَضيلِ. وحينَ تُعطي وُعودًا بِالتَّغييرِ والإصلاحِ كَما وَعَدَتِ الأديانُ بِالخَلاصِ والنَّجاحِ، فَإنّها تُفرِغُ هذا التَّغييرَ مِنْ مَضمونِهِ الإنسانيّ الأصيلِ، وتُعيدُ تَشكيلَهُ في قَوالِبَ جامِدةٍ تُناسِبُ مَصالِحَ أصحابِ السُّلطَةِ وأهلِ الجاهِ والسِّلاحِ، كَما شُكّلَتِ الأخلاقُ مِنْ قَبْلُ لِتَخدُمَ مَصالِحَ الجَماعَةِ وتُحافِظَ على الكِفاحِ. بِحَيثُ يُصبِحُ "الإصلاحُ" المَزعومُ مُجَرَّدَ إعادةِ تَرتيبٍ لِلأدواتِ القَديمةِ ذاتِها، الأدواتِ التي تُحافِظُ على الهَيمَنَةِ والقَمْعِ، كَما كانَ تَغييرُ المُحَرَّماتِ مُجَرَّدَ إعادةِ تَرتيبٍ لِلنِّظامِ القَبَليّ المَنيعِ. بِهذا الشَّكلِ، لا يَحتاجُ المُستَبِدُّ الحاكِمُ إلى فَرضِ قُيودِهِ بِالقُوّةِ الغاشِمةِ دائِمًا، كَما لَمْ يَحتَجِ الإلهُ المُتَخَيَّلُ إلى إظهارِ عِقابِهِ، لأنَّ العُقولَ المَقهورةَ قَدْ تَوَلَّتِ المُهِمّةَ نِيابَةً عنهُ، كَما تَوَلّى الخَوفُ المُتَأصِّلُ المُهِمّةَ. أصبَحَتْ مُقتَنِعةً بِأنَّ ما تَعيشُهُ مِنْ ذُلٍّ وقَهرٍ هوَ

النِّظامُ الطَّبيعيُّ لِلعالَمِ، وأنَّ أيَّ مُحاوَلةٍ لِلخُروجِ عنهُ ليستْ إلا ضَرباً منَ الفَوضى أوِ التَّهلُكَةِ أوِ الكُفرِ أوِ العَمالَةِ. وحينَ تُزرَعُ هذهِ الفِكرةُ السّامّةُ في جيلٍ تِلوَ جيلٍ بِلا انقطاعٍ، كَما زُرِعَ الخَوفُ في اللّاوعي الجَمعيِّ بِلا ارتِداعٍ، يُصبِحُ الطُّغيانُ هوَ "النِّظامَ الطَّبيعيَّ" المَألوفَ، هوَ الواقِعَ الذي لا جِدالَ فيهِ، ويُصبِحُ غِيابُ القَمعِ هوَ الاستثناءَ المُخيفَ، الأمرَ المُقْلِقَ، كَما أصْبَحَ غِيابُ الإلهِ أوِ القائِدِ مُخيفًا لِلقُلوبِ الوَجِلَةِ. فَيَبدأُ النّاسُ بِالخَوفِ منَ الحُرِّيّةِ أكثَرَ مِنْ خَوفِهِمْ منَ الاستِبدادِ، ويُفَضِّلونَ أنْ يَكونَ هُناكَ سَيِّدٌ قاسٍ يُنَظِّمُ حَياتَهُمْ، كَما فَضَّلوا إلَهًا صارِمًا يُنَظِّمُ أسئِلَتَهُمْ، حتّى لوْ كانَ هذا السَّيِّدُ يَسرِقُهُمْ ويَقتُلُهُمْ ويُهينُ كَرامَتَهُمْ، لِأنَّهُمْ لَمْ يَعرِفوا يَومًا كَيفَ يَعيشونَ بِدونِهِ، بِدونِ سَوطِهِ، بِدونِ قَفَصِهِ الذي اعتادوهُ. هذهِ الطّاعَةُ المُكتَسَبَةُ، المُتَوارَثَةُ، التي رأيناها في الصَّوتِ المُستَعمِرِ الذي يَسكُنُنا، ليستْ مُجَرَّدَ عادَةٍ سَلبيّةٍ، بلْ هيَ آلِيّةٌ خَبيثَةٌ تُعيدُ إنتاجَ القَهرِ بِاستِمرارٍ، كَما أعادَتْ إنتاجَ الخَوفِ والخُرافَةِ. تَجعَلُ العَقلَ المُستأجَرَ لا يَرى القَيدَ كَقَيدٍ، بلْ كَجُزءٍ منْ ذاتِهِ، مِنْ هُوِيَّتِهِ، يُدافِعُ عَنْهُ بِحَرارَةٍ كَما دافَعَ عنْ قَصرِهِ القَديمِ، لِأنَّ التَّخَلّيَ عنهُ يَعني التَّخَلّيَ عنْ أمانِهِ المَوهومِ ويَقينِهِ الزّائِفِ.

وبِالمُقابِلِ، يُظهِرُ التّاريخُ، هذا الشّاهِدُ الصّامِتُ على حَماقاتِنا، كَيفَ أنَّ هذهِ المَنظوماتِ الفِكريّةَ المُهيمِنَةَ، بِكُلِّ تَجَلّياتِها المُتَلَوِّنَةِ، قدْ خَدَمَتْ دائِمًا، وبِوَلاءِ الكَلْبِ لِسَيِّدِهِ، مَصالِحَ القُوى المُسيطِرَةِ وأهلِ الجاهِ والنُّفوذِ. لقدْ عَمَدَتْ بِدَهاءٍ وشِبهِ عُنفٍ، إلى تَرويضِ الأفرادِ وتَدجينِ عُقولِهِمُ البائِسَةِ، وجَعلِهِمْ يَتَبَنَّوْنَ بِخُضوعِ العَبيدِ مَفاهيمَ مُعَدَّةً مُسبَقًا عنِ الواقِعِ والحَقيقَةِ والمَصيرِ، دونَ أنْ يَجرُؤوا حتّى على مُجَرَّدِ التّفكيرِ الهامِسِ في إمكانيّاتٍ أُخرى، أو في طُرُقٍ لِلحَياةِ والفِكرِ تَقَعُ خارِجَ أسوارِ الحَظيرَةِ التي رُسِمَتْ لَهُمْ. يُصبِحُ الأفرادُ بِذلِكَ سُجَناءَ مُقَيَّدينَ لِهذهِ المَنظوماتِ القاهِرَةِ، لا بِفِعلِ القَمعِ المُباشِرِ فَحَسْبُ، بلْ أيْضًا، وهوَ الأخْطَرُ، بِفِعلِ الاعتيادِ الباطِنِيِّ القاتِلِ، لا لِشَيءٍ إلا لِأنَّهُمْ ألِفوا الانصياعَ الذَّليلَ لِسُلطَةٍ ثابِتَةٍ، مَوهومَةٍ أو حَقيقيّةٍ، تَحكُمُ أفكارَهُمْ وتُوَجِّهُ أحلامَهُمْ وتُحَدِّدُ مَدى بَصَرِهِمُ القَصيرِ. عليهِ، فَإنَّ العَقلَ الذي لا يَجرُؤُ على تَحَدّي ما تَلَقَّنَهُ وحَفِظَهُ عَنْ ظَهرِ قَلبٍ، ويَكتَفي بِتَكرارِهِ كَالبَبَّغاءِ المُبَرْمَجِ الذي لا يَفْقَهُ ما يَلْفِظُ، يُصبِحُ في حالَةٍ مُزمِنَةٍ منَ الانغِلاقِ المُميتِ، والجُمودِ القاتِلِ، ويَعجَزُ بِالكامِلِ عنْ إدراكِ الأنماطِ المُتَغيِّرَةِ التي تَطْرَأُ على الوُجودِ أوِ التَّفاعُلِ مَعَها، بَلْ يُصِرُّ على رُؤيَةِ العالَمِ مِنْ خِلالِ نَظّاراتِهِ القَديمَةِ المُتَّسِخَةِ. في ظِلِّ هذهِ الظُّروفِ الخانِقَةِ، لا يُمكِنُ الحَديثُ عنْ أيِّ تَقَدُّمٍ فِكريٍّ حَقيقيٍّ أوْ أيِّ نُضجٍ واعٍ، بلْ فَقَطْ عنِ استنساخٍ مُستمِرٍّ، عَقيمٍ، لِأفكارٍ بالِيَةٍ، مُتَحَجِّرَةٍ، غَيرِ قابِلَةٍ لِلتَّطوُّرِ أوِ

النُّمُوِّ أوِ التَّجاوُزِ. وأحَدُ أكثَرِ تناقُضاتِ هذا العقلِ المُستعبَدِ وُضوحًا وفَضْحًا لِذاتِهِ، هوَ موقِفُهُ المُتَذَبْذِبُ، المُنافِقُ، منَ الفَسادِ والقَهْرِ اللّذَيْنِ يَنخُرانِ في جَسَدِ مُجتَمَعِهِ. تَسمَعُهُ يَشتَكي مِنَ الفَسادِ بِصَوتٍ عالٍ، صَباحَ مَساءَ، ويَلعَنُ المُسؤولينَ والطُّغاةَ بِأقذَعِ الألفاظِ، ويَتَحَدَّثُ عنِ السَّرِقَةِ والمَحسوبيّةِ والظُّلْمِ بِحُرقةِ المَظلومِ ونُبلِ القِدّيسِ. لكِنّهُ، هذا الصّارِخُ المُتأَلِّمُ، في اللّحْظَةِ ذاتِها التي تُتاحُ لهُ فيها فُرصةٌ صَغيرةٌ لِلاستِفادةِ منْ هذا الفَسادِ الذي لَعَنَهُ، لا يَتَرَدَّدُ لَحْظَةً واحِدةً، ويُصبِحُ في غَمضةِ عَينٍ جُزءًا لا يَتَجَزَّأُ منْ مَكينَةِ الفَسادِ وعَجَلَتِهِ التي لا تَتَوَقَّفُ. سَتَراهُ يَدْفَعُ الرِّشوَةَ بِابتِسامةٍ صَفراءَ إنْ ضاقَتْ بهِ السُّبُلُ، ويَستَغِلُّ مَعارِفَهُ ونُفوذَهُ إنْ وَجَدَ لِذلكَ مَحَلاً، ويلتَفُّ على القَانُونِ بِحِيَلٍ ماكِرةٍ مَتى استَطاعَ إلى ذلكَ سَبيلاً. إنّهُ لا يَرفُضُ الفَسادَ لأنّهُ يَراهُ ظالِمًا في جَوهَرِهِ أوْ شرًّا مُطلَقًا، بلْ يَرفُضُهُ فَقَطْ لأنّهُ لا يَستَفيدُ منهُ بِالشَّكلِ الذي يُرضي جَشَعَهُ. ولِهذا، حِينَ تَأتيهِ الفُرصَةُ الذَّهبيّةُ، يَتَحَوَّلُ إلى جُزءٍ لا يَتَجَزَّأُ منهُ دونَ أدنى تَرَدُّدٍ أوْ تَلَوُّمٍ أوْ حتّى شُعورٍ بِالذَّنبِ. إنّهُ يَشتَكي منَ الذُّلِّ والقَمْعِ والهَوانِ، لكنّهُ يُرَبّي أبناءَهُ على الخُضوعِ والسَّمْعِ والطّاعَةِ. يَقولُ لَهُمْ بِصَوتِ النّاصِحِ الأمينِ: 'لا تَرفَعوا رُؤوسَكُمْ في وَجهِ السُّلطانِ فَتُقطَعَ!'، 'لا تَتَحَدَّثوا في السِّياسَةِ فَفيها الهَلاكُ والخُسرانُ!'، 'امشِ الحائطَ الحائطَ وقُلْ يا رَبَّ السَّلامَةَ والأمانَ!'. إنّهُ يَعلَمُ يَقينًا أنَّ هُناكَ قَيدًا حَديديًّا يُكَبِّلُهُ ويَخنُقُهُ، لكنّهُ لا يُحاوِلُ كَسرَهُ أوْ حتّى زَعزَعَتَهُ، بلْ يُعَلِّمُ غَيرَهُ بِإصرارٍ كَيفَ يَتَأَقْلَمُ مَعَهُ، كَيفَ يَحمِلُهُ بِصَبرٍ وخُنوعٍ. وهكَذا، تَستَمِرُّ هذهِ الدَّورةُ المُغلَقَةُ المَشؤومةُ، هذا الميراثُ الكارِثيُّ، جِيلاً بَعدَ جيلٍ، ليسَ فَقَطْ لِأنَّ هُناكَ طاغيةً مُتَجَبِّرًا يَجلِسُ في القَصرِ، بلْ أيْضًا، وهوَ الأخْطَرُ، لِأنَّ هُناكَ أُمّةً كامِلةً تُهَيِّئُ لَهُ الأرضيّةَ الخِصبَةَ وتُقَدِّسُ الأسْرَ، أُمّةٌ تُعيدُ إنتاجَ الاستبدادِ اليَوميِّ في كُلِّ زاويةٍ منْ زَوايا الحَياةِ، في البَيتِ والمَدرَسةِ والشّارِعِ، لِأنّها لا تَعرِفُ عَقلاً غَيرَ المُستأجَرِ، ولا تُقَدِّرُ حُرّيّةَ الفِكرِ، ولا تُحمِلُ لَها أيَّ احتِرامٍ أوْ تَقديرٍ.

فالعقلُ الهَشُّ، هذا الوِعاءُ المُتَصَدِّعُ الذي صاغَهُ التَّلقينُ المُستَمِرُّ وروَّضَهُ الخوفُ المُتَجَذِّرُ، لا يُمكِنُهُ أنْ يَحمِلَ فِكرةً أصيلةً تُزَلزِلُ كِيانَهُ، أوْ أنْ يبدِعَ رؤيةً جَديدةً تَكْسِرُ قُيودَهُ، لأنّهُ، بِبَساطةٍ مُرعِبةٍ، لمْ يُصنَعْ أصلاً لِيحمِلَ شَيئًا ذا قِيمةٍ أوْ لِيُسائِلَ الوُجودَ بِجُرأةٍ. بلْ صُنِعَ لِيكونَ مُجَرَّدَ إناءٍ فارِغٍ، وِعاءٍ مُستَعِدٍّ لِلتَّلَقّي، تَتَدفَّقُ فيهِ الأوامِرُ القادِمةُ منَ الأعلى كَالسُّيولِ الجارِفةِ، وتَتَكاثَرُ فيهِ الإشاعاتُ الكاذِبةُ كَالطُّحْلُبِ السّامِّ على سَطحِ المِياهِ الرّاكِدةِ، وتَتَجَذَّرُ فيهِ الأوهامُ المُخَدِّرةُ كَالأشواكِ الحادّةِ في الحُقولِ المَهجورةِ. هوَ عقلٌ مُمْتَلِئٌ، نَعَمْ، لكِنّهُ مُمْتَلِئٌ بِالقُمامَةِ الفِكريّةِ، بِالمُهمَلاتِ والمُخَلَّفاتِ، بِالمَعلوماتِ المُعلَّبةِ

والمُجفَّفَةِ كَطَعامِ المَوتى الذي لا يُشبِعُ جائِعًا. مُمْتَلِئٌ بِالاقتِباساتِ المُشَوَّهَةِ والمَبتورةِ كَمَرايا مُحَطَّمةٍ لا تَعكِسُ إلا الشَّتاتَ والفَوضى. مُمْتَلِئٌ بِالمَفاهيمِ المُقتَطَعةِ منْ سِياقاتِها بِجَهْلٍ أوْ بِتَدليسٍ، فَلا يَبقى فيها رَبْطٌ أوْ ثَباتٌ. مُمْتَلِئٌ بِالخِطاباتِ الجاهِزةِ، الرَّنّانَةِ، الفارِغةِ، التي تُعفيهِ منْ عَناءِ التَّفكيرِ الحَقيقيِّ ومَشقّةِ البَحثِ الصّادِقِ واقتِفاءِ أثَرِ الحَقيقةِ الهارِبةِ. إنّهُ عقلٌ يَتَبَنّى بِسُهولةٍ كُلَّ ما يُلقى إليهِ مِنْ فُتاتِ الأفكارِ دونَ أدنى تَرَدُّدٍ أوْ تَحَرٍّ، ويَتَشَبَّثُ بِأوهامٍ مُريحةٍ تُخَدِّرُ ضَميرَهُ المُتْعَبَ كَمَرَضٍ مُزمِنٍ. يَعتَقِدُ أنّهُ يَفهَمُ العالَمَ ويُحيطُ بِهِ عِلْمًا وخَبَرًا، بينما هوَ في حَقيقتِهِ المُحزِنةِ ليسَ إلا آلَةَ تَسجيلٍ صَمّاءَ، بَبَّغاءً مُلَوَّنًا، يُرَدِّدُ بِآليّةٍ عَمياءَ ما يَسمَعُهُ مِنْ هُنا وهُناكَ، كَما رَدَّدَتِ الجَماعَةُ الأُولى ما قيلَ لَها مِنْ قادةٍ وكَهَنةٍ. دونَ أنْ يُدرِكَ حتّى مَعنى الكَلماتِ الجَوفاءِ التي يُرَدِّدُها، أوْ خُطورةَ الأفكارِ السّامّةِ التي يَعْتَنِقُها بِحَماسَةٍ مُسَدَّدةٍ. هذا هوَ السَّبَبُ الجَوهَريُّ في أنَّ صاحِبَ هذا العقلِ الهَشِّ يَتَحَدَّثُ بِثِقةٍ مُفرِطةٍ، مُزعِجةٍ، قاتِلةٍ لِلحِوارِ، عنْ أشياءَ لا يَفهَمُ في جَوهَرِها شَيئًا على الإطلاقِ. يُفتي في كُلِّ مَجالٍ بِلا عِلمٍ أوْ دِرايةٍ، كَأنّهُ وَريثُ حِكمةِ الأوَّلينَ والآخِرينَ. يُناقِشُ في كُلِّ قَضيّةٍ بِلا مَنطِقٍ أوْ بُرهانٍ، كَأنّهُ أفلاطونُ زَمانِهِ. لكِنّهُ في الواقِعِ، لا يَقرأُ كِتابًا نافِعًا، لا يَبحَثُ بِجِدّيّةٍ، لا يَشُكُّ في مُسلَّماتِهِ، لا يُراجِعُ مَوارِدَهُ المَشبوهَةَ. بلْ يَعتَمِدُ بِكُلّيّتِهِ على "الحَدسِ الشَّعبيِّ" المُضَلِّلِ، وعلى "صَوتِ الجَماهيرِ" الغَوغائيِّ، وعلى ما هوَ مَألوفٌ ومُكَرَّرٌ ومُهيمِنٌ ومُعتادٌ، كَالقَفَصِ الذَّهبيِّ الذي أَلِفَهُ حتّى عِشْقَهُ. يَعتَمِدُ على ما يُقالُ كَثيرًا في الأسواقِ والأزِقّةِ ومَجالِسِ النَّميمةِ، ظَنًّا مِنهُ، في قِمّةِ جَهلِهِ، أنَّ التَّكرارَ الشَّعبيَّ دَليلٌ قاطِعٌ على الصِّحةِ، وأنَّ الشُّهرةَ عَلامةٌ على الحَقيقةِ، كَما ظَنَّ أنَّ الخَوفَ المُتَوارَثَ دَليلٌ على وُجودِ الإلهِ أو صِحّةِ الحَقِّ. هذا الفَراغُ المُعبَّأُ بِالقُمامَةِ، الذي رأيناهُ يَدورُ في حَلقةِ القَهْرِ المُتَجَدِّدَةِ، ليسَ مُجَرَّدَ ضَعفٍ عَقليٍّ فَرديٍّ كَما قَدْ يُظَنُّ، بلْ هوَ نِتاجٌ حَتميٌّ لِلاستِبدادِ اليَوميِّ المُنتَشِرِ، كَما كانَ نِتاجًا لِلتَّلقينِ القَسريِّ في المَاضي. استِبدادٌ يُحَوِّلُ العقلَ إلى وِعاءٍ هَشٍّ، مُتَصَدِّعٍ، كَما حَوَّلَهُ إلى أداةٍ مُقَيَّدةٍ، صَدِئةٍ، لا يَملِكُ إلا ما يُسكَبُ فيهِ بِقَسرٍ، كَما لَمْ يَملِكْ مِنْ قَبْلُ إلا ما أُمِرَ بِهِ ونُهِيَ عنهُ.

وهذا النَّوعُ منَ البَشَرِ، هذا الوِعاءُ الهَشُّ المُعبَّأُ بِالفَراغِ، لا يَعرِفُ حُدودًا لِجَهلِهِ المُطْبِقِ، كَما لَمْ يَعرِفْ حُدودًا لِخَوفِهِ الأعمى، لأنّهُ لا يَراهُ أصلاً، لا يَشعُرُ بِهِ، كَما لَمْ يَرَ قُضبانَ قَفَصِهِ الذَّهبيِّ الذي يَتَباهى بِهِ. تَجِدُهُ يُناقِشُ الطَّبيبَ الخَبيرَ في أسرارِ مِهنَتِهِ الدَّقيقةِ، لأنّهُ قَرَأَ مَنشورًا سَطحيًّا على "فيسبوك" أوْ شاهَدَ مَقطَعًا مُضَلِّلاً على "يوتيوب"، كَما ناقَشَ الكاهِنَ قَديمًا في شُؤونِ الغَيبِ لِأنّهُ سَمِعَ أُسطورةً في طُفولَتِهِ.

ويُجادِلُ المُهندِسَ المُتمَرِّسَ في تصميمِ البُنيانِ، لِأنّهُ رأى فيديو قصيرًا، مُبتَذَلاً، يَشرَحُ أُصولَ الهَندَسةِ في دَقائقَ مَعدودةٍ، كما جادَلَ الفيلسوفَ العميقَ لِأنّهُ سَمِعَ حِكمةً عابرةً على لِسانِ جاهِلٍ. ويُفتي في الفقهِ وأُصولِ الدِّينِ، لِأنّهُ سَمِعَ خَطيباً مُتحَمِّساً يَتحَدَّثُ عنْ فَتوىً في خُطبةِ الجُمعةِ، كما أفتى في النُّصوصِ المُقَدَّسةِ لِأنّهُ سَمِعَ أمرًا أوْ نَهيًا مِنْ شَيخِهِ. ويُقرِّرُ بِثِقةٍ عَمياءَ إنْ كانتْ نَظَريّةٌ عِلميّةٌ مُعقَّدةٌ صَحيحةً أمْ خاطِئةً، بناءً على "رأيِهِ الشَّخصيِّ" الذي لا يَستَنِدُ إلا إلى الجَهلِ والهَوى، كما قَرَّرَ الحَلالَ والحَرامَ بناءً على خَوفِهِ منَ الجَحيمِ أوْ طَمَعِهِ في الجَنّةِ. ويَتحَدَّثُ في الفَلسفةِ والتّاريخِ والأدَبِ، لِأنّهُ قَرأَ اقتِباسًا قَصيرًا، مُجتَزَأً، على مَواقِعِ التَّواصُلِ الاجتِماعيِّ، كما تَحَدَّثَ في المَعنى والغايَةِ لِأنّهُ سَمِعَ كَلِمةً رَنّانةً لمْ يَفهَمْ عُمْقَها. ويَشعُرُ، بِغُرورٍ لا حُدودَ لهُ، أنَّ لَدَيهِ إجابةً جاهِزةً على أيِّ سُؤالٍ يُطرَحُ عليهِ، لِمُجرَّدِ أنّهُ سَمِعَ إجابةً مُشابِهةً منْ قَبْلُ، كما شَعَرَ بأنّهُ يَملِكُ الحَقَّ المُطلَقَ لِأنّهُ سَمِعَ النُّصوصَ المُقَدَّسةَ أوْ أوامِرَ السُّلطانِ.

إنّهُ عقلٌ مُصابٌ بِعَمى البَصيرةِ، لا يرى نَفسَهُ بِحاجةٍ إلى التَّعَلُّمِ أوِ البَحثِ أوِ التَّدقيقِ، كما لمْ يَرَ نَفسَهُ بِحاجَةٍ إلى الشَّكِّ أوِ النَّقدِ أوِ المُراجَعةِ. لِأنّهُ يَظُنُّ، في وَهمِهِ القاتِلِ، أنّهُ يَعلَمُ كُلَّ شَيءٍ مُسبَقًا، أنّهُ يَملِكُ الحَقيقةَ الكامِلةَ، كما ظَنَّ أنّهُ يَملِكُ قِيَمَهُ وأخلاقَهُ مُنذُ الأزلِ. ولِهذا فَهُوَ لا يَسألُ أبَدًا، كما لمْ يَسألْ عنْ سِرِّ وُجودِ الإلهِ أوْ مَصدَرِ الخَوفِ. لا يُشَكِّكُ في المُسلَّماتِ التي تُحيطُ بهِ، كما لمْ يُشَكِّكْ في عَدالَةِ النِّظامِ أوْ قَداسَةِ النُّصوصِ. لا يَتوَقَّفُ لَحظَةً واحِدةً لِيَقولَ بِتواضُعِ العارِفِ: 'رُبّما لا أعرِفُ، رُبّما أنا مُخطِئٌ'، كما لمْ يَقُلْ يَومًا: "رُبّما أنا خائِفٌ بِلا سَبَبٍ، أوْ مُطيعٌ بِلا حُجّةٍ". بلْ يَستمِرُّ بِعِنادٍ في تَكرارِ نَفسِ الأفكارِ الجَوفاءِ التي استَوعَبَها بِلا أدنى تَحليلٍ أوْ تَفكيكٍ، كما كَرَّرَ الطّاعةَ المُكتَسَبةَ بِلا وَعيٍ. يَستمِرُّ بِلا مُراجَعةٍ ناقِدةٍ، كما كانَ يَعيشُ بِلا نَقدٍ ذاتيٍّ. يَستمِرُّ بِلا وَعيٍ حَقيقيٍّ بِحَجمِ السَّطحيّةِ المُخيفةِ التي يَتحَرَّكُ داخِلَها، كما كانَ يَعيشُ بِلا وَعيٍ بِحَجمِ الخَوفِ الذي يُحرِّكُهُ أوِ القَيدِ الذي يُكَبِّلُهُ. حينَ يُواجِهُ هذا العقلُ المُتَحَجِّرُ مَعلومةً جَديدةً تُعارِضُ قَناعاتِهِ، أوْ فِكرةً غَريبةً تَقَعُ خارِجَ إطارِهِ المَوروثِ الضَّيِّقِ، فَإنّهُ لا يَتوقَّفُ لِيُفكِّرَ فيها أوْ يَستَوعِبَها، كما لمْ يَتوقَّفْ لِيَسألَ أوْ يَبحَثَ. بلْ يُبادِرُ فَورًا إلى مُقاوَمَتِها بِعُنفٍ، إلى رَفضِها بِازدِراءٍ، كما قاوَمَ الشَّكَّ مِنْ قَبْلُ وكما رَفَضَ النَّقدَ. لِماذا؟ لِأنَّ الجَديدَ يُهدِّدُ استِقرارَهُ النَّفسيَّ المُتَوَهَّمَ، كما هَدَّدَ الفَراغُ أمانَهُ المَوهومَ. يُهدِّدُ القَوالِبَ الجاهِزةَ التي عاشَ داخِلَها عُمرًا طَويلاً، كما هَدَّدَتِ التَّحَوُّلاتُ الأخلاقيّةُ قِيَمَهُ الرّاسِخةَ. ولِهذا فَإنّهُ يُهاجِمُ أيَّ فِكرةٍ غَريبةٍ عنهُ بِضَراوةِ الوَحشِ الجَريحِ، كما هاجَمَ المُختلِفَ والنّاقِدَ مِنْ قَبْلُ، ليسَ لِأنّها خاطِئةٌ بِالضَّرورةِ، فَهُوَ لا يَملِكُ أدواتِ الحُكمِ

على الصَّوابِ والخَطَأ، بلْ لأنّها تَجعَلُهُ يَشعُرُ بالنَّقصِ، بأنّهُ ليسَ على دِرايةٍ كاملةٍ بالأمورِ، بأنَّ عالَمَهُ الصَّغيرَ ليسَ هوَ الكَونَ كُلَّهُ، كَما جَعَلَهُ الشَّكُّ يَشعُرُ بأنّهُ ليسَ على يَقينٍ مُطلَقٍ. وهوَ شُعورٌ مُرعِبٌ بالنِّسبةِ لِشَخصٍ بَنى كُلَّ وُجودِهِ على وَهمِ المَعرِفةِ الكاملةِ واليَقينِ المُطلَقِ، كَما كانَ الفَراغُ مُرعِبًا لِمَنْ بَنى وُجودَهُ على وَهمِ المَعنى والغايةِ. هذهِ الثِّقةُ المُهتَرِئةُ، هذا الغُرورُ الأجْوَفُ، الذي رأيناهُ يَتَجَلّى في التَّعَصُّبِ الدِّفاعيِّ الأعمى، ليسَتْ قُوّةً حَقيقيّةً كَما قَدْ يُظَنُّ، بلْ هيَ هَشاشَةٌ مُقَنَّعةٌ، ضَعفٌ يُخفي خَوفًا عَميقًا منَ المَجهولِ، كَما أخْفَتِ الطّاعَةُ خَوفًا منَ الحُرّيّةِ. هَشاشَةٌ تَجعَلُ العقلَ أداةً طَيِّعَةً لِلدَّورةِ المُغلَقةِ، لِدائِرَةِ القَهْرِ المُتَجَدِّدَةِ، كَما جَعَلَتْهُ أداةً لِلاستِبدادِ والخُضوعِ. لا يُقاوِمُ الجَديدَ ويُرَحِّبُ بهِ، بلْ يُعادي التَّغييرَ ويُحارِبُهُ، كَما عادى الشَّكَّ والنَّقدَ، لأنّهُ لا يَملِكُ في رَصيدِهِ سِوى ما أُعطِيَ لهُ قَسرًا، سِوى ما زُرِعَ فيهِ بِلا اختيارٍ، ويَخافُ أنْ يَفقِدَهُ.

وهذا هوَ النَّوعُ منَ البَشَرِ، هذا الوِعاءُ الفارِغُ المُعبَّأُ بالهَواءِ، الذي يَتَحَوَّلُ بِسُهولةٍ مُخيفةٍ إلى أداةٍ عَمياءَ، إلى جُنديٍّ مُطيعٍ، في يَدِ أيِّ سُلطَةٍ غاشِمةٍ، كَما تَحوَّلَ في يَدِ الجَماعَةِ القَبَليّةِ أوِ النِّظامِ الدِّينيِّ. في يَدِ أيِّ تيّارٍ جارفٍ يَجتاحُ المُجتَمَعَ، كَما كانَ في يَدِ النُّصوصِ المُقَدَّسةِ أوِ الأعرافِ المُتَوارَثةِ. في يَدِ أيِّ خِطابٍ قَويٍّ، صاخِبٍ، يَملِكُ القُدرةَ على الصُّراخِ بأعلى صَوتٍ، وعلى تَكرارِ العِباراتِ الجَوفاءِ حتّى تَصْدَأَ الآذانُ، كَما صَرَخَ الخَوفُ مِنْ قَبْلُ بأكثَرِ التَّهديداتِ إرعابًا. إنّهُ لا يَحتاجُ إلى دَليلٍ مَنطقيٍّ أوْ بُرهانٍ عَقليٍّ لِيَقتَنِعَ، كَما لمْ يَحتَجْ إلى سُؤالٍ لِيُؤمِنَ أوْ إلى شَكٍّ لِيَتَيَقَّنَ. يَكفيهِ أنْ يَسمَعَ شَيئًا مُعيَّنًا مَرّاتٍ كافيةً، أنْ يُرَدَّدَ على مَسامِعِهِ بِلا تَوَقُّفٍ، لِيُصبِحَ "مَنطِقيًّا" و"صَحيحًا" في نَظَرِهِ القاصِرِ، كَما كَفاهُ أنْ يَخافَ مَرّاتٍ كافيةً لِيُصبِحَ الخَوفُ مَنطِقَهُ الوَحيدَ. فَلا تُحاوِلْ أنْ تُناقِشَهُ بِالعَقلِ، لا تُجْهِدْ نَفسَكَ في إقناعِهِ بِالمَنطِقِ، كَما لمْ تُناقِشْ مِنْ قَبْلُ الإطارَ المَوروثَ الذي لا يَقبَلُ النِّقاشَ، لِأنّكَ لنْ تُواجِهَ عَقلاً مُنْفَتِحًا يَبحَثُ عنِ الحَقيقةِ، بلْ سَتَرتَطِمُ بِجِدارٍ صُلْبٍ، أبكَمَ، منَ الأوهامِ المُتَراكِمةِ والأحكامِ المُسبَقةِ المُتَحَجِّرَةِ، كَما ارتَطَمْتَ مِنْ قَبْلُ بِجِدارِ النُّصوصِ المُقَدَّسةِ التي لا تَتَزَحزَحُ. جِدارٌ لا يَسمَحُ حتّى بِمُرورِ شَقٍّ ضَيِّقٍ منْ ضَوءِ الفَهمِ أو نَسيمِ الشَّكِّ، كَما لمْ يَسمَحْ الإيمانُ الأعمى بِمُرورِ أيِّ شُعاعٍ منْ أشِعّةِ النَّقدِ. كُلُّ مُحاوَلةٍ مِنْكَ لِإقناعِهِ بِحَقيقةٍ تُخالِفُ ما اعتادَ عليهِ وتَشَرَّبَهُ، هيَ في نَظَرِهِ المُتَحَجِّرِ اعتِداءٌ سافِرٌ على مُقَدَّساتِهِ، كَما كانَ السُّؤالُ اعتِداءً على اليَقينِ. كُلُّ مَنطِقٍ تُقَدِّمُهُ، مَهما كانَ مُحكَمًا، هوَ بالنِّسبةِ لَهُ مُؤامَرةٌ خَبيثةٌ تَستَهدِفُ تَضليلَهُ، كَما كانَ النَّقدُ مُؤامَرةً على النِّظامِ. كُلُّ تَساؤُلٍ بَريءٍ مِنْكَ هوَ خُروجٌ مارِقٌ عنِ

"الثَّوابِتِ" التي لا تُناقَشُ، كَما كانَ التَّفكيرُ خُروجًا عنِ النِّظامِ الأَبَويِّ. وكُلُّ شَكٍّ، وَلَوْ كانَ مَنهجيًّا، هوَ جَريمةٌ لا تُغتَفَرُ، هوَ كُفرٌ بواحٌ، كَما كانَ التَّشكيكُ في الإلهِ كُفرًا يَستَوْجِبُ الحَدَّ. لا يُمكِنُكَ أنْ تَقتَلِعَ الوَهمَ منْ رأسِهِ بِقُوّةِ الحُجّةِ، كَما لَمْ تَقتَلِعِ الخَوفَ منْ أعماقِهِ بِقُوّةِ الشَّجاعةِ. لِأنَّ الوَهمَ ليسَ مُجَرَّدَ فِكرةٍ طارِئةٍ تَسكُنُ عَقلَهُ، كَما لَمْ يَكُنِ الخَوفُ فِكرةً عَقلانيّةً، بلْ هوَ عَقلُهُ نَفسُهُ، هوَ كِيانُهُ كُلُّهُ، كَما كانَ الخَوفُ جُزءًا لا يَتَجَزَّأُ منْ كَينونَتِهِ. هوَ نَسيجُ هُوِيَّتِهِ الهَشّةِ بِالكَاملِ، كَما كانتِ الطّاعَةُ والامتِثالُ نَسيجَ وُجودِهِ الاجتِماعيِّ. لَوْ سَقَطَ الوَهمُ، لَسَقَطَ هوَ مَعَهُ وتَلاشى، كَما سَقَطَ القَصرُ القَديمُ على رأسِ ساكِنِهِ الذي رَفَضَ الخُروجَ مِنهُ. ولِهذا فَهُوَ يُقاتِلُ بِضَراوةٍ، يَستميتُ في الدِّفاعِ عَنْهُ، كَما لَوْ كانَ يُدافِعُ عنْ حَياتِهِ نَفسِها، عَنْ وُجودِهِ الأخيرِ، كَما دافَعَ بِتَعصُّبٍ عنْ إطارِهِ المَوروثِ الذي يُقَيِّدُهُ. هذا "الوَهمُ الحَيَويُّ"، الذي رأيناهُ يَتَجَلّى في الاستبدادِ اليَوميِّ، ليسَ مُجَرَّدَ ضَعفٍ أوْ سَذاجةٍ كَما قَدْ يُظَنُّ في تَحليلٍ عابِرٍ، بلْ هوَ آلِيّةٌ نَفسيّةٌ قَويّةٌ تُغذّي دائِرةَ القَهْرِ المُتَجَدِّدَةِ وتُديمُها، كَما أغذَتْها الطّاعَةُ والخَوفُ. تَجعَلُ العقلَ الهَشَّ جُزءًا فاعِلاً في الدَّورةِ المُغلَقةِ، كَما جَعَلَتْهُ جُزءًا لا يَتَجَزَّأُ منْ نِظامِ القَمعِ. لا يُقاوِمُ السُّلطَةَ التي تَسحَقُهُ، بلْ يُعيدُ إنتاجَها في ذاتِهِ وفي الآخَرينَ، كَما أعادَ إنتاجَ الطّاعَةِ والخُضوعِ. لأنّهُ لا يَملِكُ شَيئًا في هذا العالَمِ سِوى هَشاشَتِهِ المُتَأَصِّلةِ، كَما لَمْ يَملِكْ مِنْ قَبْلُ سِوى خَوفِهِ المُتَجَذِّرِ. ويُقاتِلُ بِضَراوةٍ لِيُحافِظَ على هذهِ الهَشاشَةِ، على هذا القَيدِ، كَما قاتَلَ لِيُحافِظَ على قَفَصِهِ وسِجنِهِ، لِأنّها كُلُّ ما يَعرِفُهُ عنْ نَفسِهِ، كَما كانَ القَهْرُ والخُضوعُ كُلَّ ما عَرَفَهُ عنِ الوُجودِ. ويَخشى أنْ يَفقِدَها، أنْ يَتَحَرَّرَ مِنْها، كَما خافَ أنْ يَفقِدَ الجَماعَةَ أوِ القَطيعَ، لِأنَّ فِقدانَها يَعني فِقدانَ ذاتِهِ التي لَمْ يَبنِها، يَعني فِقدانَ مَعناهُ الذي لَمْ يَصنَعْهُ، ويَعني مُواجَهةَ الفَراغِ الذي يَرتَعِدُ مِنهُ.

فالعقلُ الهَشُّ، المُشَبَّعُ بِالأوهامِ، لا يَبحَثُ عنِ الحَقيقةِ بِشَغَفٍ، كَما لَمْ يَبحَثِ العقلُ المُستأجَرُ عنِ الشَّكِّ بِجُرأةٍ، بلْ يَبحَثُ بِهَوَسٍ عنْ تَأكيدِ ما يُؤمِنُ بِهِ مُسبقًا، عنْ تَعزيزِ يَقينِهِ المُصَنَّعِ، كَما بَحَثَ مِنْ قَبْلُ عنْ أيِّ شَيءٍ يُسكِتُ قَلَقَهُ. لا يُريدُ أنْ يَفهَمَ العالَمَ على حَقيقَتِهِ المُعَقَّدةِ، كَما لَمْ يُرِدْ أنْ يُسائِلَ نَفسَهُ أوْ نِظامَهُ، بلْ يُريدُ فَقَطْ أنْ يَكونَ "على حَقٍّ"، أنْ يَشعُرَ بِالتَّفَوُّقِ الأخلاقيِّ أوِ المَعرِفيِّ، كَما أرادَ أنْ يَكونَ مُطاعًا في قَطيعِهِ الصَّغيرِ. ولِهذا، حِينَ يُواجِهُ شَيئًا لا يَستَطيعُ استيعابَهُ بِأدواتِهِ المَحدودةِ، كَفِكرةٍ تَقَعُ خارِجَ إطارِهِ المَوروثِ الضَّيِّقِ، فَإنّهُ لا يَتَوقَّفُ لِيُفَكِّرَ فيها بِهُدوءٍ أوْ لِيُحاوِلَ فَهمَها بِمَوضُوعيّةٍ، كَما لَمْ يَتَوقَّفْ لِيَنقُدَ أوْ يُراجِعَ. بلْ يُهاجِمُ مُباشَرةً، بِضَراوةِ حَيوانٍ جَريحٍ يَشعُرُ بِالخَطَرِ، كَما هاجَمَ الشَّكَّ

والسُّؤالَ مِنْ قَبْلُ. تمامًا كَما تَفعَلُ أيُّ مَخلوقاتٍ بَدائيّةٍ في الغابَةِ حِينَ تَشعُرُ بِالتَّهديدِ، كَما فَعَلَ الأوَّلونَ حِينَ خافوا الظَّلامَ أوِ الصَّوتَ الغَريبَ. لكِنَّ الفَرقَ هُنا أنَّ خَطَرَهُ ليسَ جَسديًّا يُهدِّدُ حَياتَهُ، كَما كانَ في الغَرائِزِ الأُولى، بلْ هوَ خَطَرٌ فِكريٌّ، نَفسيٌّ، يُهدِّدُ بُنيانَ وَهمِهِ، كَما كانَ الخَوفُ الحارِسُ يَحمي النِّظامَ الهَشَّ. ورُعبُهُ ليسَ مِنْ عَدُوٍّ خارِجيٍّ يُريدُ الفَتكَ بِهِ، كَما كانَ رُعبُهُ مِنَ المُفتَرِسِ، بلْ رُعبُهُ الأكبَرُ هوَ مِنْ نَفسِهِ، مِنْ إمكانيّةِ أنْ يَكونَ مُخطِئًا، كَما كانَ رُعبُهُ مِنَ الفَراغِ الذي يَكشِفُ عَبثَهُ. إنّهُ لا يَستطيعُ تَحَمُّلَ مُجرَّدَ فِكرةِ أنّهُ قَدْ يَكونُ على خَطَأٍ، أنَّ قَناعاتِهِ الرّاسِخةَ قدْ تَكونُ أوهامًا، كَما لمْ يَتَحَمَّلْ فِكرةَ أنّهُ مُقيَّدٌ بِلا حُرّيّةٍ. ولِهذا فَهُوَ يُواجِهُ أيَّ نِقاشٍ مَنطقيٍّ، أيَّ حُجّةٍ عَقليّةٍ، بِالسُّخريّةِ اللاذِعةِ والهُزءِ المُبتَذَلِ، كَما واجَهَ السُّؤالَ الجادَّ بِالرَّفضِ القاطِعِ. ليسَ لِأنّهُ يَملِكُ رَدًّا مُقنِعًا أوْ حُجّةً أقوى، فَهُوَ لا يَملِكُ شَيئًا مِنْ ذلِكَ، كَما لمْ يَملِكْ جَوابًا شافِيًا، بلْ لِأنّهُ لا يَملِكُ أيَّ سِلاحٍ آخَرَ في تَرْسانَتِهِ الفِكريّةِ الفَقيرةِ سِوى الطّاعَةِ المُكتَسَبةِ والتَّقليدِ الأعمى. فَيَلجَأُ، في عَجزِهِ، إلى أكثَرِ الأسْلِحَةِ بَدائيّةً وحَقارَةً، كَما لَجَأَ إلى الخَوفِ والغَريزةِ: الاستِهزاءُ بِالآخَرِ وتَحْقيرُهُ، كَما استَهزَأَ بِالمُختلِفِ ونَبَذَهُ. التَّسخيفُ لِأفكارِهِ وتَبسيطُها حتّى التَّشويهِ، كَما سَخِرَ مِنَ النّاقِدِ واتَّهَمَهُ بِالجَهلِ. والتَّقليلُ مِنْ شَأنِهِ وتَجريحُهُ شَخصيًّا، كَما قَلَّلَ مِنْ شَأنِ السّائِلِ واتَّهَمَهُ بِالفِتنةِ. وحِينَ تَفشَلُ السُّخريّةُ في إسكاتِ صَوتِ الحَقيقةِ، كَما فَشِلَ الخَوفُ في الصُّمودِ أمامَ نورِ الشَّجاعةِ، يَتَحَوَّلُ بِسُهولةٍ إلى الهُجومِ الشَّخصيِّ العَنيفِ، كَما تَحَوَّلَ الدِّفاعُ عنِ النِّظامِ إلى العِقابِ الجَسديِّ. إلى اتِّهامِكَ بِالغَباءِ والسَّذاجةِ، كَما اتُّهِمَ الباحِثُ عنِ المَعرِفةِ بِالجَهلِ المُركَّبِ. بِالخِيانَةِ والعَمالَةِ، كَما اتُّهِمَ المُعارِضُ بِالخُروجِ عنِ الإجماعِ الوَطَنيِّ. بِالزَّندَقَةِ والكُفرِ، كَما اتُّهِمَ المُشَكِّكُ بِالكُفرِ والإلحادِ. بِأيِّ شَيءٍ، بِأيِّ تُهمةٍ، تُعفيهِ مِنْ تِلكَ المُواجهةِ المُؤلِمةِ مَعَ المِرآةِ، مَعَ نَفسِهِ، كَما أعفاهُ الإطارُ المَوروثُ مِنْ قَبْلُ مِنْ مُواجَهةِ فَراغِهِ وخَوفِهِ. هذا الخَوفُ المُقَنَّعُ بِالغَضَبِ والتَّعَصُّبِ، الذي رأيناهُ يَقتاتُ على الاستِبدادِ اليَوميِّ ويُغذّيهِ، ليسَ مُجرَّدَ رِدّةِ فِعلٍ نَفسيّةٍ عابِرةٍ، بلْ هوَ آلِيّةٌ شَيطانيّةٌ تُغذّي الفَراغَ المُعبَّأَ بِالقُمامَةِ كَما أغذَتِ الدَّورةَ المُغلَقةَ لِلقَهرِ. تَجعَلُ العقلَ الهَشَّ يُقاتِلُ بِشَراسَةٍ لِيُحافِظَ على ثِقَتِهِ المُهتَرِئةِ ووهمِهِ المَريرِ، كَما قاتَلَ لِيُحافِظَ على قَفَصِهِ وقَيدِهِ، لِأنَّ الاعترافَ بِالخَطَأِ أوِ الجَهلِ يَعني بِالنِّسبةِ لَهُ انهِيارَ الوَهْمِ الحَيَويِّ الذي يَتَشَبَّثُ بِهِ، انهِيارَ كُلِّ شَيءٍ، كَما كانَ انهِيارُ النِّظامِ يَعني الفَوضى والعَدَمَ.

ولَوْ كانَ هذا النَّوعُ منَ البَشَرِ، هذا العقلُ الهَشُّ المُحاصَرُ بأوهامِهِ، قادِرًا على مُجَرَّدِ الاعترافِ بجَهلِهِ المُرَكَّبِ، كَما كانَ قادِرًا، نَظَريًّا على الأقَلِّ، على الشَّكِّ في مُسلَّماتِهِ، لَكانَ لَدَيهِ فُرصةٌ حَقيقيّةٌ لِلنَّجاةِ منْ سِجنِهِ، كَما كانتْ لِلعقلِ المُستأجَرِ فُرصةٌ لِلتَّحَرُّرِ إنْ تَجَرَّأَ على السُّؤالِ. لكِنَّ مُشكِلَتَهُ العُظمى، كارِثَتَهُ الحَقيقيّةَ، ليستْ فَقَطْ أنّهُ لا يَعلَمُ، كَما لَمْ تَكُنْ مُشكِلَتُهُ أنّهُ لا يُسائِلُ بِشَكلٍ كافٍ، بلْ أنّهُ لا يَعلَمُ أنّهُ لا يَعلَمُ، أنّهُ يَجهَلُ حتّى حَقيقةَ جَهلِهِ، كَما لَمْ يُدرِكْ في يَومٍ أنّهُ مُقيَّدٌ بِأغلالٍ لا تُرى. هذا هوَ ذُروةُ الغَرَقِ في الوَهمِ، قاعُ السُّقوطِ في البِئرِ المُظلِمةِ، كَما كانَ ذُروةَ الغَرَقِ في الخَوفِ المُشِلِّ. ولِهذا السَّبَبِ، تَجِدُهُ يَنظُرُ بِعَينِ الرِّيبةِ والاحتِقارِ لِكُلِّ مَنْ يَختَلِفُ مَعَهُ في الرَّأيِ، ويُصَنِّفُهُ فَورًا على أنّهُ "مُضَلَّلٌ" ضائِعٌ عنِ الحَقِّ، كَما رَأى المُختَلِفَ خائِنًا لِلجَماعَةِ. "مَخدوعٌ" ساذَجٌ سَقَطَ في فَخِّ الشُّبُهاتِ، كَما رَأى السّائِلَ مُضِلاًّ لِلآخَرينَ. "ضَحيّةُ بروباغندا" خَبيثةٍ تُديرُها قُوًى خارِجيّةٌ، كَما رَأى النّاقِدَ مُفسِدًا لِلنِّظامِ وَمُخَرِّبًا لِلقِيَمِ.

بينما هوَ، المُتخَمُ حتّى التُّخمةِ بِالخُرافاتِ الباليةِ كَما تُخِمَ بِالنُّصوصِ المُبهَمَةِ، والمُشْبَعُ بِالأساطيرِ الطُّفوليّةِ كَما أُشْبِعَ بِالمُحَرَّماتِ الغَبيّةِ، والمُرَدِّدُ لِلشِّعاراتِ الفارِغةِ الرَّنّانَةِ كَما رَدَّدَ الأوامِرَ والنَّواهي بِلا فَهمٍ، يَرى نَفسَهُ، في قِمَّةِ غُرورِهِ، حارِسَ الحَقيقةِ المُطلَقةِ الأوحدَ، والمُدافِعَ الأخيرَ عنِ النِّظامِ والقِيَمِ، كَما رَأى نَفسَهُ حارِسَ النِّظامِ القَبَليِّ أوِ الإيمانِ المُقَدَّسِ. ببساطةٍ، لقدْ سُجِنَ هذا المسكينُ في عَقلِهِ المَحدودِ كَما سُجِنَ في قَصرِهِ القَديمِ، فَصَنَعَ، مِنْ فَرْطِ خَوفِهِ وَوَهمِهِ، سِجنًا آخَرَ لِغَيرِهِ، كَما صَنَعَ القَهْرَ والظُّلْمَ لِلآخَرينَ حينَ خافَ منْ حُرِّيَّتِهِمْ. هذا الشَّخصُ ليسَ فَقَطْ عاجِزًا عنِ التَّفكيرِ النّاقِدِ كَما كانَ عاجِزًا عنِ النَّقدِ الذّاتيِّ، بلْ يَكرَهُ بِشِدّةٍ كُلَّ مَنْ يُحاوِلُ التَّفكيرَ الحُرَّ حَولَهُ، كَما كَرِهَ مِنْ قَبْلُ كُلَّ مَنْ يُحاوِلُ السُّؤالَ أوَ الشَّكَّ. لِماذا؟ لأنَّ حُرِّيّةَ الفِكرِ عندَ غَيرِهِ تُذَكِّرُهُ بِعُبوديّتِهِ الفِكريّةِ المُخْجِلةِ، كَما ذَكَّرَهُ الشَّكُّ بِقَيدِهِ الذي يُنكِرُهُ. ولِهذا فَإنَّ عَقلَهُ المُتَحَجِّرَ لا يَتَقَبَّلُ مُجَرَّدَ فِكرةِ أنَّ هُناكَ مَنْ يَستطيعُ رُؤيةَ الأشياءِ منْ زاوِيةٍ مُختلِفةٍ، أوْ تَقييمَها بِمَعاييرَ أُخرى، كَما لَمْ يَتَقَبَّلْ مِنْ قَبْلُ حَقيقةَ التَّحَوُّلاتِ الأخلاقيّةِ أوِ نِسبيّةَ القِيَمِ.

لِهذا، لا يَكتَفي بِتَجاهُلِكَ أوِ الصَّمتِ أمامَكَ، كَما تَجاهَلَ السُّؤالَ أوْ صَمَتَ أمامَ النَّقدِ، بلْ يُحاوِلُ بِضَراوةٍ أنْ يَسحَقَكَ، أنْ يُحَطِّمَكَ، كَما حاوَلَ أنْ يَسحَقَ النّاقِدَ أوْ يُبيدَ المُختَلِفَ. لأنّهُ يَشعُرُ، بِحَدْسٍ مَرَضيٍّ، أنَّ مُجَرَّدَ وُجودِكَ كَشَخصٍ يُفَكِّرُ بِحُرِّيّةٍ هوَ تَهديدٌ مُباشِرٌ لِاستِقرارِهِ النَّفسيِّ الهَشِّ، كَما كانَ وُجودُ المُختَلِفِ تَهديدًا لِتَماسُكِ الجَماعَةِ الخائِفةِ. أنتَ تُمَثِّلُ لَهُ، بِلا قَصدٍ مِنْكَ، الفِكرةَ التي لَمْ يَجرُؤْ يَومًا على طَرحِها، كَما كُنتَ السُّؤالَ الذي لَمْ يَجرُؤْ على قَولِهِ. تُمَثِّلُ لهُ الحَياةَ التي لَمْ يَجرُؤْ على عَيشِها، كَما كُنتَ الحُرِّيّةَ التي لَمْ

يجرؤْ حتّى على تخيُّلِها. تُمثِّلُ له العقلَ الذي لمْ يجرؤْ على امتلاكِهِ بالكامِلِ، كما كُنتَ الوَعي الذي لمْ يجرؤْ على مُواجَهتِهِ. ولأنّكَ تُهدِّدُ استقرارَهُ النَّفسيَّ الرَّخْوَ، كما هَدَّدَ الفَراغُ أمانَهُ المَوهومَ، فهُوَ بِحاجَةٍ مُلِحّةٍ إلى القَضاءِ عليكَ فِكريًّا أوْ مَعنويًّا، كما احتاجَ إلى القَضاءِ على الشَّكِّ والنَّقدِ. هذا السِّجنُ المُدافِعُ بِشَراسَةٍ عنْ نَفسِهِ، الذي رأيناهُ يَتَجَلّى في الطّاعَةِ المُكتَسَبةِ والتَّعصُّبِ الأعمى، ليسَ مُجرَّدَ انغلاقٍ فِكريٍّ كما قدْ يُظَنُّ، بلْ هوَ دِرعٌ صَدِئٌ يَحمي العقلَ الهَشَّ منْ عَذابِ الوَعي القاتِلِ، كما حَمى الخَوفُ الأعمى النِّظامَ المُتهالِكَ. دِرعٌ يُحوِّلُهُ إلى أداةٍ لِلقَهْرِ المُتَجَدِّدِ، لا إلى قُوّةٍ لِلتَّحرُّرِ، كما حَوَّلَهُ إلى أداةٍ لِلتَّلقينِ لا لِلنَّقدِ. لا يُقاوِمُ الحَقيقةَ لِيَفهَمَها، بلْ يُعاديها لِيُبْقيَها بَعيدةً، كما عادى التَّغييرَ والشَّكَّ، لأنّهُ لا يَملِكُ إلا ما زُرِعَ فيهِ، ويَخافُ أنْ يَفقِدَهُ.

هذا الشَّخصُ، هذا الأسيرُ الذي يُحِبُّ قُيودَهُ، لا يَحتاجُ إلى فَهمِكَ أو فَهمِ أفكارِكَ، كما لمْ يَحتَجْ إلى فَهمِ السُّؤالِ أوِ الشَّكِّ. بلْ يَحتاجُ بِشَكلٍ مَرَضيٍّ إلى تَصنيفِكَ، إلى وَضعِكَ في خانَةٍ مُحَدَّدةٍ، مُغلَقةٍ، في قاموسِهِ الذِّهنيِّ المُبَسَّطِ، كما احتاجَ إلى تَصنيفِ المُختَلِفِ كَعَدُوٍّ أوْ خائِنٍ. لِماذا؟ لأنَّ الفَهمَ الحَقيقيَّ يَتَطَلَّبُ جُهدًا عَقليًّا لا يُطيقُهُ، كما تَطَلَّبَ النَّقدُ شَجاعةً لا يَملِكُها. يَتَطَلَّبُ شَكًّا يُقلِقُهُ، كما تَطَلَّبَ الشَّكُّ خُروجًا عنِ اليَقينِ. يَتَطَلَّبُ مُراجَعةً لِلذّاتِ تُؤلِمُهُ، كما تَطَلَّبَتِ المُواجهةُ جُرأةً لا يَعرِفُها. وهوَ لا يَملِكُ الأدواتِ اللاّزِمةَ لِكُلِّ ذلِكَ، كما لمْ يَملِكْها لِلتَّحرُّرِ الحَقيقيِّ منْ قُيودِهِ. ما يُريدُهُ بِشَكلٍ مُلِحٍّ هوَ تَصنيفُكَ السَّريعُ، كما أرادَ تَصنيفَ الشَّكِّ كَكُفرٍ، لأنَّ التَّصنيفَ يَمنَحُهُ راحَةً عَقليّةً سَهلةً، طُمأنينةً كاذِبةً، كما مَنَحَتْهُ النُّصوصُ والأوامِرُ راحَةً مِنْ عَناءِ التَّفكيرِ. يَحميهِ منْ ضَرورةِ مُواجَهةِ فِكرةِ أنَّ هُناكَ عَوالِمَ فِكريّةً شاسِعةً تَقَعُ خارِجَ أسوارِ سِجنِهِ الضَّيِّقِ، كما حَمَتْهُ الجَماعَةُ مِنْ مُواجَهةِ فَراغِ الوُجودِ وخَوفِهِ. في نَظَرِهِ المُتَحَجِّرِ، أنتَ لا يُمكِنُ أنْ تكونَ مُجرَّدَ شَخصٍ يُفكِّرُ بِطَريقَةٍ مُختَلِفةٍ، كما لمْ يَكُنِ السّائِلُ مُجرَّدَ باحِثٍ عنِ الحَقيقةِ. بلْ لا بُدَّ أنْ تكونَ خائِنًا لِلقَضيّةِ، كما كانَ المُرتَدُّ خائِنًا لِلدّينِ. مارِقًا عنِ الإجماعِ، كما كانَ المُختَلِفُ مارِقًا عنِ الجَماعَةِ. عَدُوًّا مُتَخَفّيًا يَعمَلُ لِأجنداتٍ خارِجيّةٍ، كما كانَ المُضَلِّلُ يَعمَلُ لِخِداعِ البُسَطاءِ. لِماذا؟ لأنَّ مُجرَّدَ وُجودِكَ كَشَخصٍ حُرٍّ يُفكِّرُ ويَشُكُّ، يُهدِّدُ نِظامَهُ النَّفسيَّ الهَشَّ كَزِلزالٍ، كما هَدَّدَ النّاقِدُ نِظامَ الطّاعَةِ. يُزلزِلُ الطُّمأنينةَ الزّائِفةَ التي عاشَ مُتَدَثِّرًا بِها عُمْرَهُ كُلَّهُ، كما زَلزَلَ الشَّكُّ يَقينَهُ المُصَنَّعَ. هذا النَّوعُ مِنَ البَشَرِ يَعيشُ في عالَمٍ بَسيطٍ، مُسطَّحٍ، ثُنائيِّ الأبعادِ، كما عاشَ في قَفَصِهِ الذَّهَبيِّ الذي لا يَرى إلا ما أمامَهُ. عالَمٌ لا يَحتَمِلُ التَّعقيدَ أوِ التَّناقُضَ، كما لمْ يَحتَمِلِ العقلُ المُغلَقُ التَّعدُّدَ أوِ

النّسبيّةَ: أنتَ إمّا مَعَهُ في خَنْدَقِه، أوْ ضِدَّهُ في المَعركَةِ. إمّا "صالحٌ" تُطابِقُ قَوالِبَهُ، أوْ "فاسِدٌ" تَخرُجُ عَنْها. إمّا "وَطنيٌّ" تُقَدّسُ أصنامَهُ، أوْ "عَميلٌ" تَخدُمُ أعداءَهُ. إمّا "مُؤمِنٌ" تُرَدّدُ كَلِماتِه، أوْ "كافِرٌ" تَستَحِقُّ الحَرَقَ. لا يَستطيعُ التّعامُلَ مَعَ فِكرةِ أنَّ هُناكَ مَناطِقَ رَماديّةً شاسِعةً بينَ الأسودِ والأبيَضِ، كَما لَمْ يَتَعامَلْ مَعَ التّحوُّلاتِ الأخلاقيّةِ المُربِكةِ. أنَّ هُناكَ أسئلةً كُبرى لا تَملِكُ إجاباتٍ جاهِزةً، كَما لَمْ يَتَعامَلْ مَعَ فَراغِ المَعنى. أنَّ الحَقيقةَ أكثرُ تَعقيدًا وتَشابُكًا منْ شِعاراتِهِ البَسيطةِ الجَوفاءِ، كَما كانتْ أعمَقَ وأغْوَرَ منْ سَطْحِ نُصوصِهِ المُقدَّسةِ. ولِهذا، فَإنَّ أيَّ مُحاوَلةٍ لِجَعلِهِ يَرى الأمورَ منْ زاوِيةٍ جَديدةٍ، أيَّ دَعوةٍ لِلتَّفكيرِ أوِ النَّقدِ، تُعتَبَرُ بالنّسبةِ لَهُ تَهديدًا وُجوديًّا مُباشِرًا، كَما كانَ السُّؤالُ تَهديدًا لِسُلطَةِ اليَقينِ. لِأنَّ عَقلَهُ لَمْ يُصنَعْ لِيَحتَوِيَ التَّعَدُّدَ أوْ يَتَفَهَّمَ الاختِلافَ، كَما لَمْ يُصنَعْ لِيَحتَوِيَ الشَّكَّ أوْ يُمارِسَ النَّقدَ. بلْ صُنِعَ لِيُكَرِّرَ نَفسَهُ بِلا تَوقُّفٍ، لِيَدورَ في حَلقَتِهِ المُفرَغةِ، كَما كَرَّرَتِ الطّاعَةُ ذاتَها عَبرَ القُرونِ. هذا الهُجومُ البَدائيُّ، الذي رأيناهُ يَنبُعُ منَ الثِّقةِ المُهتَرِئةِ والهِشاشَةِ المُقَنَّعةِ، ليسَ مُجَرَّدَ غَضَبٍ عابِرٍ كَما قَدْ يُظَنُّ، بلْ هوَ خَوفٌ مُقَنَّعٌ، رُعبٌ منَ الآخَرِ المُختلِفِ، يُغذّي دائِرةَ القَهْرِ ويُديمُها كَما أغذاها الوَهمُ الحَيَويُّ. يَجعَلُ العقلَ الهَشَّ سِلاحًا فَتّاكًا لِلاستِبدادِ اليَوميِّ، كَما جَعَلَهُ سِلاحًا لِلدِّفاعِ عنِ النِّظامِ المُتَهالِكِ. لا يُدافِعُ عنِ الحَقيقةِ بِالمَنطِقِ، بلْ يُدافِعُ عنْ قَيدِهِ بِالعُنفِ، كَما دافَعَ عنْ خَوفِهِ بِالتَّعصُّبِ.

إنّهُ خائِفٌ، يَرتَعِدُ كَما كانَ الأوَّلونَ خائِفينَ مِنْ كُلِّ شَيءٍ لا يَفهَمونَهُ، لكِنّهُ لا يَعرِفُ ذلِكَ، أوْ رُبّما يُنكِرُهُ بِعِنادٍ، كَما لَمْ يَعرِفوا مَصدَرَ خَوفِهِمْ الحَقيقيَّ. يَعتَقِدُ، في سَذاجَتِهِ المُدْقِعةِ، أنّهُ يُدافِعُ عنِ "الثّوابِتِ" الرّاسِخةِ كَالجِبالِ، عنِ "المُقَدَّساتِ" التي لا تُمَسُّ، كَما دافَعَ مِنْ قَبْلُ عنْ حُرمَةِ النُّصوصِ وقَداسَةِ الطُّقوسِ. لكِنّهُ في الحَقيقةِ المُجَرَّدَةِ، لا يُدافِعُ إلا عنْ راحَتِهِ النَّفسيّةِ الهَشّةِ، عنْ سُكونِهِ المَوهومِ، كَما دافَعَ عنْ يَقينِهِ المُصنَّعِ الذي يُخَدِّرُ أَلَمَ الوُجودِ. يُدافِعُ عنِ الجُمودِ الفِكريِّ القاتِلِ الذي يَمنَحُهُ إحساسًا كاذِبًا بِالسَّيطَرَةِ على عالَمٍ مُتقلِّبٍ، كَما مَنَحَهُ الخَوفُ منَ الفَوضى إحساسًا بالأمانِ في ظِلِّ النِّظامِ القاهِرِ. يُدافِعُ عنْ قَفَصِهِ الذَّهبيِّ الذي لا يَرى أنّهُ مَحبوسٌ داخِلَهُ، كَما لَمْ يَرَ أنّهُ مُقيَّدٌ بِأغلالٍ لا تُرى. ولِهذا، حِينَ يُواجِهُ شَخصًا يُفكِّرُ بِحُرِّيّةٍ طَليقةٍ، يَشُكُّ، يَسألُ، يَنتَقِدُ، كَما واجَهَ مِنْ قَبْلُ السّائِلَ الجَريءَ أوَ النّاقِدَ المُشاغِبَ، لا يَشعُرُ فَقَطْ بِالتَّوَتُّرِ والقَلَقِ كَما شَعَرَ بِالخَوفِ الغامِضِ، بلْ يَشعُرُ بِالغَضَبِ العارِمِ، بِالحِقدِ الأسوَدِ، كَما شَعَرَ بِالرَّفضِ والكَراهِيةِ تُجاهَ المُختلِفِ. الغَضَبُ هُنا ليسَ لِأنّكَ مُخطِئٌ في قَولِكَ، فَهُوَ لا يَملِكُ مِيزانَ الخَطَأِ والصَّوابِ، كَما لَمْ يَكُنْ غَضَبُهُ مِنْ قَبْلُ لِأنَّ السُّؤالَ كانَ خَطَأً. بلْ لِأنّكَ، بِوُجودِكَ

الحُرِّ، قادرٌ على التَّفكيرِ بِأصالَةٍ، بينما هوَ لَمْ يَجرُؤْ يَومًا على ذلِكَ، لَمْ يَتَجاوَزْ حُدودَ التَّرديدِ البَبَّغائِيِّ، كَما لَمْ يَجرُؤْ على الشَّكِّ في مُسلَّماتِهِ أَوْ نَقدِ نِظامِهِ. إنّكَ، بِحُضورِكَ المُزعِجِ، تُذَكِّرُهُ بِكُلِّ الأسئلةِ التي قَمَعَها بِعُنفٍ في داخِلِهِ، كَما ذَكَّرَهُ الفَراغُ بِكُلِّ ما كانَ يَتَجاهَلُهُ ويَهرُبُ مِنهُ. تُذَكِّرُهُ بِكُلِّ الشُّكوكِ التي لَمْ يَجرُؤْ على التَّعبيرِ عَنْها خَوفًا منَ العِقابِ أوِ النَّبذِ، كَما لَمْ يَجرُؤْ على نَقدِ النُّصوصِ المُقَدَّسةِ أوِ الأوامِرِ العُليا. تُذَكِّرُهُ بِكُلِّ اللَّحَظاتِ التي أَحَسَّ فيها، في لَمحَةِ بَصَرٍ، بِأنَّ هُناكَ شَيئًا غَيرَ مَنطقِيٍّ، شَيئًا مُتَناقِضًا، في البِناءِ الذي يَعيشُ فيهِ، لكِنّهُ قَرَّرَ بِجُبنٍ أنْ يَتَجاهَلَهُ، أنْ يَدفِنَهُ تَحتَ رُكامِ التَّبريراتِ الواهِيةِ، كَما تَجاهَلَ التَّحَوُّلاتِ الأخلاقِيّةَ التي تُناقِضُ مُطلَقِيّتَهُ المَزعومةَ. ولِهذا، ولِهذا فَقَطْ، فَإنّهُ يُهاجِمُ بِضَراوَةٍ، كَما هاجَمَ المُختلِفَ والمُرتَدَّ مِنْ قَبْلُ. الهُجومُ هُنا ليسَ نابِعًا منْ قَناعَةٍ راسِخةٍ، كَما لَمْ يَكُنْ نابِعًا منْ يَقينٍ حَقيقِيٍّ. بلْ هوَ نابِعٌ منْ خَوفٍ عَميقٍ، منْ رُعبٍ وُجودِيٍّ، كَما كانَ نابِعًا منَ الخَوفِ المُقَنَّعِ بِاليَقينِ. منْ إحساسٍ دَفينٍ، مُهينٍ، بِأنَّ مُجَرَّدَ وُجودِكَ الحُرِّ هوَ دَليلٌ صارِخٌ على نَقصِهِ هوَ، على هَشاشَتِهِ، على عُبوديّتِهِ، كَما كانَ وُجودُكَ دَليلاً على هَشاشَةِ نِظامِهِ. لكِنّهُ لا يَستطيعُ الاعترافَ بِذلِكَ حتّى لِنَفسِهِ، كَما لَمْ يَعتَرِفْ بِقَيدِهِ أَوْ بِخَوفِهِ. فَيَلجَأُ، في ذُروةِ عَجزِهِ، إلى أكثَرِ الأَساليبِ بَدائِيّةً وحَقارَةً، كَما لَجَأَ إلى الطّاعَةِ العَمياءِ أوِ العُنفِ الغاشِمِ: التَّشويهُ المُتَعَمَّدُ لِأفكارِكَ وتَصويرُها كَخَطَرٍ داهِمٍ، كَما شَوَّهَ السّائِلُ واتَّهَمَ بِالفِتنةِ. السُّخريّةُ المُبتَذَلةُ مِنْكَ ومِنْ كَلامِكَ، كَما سَخِرَ منَ النّاقِدِ ونُعِتَ بِالجَهلِ. العُنفُ اللّفظِيُّ الجارِحُ الذي لا يَعرِفُ حُدودًا، كَما استُخدِمَ العِقابُ الجَسَديُّ لِإسكاتِ المُخالِفِ. وأحيانًا، إنْ أُتيحَتْ لهُ الفُرصَةُ، العُنفُ الجَسَديُّ المُباشِرُ، كَما لَجَأَ المُتَعَصِّبونَ إلى القُوّةِ لِفَرضِ آرائِهِمْ. يَصرُخُ بِأعلى صَوتِهِ، كَما صَرَخَ الخَوفُ في وَجهِ المَجهولِ. يَرفَعُ صَوتَهُ لِيُغَطّيَ على ضَعفِ حُجَّتِهِ، كَما رَفَعَ النِّظامُ سِياطَهُ لِيُغَطّيَ على ظُلمِهِ. يَتَّهِمُكَ بِكُلِّ النَّقائِصِ، كَما اتُّهِمَ المُختلِفُ بِكُلِّ المَوبِقاتِ. لأنّهُ لا يَملِكُ سِلاحًا حَقيقِيًّا في هذهِ المَعركَةِ، كَما لَمْ يَملِكْ الوَهمُ سِلاحًا أمامَ الحَقيقةِ. فَاعْذِرْهُ، إنْ استَطَعْتَ، فهوَ يَصرُخُ لأنّهُ عاجِزٌ، كَما صَرَخَ مِنْ قَبْلُ لأنّهُ خائِفٌ. يَرفَعُ صَوتَهُ لِيُغَطّيَ على الفَراغِ المُدوّي في داخِلِهِ، كَما غَطّى على فَراغِ المَعنى بِأوامِرِهِ وصَخَبِهِ. يَسخَرُ لِأنّهُ لا يَملِكُ رَدًّا مَنطقِيًّا، كَما لَمْ يَملِكْ جَوابًا مُقنِعًا. فَلا يَبقى لهُ سِوى تَحويلِ النِّقاشِ الجادِّ إلى تَهريجٍ سَخيفٍ، كَما حَوَّلَ السُّؤالَ الوُجودِيَّ إلى كُفرٍ وزَنْدَقةٍ. إلى مَهرَجانٍ منَ الإهاناتِ والتَّسخيفِ والتُّهَمِ الباطِلةِ، كَما كانَ مَهرَجانًا منَ التَّهديداتِ والوَعيدِ بِالعَذابِ. وإنْ فَشِلَتِ السُّخريّةُ في إسكاتِكَ، انتَقَلَ إلى التَّهديدِ أوِ العُنفِ، كَما انتَقَلَ النِّظامُ إلى العِقابِ والسِّجنِ. ولَوْ مُنِحَ القُوّةَ الكافِيةَ، لَما اكتَفى

بِالصُّراخِ والتَّهديدِ كَما لَمْ يَكتَفِ الخَوفُ بِالهَمْسِ، بلْ لَطالَبَ بِإسكاتِكَ بِالقُوّةِ الغاشِمةِ، كَما أُسكِتَ النّاقِدُ والمُعارِضُ. بِالنَّفيِ والإقصاءِ، كَما نُفِيَ المُختلِفُ والجَريءُ. بِالذَّبحِ والقَتلِ، كَما ذُبِحَ السّائِلُ والمُشَكِّكُ. ورُبّما بِالسِّجنِ والتَّعذيبِ، كَما سُجِنَ الشَّكُّ وحُورِبَ العقلُ. هذا الصُّراخُ الهِستيريُّ على الفَراغِ، الذي رأيناهُ يَدورُ في الدَّورةِ المُغلقةِ لِلقَهْرِ، ليسَ مُجرَّدَ ضَعفٍ أوْ عَجْزٍ كَما قَدْ يُظَنُّ، بلْ هوَ تَعبيرٌ صارِخٌ عنِ العقلِ الهَشِّ كَجُزءٍ لا يَتَجَزَّأُ منْ دائِرةِ القَهْرِ المُتَجَدِّدَةِ، كَما كانَ تَعبيرًا عنِ الطّاعةِ المَرَضيّةِ لِلنِّظامِ. يُعيدُ إنتاجَ الاستِبدادِ اليَوميِّ بِعُنفٍ، كَما أعادَ إنتاجَ الخَوفِ والخُرافةِ. لأنّهُ لا يَملِكُ إلا هَشاشَتَهُ المُتأصِّلةَ، كَما لَمْ يَملِكْ إلا قَيدَهُ المُقَدَّسَ. ويُقاتِلُ بِشَراسَةٍ لِيُحافِظَ عليها، كَما قاتَلَ لِيُحافِظَ على سِجنِهِ وقَفَصِهِ.

ومِنطِقُ الاستبدادِ هذا، لا يَقتَصِرُ على الطُّغاةِ وأعوانِهِمْ، بلْ يَسكُنُ أيْضًا، وبِشَكلٍ مُفزِعٍ، في العُقولِ المَقهورةِ ذاتِها، تِلكَ التي تَحَوَّلَتْ، بِفِعلِ القَهرِ المُزمِنِ والخَوفِ المُتَجَذِّرِ، إلى سَجّانينَ لِغَيرِها، إلى حُرّاسٍ أشِدّاءَ على قُضبانِ السِّجنِ الكَبيرِ، كَما رأيناهُ في دائِرةِ القَهْرِ المُتَجَدِّدَةِ التي تَخلُقُ ضَحاياها وجَلّاديها. إنّهُ نَفسُ العقلِ المُستأجَرِ، الذي لا يَكتَفي بِأَسْرِ ذاتِهِ، بلْ يُعيدُ إنتاجَ قَيدِهِ لِيُكَبِّلَ بِهِ الآخَرينَ، كَما أعادَ إنتاجَ خَوفِهِ لِيَنشُرَهُ بينَ النّاسِ. يُطالِبُ بِحَرقِ الكُتُبِ التي لا يَفهَمُها، أوْ التي تُخالِفُ أوهامَهُ، كَما طالَبَ بِحَرقِ الأسئلةِ التي لا يَستطيعُ الإجابةَ عليها أو تَحَمُّلَ قَلَقِها. يُطالِبُ بِتكميمِ أفواهِ كُلِّ مَنْ يَختَلِفُ مَعَهُ في الرَّأيِ، كَما كُمِّمَ فَمُ السّائِلِ الجَريءِ في الجَماعَةِ القَبَليّةِ. يُطالِبُ بِتَجريمِ التَّفكيرِ الحُرِّ الذي يُهَدِّدُ استِقرارَهُ النَّفسيَّ الهَشَّ، كَما جُرِّمَ الشَّكُّ والنَّقدُ اللّذانِ هَدَّدا يَقينَهُ المُصَنَّعَ. هوَ لا يُريدُ الحَقيقةَ، كَما لَمْ يُرِدِ العقلُ الهَشُّ الحُرّيّةَ، بلْ يُريدُ أنْ تَبقى الأوهامُ التي صَنَعَ حَولَ نَفسِهِ آمِنةً، مُحَصَّنةً، كَما أرادَ أنْ يَبقى قَفَصُهُ الذَّهَبيُّ آمِنًا ومُغلَقًا. مَحميّةً منْ أيِّ ريحِ تَغييرٍ، كَما كانتِ النُّصوصُ مَحميّةً مِنْ أيِّ تَأويلٍ جَديدٍ. بِلا تَشكيكٍ أوْ مُساءَلةٍ، كَما كانتِ الطّاعَةُ المُكتَسَبةُ بِلا نَقدٍ أوْ مُراجَعةٍ. يُريدُ أنْ يَعيشَ أبَدًا في عالَمِهِ المُعلَّبِ، الصَّغيرِ، المُغلَقِ، كَما عاشَ في إطارِهِ المَوروثِ الضَّيِّقِ. عالَمٌ مُحَصَّنٌ منَ الأسئلةِ المُقلِقةِ، كَما كانَ مُحَصَّنًا منَ الفَراغِ المُخيفِ. ولِهذا فَهُوَ يُهاجِمُكَ بِعُنفٍ، يُهاجِمُ كُلَّ صَوتٍ حُرٍّ، كَما هاجَمَ المُختلِفَ مِنْ قَبْلُ في هُجومِهِ البَدائِيِّ. فَلَوْ كانَ يَملِكُ حُجَجًا مَنطقيّةً لاسْتَخدَمَها، كَما لَوْ كانَ يَملِكُ جَوابًا لَأجابَ. لكِنّهُ لا يَملِكُ شَيئًا سِوى الانفعالِ الأعمى، والصُّراخِ الهِستيريِّ، كَما لَمْ يَملِكْ مِنْ قَبْلُ سِوى الخَوفِ المُقَنَّعِ بِالغَضَبِ. لِأنَّ ما يُؤمِنُ بِهِ بِتَعصُّبٍ ليسَ مَبنيًّا على تَفكيرٍ ناقِدٍ، كَما لَمْ يَكُنْ مَبنيًّا على وَعيٍ حَقيقيٍّ. بلْ مَبنيٌّ على تَكرارٍ بَبَّغائِيٍّ، كَما كانَ مَبنيًّا على التَّلقينِ القَسريِّ. على تَرديدِ شِعاراتٍ جَوفاءَ حَفِظَها دونَ أنْ

يَفهَمها، كَما رَدَّدَ أوامِرَ ونَواهيَ دونَ أنْ يُدرِكَ مَغزاها. على وَلاءٍ أعمى، ذَليلٍ، لِخِطابٍ سائدٍ اعتَنَقَهُ دونَ أنْ يَختَبِرَهُ أوْ يُسائِلَهُ، كَما اعتَنَقَ النِّظامَ القائِمَ دونَ أنْ يَنقُضَهُ أوْ يُشَكِّكَ فيهِ. ولِهذا، فَإنَّ أيَّ تَحدٍّ لِهذا الخِطابِ، أيَّ مُساءَلةٍ لَهُ، هوَ في نَظَرِهِ تَحدٍّ لِوُجودِهِ نَفسِهِ، كَما كانَ تَحدّي الوَهْمِ الحَيَويِّ تَهديدًا لِكَينونَتِهِ. يُريدُكَ أنْ تَصمُتَ، أنْ تَخرَسَ، كَما أرادَ السّائِلَ أنْ يَصمُتَ، ليسَ لِأنّهُ لا يُريدُ سَماعَ ما تَقولُ، بلْ لِأنّهُ لا يُريدُ، لا يَستطيعُ، سَماعَ صَوتِ الشَّكِّ الذي تُوقِظُهُ في داخِلِهِ، كَما لَمْ يُرِدْ سَماعَ صَوتِ شَكِّهِ هوَ مِنْ قَبْلُ. لِأنَّ كَلماتِكَ الحُرّةَ تَزرَعُ الشَّكَّ المُقْلِقَ في عَقلِهِ المُغلَقِ، كَما يَزرَعُ النُّورُ الفَزِعَ في عَينِ الخُفّاشِ. تَطرُقُ بِقُوّةٍ بابًا ظَلَّ مُوصَدًا بِإحكامٍ لِزَمَنٍ طَويلٍ، كَما طَرَقَ السُّؤالُ بابَ اليَقينِ المُوصَدِ. بابًا لَوِ انْفَتَحَ، لَأحْرَقَهُ نُورُ الحَقيقةِ الكاشِفِ، كَما أحْرَقَ الفَراغُ المُطلَقُ أمانَهُ المَوهومَ. هذا الاستِبدادُ المُنْعَكِسُ، الذي يَنبُعُ منْ قَلبِ القَهْرِ، والذي رأيناهُ يَتَجَلّى في الطّاعَةِ المُكتَسَبةِ، ليسَ مُجَرَّدَ رِدّةِ فِعلٍ دِفاعيّةٍ كَما قَدْ يُظَنُّ، بلْ هوَ تَعبيرٌ صارِخٌ عنِ العقلِ المَقهورِ كَسَجّانٍ قاسٍ لِلآخَرينَ، كَما كانَ سَجّانًا لِنَفسِهِ. يُعيدُ إنتاجَ الدَّورةِ المُغلَقةِ لِلقَهْرِ والعُبوديّةِ، كَما أعادَ إنتاجَ الخَوفِ والوَهمِ، لِأنّهُ لا يَملِكُ شَيئًا سِوى أوهامِهِ التي يَتَشَبَّثُ بِها، كَما لَمْ يَملِكْ سِوى خَوفِهِ الذي يُكَبِّلُهُ.

وهذا العقلُ، الذي تَحَوَّلَ بِفِعلِ القَهْرِ المُزمِنِ منْ مَقهورٍ بائسٍ إلى مُستَبِدٍّ قاسٍ، منْ خائِفٍ مُرتَعِدٍ إلى حارِسٍ شَرِسٍ على أسوارِ الوَهْمِ، لا يَسعى إلى فَهمِ العالَمِ بِعُمْقٍ وتَجَرُّدٍ، كَما لَمْ يَسْعَ العقلُ الهَشُّ إلى فَهمِ الفَراغِ أوِ التَّعايُشِ مَعَهُ. بلْ يَسعى بِعُنفٍ إلى إخضاعِهِ لِأوهامِهِ، كَما أخْضَعَ نَفسَهُ مِنْ قَبْلُ لِسُلطَةِ النُّصوصِ والقَوالِبِ الجاهِزةِ. يُحَصِّنُ أوهامَهُ المُتَهافِتَةَ بِالرَّفضِ العَنيدِ لِكُلِّ ما يُخالِفُها، كَما حَصَّنَ يَقينَهُ الهَشَّ بِالخَوفِ منَ الشَّكِّ والنَّقدِ. يُحيطُها بِجُدرانٍ سَميكةٍ منَ التَّكرارِ البَبَّغائِيِّ والتَّلقينِ المُستَمِرِّ، كَما أحاطَ قَفَصَهُ الذَّهبيَّ بِجُدرانِ الطّاعَةِ والخُضوعِ. لِأنَّ أيَّ شَقٍّ، أيَّ ثُغْرَةٍ، في هذهِ الجُدرانِ الوَهميّةِ، يَعني بِالنِّسبةِ لَهُ انهِيارَ السِّجنِ المُدافِعِ عنْ نَفسِهِ بِشَراسَةٍ، كَما كانَ يَعني انهِيارَ النِّظامِ بِأكمَلِهِ. يَرى في كُلِّ سُؤالٍ جَريءٍ تَهديدًا مُباشِرًا لِكَينونَتِهِ، كَما رَأى في كُلِّ نَقدٍ لاذِعٍ كُفرًا وزَنْدَقةً. في كُلِّ فِكرةٍ جَديدةٍ خَطَرًا داهِمًا يُهَدِّدُ استِقرارَهُ، كَما رَأى في كُلِّ تَغييرٍ فَوضى عارِمةً. في كُلِّ مُختَلِفٍ عنهُ عَدُوًّا لَدودًا يَجِبُ سَحقُهُ، كَما رَأى في كُلِّ سائِلٍ خائِنًا مُتآمِرًا. لِأنَّ هذهِ الأوهامَ المُحَصَّنةَ ليستْ مُجَرَّدَ أفكارٍ عَقلانيّةٍ يُمكِنُ نِقاشُها، كَما لَمْ تَكُنِ النُّصوصُ المُقَدَّسةُ مُجَرَّدَ كَلماتٍ يُمكِنُ تَأويلُها. بلْ هيَ هُوِيَّتُهُ ذاتُها، الهُوِيَّةُ الهَشّةُ التي بَناها على رِمالِ التَّلقينِ المُتَحَرِّكةِ، كَما بَناها مِنْ قَبْلُ على صُخورِ الخَوفِ الحارِسِ المُتَوَهَّمةِ. لَوْ سَقَطَتْ

هذه الأوهامُ، لَما تبَقّى مِنهُ شَيءٌ يُذكَرُ، لتَلاشى في الفَراغ، كَما لَمْ يَتَبَقَّ منَ القَصرِ القَديمِ شَيءٌ بَعدَ انهيارِه. ولهذا فَهُوَ يُقاتِلُ بِاستماتةٍ ليُحافظَ عليها، ليَحميَها منَ الانهيار، كَما قاتَلَ ليُحافظَ على تماسُكِ الجَماعةِ أوِ القَطيع. ليسَ بِقُوَّةِ الحُجَجِ والبَراهينِ، فَهُوَ لا يَملِكُها، كَما لَمْ يَمْلُكِ المَنطقَ أوَ الدَّليلَ. بلْ بِالصُّراخِ الهِستيريِّ على الفَراغ، كَما كانَ يُمارِسُ الصُّراخَ على الشَّكِّ والنَّقد. يُطالِبُ بإِحراقِ الكُتُبِ التي تَفضَحُ جَهلَهُ، لأنّها تُظهِرُ فَراغَهُ الدّاخليَّ، كَما طالَبَ بإحراقِ الأسئلةِ لأنّها كَشَفَتْ قَيدَهُ. يُطالِبُ بتكميمِ الأفواهِ الحُرَّةِ، لأنّها تُعَرّي هَشاشَتَهُ وعَجزَهُ، كَما طالَبَ بتكميمِ النّاقدِ لأنّهُ عَرّى خَوفَهُ. يُطالِبُ بتَجريمِ التَّفكيرِ النّاقدِ، لأنّهُ يُزلزِلُ أركانَ أوهامِهِ المُقَدَّسة، كَما جَرَّمَ الشَّكَّ لأنّهُ زَلزَلَ يَقينَهُ المُصنَّعَ. هذهِ الأوهامُ المُحَصَّنةُ بِجُدرانِ الخَوفِ والتَّعصُّبِ، التي رأيناها تَتَجَلّى في الثِّقةِ المُهتَزِئةِ والغُرورِ الأجْوَف، ليستْ مُجَرَّدَ آليّةٍ دِفاعيّةٍ كَما قَدْ يُظَنُّ في نَظرةٍ سَطحيّةٍ، بلْ هيَ سِلاحٌ فَتّاكٌ للاستبدادِ المُنْعَكِسِ، كَما كانتْ سِلاحًا لِتَثبيتِ الطّاعةِ والخُضوعِ. تُحَوِّلُ العقلَ المَقهورَ إلى أداةٍ قَمْعيّةٍ للقَهْرِ المُتَجَدِّدِ، كَما حَوَّلَتِ الخَوفَ إلى أداةٍ لِضَمانِ استِقرارِ النِّظامِ الظّالِمِ. لا يَحمي نَفسَهُ فَقَطْ مِنْ خِلالِها، بلْ يُهاجِمُ بِضَراوةٍ كُلَّ مَنْ يُخالِفُهُ أو يَكشِفُ زَيفَهُ، كَما هاجَمَ المُختلِفَ والجَريءَ. لأنَّ حُرّيّةَ الآخَرينَ تُذَكِّرُهُ بِعُبوديّتِهِ المُخْجِلةِ، كَما ذَكَّرَهُ الشَّكُّ بِقَيدِهِ الذي يُنكِرُهُ.

يُريدُكَ أنْ تَصمُتَ، أنْ تبتَلِـعَ لِسانَكَ، كَما أرادَ الصَّوتُ المُستَعمِرُ في داخِلِهِ أنْ تَصمُتَ وتُطيعَ. لأنَّ صَمتَكَ يُعيدُ إليهِ السَّيطَرةَ المَوهومةَ على العالَمِ، كَما أعادَتِ الطّاعَةُ النِّظامَ إلى الجَماعة. يُعيدُ إليهِ الطُّمأنينةَ الزّائفةَ التي يَتَغَذّى عليها ويَعيشُ مِنْ أجلِها، كَما أعادَتْ لهُ الأوهامُ أمانَهُ المَفقودَ. لأنَّ صَوتَكَ الحُرَّ ليسَ مُجَرَّدَ كَلِماتٍ تَتَناثَرُ في الهَواءِ، كَما لَمْ يَكُنِ السُّؤالُ مُجَرَّدَ كَلامٍ عابِرٍ. بلْ هوَ مِرآةٌ حادّةٌ، صَقيلةٌ، تُظهِرُ لهُ ما لا يُريدُ أنْ يَراهُ في ذاتِهِ، ما يَهرُبُ مِنهُ بِكُلِّ قُواهُ، كَما كانَ الفَراغُ مِرآةً لِعَبَثِه. يُظهِرُ لهُ الشُّكوكَ العَميقةَ التي دَفَنَها حَيّةً في قَبوٍ لا وَعيِهِ، كَما أظْهَرَتِ التَّحَوُّلاتُ الأخلاقيّةُ ما كانَ يَتَجاهَلُهُ بِعِنادٍ. يُظهِرُ لهُ الحَقائقَ القاسيةَ التي رَفَضَها وأنكَرَها، كَما رَفَضَ النَّقدَ وتَجَنَّبَ المُواجَهةَ. يُظهِرُ لهُ العقلَ الحُرَّ الذي لَمْ يَجرُؤْ على امتلاكِهِ أو تَحَمُّلِ عِبئِهِ، كَما لَمْ يَجرُؤْ على مُواجَهةِ الوَعيِ بِكامِلِ قَسوَتِه. ولهذا، فَإنَّ هذا الصَّمتَ المَطلوبَ مِنْكَ ليسَ مُجَرَّدَ رَغبةٍ طُفوليّةٍ في الهُدوءِ أوِ تَجَنُّبِ الجِدالِ كَما قَدْ يُظَنُّ. بلْ هوَ حاجَةٌ وُجوديّةٌ مُلِحّةٌ، شَرطٌ أساسيٌّ لِبَقاءِ وَهمِهِ، كَما كانتِ الطّاعَةُ حاجَةً لِبَقاءِ النِّظام. لأنَّ كَلِماتِكَ الحُرّةَ تُحرِّكُ ما ظَلَّ ساكِنًا، راكِدًا، في مُستنقَعِ يَقينِهِ، كَما حَرَّكَ السُّؤالُ ما كانَ مُوصَدًا في خِزانةِ المُسلَّماتِ. تُوقِظُ ما ظَلَّ

نائمًا، مُخَدَّرًا، في سُباتِهِ العَقليّ، كَما أيقَظَ النُّورُ ما كانَ غارِقًا في الظَّلامِ. تُهدِّدُ الأوهامَ الهَشّةَ التي يَعيشُ داخِلَها ويَتَشَبَّثُ بِها كَغَريقٍ، كَما هَدَّدَ الشَّكُّ إطارَهُ المَوروثَ وأُسسَهُ المُتَهاويةَ. فَهُوَ لا يَملِكُ رَدًّا مَنطقيًّا، لِأَنّهُ لا يَملِكُ تَفكيرًا حُرًّا، كَما لَمْ يَملِكْ جَوابًا شافِيًا لِأَنّهُ لَمْ يَملِكْ شَكًّا أصيلاً. لا يَملِكُ حُجّةً قَويّةً، لِأَنّهُ لا يَملِكُ مَنطِقًا مُتَماسِكًا، كَما لَمْ يَملِكْ نَقدًا بَنّاءً لِأَنّهُ لَمْ يَملِكْ وَعيًا مُتَجَرِّدًا. بلْ يَملِكُ فَقَطْ انفعالاً أعمى، غَضَبًا هِستيريًّا، كَما امتَلَكَ خَوفًا بَدائيًّا. يَملِكُ صُراخًا أجْوَفَ، كَما امتَلَكَ تَهديدًا فارِغًا. يَملِكُ هُجومًا وَحشيًّا، كَما امتَلَكَ عِقابًا قاسيًا. ولَوْ استَطاعَ، لَوْ مُنِحَ القُوّةَ والسُّلطانَ، لَما اكتَفى بِمُطالَبَتِكَ بِالصَّمتِ كَما لَمْ يَكتَفِ بِالرَّفضِ القَلبِيّ، بلْ لَأجبَرَكَ عليهِ إجبارًا، كَما أُجبِرَ المُخالِفُ على الطّاعَةِ. بِالقُوّةِ الغاشِمةِ، كَما كانَ بِالخَوفِ المُطْبِقِ. بِالعُنفِ الدّامي، كَما كانَ بِالنِّظامِ القاهِرِ. بِالسِّجنِ المُظلِمِ، كَما كانَ بِالقَفَصِ الذي لا نَوافِذَ لَهُ. لِأَنَّ صَمتَكَ ليسَ مُجَرَّدَ غِيابٍ لِصَوتِكَ، كَما لَمْ يَكُنْ غِيابُ السُّؤالِ مُجَرَّدَ سُكونٍ. بلْ هوَ بَقاءُ عالَمِهِ المُعلَّبِ آمِنًا، كَما كانَ بَقاءَ النِّظامِ ضَروريًّا. بَقاءُ أوهامِهِ المُحَصَّنةِ سالِمةً، كَما كانَ بَقاءُ الخَوفِ ضَمانًا لِلطّاعَةِ. بَقاءُ الاستِبدادِ المُنْعَكِسِ الذي يُغذّي دائِرةَ القَهْرِ ويُديمُها، كَما أغذاها التَّلقينُ الأعمى. هذا الصَّمتُ المَطلوبُ، الذي رأيناهُ يَنبُعُ منَ الهُجومِ البَدائِيِّ والخَوفِ المُقَنَّعِ، ليسَ مُجَرَّدَ أمنيَةٍ لِعقلٍ مُتعَبٍ، بلْ هوَ ضَرورةٌ وُجوديّةٌ لِلعقلِ الهَشِّ، كَما كانتِ الطّاعَةُ ضَرورةً لِبَقاءِ الجَماعَةِ الخائِفةِ. يُحافِظُ على سِجنِهِ المُغلَقِ، كَما حافَظَ على قَيدِهِ المُقدَّسِ. لِأَنَّ انفِتاحَ البابِ، وَلَوْ قَليلاً، يَعني احتِراقَهُ بِنُورِ الحَقيقةِ الكاشِفِ، كَما كانَ يَعني احتِراقَهُ بِنارِ الحُرِّيّةِ التي لا يَعرِفُها.

ولكِنْ، عَلَيَّ الآنَ أنْ أتَوقَّفَ عنِ الكِتابةِ إلى هذا الحَدِّ، أنْ أُخمِدَ، وَلَوْ قَسرًا، هذا التَّيّارَ القَلِقَ، المُتَدفِّقَ بِالمَرارةِ، منَ الأفكارِ التي خِلْتُها يَومًا سُيولاً جارِفةً قادِرةً على هَدمِ جُدرانِ تِلكَ العُقولِ المُستأجَرَةِ، المُتَهالِكةِ كَقُبورٍ مَنسيّةٍ. فَما سُطِّرَ هُنا يَكفي، بَلْ يَزيدُ، كَشاهِدٍ صامِتٍ، حَزينٍ، على جُهدٍ مَضْنٍ يَذوبُ في هَواءٍ لا يَحْمِلُ الصَّدى، ومُحاوَلةِ إصلاحٍ لِمَنْ لا يُريدونَ الإصلاحَ، ليستْ سِوى إضاعةٍ كَبيرةٍ لِلوَقتِ الثَّمينِ والعُمْرِ القَصيرِ. نَفثةُ حَياةٍ تُهدَرُ في بِئرٍ سَحيقةٍ لا قَرارَ لَها ولا ماءَ. سَعيٌ نَبيلٌ، لكِنّهُ عَبثيٌّ، يَتَلاشى كَخَيطِ دُخانٍ في الرِّيحِ، تَقطَعُهُ رُطوبةُ اللّامُبالاةِ وصَدأُ التَّحَجُّرِ قَبلَ أنْ يُربَطَ بِأيِّ أملٍ أوْ غايةٍ. النّاسُ، في غالِبِهِمُ الأعمِّ، لا يُريدونَ أنْ تُصلِحَ حَياتَهُمْ المُتَداعيةَ، لا يَرفَعونَ أعيُنَهُمْ الذّابِلةَ طَمَعًا في يَدٍ حانِيةٍ تُنقِذُهُمْ منْ سِجنِ أنفُسِهِمْ، لا أحَدَ في هذا الزَّحامِ يُنشِدُ حَقًّا أنْ تُحَلَّ مَشاكِلُهُمْ المُزمِنَةُ كَأحجارٍ ثَقيلةٍ تَتَراكَمُ على صُدورٍ مُتعَبةٍ، أوْ أنْ تُفَكَّ دِراماتُهُمْ المُتَكَرِّرةُ كَحِكاياتٍ بالِيةٍ تَتَكَرَّرُ حتّى أنْهَكَتْ رُواتَها

وسامِعيها، أوْ أنْ تُزالَ انحرافاتُهُمْ كَمَساراتٍ تائِهةٍ في صَحراءَ لا تَعرِفُ نُقطةَ بِدايَتِها أوْ وِجهةَ نِهايَتِها، أوْ أنْ يُبَدَّدَ جَهلُهُمْ المُطْبِقُ كَضَبابٍ سَميكٍ يُخفي وَجهَ الحَقيقةِ بِعَمْدٍ وإصرارٍ، أوْ أنْ تُفَكَّكَ عُقَدُهُمُ النَّفسيّةُ المُستَعصِيةُ كَحِبالٍ قَديمةٍ مُلتَفّةٍ بِإحكامٍ حَولَ أعناقٍ لا تَدري أنّها تُشنَقُ بِبُطءٍ، أوْ أنْ تُنَظَّمَ فَوضاهُمُ الدّاخليّةُ العارِمةُ كَأوراقٍ مُبَعثَرةٍ في الرّيحِ تَرفُضُ أنْ تُجمَعَ في كِتابٍ ذي مَعنًى، أوْ أنْ تُعادَ صِياغةُ أفكارِهِمُ المُشَوَّشةِ، المُستَعارةِ، كَأصداءٍ باهِتةٍ تَرفُضُ أنْ تُسمَعَ بِوُضوحٍ أوْ تُفهَمَ بِعُمْقٍ. فَماذا سَيَتَبَقّى لَهُمْ حِينَها، لَوْ حَدَثَ ذلكَ المُستَحيلُ؟ لا شَيءَ سِوى رُعبٍ كَبيرٍ، مَجهولٍ، كاسِحٍ، يَتَرَبَّصُ بِهِمْ كَشَبَحٍ أسودَ يَنتَظِرُ في زاويةٍ مَهجورةٍ لِيَنقَضَّ عَلَيهِمْ. ثِقَلٌ هائِلٌ يُطبِقُ على أرواحِهِمْ الهَشّةِ كَسَقفٍ حَجَريٍّ يَنهارُ بِبُطءٍ صامِتٍ فَوقَ رُؤوسٍ لا تَهرُبُ ولا تَصْرُخُ. فَراغٌ مُطلَقٌ يَمتَدُّ أمامَهُمْ إلى ما لا نِهايةَ، كَصَحراءَ جَليديّةٍ لا ظِلَّ فيها يُؤوي ولا ماءَ يُروي. صَمتٌ كَونيٌّ مُطْبِقٌ يُحاصِرُهُمْ كَجِدارٍ زُجاجيٍّ لا يُخْتَرَقُ ولا يُرى مِنْ وَرائِهِ أيُّ بَصيصِ نُورٍ. إنّهُمْ يَعيشونَ بِطُمأنينةِ الأمواتِ في أقفاصِهِمُ الضَّيّقةِ، لِأنّها المَأوى الوَحيدُ الذي يَفهَمونَهُ ويَألَفونَهُ. يَتَمَسَّكونَ بِأوهامِهِمُ الباليةِ كَحَبلٍ بالٍ يَظُنّونَهُ نَجاةً مِنْ غَرَقٍ مُحَقَّقٍ، بَينما هوَ يُطبِقُ على أنفاسِهِمُ الأخيرةِ. يُكَرِّرونَ فَوضاهُمْ كَطَقسٍ يَائِسٍ يُعيدُ تَشكيلَ ذَواتِهِمُ المُبَعثَرةِ، لِأنَّ هذا الاضطرابَ المُزمِنَ هوَ نَسيجُهُمُ الوَحيدُ الذي يَعرِفونَهُ، هذا الجَهلَ المُطْبِقَ هوَ دِرعُهُمُ المُهتَرِئُ الذي يَحتمونَ بِهِ، هذهِ العُقَدَ المُستَعصِيةَ هيَ ما يُثبِتُ وُجودَهُمْ في عالَمٍ يَرفُضونَ فَهمَهُ ويَخافونَ مُواجَهَتَهُ. أنْ تُحَرِّرَهُمْ مِنْ كُلِّ هذا، يَعني أنْ تُجَرِّدَهُمْ مِنْ كُلِّ ما يَعرِفونَهُ عَنْ أنفُسِهِمْ وعنِ العالَمِ، أنْ تُلقيَ بِهِمْ عُراةً، مُرتَعِشينَ، في بَحرٍ هائِجٍ لا شاطِئَ لهُ وهُمْ لا يَملِكونَ أشرِعَةً لِلتَّوجيهِ ولا مَجاديفَ لِلتَّجديفِ، أنْ تُعَرِّيَهُمْ بِقَسوةٍ أمامَ مِرآةِ الحَقيقةِ التي لا يُطيقونَ رُؤيَةَ انْعِكاسِهِمُ البَشِعِ فيها. وأيُّ مُحاوَلةٍ لِإنقاذِهِمْ أوْ تَنويرِهِمْ تُشبِهُ رَذاذَ مَطَرٍ صَيفيٍّ خَفيفٍ يَتَبَخَّرُ في الهَواءِ الحارِّ قَبلَ أنْ يُلامِسَ أرضًا جَرداءَ، عَطْشى لِلحَقيقةِ ولكِنّها تَرفُضُها. فَمَا كُتِبَ لَهُمْ، في نِهايةِ المَطافِ، هوَ ما شَيَّدوهُ بِأيديهِمُ المُرتَعِشةِ مُنذُ أنْ اختاروا، بِجُبنٍ أوْ بِجَهلٍ، أنْ يَظلّوا أسْرَى لِأنفُسِهِمْ، عَبيدًا لِأوهامِهِمْ. وما اختاروهُ هوَ كُلُّ ما تَبَقّى لَهُمْ في عالَمٍ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فيهِ خِيارٌ آخَرُ سِوى أنْ يَكونوا عَبيدًا لِأوهامِهِمُ التي تَحميهِمْ وتَقتُلُهُمْ. وما أرَدْتُهُ أنا لَهُمْ، في غَمرةِ حَماسٍ زائِفٍ أوْ أمَلٍ طُفوليٍّ، كانَ مُجَرَّدَ حُلمٍ جَميلٍ لَمْ يُولَدْ قَطُّ في عُقولِهِمُ المُغلَقةِ، ولَنْ يُصبِحَ حَقيقةً بِفِعلِ كَلِماتي هذهِ، مَهما بَلَغَتْ مِنْ قُوّةٍ أوْ بَلاغةٍ. فَتَوَقَّفْ إذنْ، أيُّها القَلَمُ

المُتعَبُ، فَإنَّ العَبَثَ لا يُصلَحُ بِمَزيدٍ منَ العَبَثِ، والظَّلامَ الدّامِسَ لا يُنيرُهُ ضَوءُ شَمعةٍ واحِدةٍ، شَمعةٍ سَتُطفِئُها أنفاسُهُمُ المُثقَلةُ بِالخَوفِ قَبلَ أنْ تُضيءَ لَهُمْ أيَّ دَربٍ.

الفصل الختامي

الخاتمة

هَا نَحنُ نَقِفُ أخِيرًا على شَفيرِ هذهِ الرِّحلَةِ المُضنيةِ، وَسطَ رُكامِ الأفكارِ التي تَحَطَّمَتْ والمُسلَّماتِ التي تَصَدَّعَتْ وَأنا، كَكاتِبٍ لهذهِ السُّطورِ، لا أملِكُ مِنَ اليَقينِ أكثَرَ مِمّا كانَ لَدَيَّ عِندَ البِدايةِ، بَلْ رُبّما أقَلَّ.. لقدْ سِرْنا مَعًا في دَياجيرِ "العقلِ المَأسورِ"، وحَفَرْنا في طَبَقاتِهِ المُتَراكِمةِ كَطَبَقاتِ الجَليدِ، فَلَمْ نَجِدْ في الأعماقِ إلا مَزيدًا منَ القُيودِ لا الوُعودِ.

بَدأنا مِنْ حَيثُ يَبدأُ كُلُّ شَيءٍ: منْ وَهمِ الفَهمِ وصِناعَةِ الإدراكِ. رَأيْنا كَيفَ أنَّ إدراكَنا بِناءٌ مُعقَّدٌ تُشكِّلُهُ الوِراثةُ كَقَدَرٍ، وتُلوِّنُهُ الثَّقافةُ كَستارٍ، وتُقَيِّدُهُ اللُّغةُ كَسِوارٍ. فَلا نَدري حقيقة العالَمَ كما هوَ في جَوهَرِهِ المَجهولِ، بلْ كما تَسمَحُ لَنا أدواتُنا القاصِرةُ وأقفاصُنا المَوروثةُ بالوُصولِ.

ثُمَّ تَكَشَّفَ لَنا أنَّ هذا العقلَ، المُحاصَرَ بِحُدودِهِ، لا يَكادُ يُبصِرُ النُّورَ حتّى يُلْقَمَ الأوهامَ لُقْمًا، ويُسْقَى التَّلقينَ سُقْمًا. إنّهُ "الوَعي المُستعارُ" الذي لا يَنبُعُ مِنْ تَجرِبةٍ ذاتيّةٍ حُرّةٍ، بلْ يُصَبُّ فينا صَبًّا مِنْ قَوالِبَ جاهِزةٍ، مِنْ نُصوصٍ مُقدَّسةٍ ورُؤًى مُكدسةٍ، حتّى نُصبِحَ أصداءً لِأصواتِ الأمواتِ والأحياءِ. ويُحكَمُ هذا الأَسْرُ بِسَوطَي التَّرهيبِ والتَّرغيبِ، فَنَخشى الخُروجَ عنِ القَطيعِ ونَأمَلُ في النَّجاةِ والرَّخاءِ.

ولِكَسرِ هذهِ الأغلالِ، لمْ نَجِدْ سِلاحًا إلا الشَّكَّ المَنهجيَّ، كَمِشرَطِ جَرّاحٍ دَقيقٍ يُزيلُ الأورامَ. الشَّكُّ الذي يُجَرِّدُ الأفكارَ مِنْ قَداسَتِها، ويَضَعُ كُلَّ مُسلَّمةٍ أمامَ مَحكَمَةِ العقلِ الصّارِمَةِ بِلا إكرامٍ. لكِنَّ هذا

الشَّكَّ، كَما رأينا، ليسَ نُزهةً أوْ نَعيمًا مُقيمًا، بلْ يُلقي بِنا في وَجهِ "فَزَعِ الفَراغِ" المُخيفِ، ويُحَمِّلُنا "عِبءَ الحُرِّيّةِ" الذي يَقصِمُ الظَّهرَ ويَجعلُ المَصيرَ أليمًا.

وهُنا يَنكَشِفُ "مَأزِقُ الإدراكِ" بِكُلِّ قَسوَتِهِ: الحُرِّيّةُ التي نَشَدْناها مَسؤوليّةٌ ساحِقةٌ لِخَلقِ المَعنى في عالَمٍ صامِتٍ لا يُعطي مَعنًى أوْ حَميمًا. الوُجودُ، كَما اتَّضَحَ، يَسبِقُ الفَهمَ، والفِعلُ يَسبِقُ اليَقينَ ويُضحي يَتيمًا. وهذا المَأزَقُ قدْ يَدْفَعُ العقلَ الهَشَّ إلى أنْ "يُمزِّقَ ذاتَهُ" في دَوّاماتٍ مُهلِكةٍ: إمّا في لُجّةِ "السَّلْبِ المُطلَقِ" الذي يُفضي إلى العَدَمِ، أوْ في لَهيبِ "السَّعي المَحمومِ" وراءَ رَغَباتٍ لا تَعرِفُ الشِّبَعَ وتُقيمُ مَأتَمًا. أوْ قَدْ يَجِدُ العقلُ، بِحِكمةٍ نادِرةٍ، طَريقًا ثالِثًا في "التَّوَقُّفِ" عنِ الرَّكضِ العَبثِيِّ، وفي نِسيانِ الهَدَفِ الوَهميِّ، لِيَستَعيدَ حُضورَهُ في اللَّحْظَةِ الآنِيّةِ ولا يَكونَ سَقيمًا.

لكِنْ، حتّى هذا الحُضورُ لا يُلغي الجُرْحَ الأصليَّ، جُرحَ "عَذابِ الوَعي" ذاتِهِ. فَالتَّفكيرُ هوَ النّارُ التي تُضيءُ وتُحرِقُ، هوَ المِرآةُ التي تَكشِفُ وتُؤلِمُ، هوَ السِّجنُ الذي لا جُدرانَ لهُ ولكِنْ لا مَفَرَّ مِنهُ أوْ نَعيما. إنَّ وَعينا بِالمَوتِ، بِالزَّمَنِ، بِالعَجْزِ، بِالفَراغِ، بِاللّامَعنى، هوَ جَوهَرُ شَقائِنا السَّرمديِّ، هوَ الثَّمَنُ الباهِظُ لِكَونِنا بَشَرًا، لا حِكمةً ولا تَعليما. وكُلُّ مُحاوَلاتِ الهُروبِ التّاريخيّةِ - مِنْ أساطيرِ الدِّينِ إلى تَجريداتِ الفَلسفةِ، مِنْ جَمالِ الفَنِّ المُعَذَّبِ إلى إلهاءِ الحَداثةِ المُسمَّمِ - ليستْ إلا مُسكِّناتٍ لِأَلَمٍ مُقيمٍ، لا تُشفيهِ بَلْ تُخَدِّرُهُ وتَجعَلُهُ أليما.

وكُلُّ هذهِ الدُّروبِ الشّائِكةِ قادَتْنا إلى التَّشخيصِ النِّهائِيِّ لِلوَرَمِ المُستَشْري: "العُقولُ المُستأجَرَةُ" التي لا تَملِكُ ذاتَها، بَلْ تَسكُنُها أشباحُ الماضي وأصواتُ الحاضِرِ المُهيمِ، تُعيدُ إنتاجَ أَسْرِها بِلا فَهمٍ، وتُدافِعُ عنْ قَفَصِها بِتَعصُّبٍ أليمٍ، خَوفًا منْ حُرِّيّةٍ لا تَعرِفُها، أوْ فَراغٍ لا تُطيقُهُ وتُسَلِّمُ تَسليمًا. إنّهُ العقلُ الهَشُّ الذي يُنتِجُهُ الاستِبدادُ اليَوميُّ في كُلِّ إقليمٍ، فَيُصبِحُ أداةً لِلقَهرِ لا لِلتَّحريرِ المُستَديمِ.

ولا تَظُنّوا أنّني، بَعدَ كُلِّ هذا الحَفرِ والنَّبشِ والتَّفكيكِ، قَدْ وَجَدتُ الحَقيقةَ الخالِصَةَ أوِ المِفتاحَ الذَّهبيَّ لِلسِّجنِ الكَبيرِ. فَالوَهمُ الأكبَرُ هوَ الظَّنُّ بِأنَّ هُناكَ مِفتاحًا أصلاً، أوْ بابًا لِلخُروجِ النِّهائِيِّ. كُلُّ ما فَعَلْتُهُ هوَ أنّني حاوَلتُ أنْ أُحَدِّقَ بِشَجاعةٍ في قُضبانِ القَفَصِ الذي نَعيشُ فيهِ جَميعًا، وأنْ أُسَمّيَ الأشياءَ بِأسمائِها القاسيةِ، وأنْ أُعَرّيَ الآليّاتِ الخَفيّةَ التي تُشَكِّلُنا وتُقَيِّدُنا وتَخدَعُنا. فلمْ أكتُبْ لِأُقَدِّمَ عَزاءً، فَالعَزاءُ وَهمٌ آخَرُ، ولا لِأُعطيَ أمَلاً، فَالأمَلُ قَدْ يَكونُ أخطَرَ المُخَدِّراتِ. كَتَبتُ فَقَطْ لِأنَّ السُّؤالَ كانَ يَأكُلُني مِنْ داخِلٍ، ولِأنَّ الصَّمتَ كانَ خِيانَةً لِما رأيتُهُ بِعَينِ العقلِ المُعَذَّبِ.

الحَقيقةَ، كَما أدرَكْتُها، نادِرًا ما تَكونُ لَطيفةً أوْ مُريحَةً. إنّها كَالدَّواءِ المُرِّ، لا بُدَّ مِنْ تَجَرُّعِهِ لِتَبدأَ رِحلَةُ الشِّفاءِ، وَلَوْ كانَ الشِّفاءُ مُجَرَّدَ وَعيٍّ أكبَرَ بِالدّاءِ.